قتل الأمل

وليم بلوم

مؤلف كتاب (الدولة المارقة)

قتل الأمل

تدخلات العسكريين الأمريكيين ووكالة المخابرات المركزية منذ الحرب العالمية الثانية

نقله إلى العربية

أسعد كامل إلياس

العبيكان للنشر
Obeikan
Publishers & Booksellers

Original Title:

Killing Hope

by:

William Blum

Copyright © William Blum 2003

ISBN 1 - 84277 - 369 - 0 p. b

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition published by: Zed Books Ltd, UK.

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع زيد بوك - المملكة المتحدة

© **مكتبة العبيكان 1426هـ - 2005م**

المملكة العربية السعودية، شمال طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة، ص. ب. 62807 الرياض 11595

Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O. Box 62807, Riyadh 11595, Saudi Arabia

الطبعة العربية الأولى **1427هـ - 2006م**

ISBN 2 - 780 - 40 - 9960

ح مكتبة العبيكان، 1427هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بلوم، وليم

قتل الأمل. / وليم بلوم. - الرياض 1426هـ

384 ص؛ 16.5× 24 سم

ردمك: 2 - 780 - 40 - 9960

1 ـ الولايات المتحدة - العلاقات الخارجية - العالم الإسلامي 2 ـ الإسلام والغرب

أ. العنوان

ديوي: 327.73053 1427 / 3338

رقم الإيداع: 1426 / 3338

ردمك: 2 - 780 - 40 - 9960

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكيـة، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission of the publishers.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تاريخ مقتضب للحرب الباردة ومعاداة الشيوعية

خوفنا من أن تتمكن الشيوعية يوماً ما من الاستيلاء على معظم العالم قد أعمانا عن رؤية حقيقة أن معاداة الشيوعية قد فعلت ذلك.

مايكل بارنتي[(١)]

في أوائل أيام القتال في فيتنام خاطب ضابط من الفيتكونغ أسيره الأمريكي قائلاً: «كنتم في نظرنا أبطالنا بعد الحرب. نحن نقرأ كتباً أمريكية ونشاهد أفلاماً أمريكية، وكانت العبارة الشائعة بيننا في تلك الأيام هي «أن يكون المرء ثرياً وحكيماً كالأمريكي»، ماذا حدث»؟ [(٢)].

كان يمكن أن يُطرح على الأمريكي سؤال مماثل من قبل مواطن من غواتيمالا، أو من أندونيسيا، أو من كوبا خلال السنوات العشر السابقة، أو من قبل مواطن من الأوروغواي، أو تشيلي أو اليونان في العقد اللاحق من السنين. إن حسن النية والصدقية اللذين كانت الولايات المتحدة تتمتع بهما على الساحة الدولية على نحو ملحوظ عند نهاية الحرب العالمية الثانية قد تبددا في بلد بعد الآخر، ومن خلال تدخل بعد الآخر. أما فرصة إعادة بناء العالم الذي دمرته الحرب، من أجل إرساء أسس للسلام والازدهار والعدل، فقد انهارت تحت الوطأة المروعة لمعاداة الشيوعية.

كانت هذه الوطأة تتراكم منذ بعض الوقت، والحقيقة أنها كانت تتراكم منذ اليوم الأول للثورة الروسية. ومع حلول صيف العام ١٩١٨ كان ثمة وجود لنحو ١٣,٠٠٠ جندي أمريكي في اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية الوليد. بعد عامين،

وبعد سقوط آلاف الخسائر البشرية، رحل الجنود الأمريكيون بعد أن أخفقوا في مهمتهم وهي «وأد» الدولة البلشفية في المهد، على حد قول ونستون تشرشل [٣].

كان تشرشل الشاب آنذاك وزير الحرب والطيران في بريطانيا العظمى. وهو الذي تولى، على نحو متزايد، إدارة غزو الاتحاد السوفييتي من قبل الحلفاء (بريطانيا العظمى، والولايات المتحدة، وفرنسا، واليابان والعديد من الدول الأخرى)، التي آزرت «الجيش الأبيض» المناوئ للثورة. بعد انقضاء سنوات، سيحل تشرشل المؤرخ وجهات نظره في هذا الشأن الوحيد لتطلّع عليها الأجيال اللاحقة:

«هل كانوا (أي الحلفاء) في حالة حرب مع روسيا السوفييتية؟ بالتأكيد كلا، لكنهم كانوا يطلقون النار على الروس بمجرد رؤيتهم. كان موقفهم موقف غزاة على الأرض الروسية. سلحوا أعداء الحكومة السوفييتية. حاصروا موانئها وأغرقوا بوارجها. كانوا شديدي الرغبة في إسقاط هذه الحكومة وخططوا لإسقاطها. لكن الحرب - مسببة للصدمة! والتدخل - عارٌ! كانوا لا يفتؤون يكررون القول إن المسألة بالنسبة لهم مسألة عدم مبالاة بكيفية تسوية الروس لشؤونهم الداخلية. كانوا غير منحازين - مرحى!» [٤].

ماذا كان في الثورة البلشفية مما أرعب إلى هذا الحد أقوى دول العالم؟ ما الذي ساقها إلى غزو بلد كان جنوده إلى وقت قريب يقاتلون معهم جنباً إلى جنب لمدة أكثر من ثلاث سنوات ولحقت بهم خسائر بشرية تفوق خسائر أي بلد آخر في كلا جانبي الحرب العالمية؟.

كان البلاشفة قد بلغ بهم التهور حد عقد صلح منفرد مع ألمانيا للنأي بأنفسهم عن حرب اعتبروها حرباً إمبريالية وليست «حربهم» بأي حال، وليحاولوا إعادة بناء روسيا المنهكة إلى حد مرعب والتي سادها الدمار.

ولكن البلشفيك أظهروا جرأة «أكثر بكثير عندما أطاحوا بنظام رأسمالي إقطاعي» وأعلنوا قيام أول دولة اشتراكية في تاريخ العالم. كان ذلك وثيقة غرور

شديد إلى حد لا يصدق. وكانت هذه هي الجريمة التي ترتب على الحلفاء أن يعاقبوا مرتكبيها، والفيروس الذي كان لابد من القضاء عليه خشية أن يمتد إلى شعوب الحلفاء.

لم يحقق الغزو هدفه المباشر، ولكن عواقبه كانت مع ذلك عميقة واستمرت حتى يومنا هذا. لقد قال البروفسور د. ف. فليمنغ، مؤرخ الحرب الباردة في جامعة فاندربليت Vanderbilt ما يلي:

«بالنسبة إلى الشعب الأمريكي لم يكن ثمة وجود للمأساة الكونية الناجمة عن التدخلات في روسيا، أو أنها كانت في نظره حادثاً غير ذي أهمية طواه النسيان منذ زمن طويل. أما بالنسبة للشعوب السوفييتية وقادتها فقد كانت تلك الفترة زمناً من القتل غير المحدود والنهب والسلب والأوبئة والمجاعة والمعاناة التي لا حدود لها بالنسبة لعشرات الملايين. إنها تجربة كانت تحرق روح أمة ولم يكن بالإمكان نسيإنها لأجيال، هذا إذا أمكن نسيانها. كذلك كان مبرر النظام السوفييتي القاسي خلال سنوات هو فقط الخوف من أن تعود الدولة الرأسمالية لإكمال العمل الذي بدأته. فلا غرابة أن رئيس الوزراء خروتشوف أعاد إلى ذاكرتنا في خطابه الذي ألقاه في نيويورك يوم ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٩ تلك التدخلات، «أي الزمن الذي أرسلتم فيه جنودكم لإخماد الثورة»، على حد قوله [٥].

في تقرير للبنتاغون صدر في عام ١٩٢٠ جاء ما يلي، وهو ما يعتبر مؤشراً على عدم حساسية القوة العظمى: «إن هذه الحملة قدمت لنا أروع الأمثلة في التاريخ عن التعامل الشريف البعيد عن الأنانية.. في ظروف صعبة للغاية من أجل أن نتمكن من مساعدة شعب يكافح لتحقيق حرية جديدة [٦]. يخبرنا التاريخ ماذا كان من شأن الاتحاد السوفيتي أن يبدو الآن لو سُمح له بأن يتطور بطريقة (عادية) من اختياره. بيد أننا نعرف طبيعة اتحاد سوفيتي هوجم في مهده ونشأ وحيداً في عالم بالغ العداء له، ومن ثم نجح في البقاء على قيد الحياة حتى بلغ سن اليفاعة ثم اجتاحته

آلة الحرب النازية بمباركة من الدول الغربية. إن ما ترتب على ذلك من انعدام الأمن والمخاوف أدى لا محالة إلى تشوهات في الطبع شبيهة بما يصيب فرداً نشأ بطريقة مماثلة مهددة لحياته.

نحن في الغرب لم يُسمح لنا إطلاقاً أن ننسى العيوب السياسية (الحقيقية منها والزائفة) للاتحاد السوفييتي، وفي الوقت ذاته لم يجرِ تذكيرنا إطلاقاً بالتاريخ الكامن خلف هذه العيوب. كانت الحملة الدعائية ضد الشيوعية قد بدأت قبل التدخل العسكري. وقبل نهاية العام ١٩١٨ كانت تعابير من مثل شريان «التهلكة الحمراء»، «الهجوم البلشفيكي على المدينة» و «ظهور خطر الحمر على العالم» قد أصبحت تشاهد دائماً على صفحات جريدة «نيويورك تايمز».

خلال شهري شباط (فبراير) وآذار (مارس) ١٩١٩ عقدت لجنة قضائية فرعية تابعة لمجلس الشيوخ الأمريكي جلسة رويت خلالها «قصص عديدة عن البلشفيك المرعبين».. إن طبيعة بعض الشهادات التي قدمت في الجلسة يمكن أن يكون مقياسها العنوان الرئيس الذي ظهر في جريدة «نيويورك تايمز» بتاريخ ١٢ شباط (فبراير) ١٩١٩ كالتالي:

وصف الأمور المرعبة تحت الحكم الأحمر.
عضوا مجلس الشيوخ أ. سيمونز و و. ويلش يرويان لأعضاء المجلس أعمال البلشفيك الوحشية - تعرية النساء في الشوارع - الناس من كل الطبقات ما عدا الحثالة يتعرضون للعنف على يد الغوغاء.

كتب المؤرخ فريدريك لويس شومان ما يلي: «كانت النتيجة الصافية لجلسات الاجتماع هذه هي رسم صورة لروسيا السوفييتية على أنها نوع من البلد التي يسودها الهرج والمرج، ويقطنه عبيد محبطون كلياً، ويعيشون تحت رحمة منظمة مؤلفة من المجانين القتلة الذين لا غاية لهم سوى تدمير كل أثر للمدنية والعودة بالدولة إلى زمن البربرية» [٧].

إذا أخذنا الأمور من الناحية الحرفية فما من رواية عن البلشفيك كانت مغرقة في اختلاقها أو غرائبيتها أو في تشويهها بحيث تطبع ويصدقها الناس على نطاق واسع - بدءاً من تأميم النساء وأكل الأطفال (على نحو ما كان الوثنيون الأوائل يعتقدون بأن المسيحيين مذنبون بالتهام أولادهم، وهذا الاعتقاد ذاته كان قائماً بالنسبة لليهود في العصور الوسطى). إن ما يُروى عن أن النساء بكل المعاني الملتبسة والفاقعة القائلة إنهن ملك للدولة، وعن الزواج الإجباري «وحرية الحب»، الخ.. «كانت تنشر عبر البلاد من خلال ألف قناة» حسب قول شومان. «وهذا ربما كان الأكثر تأثيراً من أي شيء آخر في تصوير الشيوعيين الروس في أذهان معظم المواطنين الأمريكيين كمنحرفين مجرمين» [٨] إن هذه الحكاية ظلت تلقى رواجاً كبيراً حتى بعد أن اضطرت وزارة الخارجية الأمريكية أن تعلن أن هذا كلام مزيف (إن القول بأن السوفييت يأكلون أطفالهم كان لا يزال مادة للتعليم من قبل جمعية جون بيرش John Birch لجمهورها الواسع على الأقل حتى عام ١٩٧٨) [٩].

مع حلول نهاية العام ١٩١٩، عندما ظهر احتمال هزيمة الحلفاء والجيش الأبيض عرضت جريدة «نيويورك تايمز» على قرائها عناوين وقصصاً كالتالي:

-٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٩: «الحمر يسعون للحرب مع أمريكا».

-٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠: «الأوساط الرسمية تصف خطر البلشفيك في الشرق الأوسط بأنه مقبل».

-١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠: «يرى مسؤولو ودبلوماسيو الحلفاء احتمالاً لغزو أوروبا».

-١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠: «الأوساط الدبلوماسية للحلفاء تخشى حدوث غزو لبلاد فارس».

-١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠: عنوان رئيسي على الصفحة الأولى وبعرض ثمانية أعمدة:

«بريطانيا تواجه حرباً مع الحمر وتدعو إلى انعقاد المجلس في باريس».

«دبلوماسيون حسنو الاطلاع يتوقعون غزواً عسكرياً لأوروبا وزحفاً سوفييتياً نحو شرق وجنوب آسيا».

غير أنه في صباح اليوم التالي أمكن قراءة ما يلي:

«لا حرب مع روسيا، والحلفاء سيتبادلون التجارة معها».

- ٧ شباط (فبراير) ١٩٢٠: «الحمر يشكلون جيشاً لمهاجمة الهند».

-١١ شباط (فبراير) ١٩٢٠: «ثمة خوف من أن يقوم البلشفيك الآن بغزو الأراضي اليابانية».

كان مطلوباً من قراء جريدة «نيويورك تايمز» أن يصدقوا أن كل هذه الغزوات قادمة من دولة كانت متشظية على نحو قلّ أن تعرضت لمثله دول أخرى عبر التاريخ، دولة كانت ما تزال في طور النقاهة بعد خروجها من حرب عالمية رهيبة، دولة كانت تعاني من فوضى شديدة من جراء ثورة اجتماعية أصولية في بداية عهدها، دولة كانت في خضم حرب أهلية وحشية ضد قوى تساندها الدول الكبرى في العالم، وصناعاتها التي لم تكن متقدمة أصلاً كانت آنذاك متهاوية، كما أن البلاد كانت تواجه مجاعة أدت قبل نهايتها إلى موت ملايين عديدة.

في العام ١٩٢٠ عرضت مجلة «ذا نيو ربيليك The New Republic» تحليلاً مطولاً للتغطية الإخبارية التي قدمتها جريدة «نيويورك تايمز» للثورة الروسية والتدخل في روسيا. في جملة الكثير مما عرضته المجلة ذكرت أن جريدة «نيويورك تايمز» قالت في العامين التاليين لثورة تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ما لا يقل عن ٩١ مرة «أن السوفييت كانوا يقتربون من نهاية حبل النجاة أو أنهم وصلوا إلى النهاية فعلاً» [١٠].

إذا كان هذا واقعاً حقيقياً ما عرضته «الجريدة الرئيسية» في الولايات المتحدة فإن المرء يستطيع أن يتخيل بأسىً المادة الساحرة التي كانت تغذي بها بقية الصحف الأمريكية قراءها.

إذن كانت هذه التجربة الأولى للشعب الأمريكي مع ظاهرة اجتماعية جديدة برزت في العالم، وكانت التربية التمهيدية للشعب الأمريكي بالنسبة للاتحاد السوفييتي أن هذا الشيء يدعى «شيوعية». إن الطلاب لم يستفيقوا أبداً من الدرس، كما أن الاتحاد السوفييتي لم يستفق منه.

لقد وصل التدخل العسكري إلى نهايته، ولكن باستثناء وحيد وجزئي يتمثل في مدة الحرب العالمية الثانية، لم تهدأ الحملة الدعائية، ففي عام ١٩٤٣ خصصت مجلة لايف Life عدداً كاملاً من أعدادها للإشادة بإنجازات الاتحاد السوفييتي تجاوزت كثيراً ما كان مطلوباً من جراء الحاجة إلى التضامن في زمن الحرب، إذ إنها ذهبت إلى حد وصف لينين بأنه «ربما كان أعظم رجل في الأزمنة الحديثة» (١١). غير أنه بعد مضي عامين عندما كان هاري ترومان سيد البيت الأبيض، لم يعد أمام الأخوّة فرصة للاستمرار، ذلك أن ترومان - على أية حال - قال في اليوم الذي تلا الغزو النازي للاتحاد السوفييتي: «إذا رأينا ألمانيا منتصرة علينا أن نساعد روسيا، وإذا كانت روسيا هي المنتصرة علينا أن نساعد ألمانيا، وبهذه الطريقة ندعهم يقتلون من بعضهم البعض أكبر عدد ممكن، ولو أنني لا أريد أن أرى هتلر منتصراً في أي حال من الأحوال» (١٢).

صفحات عديدة من الدعاية استخرجت من المعاهدة السوفييتية - الألمانية لعام ١٩٣٩، وما كان ذلك ممكناً إلا بالتجاهل التام لحقيقة أن الروس أرغموا على توقيع هذه المعاهدة بسبب الرفض المتكرر من قبل الدول الغربية، ولاسيما الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، أن يوحدوا الصف مع موسكو في وقفة ضد هتلر(١٣)، كما أن هذه الدول رفضت أن تبادر إلى مساعدة الحكومة الإسبانية ذات التوجه الاشتراكي التي كانت محاصرة من قبل الفاشست الألمان، والإيطاليين والإسبان منذ العام ١٩٣٦. لقد أدرك ستالين أنه إذا كان الغرب ممتنعاً عن إنقاذ إسبانيا فمن المؤكد أنه لن ينقذ الاتحاد السوفييتي.

اعتباراً من حالة الفزع من الحمر في العشرينيات من القرن العشرين، وإلى المكارثية في الخمسينيات من القرن نفسه وحتى حملة ريغان ضد «إمبراطورية الشر» في الثمانينيات من القرن العشرين كان الشعب الأمريكي يتعرض لعملية تلقين لا هوادة فيها ضد الشيوعية. كانت هذه العملية ترتشف مع لبن الأمهات، وتتمثل في صور الكتب الكاريكاتورية، وتجد شرحاً لها في الكتب المدرسية، وكانت عناوين الصحف اليومية تطلعهم على كل ما يحتاجون إلى معرفته، ورجال الدين يجدون فيها مادة لمواعظهم، ويتم انتخاب السياسيين على أساسها، وأصبحت مجلة «ريدرز دايجست» Readers Digest غنية بفضلها.

إن الاقتناع الراسخ الذي كان لا محالة أن تولّده هذه الهجمة الدفينة على العقل، هو الاقتناع بأن لعنة ضخمة قد حلت بالعالم، ربما كان مصدرها إبليس نفسه، ولكن بشكل أشخاص غير مدفوعين إلى هذا الاقتناع بالحاجات، والمخاوف، والعواطف ذاتها وبالأخلاقية الشخصية التي تتحكم بآخرين من النوع نفسه، بل هم أناس انخرطوا في مؤامرة دولية بالغة المهارة، أحادية الكيان ومكرسة للاستيلاء على العالم واستعباده لأسباب قد لا تكون دائماً واضحة، ولكن الشر لا يحتاج إلى دافع سوى الشر ذاته. علاوة على ذلك، فإن أي تظاهر من جانب هؤلاء الناس بأن يكونوا كائنات بشرية عقلانية ينشدون عالماً أو مجتمعاً أفضل، هو تظاهر زائف، أو هو تغطية لتضليل الآخرين ومجرد برهان على مهارتهم. إن أعمال القمع والقسوة التي حدثت في الاتحاد السوفييتي هي برهان دائم على إفلاس الفضيلة، وعلى النيات الشريرة لدى هؤلاء الناس في أي بلد كانوا، وبأي اسم اتخذوه لأنفسهم، وأهم من كل ذلك أن الخيار الوحيد المتاح لأي إنسان في الولايات المتحدة هو الخيار بين أسلوب الحياة الأمريكي وأسلوب الحياة السوفييتي، ولا شيء بين هذين الأسلوبين أو أبعد منهما لصنع العالم.

هكذا تبدو الأمور لبسطاء الناس في أميركا، ويجد المرء إنه عندما يجري - ولو قليلاً - سير المتحذلق تحت سطح لغته الأكاديمية يرى التشابه التام بين الأسلوبين.

بالنسبة للعقل الذي تتم تربيته بعناية حتى بلوغ مرحلة الشباب في الولايات المتحدة، فإن حقائق معاداة الشيوعية جلية بذاتها، كما كانت جلية بذاتها سطحية العالم ذات يوم للعقول السابقة، على نحو ما كان يعتقد الشعب الروسي أن ضحايا أعمال التطهير التي ارتكبها ستالين كانوا فعلاً مرتكبي جريمة الخيانة.

إن الشريحة التي قدمناها أعلاه من التاريخ الأمريكي يجب أن تؤخذ بالحسبان إذا أراد المرء أن يصل إلى فهم معقول لشطحات السياسة الخارجية الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية، وعلى وجه التحديد السرد الذي يقدمه هذا الكتاب لما فعلته الأجهزة العسكرية الأمريكية، والمخابرات العسكرية المركزية (CIA)، والفروع الأخرى للحكومة الأمريكية، لشعوب العالم.

في عام ١٩١٨ لم يكن أساطين رأس المال الأمريكي بحاجة إلى سبب لحربهم على الشيوعية سوى سبب الأخطار التي تهدد ثرواتهم وامتيازاتهم، بالرغم من أن معارضتهم كان يتم التعبير عنها بعبارات الاشمئزاز المعنوي.

خلال الفترة التي امتدت بين الحربين العالميتين نشطت الدبلوماسية المسماة دبلوماسية القوارب الحربية الأمريكية في البحر الكاريبي لكي تجعل «البحيرة الأمريكية» آمنة لفرص عمل شركة الفواكه الموحدة «United Fruit»، وشركة و.ر.غريس وشركاه «Grace & Co. R. W»، وفي الوقت ذاته حرصت هذه الدبلوماسية على التحذير من «التهديد البلشفيكي» لسائر الجهات المتمردة من أمثال الثائر النيكاراغوي (أوغستو سنديتو Augusto Sandino).

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية تعرض كل أمريكي تجاوز سن الأربعين لنحو خمس وعشرين سنة من الإشعاع المعادي للشيوعية، وهذه مدة تمثل وسطياً مدة الحضانة اللازمة لإنتاج مرض خبيث. إن معاداة الشيوعية طورت حياة لذاتها مستقلة عن أبيها الرأسمالي، وعلى نحو متزايد رأى صانعو السياسة والدبلوماسيون متوسطو العمر في فترة ما بعد الحرب، في العالم خارج بلدهم، عالماً مؤلفاً من

«شيوعيين» و «معادين للشيوعيين»، سواء أكانوا دولاً أم حركات أم أفراداً. إن هذه الرؤية الكاريكاتورية للعالم، رؤية الأمريكيين المتفوقين (Supermen) المكافحين للشر الشيوعي في كل مكان، قد تخرجوا من تمرين على الدعاية الصفيقة التي تقول بحتمية أخلاقية السياسة الخارجية الأمريكية.

حتى مفهوم «غير الشيوعي» الذي يعني ضمناً حداً ما من الحيادية قد مُنح بصورة عامة قدراً ضئيلاً من الشرعية في هذا المجال. «إن جون فوستر دلس .John Foster Dulles»، أحد أكبر مهندسي السياسة الخارجية الأمريكية بعد الحرب قد عبر عن ذلك بصورة ناجحة بطريقته المتسمة بالبساطة والنموذجية الأخلاقية، إذ قال: «بالنسبة لنا هنالك نوعان من الناس في العالم: هنالك أولئك الذين هم مسيحيون ويؤيدون حرية الاستثمار، وهنالك الآخرون» (١٤) وكما تؤكد الدراسات التي يحتويها هذا الكتاب، فإن دلس وضع هذه العقيدة قيد الممارسة الصارمة.

إن كلمة «شيوعي» (كما كلمة «ماركسي») قد بولغ في استعمالها وإساءة استعمالها من قبل القادة الأمريكيين والإعلام الأمريكي إلى حد جعلها واقعاً بلا معنى. (اليسار فعل الشيء ذاته مع كلمة «فاشستي»). ولكن مجرد وجود اسم لشيء ما - مثلاً الساحرات أو الصحون الطائرة - يعطيه قدراً معيناً من الصدقية.

في الوقت ذاته، كان الرأي العام الأمريكي - كما رأينا - قد جرت تهيئته تهيئة كاملة ليكون رد فعله بافلوفيانياً (Pavlovianly) نسبة إلى إيفان بافلوف (Ivan Pavlov)، على التعبير القائل: هذا مع ذلك يعني أسوأ تجاوزات ستالين بدءاً من عمليات التطهير الواسعة وحتى معسكرات العمل كالرقيق في سيبيريا. إنه يعني - على حد قول مايكل بارنتي (Michael Parenti) - أن: «التنبؤات الماركسية - اللينينية الكلاسيكية (فيما يخص الثورة العالمية) تُعامل وكأنها بيانات تعبر عن النية وتوجه كل «الأعمال» الشيوعية في زمننا الراهن» (١٥). إنها تعني: «نحن - ضدهم».

و «هم» يمكن أن تعني فلاحاً في الفلبين، أو رسام جداريات في نيكاراغوا، أو رئيس وزراء منتخباً بصورة شرعية في غويانا البريطانية، أو مفكراً أوروبياً، أو

محايداً في كمبوديا، أو شخصاً وطنياً إفريقياً، جميعهم - بشكل ما - جزء من المؤامرة الأحادية التكوين، وكل منهم - بطريقة ما - يهدد أسلوب الحياة الأمريكي، فما من أرض مهما صغرت مساحتها، أو اشتد فقرها، ومهما بعدت، إلا وتمثل هذا التهديد «التهديد الشيوعي».

إن الأهداف التي يعرضها هذا الكتاب تبين أنه لم يكن يهم إلى حد كبير أن الأحداث المحددة للتدخل - سواء أكانوا أفراداً، أو أحزاباً سياسية أو حركات أو حكومات - تسمي نفسها «شيوعية» أو لا تفعل ذلك، وكان أمراً قليل الأهمية أنهم أساتذة في المادية الديالكتيكية، أو أنه لم يسبق لهم إطلاقاً أن سمعوا باسم كارل ماركس، أو أنهم ملحدون أو رجال دين، وكان أمراً قليل الأهمية وجود أو عدم وجود حزب شيوعي قوي النفوذ في الصورة، أو أن حكومة ما تشكلت عن طريق ثورة عنيفة أو بواسطة انتخابات سلمية.. كل هؤلاء أهداف، وكلهم «شيوعيون».

وكان الأقل أهمية من كل ذلك أن جهاز المخابرات (الكي جي بي .K.G.B) السوفييتي كان في الصورة، وكثيراً ما كان يجري التأكيد أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) تنفذ أعمالها القذرة كرد فعل بصورة رئيسية على عمليات (الكي. جي. بي) التي هي «أكثر قذارة». هذه كذبة صيغت ضمن سلسلة أكاذيب.. ربما كانت هناك حادثة منعزلة من هذا القبيل في مجرى حياة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ولكنها أبقت نفسها مخفية تماماً. إن العلاقة بين الوكالتين الشريرتين اتسمت بالأخوّة والاحترام بين الرفاق المتهنين أكثر مما اتسمت بالصراع وجهاً لوجه. لقد كتب جون ستوكويل (John Stockwell) الضابط السابق في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ما يلي:

«في الواقع، وعلى أقل تقدير في العمليات التي يغلب عليها طابع الروتين، كان أشد ما يخشاه الضباط المكلفون بمهمات، هو السفير الأمريكي وأعضاء سفارته، ثم البرقيات المقيدة لأعمالهم الواردة من المقر الرئيسي، ثم الجيران الفضوليون الذين يحبون الثرثرة في المنطقة السكنية المحلية، باعتبار هؤلاء تهديداً محتملاً للعمليات،

بعد ذلك تأتي الشرطة المحلية، ثم الصحافة، بعد كل هؤلاء تأتي (الكي.جي.بي). فطوال عملي على مدى اثني عشر عاماً ضابطاً مسؤولاً لم أرَ ولم أسمع عن وضع هاجمت فيه ال- (كي. جي. بي) أو عرقلت عملية من عمليات وكالة المخابرات المركزية» [١٦].

يضيف ستوكويل أن مختلف أجهزة المخابرات لا تريد «تعقيد» عالمها بقتل بعضهم بعضاً.

«لا خلاف، فإذا فرغ دولاب سيارة أحد ضباط وكالة المخابرات المركزية من الهواء في ظلمة الليل وعلى طريق منعزل، فإنه لن يتردد في قبول دعوة من أحد ضباط (كي. جي. بي) لإيصاله بسيارته. إن ملفات وكالة المخابرات المركزية حافلة بذكر مثل هذه العلاقات في كل محطة إفريقية تقريباً».

إن دعاة «تبادل النار في القتال» يقتربون أحياناً إلى حد التهلكة بالقول إنه إذا كانت لجهاز (كي. جي. بي)، مثلاً، يد في الإطاحة بالحكومة التشيكوسلوفاكية عام ١٩٦٨، فلا بأس عندها أن تكون لوكالة المخابرات المركزية يد في الإطاحة بحكومة تشيلي عام ١٩٧٣. هكذا يبدو وكأن تدمير الديموقراطية من قبل (كي. جي. بي) هو بمثابة إيداع أموال في حساب أحد المصارف، تجد وكالة المخابرات المركزية عندئذ مبرراً لسحب مبالغ من هذا الحساب.

إذن، ما هو الخيط المشترك بين الأهداف المتباينة للتدخل الأمريكي الذي أنزل بهذه الأهداف غضب أقوى دولة في العالم، وفي كثير من الأحيان قوتها العسكرية؟ في كل قضية تقريباً لها علاقة بالعالم الثالث، جاء على ذكرها هذا الكتاب، كان الموضوع، بشكل أو بآخر، هو سياسة «تقرير المصير» أي «: الرغبة المتولدة من الحاجة الملحوظة والمبدأ، لسلوك طريق تنمية مستقل عن أهداف السياسة الخارجية الأمريكية». وهذا، في الأعمّ، تجلى في:

(أ) الطموح إلى التحرر من التبعية الاقتصادية والسياسية للولايات المتحدة.

(ب) رفض تقليص العلاقات مع الكتلة الاشتراكية، أو قمع اليسار في الداخل، أو الترحيب بمنشأة عسكرية أمريكية على أراضيها. باختصار رفض أن تكون بيدقاً في الحرب الباردة.

(ج) محاولة تبديل أو تغيير حكومة ليس لديها أي من هذه الطموحات، أي حكومة مدعومة من الولايات المتحدة.

غني عن التأكيد أن السياسة المستقلة هذه كانت في نظر وأقوال العديد من زعماء وثوريي العالم الثالث سياسة لا تتساوى تعريفاً بالعداء لأمريكا، أو بمحاباة الشيوعية، وإنما هي ببساطة تصميم على اتخاذ موقف الحياد وعدم الانحياز إزاء القوتين العظميين - بيد أنه سيظهر- تكراراً، أن الولايات المتحدة غير مستعدة للتعايش مع هذا الطرح.

إن اربنز (Arbenz) رئيس غواتيمالا، ومصدق في إيران، وسوكارنو في أندونيسيا، ونكروما في غانا، وجاغان (Jagan) في غويانا البريطانية، وسيهانوك ملك كمبوديا.. هؤلاء جميعاً أصروا على أن يلتزم العم سام بالإعلان - دون لبس أو مواربة - أن هذه البلدان هي في صف «العالم الحر» وإلا سيتحمل العواقب. لقد عرض نكروما قضية عدم الانحياز على النحو التالي:

«إن التجربة التي حاولناها في غانا هي في جوهرها تجربة تنمية البلد بالتعاون مع العالم بأسره. عدم الانحياز يعني بالضبط عدم الانحياز. لم نكن نعادي بلدان العالم الاشتراكي على نحو معاداة البلدان الاستعمارية القديمة لها. لابد من أن نتذكر أنه في حين كانت بريطانيا تنتهج داخلياً سياسة التعايش مع الاتحاد السوفييتي، لم تكن هذه السياسة مسموحاً لها أن تمتد إلى المستعمرات البريطانية، فالكتب التي تبحث في الاشتراكية، والتي كانت تُنشر وتوزع بحرية في بريطانيا، كانت محظورة في الامبراطورية التي تستعمرها بريطانيا. وبعد أن استقلت غانا كان يفترض خارجها أن تستمر في اتباع المقاربة الأيدولوجية التقييدية ذاتها. وعندما

سلكنا على غرار سلوك البريطانيين في علاقاتهم مع البلدان الاشتراكية وُجهت إلينا تهمة ممالأة الروس وإدخال أخطر الأفكار إلى إفريقيا» (١٨).

هذا يعيد إلى الذاكرة مسألة الجنوب الأمريكي في القرن التاسع عشر، حيث تعرض كثيرون من الجنوبيين الأمريكيين لمضايقات شديدة إلى حد أن العبيد السود في الجنوب غادروا إلى الجانب الشمالي في الحرب الأهلية. كان هؤلاء الجنوبيون يعتقدون صادقين أن السود يجب أن يكونوا ممتنين لكل ما فعله من أجلهم أسيادهم البيض، وأنهم لابد كانوا سعداء وراضين بما تيسر لهم. لقد جادل الطبيب الجراح وأستاذ علم النفس الشهير الدكتور صاموئيل أ. كارترايت (Samuel A. Cart-wright) من ولاية لويزيانا، قائلاً: إن كثيرين من العبيد أصيبوا بنوع من المرض العقلي، سماه مرض «هوس التشرد أو التيه» (drapetomania)، وتشخيصه هو أنه رغبة لا يمكن التحكم بها في الهرب من العبودية. في النصف الثاني من القرن العشرين كان هذا المرض يسمى عادة في العالم الثالث «الشيوعية».

لعل انعكاس معاداة الشيوعية بالإكراه الأكثر تأصلاً هو الاعتقاد بأن الاتحاد السوفييتي (أو كوبا أو فيتنام الخ.. التي تتصرف وكالة عن موسكو) هي قوة سرية متربصة وراء واجهة تقرير المصير، وتحرك عنفوان الثورة، أو مجرد المتاعب العادية، هنا، وهنالك، وفي كل مكان، فثمة تجسيد آخر، على نطاق أكبر، مثل «التحريض من الخارج» والذي كان يبرز بانتظام عبر التاريخ.. إن الملك جورج وجّه اللوم إلى الفرنسيين بتحريض المستعمرات الأمريكية على الثورة.. مزارعون أمريكيون خاب أملهم ومحاربون قدماء يحتجون على ظروفهم الاقتصادية الشاقة بعد الثورة (ثورة الشايز Shays)، وُسموا بأنهم عملاء لبريطانيا انطلقوا لتدمير الجمهورية الجديدة.. إضرابات العمال في أمريكا أواخر القرن التاسع عشر وُجهت فيها التهمة إلى: «الفوضويين» و «الغرباء»، وخلال الحرب العالمية الأولى وجهت التهمة إلى «العملاء الألمان» بعد الحرب على «البلشفيك».

وفي الستينيات من القرن العشرين قالت اللجنة الوطنية الخاصة بأسباب ومنع العنف - إن ج. ادغار هوفر (Edgar Hoover .J) ساعد على انتشار وجهة نظر في أوساط الشرطة مفادها أن أي نوع من الاحتجاج الجماعي إنما ينجم عن مؤامرة يعلنها محرضون، هم على الأغلب شيوعيون، ويضللون الناس الذين لولا ذلك لكانوا يشعرون بالرضا عن حياتهم» [١٩].

الكلام الأخير هو العبارة المفتاحية، التي تنطوي في مضمونها على عقلية المؤامرة لدى الذين في موقع السلطة - أي الفكرة القائلة إن ما من أناس، سوى الذين يعيشون تحت حكم العدو، يمكن أن تنتابهم التعاسة وعدم الرضا عن أحوالهم مما يولّد عندهم الحاجة للجوء إلى الثورة، أو حتى الاحتجاج الجماعي، وإن التحريض من الخارج هو وحده الذي يضللهم في هذا الطريق.

وبناء على ذلك، إذا ما أقرّ رونالد ريغان بأن جماهير السلفادور لديهم كل سبب وجيه للانتفاض على وجودهم الذي لا يخاف الله، فإن ذلك يضع اتهامه موضع تساؤل، وكذلك إن الأساس المنطقي للتدخل الأمريكي هو مبدئياً (فقط) الاتحاد السوفييتي وحلفاؤه في كوبا ونيكاراغوا الذين يحرضون سكان السلفادور- تلك القوة التي تبدو ساحرة ويملكها الشيوعيون في كل مكان، ويستطيعون برفع قبضات أيديهم تحويل الناس المسالمين السعداء إلى رجال عصابات هائجين. تعرف وكالة المخابرات المركزية مدى صعوبة هذا الإنجاز العظيم. لقد حاولت هذه الوكالة، كما سنرى، أن تفجر ثورة جماهيرية في الصين، وكوبا، والاتحاد السوفييتي، وألبانيا، وأماكن أخرى في أوروبا الشرقية لكن في حالة واحدة لم يحالفها الحظ. إن كتبة الوكالة وجهوا اللوم في هذا الإخفاق إلى الطبيعة (المغلقة) للمجتمعات ذات العلاقة. أما في البلدان غير الشيوعية، فقد كان على وكالة المخابرات المركزية أن تلجأ إلى الانقلابات العسكرية أو إلى الألاعيب غير الشرعية لإيصال رجالها إلى السلطة. وهي لم تتمكن قط من إشعال نار الثورة الشعبية.

لكي تُقر واشنطن بجدارة وفضيلة انقلاباً في العالم الثالث كان عليها أن تطرح السؤال: لماذا لا تساند الولايات المتحدة جانب الثوار إذا كان لابد لها من التدخل؟ إن ذلك من شأنه ليس فقط أن يخدم بصورة أفضل قضية حقوق الإنسان والعدالة، بل إنه سيحرم الروس من دورهم المزعوم - فأية طريقة أفضل لإحباط المؤامرة الشيوعية الدولية؟ ولكن هذا سؤال لا يجرؤ أحد على تحديد من هو سائله في المكتب البيضوي، إنه سؤال يتعلق بالعديد من القضايا المبحوثة في هذا الكتاب.

بدلاً من ذلك، تظل الولايات المتحدة ملتزمة بسياستها المألوفة جداً وهي سياسة تثبيت -/أو دعم أحط الطغاة في العالم، الذين تجابهنا يومياً على صفحات جرائدنا أعمالهم البشعة ضد شعوبهم، ومجازرهم الوحشية، وأعمال التعذيب المنظمة والمعقدة التي يقومون بها، وجلد الناس علناً، ومشاهد الجنود والشرطة يطلقون النار على الجماهير، وفرق الموت المدعومة من الحكومة، وعشرات الآلاف من الأشخاص الذين يختفون، والبؤس الاقتصادي الشديد.. طريقة حياة هي في الواقع يحتكرها حلفاء أمريكا، بدءاً من غواتيمالا إلى تشيلي، والسلفادور وصولاً إلى تركيا وباكستان وأندونيسيا، هذه البلدان كافة لها مكان مرموق في «الحرب المقدسة على الشيوعية»، وجميعها أعضاء في «العالم الحر»، تلك المنطقة التي نسمع عنها كثيراً ونراها قليلاً.

إن القيود المفروضة على الحريات المدنية في الكتلة الشيوعية- على قسوتها - تبدو باهتة بالمقارنة مع «المحارق» Auschwitzs في «العالم الحر» وباستثناء المشهد الذهني الغريب الذي تسكنه مؤسسات معاداة الشيوعية لا يمكن أن يكون له أي شأن بالتدخلات الأمريكية المتعددة التي يفترض أنها ترتكب باسم قضية الصالح الأفضل.

من المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه بينما اعتاد القادة الأمريكيون الكلام عن الحرية والديمقراطية في حين يدعمون الديكتاتوريات، كذلك يتحدث القادة الروس عن حروب التحرير وعن معاداة الامبريالية والاستعمار بينما هم لا يفعلون إلا القليل جداً لمساندة هذه القضايا فعلياً، بغض النظر عن الدعاية الأمريكية. يرغب

السوفييت بأن يفكر بهم الناس كمنافحين عن العالم الثالث، ولكنهم لم يفعلوا إلا القليل زيادة عن السير البطيء، بينما الحركات والحكومات التقدمية وحتى الأحزاب الشيوعية، في اليونان، وغواتيمالا، وغويانا البريطانية، وتشيلي، وأندونيسيا والفلبين وغيرها من البلدان تعرضت للإهمال بتواطؤ أمريكي.

في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين، حرضت وكالة المخابرات المركزية على العديد من الغارات العسكرية على الصين الشيوعية. وفي عام ١٩٦٠ قصفت طائرات وكالة المخابرات المركزية، بدون أي استفزاز، دولة غواتيمالا ذات السيادة. وفي عام ١٩٧٣ حرضت الوكالة على ثورة دموية ضد حكومة العراق. هذه الأحداث عوملت في الإعلام الأمريكي، وبالتالي في العقل الأمريكي، وكأنها لم تحدث.

«لم نعرف ما الذي كان يحدث» هذه عبارة أصبحت عبارة مبتذلة (كليشة) تتردد على ألسنة الناس للهزء من أولئك الألمان الذين ادعوا أنهم يجهلون الأحداث التي جرت في ظل النازيين. مع ذلك، هل يؤدي جوابهم هذا غايته القصوى على نحو ما نريد أن نظن؟ إن من رجاحة العقل أن نفكر ملياً في أن الولايات المتحدة، في عصرنا هذا، عصر سرعة الاتصالات على الصعيد العالمي، تمكنت في مناسبات عديدة، من القيام بعملية عسكرية كبيرة، أو صغيرة أو الإقدام على شكل آخر من التدخل لا يقل صخباً في مردوده، دون أن يأخذ الرأي العام الأمريكي علماً بذلك إلا بعد انقضاء عدد من السنين، هذا إذا أتيح له أن يأخذ علماً بالأمر. في الأغلب كان الخبر الوحيد عن الحدث أو عن تورط الولايات المتحدة فيه، هو إشارة عابرة إلى حقيقة أن حكومة شيوعية قد وجهت اتهامات معينة، وهذا هو نوع «الخبر» الذي جرى تكييف الرأي العام الأمريكي بنبذه فوراً، وجرى تكييف الصحافة لعدم متابعته، مثلما جرى تعليم الشعب الألماني أن الأخبار التي تتردد خارج المانيا عن مساوىء النازيين لا تعدو كونها دعاية شيوعية.

إن التدخلات، فيما عدا استثناءات قليلة، لم تعكسها العناوين الرئيسية في الصحف ولا أخبار التلفزيون المسائية. في بعض الحالات، كانت تبرز نتفٌ من الروايات، هنا وهناك، ولكن نادراً ما كانت تُربط ببعضها بعضاً لتشكل كلاً متماسكاً

وتنويرياً، وهذه النتف تظهر في العادة بعد مرور وقت طويل على واقع الحقيقة، وتُدفن بهدوء ضمن روايات أخرى، وتُنسى بهدوء، ولا تبرز إلى المقدمة إلا إذا فرضت بروزها ظروف استثنائية، من مثل احتجاز الإيرانيين العاملين في السفارة الأمريكية وغيرهم من الرهائن الأمريكيين في طهران في عام ١٩٧٩، الأمر الذي أدى إلى فورة من المقالات التي عالجت موضوع الدور الذي لعبته الولايات المتحدة في الإطاحة بالحكومة الإيرانية في عام ١٩٥٣. وبدا الأمر وكأن محرري الصحف قد دُفعوا إلى التفكير على النحو التالي: «هيا، ماذا فعلنا في إيران لنجعل كل هؤلاء الناس يكرهوننا إلى هذا الحد»؟.

لقد تكرر ذكر إيران في ماضي أمريكا القريب، ولكن في غياب «نيويورك ديلي نيوز» New York Daily News أو «لوس أنجلس تايمز» Los Angeles Times اللتين تقبضان على ياقة قميص القارئ وتواجهانه بالمضامين الكاملة للعمل.. في غياب شبكة (ان. بي. سي) NBC التي تطرح الحدث أمام المشاهد في صور حقيقية لأشخاص حقيقيين.. في مثل هذا الغياب تصبح الحوادث أحداثاً لم تقع بالنسبة للغالبية العظمى من الأمريكيين، الذين يمكنهم أن يقولوا صادقين: «لم نعرف ماذا كان يحدث».

ذات يوم قال رئيس وزراء الصين السابق شو إن لاي: «أحد الأمور المبهجة في الأمريكيين أنهم ليست لهم البتة ذاكرة تاريخية».

لعل الحقيقة أسوأ مما أدرك شوإن لاي. خلال حادث معمل الطاقة النووية في (ثري مايل آيلاند) Three Mile Island في ولاية بنسلفانيا عام ١٩٧٩، أمضى الصحفي الياباني اتسو كانيكو Atsuo Kaneko، (من وكالة أنباء كيوتو اليابانية)، ساعات عديدة في لقاءات مع أناس جرى إيواؤهم في مبنى للعبة الهوكي - معظمهم أطفال، ونساء حوامل، وأمهات صغيرات السن. لقد اكتشف من خلال هذه اللقاءات أن لا أحد منهم سمع ما هي هيروشيما. كان مجرد ذكر اسم هيروشيما يقابل بنظرة حائرة [٢٠].

وفي عام ١٩٨٢ قال أحد القضاة في اوكلاند بولاية كاليفورنيا إنه ذعر عندما جرى استجواب نحو خمسين شخصاً مرشحاً ليكون بين المحلفين في محاكمة شخص ارتكب جريمة قتل عقوبتها الإعدام «فلم يعرف أحد منهم من هو هتلر» [٢١].

بالنسبة للقلة المتحكمة بالسياسة الخارجية في واشنطن، الأمر أكثر من مبهج. إنه شيء لا يستغنى عنه.

إن السجل الوافي للتدخلات الأمريكية مبهم إلى حد أنه عندما طلب في عام ١٩٧٥ من خدمة أبحاث الكونغرس التابعة لمكتبة الكونغرس أن تتعهد إجراء دراسة عن الأنشطة السرية لوكالة المخابرات المركزية حتى ذلك الحين، لم تتمكن من تقديم إلا جزء يسير جداً من حوادث ما وراء البحار التي تناولها هذا الكتاب خلال المدة ذاتها [٢٢].

وبالنسبة لكل هذه المعلومات التي وجدت طريقها إلى الوعي الشعبي، أو إلى الكتب المدرسية، والموسوعات، أو كتب المراجع الأخرى، قد فرضت أيضاً رقابة شديدة على هذه المعلومات في الولايات المتحدة.

إننا ندعو القارئ إلى التدقيق في الأقسام ذات العلاقة في الموسوعات الأمريكية الثلاث الكبرى وهي (أمريكانا Americana) و(بريتانيكا Britanica) و(كولايرز Colliers). إن صورة الموسوعات باعتبارها الخازنة النهائية للمعرفة الموضوعية تستحق عقوبة. إن المعادل لعدم الإقرار بالتدخلات الأمريكية قد يكون عائداً إلى حد كبير إلى تلك الأعمال الموقرة التي تستخدم معياراً مماثلاً لمعيار المسؤولين في واشنطن الذي يجد انعكاساً له في «أوراق البنتاغون». لقد أوجزت جريدة «نيويورك تايمز» هذه الظاهرة المثيرة جداً للاهتمام على النحو التالي:

«الحرب السرية ضد فيتنام الشمالية - على سبيل المثال- لا ينظر إليها على أنها انتهاك لاتفاقيات جنيف لعام ١٩٥٤ التي وضعت نهاية لحرب الهند الصينية الفرنسية، أو على إنها تتعارض مع الأقوال العلنية عن السياسة الصادرة عن مختلف الإدارات، فالحرب السرية، بما أنها تجري في السر، ليس لها وجود من حيث المعاهدات والمواقف العلنية. علاوة على ذلك، فإن الالتزامات السرية تجاه الدول الأخرى لا تعتبر خرقاً لسلطات مجلس الشيوخ لصنع المعاهدات، وذلك لأنها غير معترف بها علناً» [٢٣].

إن الرقابة المفروضة كأمر واقع والتي تجعل كثيرين من الأمريكيين جاهلين وظيفياً لتاريخ الشؤون الخارجية للولايات المتحدة، قد تكون أكثر فاعلية لأنها لا تتخذ الطابع الرسمي، أو لها صبغة التسلط أو التآمر، لإنها تحاك بطريقة فجة في نسيج التعليم والإعلام، ولا حاجة إلى مؤامرة، فمحررو «ريدرز دايجست» و «يوإس نيوز اند وورلد ريبورت» ليست بهم حاجة إلى الاجتماع سراً مع ممثل شبكة (ان. بي. سي NBC) في مكان آمن لمكتب التحقيقات الفدرالي FBI لوضع خطة لروايات وبرامج الشهر التالي، لأن الحقيقة ببساطة هي أن هؤلاء الأفراد ما كانوا ليصلوا إلى المراكز التي يشغلونها لو لم يكونوا قد سيقوا عبر نفس نفق التاريخ المعمى وخرجوا منه بنفس الذاكرة الانتقائية والحكمة التقليدية.

«إن الانتفاضة في الصين هي ثورة، إذا حللناها، نجد أن الدافع إليها هو الأشياء ذاتها التي كانت الدافع إلى الثورات البريطانية، والفرنسية، والأمريكية» [٢٤]. هذا الكلام هو تعبير عن شعور مديني كريم للسيد دين راسك، الذي كان آنذاك مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الشرق الأقصى، وأصبح لاحقاً وزيراً للخارجية. وفي الوقت ذاته تماماً الذي أدلى فيه السيد راسك بهذا الكلام في عام ١٩٥٠، كان آخرون في حكومته ناشطين في حبك مؤامرة للإطاحة بالحكومة الصينية الثورية.

كانت هذه ظاهرة عامة. إن المرء يستطيع أن يعثر في العديد من القضايا الموصوفة في الصفحات التالية من هذا الكتاب، على أقوال لمسؤولين في واشنطن من مستويات رفيعة أو متوسطة تضع موضع التساؤل سياسة التدخل، التي تعبر عن مساوىء قائمة إما على أساس المبدأ (أحياناً الجانب الأفضل من الليبرالية الأمريكية)، أو القلق من ألا يؤدي التدخل إلى أية نتيجة تستحق الجهد، بل قد يؤدي إلى كارثة. لقد أعطيت هذه الأقوال المخالفة القليل من الوزن على نحو ما فعل صانعو القرارات في واشنطن الذين في الأوضاع العالمية المثيرة للجدل، يمكن الاعتماد عليهم في استعمال ورقة العداء للشيوعية. إنني إذ أعرض التدخلات بهذا الشكل، أعلن أن السياسة الخارجية الأمريكية هي ما تفعله السياسة الخارجية الأمريكية.

مقتطفات من مقدمة طبعة عام ١٩٩٥:

في عام ١٩٩٣ اتفق لي أن قرأت مراجعة كتاب يتحدث عن أناس ينكرون أن المحرقة النازية حدثت فعلاً. كتبت رسالة إلى مؤلفة الكتاب، وهي أستاذة جامعية، لإبلاغها أن كتابها جعلني أتساءل عما إذا كانت تعلم عن حدوث محرقة أمريكية وأن إنكار حدوث هذه المحرقة قلل من شأن إنكار المحرقة النازية. وقلت لها إن إنكار المحرقة الأمريكية واسع النطاق وعميق الغور إلى حد أن منكريها لا يعلمون بوجود المدعين أو بادعائهم. مع ذلك فإن بضعة ملايين من الناس قد لاقوا حتفهم في المحرقة الأمريكية وملايين عديدة أخرى من الناس كان مصيرهم أن يحيوا حياة بؤس وعذاب نتيجة للتدخلات الأمريكية التي امتدت من الصين واليونان في أربعينيات القرن العشرين إلى أفغانستان والعراق في التسعينيات من القرن نفسه. وقلت إنني أرفق لها قائمة بتلك التدخلات التي هي بطبيعة الحال موضوع هذا الكتاب.

وعرضت في رسالتي أن أقدم لها نسخة من طبعة سابقة لكتابي مقابل نسخة من كتابها، ولكنها ردت قائلة إنها ليست في وضع يسمح لها أن تقبل هذا العرض. وهذا كان كل ما قالته. وهي لم تقدم لي أي تعليق على بقية ما ورد في رسالتي – أي ذلك القسم من الرسالة الذي يتحدث عن إنكار المحرقة الأمريكية – بل إنها أحجمت عن الإقرار بأني أثرت الموضوع. لقد كان أمراً فذاً، ويدعو إلى السخرية أن باحثة تناولت موضوع إنكار المحرقة النازية تنخرط في إنكار من هذا القبيل للمحرقة الأمريكية. ولقد أشكل عليّ السبب الذي دعا هذه الأستاذة الطيبة للرد على رسالتي.

من الواضح أنه إذا كان مقدراً لبحثي أن يقابل بعدم الاستجابة من مثل هذا الشخص، فإن هذا يعني أنني وبحثي كنا نواجه مشقة بالغة في صعود تل شديد الانحدار. ففي الثلاثينيات من القرن العشرين، ومرة أخرى بعد الحرب في الأربعينيات والخمسينيات، بذل المعادون للشيوعية من مختلف الأطياف في الولايات المتحدة، قصارى جهودهم لفضح جرائم الاتحاد السوفييتي، من قبيل محاكمات التطهير وقتل الناس بالجملة، لكن شيئاً قريباً قد حدث. لم تكن الحقيقة ذات

أهمية، لقد استمر الشيوعيون الأمريكيون ومناصروهم في مساندة الكرملين، وحتى إذا أخذنا في الاعتبار المبالغات والمعلومات الخاطئة التي واصل المعادون للشيوعية نشرها بانتظام، الأمر الذي أساء إلى صدقيتهم، فإن استمرار التجاهل/أو الإنكار من جانب اليساريين الأمريكيين ملفت للأنظار.

لدى انتهاء الحرب العالمية الثانية، واكتشاف الحلفاء المنتصرين معسكرات الاعتقال الألمانية، جيء في بعض الحالات بمواطنين ألمان من البلدان المجاورة إلى المعسكرات ليشاهدوا الوضع وجهاً لوجه، أكداس الجثث، والأفراد الذين ظلوا على قيد الحياة ولكنهم تحولوا إلى هياكل عظمية. إن بعض سكان البلدان المحترمين أرغموا على دفن الموتى. تُرى ماذا كان يمكن أن يكون التأثير على الحالة النفسية للأمريكيين إذا ما أُرغم مصدقو الحقيقة ومنكروها على مشاهدة عواقب نهاية نصف القرن الماضي من السياسة الخارجية الأمريكية؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الفتيان الأمريكيين الطيبين الأصحاء الذين ألقوا أطناناً لا تُحصى من القنابل على اثني عشر بلداً مختلفاً، على أناس لا يعرفون شيئاً عنهم - وكأنهم أشخاص في لعبة فيديو - قد عادوا إلى الأرض ليروا وليشموا رائحة اللحم البشري المحترق؟.

لقد أصبح من الحكمة التقليدية أن سياسات إدارة ريغان المعادية للشيوعية بلا هوادة، مع ما رافقها من حمى سباق التسلح، قد أدت إلى إنهيار وإصلاح الاتحاد السوفييتي والبلدان السائرة في ركابه. لعل كتب التاريخ الأمريكية قد شرعت في نقش هذه المقولة على الرخام. يقول أعضاء حزب المحافظين في بريطانيا العظمى إن مارغريت ثاتشر وسياساتها المتصلبة أسهمت بدورها في صنع المعجزة، كان الألمان الشرقيون مؤمنين أيضاً. عندما زار رونالد ريغان برلين الشرقية رحب به الناس هناك وهتفوا له وشكروه «على دوره في تحرير ألمانيا الشرقية». بل إن كثيرين من المحللين اليساريين، ولاسيما الذين يأخذون بمقولة المؤامرة، مؤمنون أيضاً. ولكن وجهة النظر هذه لا يؤمن بها الناس على نطاق عام، ويجب ألا يؤمنوا بها.

كتب غورغي ارباتوف، الذي كان لزمن طويل كبير الخبراء السوفييت في شؤون الولايات المتحدة وكندا، مذكراته في عام ١٩٩٢. وقد أوجز روبرت شير Robert

Scheer في باب مـراجـعـة الكتب في جـريدة «لوس أنجلس تايمز» جـزءاً من هذه المذكرات على النحو التالي:

«كان ارباتوف يفهم فهماً جيداً إخفاقات الحكم الشمولي السوفييتي مقارنة باقتصاد وسياسة الغرب. ويتضح من هذه المذكرات الصريحة والمتميزة أن حركة التغيير كانت تتطور بثبات في أوساط السلطة العليا منذ وفاة ستالين. إن أرباتوف لا يقدم فقط دليلاً قوياً يثبت صحة المقولة المثيرة للجدل بأن هذا التغيير كان من شأنه أن يحدث بدون ضغط أجنبي، بل إنه يصر على أن تعزيز القدرة العسكرية للولايات المتحدة خلال سنوات رئاسة ريغان عرقل فعلاً هذا التطور»[٢٥].

يتفق جورج ف. كينان George F. Kennan مع هذا التحليل. إن هذا السفير الأمريكي السابق لدى الاتحاد السوفييني، وأبا نظرية «احتواء» نفس البلد، يؤكد أن «القول بأن أية إدارة أمريكية كانت تملك القوة الكافية للتأثير بصورة حاسمة في مسيرة الانتفاضة السياسية الهائلة في دولة عظمى أخرى، أو على جانب آخر من الكرة الأرضية، مثل هذا القول هو ببساطة قول صبياني». وهو يؤكد أن العسكرة المتطرفة للسياسة الأمريكية قد عززت موقف أصحاب الخط المتصلب في الاتحاد السوفييتي. «وهكذا فإن التأثير العام للتطرف في الحرب الباردة كان من شأنه أن يؤخر بدلاً من أن يُسرّع التغيير الكبير الذي استحوذ على الاتحاد السوفييتي»[٢٦].

ومع أن الإنفاق على سباق التسلح خرب بدون شك نسيج الاقتصاد السوفييتي المدني والمجتمع المدني في الاتحاد السوفييتي أكثر مما خرب في الولايات المتحدة، وقد كان هذا ما حدث على مدى أربعين عاماً عندما تولى ميخائيل غورباتشوف السلطة بدون أن يسبق ذلك أدنى تلميح إلى المصير الذي كان على وشك الحدوث. عندما سئل الكسندر ياكوفليف، (المستشار المقرب من غورباتشوف) عما إذا كان الإنفاق العسكري الأكبر في زمن إدارة ريغان، الذي اقترن بالكلام عن «امبراطورية الشر»، قد أرغم الاتحاد السوفييتي على اتخاذ موقف أكثر مهادنة، أجاب:

«لم يلعب أي دور، إطلاقاً. أستطيع أن أقول لك بأوفى قدر من المسؤولية إننا كنا، غورباتشوف وأنا، مستعدين لإجراء تغييرات في سياستنا، بغض النظر عن كون الرئيس الأمريكي هو ريغان أو كنيدي، أو شخصاً ما أكثر ليبرالية. لقد كان واضحاً لنا أن إنفاقنا العسكري كان ضخماً وأنه كان علينا أن نقلصه»[٢٧].

إنه لأمر مفهوم أن بعض الروس قد يترددون في الإقرار بأنهم أُرغموا على القيام بتغييرات ثورية من قبل عدوهم الأول، وأن يُقروا بأنهم خسروا الحرب الباردة. بيد أننا في هذه المسألة ينبغي ألا نعتمد على رأي إنسان فرد، سواء أكان روسياً أو أمريكياً، بل ينبغي لنا أن ننظر إلى الحقائق التاريخية.

ابتداء من أواخر الأربعينيات من القرن العشرين وحتى حوالي منتصف الستينيات، كان أحد أهداف السياسة الأمريكية التحريض على الإطاحة بالحكومة السوفييتية وبالعديد من أنظمة الحكم في أوروبا الشرقية. وقد جرى تنظيم وتدريب وتجهيز عدة مئات من الروس الذين يعيشون في المنفى، من قبل وكالة المخابرات المركزية، ثم جرى تسريبهم إلى وطنهم لكي يقيموا هناك حلقات جاسوسية، ولكي يثيروا الكفاح السياسي المسلح، ولكي ينفذوا أعمال اغتيال وتخريب، من قبيل إخراج القطارات عن خطوطها، وهدم الجسور، وتخريب معامل الأسلحة ومعامل الطاقة، وما إلى ذلك.

إن الحكومة السوفييتية التي ألقت القبض على كثيرين من هؤلاء الرجال كانت، بطبيعة الحال، تعرف تمام المعرفة من يقف وراء هذه الأعمال.

مقارنة بهذه السياسة، يمكن تصنيف السياسة التي اتبعتها إدارة ريغان بأنها سياسة تهدف لتحقيق الاستسلام الفعلي. مع ذلك يحق لنا أن نسأل ما هي ثمار هذه السياسة المعادية للشيوعية شديدة التطرف؟ إن المجابهات الخطيرة المتكررة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في برلين وكوبا وسواهما، والتدخلات السوفييتية في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، وإقامة حلف وارسو (في رد فعل مباشر

على حلف شمال الأطلسي – الناتو) وعدم وجود غلاسنوست Glasnost وعدم وجود بيرسترويكا Perestroyka وبدلاً منهما كانت هناك شكوك سريعة التفشي، وصفاقة، وعداوة على كلا الجانبين، وقد تبين أن الروس كانوا رغم كل شيء بشراً – أي أنهم ردوا على التشدد بتشدد مثله. والنتيجة الطبيعية لذلك هي: أنه كانت هناك على مدى سنوات عديدة علاقة وثيقة بين ودية العلاقات الأمريكية – السوفييتية من جهة، وعدد اليهود المسموح لهم بالهجرة من الاتحاد السوفييتي من جهة أخرى (٢٨).

إذا كان هناك من تُعزى إليهم التغييرات التي حدثت في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية إلى كل من التغيرات المفيدة والتغيرات المشكوك بها فإن هؤلاء هم بطبيعة الحال ميخائيل غورباتشوف والناشطون الذين ألهمهم بسياسته. وعلينا أن نتذكر أن ريغان كان في منصب الرئاسة مدة أكثر من أربع سنوات سبقت وصول غورباتشوف إلى السلطة وأن تاتشر كانت في رئاسة الوزارة مدة ست سنوات، ولكن لم يحدث شيء ذو بال في تلك المدة من حيث الإصلاح السوفييتي الذي تحقق بالرغم من موقف ريغان وتاتشر المعادي بلا هوادة للدولة الشيوعية.

كثيراً ما يحاول أحدهم قائلاً إنه من السهل عند النظر إلى الوراء أن نستهين بالهوس الأمريكي في الحرب الباردة من أجل أمن الدولة. بكل ما سبق ذلك من وسواس ومن الأمور العبثية، وتشكيل حلف شمال الأطلسي القوة العسكرية الدولية، وأنظمة الإنذار المبكر، وتمارين الغارات الجوية، وإقامة منصات القنابل النووية وطائرات يوتو، ولكن بدا الاتحاد السوفييتي بعد الحرب في أوروبا وكأنه في الواقع وحش مخيف يهدد العالم بارتفاعه عشرة أقدام.

إن هذه الحجة تتحطم على صخرة سؤال واحد، وهو سؤال كان هو الذي ينبغي أن يرد به الجميع في ذلك الحين، والسؤال هو: ما الذي كان يمكن أن يدفع السوفييت إلى غزو أوروبا الغربية أو قصف الولايات المتحدة؟ من الواضح أنه لم يكن هناك ما يكسبونه من مثل هذه الأعمال سوى التدمير شبه المحتم لبلدهم الذي كانوا يعيدون بناءه بشق النفس بعد الخراب الذي أحاق به في الحرب.

مع حلول الثمانينيات من القرن العشرين كان السؤال الذي لم يجرؤ أحد حتى ذلك الحين على طرحه قد أدى إلى إقرار ميزانية عسكرية بقيمة ٣٠٠ بليون دولار وإقرار حرب النجوم.

توجد في الحقيقة، وثائق داخلية عديدة من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع الأمريكيتين، ومن وكالة المخابرات المركزية تعود إلى زمن ما بعد الحرب، حيث يوضح فيها المحللون السياسيون الواحد بعد الآخر، شكوكهم الجدية في «التهديد السوفييتي» ويكشفون في هذه الوثائق الضعف العسكري الروسي الحرج/أو يبدون شكوكهم في نوايا الروس العدوانية المزعومة في حين أن مسؤولين كباراً، من ضمنهم الرئيس الأمريكي، كانوا يقدمون علناً رسالة هي صراحة عكس ذلك [٢٩].

إن المؤرخ روجر موريس Roger Morris، العضو السابق في مجلس الأمن القومي الأمريكي في زمن الرئيسين جونسون ونكسون، وصف هذه الظاهرة بقوله:

«إن مهندسي السياسة الأمريكية كان عليهم أن يعرضوا قضاياهم بطريقة «أوضح من الحقيقة» وأن «يضربوا بالهراوة عقول كبار أعضاء الحكومة» - على نحو ما يقول وزير الخارجية دين اتشيسون Dean Acheson: إنهم يفعلون ذلك. لقد شرعت وكالة المخابرات المركزية الجديدة بإصدار أرقام مبالغ فيها عن النفقات العسكرية السوفييتية، وهي، بطريقة سحرية جعلت الاقتصاد السوفييتي العليل يهبط ويعلو في خرائط الحكومة الأمريكية. إن جيش ستالين الذي يستخدم مركبات تجرها الخيول - معداته متدنية، وطرقه محفرة بسبب الحرب، ومعنوياته متدنية - أضاف إليه البنتاغون فرقاً هي أشباح فرق، ثم عزا سيناريوات الغزو إلى قوات جديدة.

تقول دراسة لاحقة في الأرشيف أن المسؤولين الأمريكيين «بالغوا في تقدير قدرات السوفييت ونواياهم إلى حد أنه من المفاجىء أن يحمل أحد هذه التقديرات على محمل الجد».

مع ذلك، يصر الذين يجادلون في هذا الأمر، على وجود عدد كبير من المسؤولين في مناصب رفيعة كانوا ببساطة وبصدق لا يفهمون الإشارات الصادرة عن السوفييت. فالاتحاد السوفييتي كان، في نهاية الأمر، مجتمعاً بالغ القسوة والكتمان،

ولاسيما قبل وفاة ستالين في عام ١٩٥٣. في هذا الصدد، قال انوك باول Enoch Powell العضو في البرلمان البريطاني من حزب المحافظين، في عام ١٩٨٣، ما يلي:

«إن سوء التفاهم على الصعيد الدولي يكاد يكون بكامله طوعياً: أي أن التناقض في التعابير - سوء الفهم الدولي - هو تناقض، لأنه لكي تتعمد سوء الفهم، يجب على أقل تقدير أن تشك إن لم تفهم فعلاً ما تنوي إساءة فهمه.. (إن إساءة فهم الولايات المتحدة للاتحاد السوفييتي لها) وظيفة الحفاظ على خرافة) الخرافة القائلة: إن الولايات المتحدة هي «آخر وأفضل أمل للبشرية». إن صورة القديس جورج والتنين تكون باهتة بدون تنين حقيقي. وكلما كبر حجمه وكثرت حراشفه كان ذلك أفضل، وتكون صورته مثالية إذا ظهر لهب يخرج من فمه. لقد أصبح سوء فهم الاتحاد السوفييتي أمراً لزومياً لرفعة مكانة الأمة الأمريكية. بيد أنه لا ينظر نظرة محب للخير إلى من يسعى دون جدوى إلى حرمانهم منه»[٣١].

يمكن أن يقال أيضاً على سبيل المجادلة إن اعتقاد النازيين بالخطر الكبير المتمثل في «المؤامرة اليهودية الدولية» يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار قبل إدانة منفذي المحرقة.

كان كل من الأمريكيين والألمان يصدقون البروباغندا التي ينشرونها، أو يتظاهرون بذلك. عندما يقرأ المرء كتاب «كفاحي» Mein Kampt تذهله حقيقة أن جزءاً هاماً مما كتبه هتلر عن اليهود يشبه كثيراً الكتابة الأمريكية المعادية للشيوعية عن الشيوعيين: فهو يبدأ بالقول إن اليهود (الشيوعيين) هم أشرار ويريدون السيطرة على العالم، وبالتالي فإن أي سلوك يبدو مناقضاً لذلك إنما يعتبر خطة لاستغفال الناس وتحقيق غاياتهم الشريرة. إن هذا السلوك هو دوماً جزء من مؤامرة. وأناس كثيرون يتم الإيقاع بهم في هذه المؤامرة. وهو يعزو إلى اليهود قوة كبيرة تكاد تكون خفية لاستغلال المجتمعات والأوضاع الاقتصادية، وهو يوجه اللوم إلى اليهود في العلل التي تنشأ من الثورة الصناعية، أي الانقسامات الطبقية والكراهية، وهو أيضاً يندد بالصفة الدولية لليهود، وافتقارهم إلى المواطنة في دولة.

كان هناك في طبيعة الحال أولئك المشاركون في الحرب الباردة ومأخذ هؤلاء على الكرملين هو أن خطته الكبرى للسيطرة على العالم ليست بهذه الضخامة بحيث تهدف إلى غزو أوروبا الغربية أو قصف الولايات المتحدة بالقنابل. إن الخطة الأكثر حذقاً، وبإمكان المرء أن يقول بطريقة شيطانية إن الخطة الذكية، هي لتقويض البلدان من الداخل، بلداً إثر آخر، في سائر أنحاء العالم الثالث، وبالتالي تطويق العالم الأول وخنقه، والادعاء بأن هذا كله مؤامرة شيوعية دولية، «مؤامرة» قال السيناتور جوزيف ماكارثي «إنها على نطاق واسع إلى حد أنها تقزّم أية محاولة سابقة من هذا القبيل في تاريخ البشر».

إن هذا هو هدف التركيز الأول في هذا الكتاب: أي كيف تدخلت الولايات المتحدة في سائر أنحاء العالم لمكافحة هذه المؤامرة أينما وعندما كانت تطل برأسها القبيح.

لكن هل كانت هذه المؤامرة الشيوعية الدولية موجودة فعلاً؟ إذا كان لها وجود فعلي، فلماذا كان على المشاركين في الحرب الباردة من جماعات وكالة المخابرات المركزية والوكالات الحكومية الأخرى أن يذهبوا إلى هذه الحدود المتطرفة في التهويل؟ وإذا كان هؤلاء يعتقدون فعلاً وبصدق بوجود مؤامرة شيوعية دولية شيطانية وأحادية الكيان، فما الذي جعلهم يخترعون أموراً كثيرة حول هذه المؤامرة لإقناع الشعب الأمريكي والكونغرس وبقية العالم بوجودها الشرير؟ ولماذا كان عليهم أن يبتكروا، وأن يزرعوا أدلة، وروايات، وأن يخلقوا وثائق مزيفة؟. إن الصفحات التالية محشوة بالعديد من الأمثلة عن اختراقات الحكومة الأمريكية للإعلام الأمريكي حول «التهديد السوفييتي» و «التهديد الصيني» و «التهديد الكوبي». وقد كنا طوال الوقت، وفي آن واحد، يجري تخويفنا بقصص مرعبة: ففي الخمسينيات من القرن العشرين كانت هناك «فجوة القاذفات» بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، و «فجوة الدفاع المدني»، ثم جاءت «فجوة الصواريخ» وتبعتها «فجوة الصواريخ المضادة للصواريخ». أما في الثمانينيات من القرن العشرين، فقد كانت هناك «فجوة الإنفاق». أخيراً جاءت «فجوة الليزر» وهذه كلها كانت أكاذيب.

نعرف الآن أن وكالة المخابرات المركزية في زمن رونالد ريغان ووليام كيسي «سيّست باستمرار تقديرات المخابرات» لدعم انحياز حكومتهما إلى معاداة السوفييت وخنقت التقارير، حتى تلك التي وضعها محللو هذه الوكالة، إذا تناقضت مع هذا الانحياز، ونعلم الآن أن وكالة المخابرات المركزية والبنتاغون بالغا دوماً بأرقام قوة الاتحاد السوفييتي عسكرياً واقتصادياً، وبالغا أيضاً في عدد التجارب النووية السوفييتية وعدد «انتهاكات» معاهدات حظر التجارب القائمة، والتي كانت واشنطن آنذاك تتهم الروس بخرقها [٣٢] كل ذلك لخلق عدو أضخم وأشد دناءة وإعداد ميزانية أكبر للأمن القومي، ولتوفير الأمن والمعنى لوظائف المحاربين في الحرب الباردة.

في زمن ما بعد الحرب الباردة، وقيام النظام العالمي الجديد، يبدو الأمر حسناً بالنسبة لمجمّع المخابرات والصناعيين والعسكريين ولشركائهم في الجريمة على المستوى العالمي أي البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. لقد حصل هؤلاء على معاهدة نافتا NAFTA (أي مجموعة التجارة الحرة في أمريكا الشمالية) وما لبثوا أن حصلوا على منظمة التجارة العالمية. إنهم يملون على كامل العالم الثالث وأوروبا الشرقية التنمية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. إن رد فعل موسكو على الأحداث في أي مكان لم يعد أحد الاعتبارات التي تحد من حرية التصرف. إن قانون السلوك الخاص للشركات العابرة للحدود القطرية الذي أقرّته الأمم المتحدة قبل ١٥ عاماً، هو الآن في حالة وفاة. إن كل ما هو منظور الآن يجري تخصيصه. إن رأس المال يجوس العالم بحرية شرهة لم يتمتع بها منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى، حرية العمل بدون احتكاك مع الآخرين، والتخلص من الجاذبية. لقد جعلوا العالم آمناً بالنسبة للشركات العابرة للحدود القطرية [٣٣].

تُرى هل يعني هذا حياة أفضل لجماهير الناس من الحياة التي وفرتها لهم الحرب الباردة؟ هل هناك احترام للعامة من الناس أكثر مما كان متوفراً لهم منذ اقتلاعهم من الأجندة الكونية قبل قرون من الزمن؟ يقول رأس المال «بكل تأكيد»

عارضاً صيغة أخرى محسنة لنظرية «الحصول على القطرات»، أي المبدأ القائل: أن الفقراء الذين يجب أن يقيموا أودهم من الفضلات التي يتخلى عنها الأغنياء، يمكن تحسين أحوالهم بتوفير وجبات طعام أكبر للأغنياء.

إن صبية رأس المال، يهتفون مرحين بموت الاشتراكية، وهم يشربون شراب المارتيني. هذه الكلمة منع استخدامها في الأحاديث المهذبة. وهم يأملون ألا يلاحظ أحد أن كل تجربة اشتراكية ذات أهمية في القرن العشرين - بدون استثناء - إما سُحقت، أو أُسقطت، أو تعرضت للغزو، أو أُفسدت، أو شُوهت، أو تعرضت للتخريب، أو تمت زعزعتها، أو صارت الحياة مستحيلة بالنسبة لها، كل ذلك على يد الولايات المتحدة. ما من حكومة أو حركة اشتراكية - بدءاً من الثورة الروسية وحتى الحركة الساندينية في نيكاراغوا، ومن الصين الشيوعية وحتى حركة FMLN في السلفادور - لم يكن مسموحاً لأي منها أن تصعد أو تسقط بذاتها وبحسب استحقاقاتها، ولم تُمنح أي منها ما يكفي من الأمان لتتخلى عن حذرها من العدو بالغ القوة الموجود في الخارج بحيث يمكنها أن تخفف بالكامل وبحرية إشرافها في الداخل.

يبدو الأمر وكأن الأخوين رايت Wright أخفقا إخفاقاً كاملاً في تجربتهما الأولى للطيران بطائرة، لأن مصالح صناعة السيارات خربت كل تجربة طيران. آنذاك جميع الناس الطيبين الذين يخافون الله في العالم راقبوا ما حدث، وأخذوا علماً بالعواقب، أومأوا معاً برؤوسهم وبدافع الحكمة أنهم موافقون، وأنشدوا بورعٍ: لن يطير الإنسان.

الصين من ١٩٤٥ إلى الستينيات من القرن العشرين
هل كان ماوتسي تونغ مجرد إنسان مصاب بوسواس؟

على امتداد أربع سنوات، كان أمريكيون كثيرون، في مراكز رفيعة أو مغمورون، لديهم قناعة يكتنفها التجهم، بأن الحرب العالمية الثانية كانت «الحرب الخطأ ضد العدو الخطأ». كانوا يعرفون أن الشيوعية كانت الخصم الحقيقي الوحيد على الأجندة الأمريكية التاريخية. ألم يكن ذلك السبب في أن هتلر تجوهل/ تم احتماله/ تم استرضاؤه/ وجرت مساعدته؟ ألم تكن الغاية أن تتجه آلة الحرب النازية شرقاً وأن تمسح البلشفية من وجه الأرض وإلى الأبد؟ كان مجرد سوء حظ أن أدولف كان مصاباً بجنون العظمة بحيث اتجه إلى الغرب أيضاً.

ولكن تلك الحرب انتهت. آنذاك كانت أمام الأمريكيين فرصة الابتهاج بالنصر في سائر أنحاء العالم، وبالكاد كان حبر معاهدة استسلام اليابان قد جف عندما شرعت الولايات المتحدة في استخدام الجنود اليابانيين الذين لا يزالون في الصين، جنباً إلى جنب مع الجنود الأمريكيين، في جهد مشترك ضد الشيوعيين الصينيين. (في الفلبين واليونان، كما سنرى، لم تنتظر الولايات المتحدة انتهاء الحرب قبل أن تخضع الكفاح ضد اليابان وألمانيا للحملة ضد الشيوعيين).

كان الشيوعيون في الصين يعملون بتعاون وثيق مع العسكريين الأمريكيين خلال الحرب، ويقدمون لهم معلومات استخبارية هامة عن المحتلين اليابانيين، وينقذون ويعتنون بالطيارين الأمريكيين الذين أسقطت طائراتهم [(١)]. مهما يكن من أمر، سيبقى الجنرال يسيمو شيانغ كاي - شيك رجل واشنطن، فهو كان على رأس ما اتُّفق على أنها كانت حكومة مركزية في الصين، كان في تقدير مكتب الخدمات

الاستراتيجية (OSS الذي كان بداية تشكيل وكالة المخابرات المركزية CIA) ان معظم الجهد العسكري الذي بذله شيانغ، كان موجهاً ضد الشيوعيين بدلاً من اليابانيين. كما أنه بذل قصارى جهده لعرقلة التعاون بين الحمر والأمريكيين. أما الآن، فإن جيشه احتوى وحدات يابانية ونظام حكمه كان مليئاً بمسؤولين سبق لهم أن تعاونوا مع اليابانيين وخدموا في الحكومة العميلة التي أقاموها. مهما يكن من أمر، لقد كان الجنراليسيمو معادياً للشيوعيين إلى أقصى حد. علاوة على ذلك، كان هو عميلاً للأمريكيين بالولادة. كانت القوات التابعة له يتم تدريبها وتجهيزها لتخوض المعركة ضد رجال ماوتسي تونغ وشوان لاي.

كان الرئيس ترومان في مقدمة العاملين لما وصفه «استخدام اليابانيين لصد الشيوعيين»:

«كان واضحاً لنا تمام الوضوح أننا إذا طلبنا من اليابانيين إلقاء أسلحتهم فوراً والتوجه إلى السفن في البحر، سيستولي الشيوعيون على البلد بكامله، ولذلك كان علينا أن نقدم على خطوة غير معتادة بأن نستخدم العدو كحامية ريثما نتمكن من نقل القوات الوطنية (قوات شيانغ) جواً إلى جنوب الصين ونرسل قوات المارينز لحماية الموانىء البحرية [٣].

كانت لنشر قوات المارينز الأمريكية نتائج سريعة ودراماتيكية، بعد أسبوعين من انتهاء الحرب، كانت بكين مطوّقة بقوات شيوعية. وصول المارينز هو وحده الذي حال دون استيلاء الحمر عليها [٤] وبينما كانت قوات ماوتسي تونغ تندفع إلى ضواحي شنغهاي. أنزلت طائرات النقل الأمريكية قوات شيانغ للاستيلاء عليها [٥].

في تزاحم لاستباق الشيوعيين في الوصول إلى المراكز والموانىء المفتاحية، نقلت الولايات المتحدة ما بين ٤٠٠,٠٠٠ و٥٠٠,٠٠٠ جندي من القوات الوطنية بالسفن والطائرات مجتازين مساحات الصين ومنشوريا الشاسعة، للوصول إلى أماكن لم يكن بإمكانهم الوصول إليها بغير هذه الطريقة.

مع اشتداد الحرب الأهلية، جرى استخدام الخمسين ألفاً من جنود المارينز الذين أرسلهم ترومان، في حراسة السكك الحديدية، ومناجم الفحم، والموانىء، والجسور وغيرها من المواقع الاستراتيجية. فكان من المحتم أن يشاركوا في القتال، وتعرضوا لعشرات، إن لم يكن مئات من الإصابات. إتهم الشيوعيون القوات الأمريكية بمهاجمة المناطق الواقعة تحت إشراف الحمر مباشرة بفتح النار عليهم، واعتقلوا ضباطاً عسكريين ونزعوا أسلحة الجنود[٦]. وقد وجد الأمريكيون أنفسهم يقصفون قرية شيوعية صغيرة «بدون رحمة»، وفق ما كتب أحد جنود المارينز إلى ممثله في الكونغرس، دون أن يعلم «عدد الناس الأبرياء الذين قُتلوا»[٧].

طفقت الطائرات الأمريكية تقوم بطلعات استطلاعية فوق المنطقة الخاضعة للشيوعيين لكشف مواقع قواتهم، وادعى الشيوعيون أن الطائرات الأمريكية كثيراً ما أطلقت نيران الرشاشات وقصفت بالقنابل جنودهم، وفي إحدى المرات تعرضت بلدة تحت إشراف الشيوعيين لهجوم بالرشاشات الثقيلة[٨] ليس معروفاً إلى أي حد وصلت هجمات الطيارين الأمريكيين هذه. بيد أنه كان هناك ناجون أمريكيون في بعض الحوادث العديدة لسقوط الطائرات الأمريكية. ومن المثير للدهشة، أن الحُمر واصلوا إنقاذهم، ومعالجة جروحهم، وإعادتهم إلى القواعد الأمريكية. من الصعب الآن تقدير هذا الأمر ولكن في ذلك الحين كانت أسطورة «أمريكا» لا تزال تستحوذ على مخيلة الناس في سائر أنحاء العالم، ولم يكن الفلاحون الصينيون، سواء وُصموا أم لم يوصموا بالشيوعية، استثناء من ذلك. فخلال الحرب، ساعد الحمر في إنقاذ عشرات الطيارين الأمريكيين ونقلوهم عبر الخطوط اليابانية إلى مكان آمن. كتبت جريدة «النيويورك تايمز» ذات مرة «إن الشيوعيين لم يفقدوا طياراً واحداً صدف أنه كان تحت حمايتهم. وقد حرصوا دائماً على عدم قبول مكافآت لقاء إنقاذ الطيارين الأمريكيين»[٩].

مع حلول عام ١٩٤٦ كان لا يزال في الصين حوالي ١٠٠,٠٠٠ عسكري أمريكي مستمرين في دعم شيانغ. وكان التفسير الأمريكي الرسمي لوجود هؤلاء العسكريين

هو أنهم كانوا هناك لنزع أسلحة اليابانيين وترحيلهم إلى بلادهم. ومع أن هذه المهمة نفذت فعلاً، إلا أنها كانت عملاً سياسياً ثانوياً بالنسبة للعسكريين، وهذا ما توضحه تمام الوضوح أقوال ترومان التي أوردناها أعلاه.

بدأ الجنود الأمريكيون في الصين بالاحتجاج على عدم إعادتهم إلى بلادهم، وكانت هذه شكوى لقيت صداها في سائر أنحاء العالم لدى جنود أمريكيين آخرين احتُفظ بهم في ما وراء البحار لأغراض سياسية (عادة أغراض المعاداة للشيوعية). لقد قال ملازم من قوات المارينز كان في الصين في وقت حلول عيد الميلاد عام ١٩٤٥ «إنهم يسألونني أيضاً ما سبب وجودهم هنا، وكان يفترض بي كضابط أن أبيّن لهم السبب، ولكن لم يكن ممكناً أن نقول لرجل إنه موجود هنا لنزع سلاح اليابانيين بينما هو يقوم على حراسة نفس السكة الحديدية بواسطة يابانيين مسلحين» [١٠].

ومن الغريب أن الولايات المتحدة حاولت التوسط في الحرب الأهلية بينما كانت تشارك مشاركة قوية وفعالة مع أحد الجانبين. ففي شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٤٦ أدرك الرئيس ترومان على ما يبدو أنه إما الوصول إلى حل وسط مع الشيوعيين أو رؤية الصين بكاملها تخضع لسيطرتهم، لذلك أرسل الجنرال جورج مارشال لكي يحاول التوصل إلى وقف لإطلاق النار وإلى حكومة ائتلافية من نوع ما غير محددة المعالم. وفي حين أن بعض النجاح المؤقت قد تحقق بواسطة هدنة متقطعة، فإن فكرة الحكومة الائتلافية كان محكوماً عليها بالإخفاق، باعتبار أنها إنجاز غير محتمل يشبه محاولة التزاوج بين القيصر والبلشفيك، ووفقاً لما نبه إليه المؤرخ د.ف. فليمنغ Fleming. F. D «لا يستطيع المرء أن يوحد بين الأقلية الحاكمة وهي على فراش الموت، وثورة ناشئة» [١١].

لم تبدأ الولايات المتحدة سحب بعض قواتها العسكرية حتى مطلع عام ١٩٤٧، ولو أن المساعدات والمساندة لحكومة شيانغ استمرتا بشكل أو بآخر لمدة طويلة بعد ذلك. وفي حوالي الوقت ذاته بدأت النمور الطائرة Flying Tigers بالعمل. هذا

السرب الجوي الأمريكي الأسطوري بقيادة الجنرال كلير شينولت Clair Chennault كان قد حارب إلى جانب الصينيين ضد اليابانيين قبل الحرب العالمية وخلالها. أما الآن فإن شينولت، المستشار السابق لشيانغ لشؤون سلاح الجو، كان قد أعاد تفعيل السرب (تحت اسم كات CAT) وما لبث طيارو هذا السرب أن وجدوا أنفسهم في قلب العمل الشاق، إذ كانوا يقومون برحلات جوية لا نهاية لها لنقل تموينات إلى المدن التي يحكمها الوطنيون والواقعة تحت الحصار، وكانوا أيضاً يخترقون انفجارات القنابل الشيوعية من أجل أن ينقلوا الطعام والذخيرة ومؤناً مختلفة، أو لإنقاذ الجرحى [١٢] من الناحية الفنية كانت (كات) عبارة عن خط جوي خاص استأجرته حكومة شيانغ، لكن قبل انتهاء الحرب الأهلية توحد هذا الخط الجوي رسمياً مع وكالة المخابرات المركزية ليصبح أول وحدة في الامبراطورية الجوية التابعة للوكالة التي كانت في طور التكوّن، والتي عرفت فيما بعد باسم الخط الجوي الأمريكي Air America Line.

في عام ١٩٤٩ بلغت قيمة مساعدة الولايات المتحدة إلى الوطنيين في الصين منذ بداية الحرب نحو بليوني دولار نقداً وبليون دولار قيمة معدات عسكرية، بواسطتهما تم تدريب وتجهيز ٣٩ فرقة في الجيش الوطني [١٣]. مع ذلك فإن سلالة شيانغ كانت في طور الإنهيار الكامل والتفتت. لم يكن السبب فقط الهجوم الذي يشنه أعداء شيانغ الشيوعيون، بل يعود السبب أيضاً إلى الموقف العدائي من جانب الشعب الصيني بصورة عامة لطغيانه، وقسوته المتعمدة، والفساد والتعفن في سائر نظامه الاجتماعي والبيروقراطي. في المقابل، كانت المناطق الكبيرة التي تحت الإدارة الشيوعية، تعتبر نماذج من الصدق والتقدم والعدل، وبالتالي، فإن فرقاً بكاملها من قوات الجنراليسيمو انشقت عنه وانحازت إلى الشيوعيين. ولم يكن لدى القادة الأمريكيين السياسيين والعسكريين أية أوهام حول طبيعة ونوعية حكم شيانغ. وقد قال الجنرال ديفيد بار David Barr رئيس البعثة العسكرية في الصين، إن القوات الوطنية كانت خاضعة «لأسوأ قيادة عرفها العالم» [١٤].

لقد هرب الجنرال يسيمو وأتباعه وجنوده إلى جزيرة تايوان (فورموزا) القريبة من الساحل. سبق لهم أن أعدّوا لدخولهم الجزيرة قبل ذلك بعامين بواسطة ترويع سكان الجزيرة لحملهم على الخضوع في مجزرة أودت بأرواح ما لا يقل عن ٢٨,٠٠٠ شخص [١٥] قبل هرب الوطنيين إلى الجزيرة، لم يراود حكومة الولايات المتحدة أي شك في أن تايوان جزء من الصين. بعد ذلك، بدأت الشكوك تزحف إلى أذهان المسؤولين في واشنطن. أما حل الأزمة فقد تم بطريقة بسيطة تلفت الانتباه: اتفقت الولايات المتحدة مع شيانغ على أن الطريقة المناسبة لرؤية هذا الوضع هي أن لا يقال إن تايوان تابعة للصين، بل ان تايوان هي الصين. وهكذا جرت تسميتها.

في خضم النجاح الشيوعي، قال فليكس غرين Felix Green الباحث في شؤون الصين «إن الأمريكيين، ببساطة، لم يتكيفوا مع التصديق بأن الصينيين، مهما كانت قيادتهم عفنة، يفضلون عليها حكومة شيوعية» [١٦] كان التفسير أن هذا حتماً من صنع مؤامرة، مؤامرة دولية، يحركها ويشرف عليها، وهذا ليس بالأمر غير المتوقع، الاتحاد السوفييتي. بيد أن الدليل إلى ذلك كان ضعيفاً إلى درجة الشفافية. والحقيقة هي أنه منذ تفوق عقيدة ستالين القائلة ان «الاشتراكية في بلد واحد» على قول تروتسكي Trotsky بدولية الاشتراكية في العشرينيات من القرن العشرين، وقف الروس إلى جانب شيانغ أكثر من وقوفهم إلى جانب ماوتسي تونغ، بل إنهم نصحوا ماو أكثر من مرة بأن يحلّ جيشه وأن ينضم إلى حكومة شيانغ [١٧] ولاسيما في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، عندما واجه الاتحاد السوفييتي أزمة في إعادة البناء المتعثرة، لم يستهوِه احتمال أن يضطر إلى انتشال الدولة الأكثر سكاناً في العالم لإدخالها في العصر الحديث. وفي عام ١٩٤٧ قال الجنرال مارشال علناً إنه ليس لديه أي دليل إلى أن الشيوعيين الصينيين يلقون مساندة من الاتحاد السوفييتي [١٨].

ولكن ذلك لم يمنع نشوء أسطورة كاملة في الولايات المتحدة عن كيفية «خسارة» الولايات المتحدة للصين: الأسطورة عزت هذه الخسارة إلى التدخل السوفييتي، وإلى

الشيوعيين في وزارة الخارجية الأمريكية، وإلى الجبناء في البيت الأبيض، وإلى الحماقة العسكرية والدبلوماسية، وإلى المخدوعين بالشيوعيين ومن هم على شاكلتهم في وسائط الإعلام - أي خيانة في كل مكان..

لقد قال السناتور جوزيف ماكارثي بعبارات ساخرة متميزة، إن إدارة ترومان كانت مؤلفة من «ليبراليين مزيفين يمتصون البيض» ويسبغون الحماية على الشيوعيين والشاذين» الذين «باعوا الصين إلى عبودية الإلحاد» (١٩).

مع ذلك، كان من العسير أن يرى المرء، دون الإقدام على غزو شامل للصين من قبل أعداد كبيرة من الجنود الأمريكيين، ما الذي كان باستطاعة الولايات المتحدة أن تفعله زيادة عما فعلته لتحول دون سقوط شيانغ. وحتى بعد هرب شيانغ إلى تايوان، تابعت الولايات المتحدة حملة لا هوادة فيها ضد الحكومة الشيوعية، بالرغم من تلقيها طلباً من شوان لاي للمساعدة والصداقة. إن هذا الزعيم الأحمر لم يكن يرى أي مانع عملي أو أيديولوجي أمام ذلك (٢٠) بدلاً من ذلك، كان جلياً أن الولايات المتحدة تآمرت لاغتيال شوان لاي في مناسبات عديدة (٢١).

لقد لجأ كثيرون من الجنود الوطنيين إلى شمال بورما في الخروج الكبير عام ١٩٤٩، وهذا ما أزعج كثيراً حكومة بورما. هناك شرعت وكالة المخابرات المركزية في إعادة تجميع هذا الجيش الذي لا ينتمي إلى دولة لتجعل منه قوة مقاتلة، وخلال الخمسينيات من القرن العشرين حدث عدد من الغارات على الصين، منها ما هي واسعة النطاق أو صغيرة النطاق. وفي إحدى المرات، وكان ذلك في شهر نيسان (ابريل)، عام ١٩٥١، اجتاز الحدود إلى الصين في مقاطعة يونان، بضعة آلاف من الجنود، يرافقهم مستشارون من وكالة المخابرات المركزية، وجرى تموينهم من الجو بواسطة طائرات أمريكية من طراز (C46) و(C47)، ولكن الشيوعيين ردّوهم على أعقابهم في أقل من أسبوع. كانت الإصابات في صفوفهم كبيرة وشملت العديد من مستشاري وكالة المخابرات المركزية الذين لاقوا حتفهم. كانت هناك غارة أخرى في صيف ذلك العام وصل خلالها الغزاة إلى عمق ٦٫٥ أميال داخل الصين، حيث قيل إنهم سيطروا على قطعة من الأرض طولها مئة ميل.

وبينما استمرت الهجمات متقطّعة، انطلقت وكالة المخابرات المركزية في عملية بناء قدرات القوات المسلحة. وصل مهندسون أمريكيون للمساعدة في بناء وتوسيع مهابط الطائرات في بورما، ونُقل جواً من تايوان جنود جدد، وجرى تجنيد جنود آخرين من أبناء قبائل التلال في بورما، وجيء بأسراب جوية تابعة لوكالة المخابرات المركزية للقيام بالخدمات اللوجستية، وتم نقل كميات هائلة من الأسلحة الثقيلة الأمريكية عن طريق البحر. إن كثيرين من الرجال وأعداداً كبيرة من المعدات نقلوا عبر تايلاند المجاورة.

ما لبث عديد الجيش أن توقف عند الرقم ١٠,٠٠٠ رجل. مع نهاية عام ١٩٥٢، ادعت تايوان أن ٤١,٠٠٠ جندي شيوعي قتلوا وأكثر من ٣,٠٠٠ جرحوا. من المرجح أن هذه أرقام مبالغ فيها، وحتى لو لم تكن كذلك، فقد كان واضحاً أن الغارات لن تؤدي إلى عودة شيانغ المظفرة إلى البّر الصيني الرئيس، مع أن هذه العودة لم تكن الغاية الوحيدة للغارات. كانت هناك معركتان كبريان تحتدمان على حدود الصين: إحداهما في كوريا والأخرى في فيتنام. كان أمل الولايات المتحدة أن تتمكن من إرغام الصينيين على إبعاد جنودهم ومواردهم العسكرية عن هاتين المنطقتين. لقد كانت جمهورية الصين الشعبية الفتيّة تجتاز اختباراً رهيباً.

بين غارة وأخرى على الصين، وجد «الشينات Chinats» (وهم يختلفون عن الشيكوم Chicoms) الوقت للاشتباك تكراراً مع الجنود البورميين، وارتكاب أعمال السلب والنهب، وأن يصبحوا سادة الأفيون في المثلث الذهبي، تلك القطعة من الأرض التي تضم أجزاء من بورما، ولاووس، وتايلاند، والتي كانت أكبر مصدر في العالم للأفيون والهيروين، وقام طيارو وكالة المخابرات المركزية بنقل هذه المخدرات إلى أماكن متعددة لتأمين التعاون من قبل أولئك الذين في تايلاند لأنهم كانوا على قدر من الأهمية للعملية العسكرية، كمعروف يقدمونه لزبائنهم الوطنيين، وربما من أجل المال أيضاً وكذلك - وهذا ما يدعو للسخرية - للتستر على أنشطتهم الأكثر خروجاً على الشرعية.

ظل الشينات في بورما يضايقون الشيكوم حتى عام ١٩٦١ وظلت وكالة المخابرات المركزيّة تزوّدهم بالمساعدات العسكرية، ولكنّ الوكالة بدأت عند حدّ ما تنأى بنفسها تدريجياً عن التدخل الأكثر مباشرة. وعندما مارست وكالة المخابرات المركزية، استجابة للاحتجاجات المتكررة التي قدمتها حكومة بورما إلى الولايات المتحدة والأمم المتحدة، الضغط على الشينات لمغادرة بورما، كان رد شيانغ على ذلك بالتهديد بأن يفضح مساندة الوكالة السرية لقواته هناك. وكانت وكالة المخابرات المركزيّة، في مرحلة سابقة، قد راودها الأمل في إمكانية استفزاز الصينيين بحيث يهاجمون بورما، وبهذه الطريقة يمكن إرغام بورما الملتزمة الحياد التزاماً شديداً، على نشدان الخلاص في المعسكر الغربي [٢٢]. في كانون الثاني (يناير) ١٩٦١ كان هذا تماماً ما فعله الصينيون، ولكن كقوة مشتركة مع البورميين للسيطرة على قاعدة الوطنيين الرئيسية وتسجيل ختام لمغامرتهم في بورما. على إثر ذلك، تخلت بورما عن المساعدة الأمريكيّة وتقاربت أكثر مع بكين [٢٣]. بالنسبة لكثيرين من الشينات، لم تدم البطالة طويلاً، ذلك أنهم ما لبثوا أن تعاقدوا مرة أخرى مع وكالة المخابرات المركزية، للقتال هذه المرة مع جيش الوكالة الكبير في لاووس.

لم تكن بورما الموقّع الوحيد لانطلاق الغارات التي تنظمها وكالة المخابرات المركزيّة على الصين. كانت هناك جزر عديدة تبعد عن السّاحل الصيني نحو خمسة أميال، وخاصة جزيرة كيموي Quemoy وجزيرة ماتسو Matsu، استخدمت كقواعد لشن هجمات كرٍّ وفر، غالباً بقوة فوج battalion، وللقيام بحملات قصف، ومحاصرة موانىء البر الرئيسي، مارست الولايات المتحدة «ضغطاً وحشياً» على شيانغ لبناء قواته على الجزر بدءاً من حوالي عام ١٩٥٣ كبرهان على سياسة واشنطن الجديدة الرامية إلى «إطلاقه» [٢٤].

ردَّ الصينيون مرات عديدة بهجمات مدفعية ثقيلة على جزيرة كيموي، وفي إحدى المرّات تسببوا بمقتل ضابطين أمريكيين. إن احتمال تصعيد الحرب حمل الولايات المتحدة على إعادة النظر طالبة من شيانغ أن يتخلى عن الجزر، ولكنّه

رفض في ذلك الحين. لقد قيل مراراً إن شيانغ كان قد وضع خطته لزجِّ الولايات المتحدة في حرب من هذا القبيل باعتبار أن تلك هي وسيلته الوحيدة للعودة إلى البرِّ الصيني الرئيسي(٢٥).

نُفذت غارات عديدة على الصّين بواسطة وحدات أصغر من قوات الكوماندو التي أنزلت من الطائرات للقيام بأعمال الاستخبارات والتخريب. في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢ أُسقطت طائرة ضابطين من ضباط وكالة المخابرات المركزيّة، هما جون داوني John Downay وريتشارد فيكتو Richard Fecteau اللذين سبق لهما أن شاركا في نقل هذه الوحدات جواً وإسقاط مؤن لها، فأسرهما الشيوعيون. مرت سنتان قبل أن تعلن بكين عن سقوطهما في الأسر وإصدار حكم عليهما. أما الإدارة الخارجية الأمريكية فقد أنهت التزامها الصّمت مدة سنتين بالتعبير عن غضبها، وادّعت أن الرّجلين كانا موظّفين مدنيّين في وزارة الجيش الأمريكية في اليابان، وكان مفترضاً أنهما فُقدا خلال طيرإنهما من كوريا إلى اليابان. «ليس لدى الولايات المتحدة علم بكيفية وقوع الرجلين في أيدي الشيوعيين الصينيين.. إن استمرار احتجاز هذين المدنيين الأمريكيين بصورة غير شرعية يوفر برهاناً آخر على عدم احترام نظام الحكم الصيني الشيوعي للأعراف المقبولة في السلوك الدولي» (٢٦).

أُفرج عن فيكتو في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧١ قبيل رحلة الرئيس نيكسون إلى الصين، أما داوني فلم يفرج عنه حتى شهر آذار (مارس) ١٩٧٣، بُعيد اعتراف نيكسون العلني بأنه ضابط في وكالة المخابرات المركزية.

صدر إعلان في بكين في عام ١٩٥٤ كشف عن إسقاط أحد عشر طياراً أمريكياً فوق الصين في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣، عندما كانوا في مهمة هدفها «إنزال عملاء خاصين في أراضي الصين والاتحاد السوفييتي»، كان هؤلاء الرجال أحسن حظاً، إذ أفرج عنهم بعد عامين ونصف العام. في إحصاء عام قال الصينيون إنهم قتلوا ١٠٦ عملاء أمريكيين وتايوانيين نزلوا بالمظلات في الصين بين العامين ١٩٥١ و١٩٥٤ وأسروا ١٢٤ آخرين. ومع أن وكالة المخابرات المركزية لم يكن عندها

ما تقوله عن نجاح عمليات الكوماندو التي نفذتها، فقد حافظت على البرنامج حتى عام ١٩٦٠ على أقل تقدير [٢٧].

نفذت وكالة المخابرات المركزية عمليات طيران عديدة أخرى فوق الصين لأغراض التجسس، بواسطة طائرات (يو تو U - ٢) التي تحلق على ارتفاع كبير، وبواسطة طائرات بدون طيار، وطائرات أخرى. بدأت عمليات الطيران هذه حوالي أواخر الخمسينيات من القرن العشرين ولم تتوقف حتى عام ١٩٧١، ليتوافق توقفها مع زيارة هنري كيسنجر الأولى إلى بكين، ولم تمر هذه العملية بدون وقوع حوادث. لقد تم إسقاط العديد من طائرات (يو تو) وإسقاط عدد أكبر من الطائرات بدون طيار، وبحسب الأرقام الصينية تم إسقاط ١٩ من هذه الطائرات بدون طيار في المدة بين عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٩، وسجلت الصين مئات «التحذيرات الجدية» من انتهاك أجوائها، وفي إحدى المرات على أقل تقدير عبرت طائرة أمريكية الحدود الصينية وأسقطت طائرة من طراز (ميغ ١٧ migh17) [٢٨].

يبدو لنا أن أية درجة من الفشل أو ضعف النتائج كانت كافية لردع وكالة المخابرات المركزية عن التماس طرق جديدة لتعذيب الصينيين خلال العقد من الستين بعد ثورتهم. كانت التيبت قضية أخرى ذات علاقة بالموضوع، لقد ادعت حكومة بكين أن التيبت جزء من الصين، وهذا ما كانت قد ادعته حكومات صينية سابقة على مدى أكثر من قرنين، مع أن كثيرين من سكان التيبت كانوا يعتبرون أنفسهم متمتعين بحكم ذاتي أو باستقلال. لقد أوضحت الولايات المتحدة موقفها خلال الحرب:

«لقد أخذت حكومة الولايات المتحدة بعين الاعتبار حقيقة أن الحكومة الصينية ادعت منذ زمن طويل أن لها الولاية على التيبت وأن الدستور الصيني يورد التيبت بين المناطق التي تشكل أراضي جمهورية الصين. إن هذه الحكومة لم يسبق أن أثارت في أي وقت تساؤلاً إزاء أي من هذه الادعاءات» [٢٩].

بعد الثورة الشيوعية كان ميل المسؤولين في واشنطن إلى اتخاذ موقف أكثر التباساً في هذا الشأن. ولكن إجراءات الولايات المتحدة ضدّ التيبت لم تكن لها أية علاقة بالمجاملات التي يقتضيها القانون الدولي.

في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين بدأت وكالة المخابرات المركزية بتجنيد لاجئين من أبناء التيبت، وآخرين منهم يعيشون في المنفى في بلدان مجاورة كالهند ونيبال. من مجموع هؤلاء كان أعضاء من حرس الدالاي لاما، الذين كان يشار إليهم على سبيل إعطاء صورة رائعة عنهم بصفتهم «فرسان خامبا المرهوبين»، إضافة إلى آخرين ممن شاركوا في بعض نشاط حرب العصابات ضد حكم بكين و/أو ضد التغييرات الاجتماعية العميقة التي نفذتها الثورة (كانت عبودية الفلاحين والرقيق لا تزالان سائدتين فعلاً في التيبت). والذين كان يقع عليهم الاختيار كانوا ينقلون جواً إلى الولايات المتحدة، إلى قاعدة عسكرية غير مستخدمة في أعالي جبال كولورادو، أي على ارتفاع يقارب ارتفاع الجبال في وطنهم. هناك، وخفيةً قدر الإمكان عن السكان المحليين، كان يجري تدريبهم على أصول حرب العصابات.

بعد انتهاء التدريب، كانت كل مجموعة من هؤلاء (أبناء التيبت) تنقل جواً إلى تايوان أو إلى بلد صديق آخر في آسيا، ومن هناك يتم تسللهم إلى التيبت، أو إلى مكان آخر في الصين، حيث ينشطون في أعمال تخريبية، وزرع الألغام على الطرق، وقطع خطوط الاتصالات، ونصب كمائن لقوات شيوعية صغيرة. وكانت أعمالهم تلقى الدعم من طائرات وكالة المخابرات المركزية وأحياناً يتولى قيادتهم مرتزقة تعاقدت معهم الوكالة. وأقيمت منشآت دعم واسعة في شمال شرق الهند.

هذه العملية في كولورادو استمرت حتى وقت ما في الستينيات من القرن العشرين. قد لا نعلم إطلاقاً كم من مئات أبناء التيبت الذين اجتازوا التدريب. وحتى عندما انتهى برنامج التدريب، واصلت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تمويل وتموين عملائها الغرباء وحاولت أن تحي في نفوسهم الحلم الذي لا أمل في تحقيقه، حلم استعادة البر الصيني الرئيسي.

في عام ١٩٦١، عندما علمت جريدة «نيويورك تايمز» بعملية كولورادو، وافقت على طلب من البنتاغون بالكفّ عن متابعة الموضوع [٣٠] كانت هذه المسألة حساسة بصورة خاصة لأن ميثاق وكالة المخابرات المركزية لعام ١٩٤٧ وتفسير الكونغرس لهذا الميثاق كانا تقليديان يحصران عمليات الوكالة في الداخل بجمع المعلومات.

علاوة على أعمال إزعاج الصين بالذات، كان هناك امتداد الحرب الكورية إلى داخل الأراضي الصينية، العديد من غارات الطائرات الأمريكية التي حسب التقارير الصينية، أودت بأرواح المدنيين ودمرت البيوت. ثم كانت هناك مسألة الحرب الجرثومية.

كرّس الصينيون جانباً كبيراً من جهدهم لنشر ادعائهم بأن الولايات المتحدة، وخاصة في المدة من كانون الثاني (يناير) إلى آذار (مارس) ١٩٥٢ ألقت كميات من الجراثيم والحشرات حاملة الجراثيم على كوريا وشمال شرق الصين، وعرضت في هذا الشأن شهادات نحو ٣٨ طياراً أمريكياً وقعوا في الأسر بعد أن قادوا الطائرات المحملة بالمواد المميتة. كثيرون من هؤلاء الرجال قدموا تفصيلات كبيرة عن كامل العملية: أنواع القنابل والحاويات الأخرى التي ألقيت من الجو، أنواع الحشرات، الأمراض التي تنقلها هذه الحشرات، إلخ. وفي الوقت ذاته نشرت صور القنابل الجرثومية والحشرات المزعومة. ثم، في شهر آب (أوغسطس) شكلت «لجنة علمية دولية» مؤلفة من علماء ينتمون إلى السويد، وفرنسا، وبريطانيا العظمى، وإيطاليا، والبرازيل والاتحاد السوفييتي، وبعد أعمال التحقيق التي جرت في الصين على مدى أكثر من شهرين، أصدرت اللجنة تقريراً من نحو ٦٠٠ صفحة، مرفقاً بالعديد من الصور، خلاصته أن:

«شعب كوريا وشعب الصين كانا هدفين لأسلحة جرثومية، هذه الأسلحة استخدمت من قبل وحدات من القوات المسلحة الأمريكية، التي استخدمت أساليب مختلفة ومتنوعة لهذه الغاية، بعضها بدا أنه تطوير لبعض الأسلحة التي استخدمها اليابانيون خلال الحرب العالمية الثانية» [٣١].

الإشارة الأخيرة تتعلق بتجارب الحرب الجرثومية التي نفذها اليابانيون ضد الصين بين العامين ١٩٤٠ و١٩٤٢. وقد ألقت الولايات المتحدة القبض في عام ١٩٤٥ على العلماء اليابانيين المسؤولين عن هذا البرنامج، ومنحوا حصانة ضد الإعدام مقابل تزويد علماء أمريكيين من مركز الأبحاث البيولوجية التابع للجيش الأمريكي في فورت دتريك، بولاية ماريلاند، بالمعلومات الفنية عن التجارب اليابانية، وكان الصينيون قد علموا بذلك في أثناء التحقيق الذي أجرته اللجنة العلمية الدولية [٣٢].

لابد من ملاحظة أن بعض أقوال الطيارين الأمريكيين تضمن الكثير من المعلومات البيولوجية الفنية وكان محشواً بتعابير شيوعية – «امبريالية، دعاة الحرب من رأسماليي وول ستريت» وما شابه ذلك – مما يفترض الشك جدياً بأنهم فعلاً أصحاب هذه الأقوال. علاوة على ذلك، تبين لاحقاً أن معظم الطيارين أدلوا باعترافاتهم فقط بعد تعرضهم لإساءة معاملة جسدية[٣٣].

ولكن نظراً لما علمنا عن تورط الأمريكيين في استخدام أسلحة كيميائية وبيولوجية، فإنه لا يمكن رفض الادعاءات الصينية مباشرة. على سبيل المثال، ذكرت جريدة «نيويورك تايمز» في عام ١٩٧٠، أنه خلال الحرب الكورية، عندما كانت «الموجات البشرية» الصينية متفوقة على القوات الأمريكية «نبش الجيش الأمريكي في وثائق استولى عليها تتعلق بالحرب النازية الكيميائية، وصفاً لغاز السارين، وهو غاز أعصاب قاتل تكفي بضعة باوندات منه لقتل آلاف الناس خلال دقائق.. ومع حلول منتصف التسعينيات من القرن العشرين، كان الجيش الأمريكي يصنع آلاف الغالونات من غاز السارين»[٣٤].

ثم إن الجيش الأمريكي ووكالة المخابرات المركزية أجريا خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين تجارب عديدة على العوامل البيولوجية داخل الولايات المتحدة. نأتي هنا على ذكر مثالين فقط: في عام ١٩٥٥، هنالك بينة قوية على إطلاق وكالة المخابرات المركزية بكتيريا السعال الديكي في أجواء ولاية فلوريدا،

وتبعت ذلك زيادة حادة في حالات هذا المرض في الولاية خلال ذلك العام (٣٥) وفي العام التالي نشرت مادة سامة أخرى في شوارع وأنفاق مدينة نيويورك (٣٦) وسنرى في الفصل الخاص بكوبا من هذا الكتاب كيف شنت وكالة المخابرات المركزية حرباً كيميائية وبيولوجية على حكم فيدل كاسترو.

في آذار (مارس) عام ١٩٦٦، تحدث وزير الخارجية الأمريكي دين راسك Dean Rusk أمام إحدى لجان الكونغرس عن السياسة الأمريكية تجاه الصين. يبدو أن السيد راسك كان مرتبكاً لأن «القادة الصينيين الشيوعيين بدا أنهم كانوا مهووسين بفكرة أنهم يتعرضون للتهديد والمحاصرة». وهو تحدث عن فكرة الصين «الخيالية والطبية القائلة إن الولايات المتحدة وبلداناً أخرى محيطة بحدود الصين تتحين فرصة لغزو السبر الصيني الرئيسي وتدمير نظام حكم بيبينغ Peiping (بكين)». ثم أضاف:

«لا أحد غير القادة الشيوعيين الصينيين يعرف مدى صحة «خوف» بيبينغ من الولايات المتحدة ومدى كونه مختلقاً لأغراض سياسية داخلية. بيد أني مقتنع بأن الدافع إلى رغبتهم في إبعاد نفوذنا ونشاطنا عن غرب المحيط الهادي وجنوب شرق آسيا ليست المخاوف من تهديدنا لهم» (٣٨).

ألبانيا ١٩٤٩ - ١٩٥٣
الجاسوس الإنكليزي بامتياز

قال أحد الذين كتبوا سيرة حياة (كيم فيلبي Kim Philby) [1]: «إن وضع خطة هذه المغامرة الفاشلة وتخريبها في آن واحد كانا حتماً اختباراً قاسياً لطاقته وذكائه». أما المغامرة فقد كانت المحاولة السرية، التي بدأت في عام ١٩٤٩ من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى للإطاحة بنظام حكم أنور خوجا الموالي للسوفييت عن طريق انتفاضات تطلقها حرب عصابات.

انتهت المغامرة بكارثة، ويعود السبب جزئياً إلى أن الروس كما ظهر قد نبههم فيلبي، الرجل الإنكليزي بامتياز، الذي تعلّم في جميع المدارس اللائقة واخترق أرفع أوساط المخابرات البريطانية والأمريكية، مع أنه كان قد صار جاسوساً سوفيتياً وهو في سن الواحد والعشرين.

كان فيلبي قد انتقل في العام السابق إلى واشنطن بصفة ضابط ارتباط المخابرات البريطانية (SIS British secret Intelligence Service) لدى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وهو بهذه الصفة عمل مديراً شريكاً Condirector لمجموعة (CIA - SIS) المكلفة بالتخطيط لعملية ألبانيا. وكان قد وقع الخيار على ألبانيا لأنها اعتبرت الأسهل إصابة بين الدول الاشتراكية وأصغرها وأضعفها، وليست لها حدود مشتركة مع الاتحاد السوفييتي، وهي معزولة بين اليونان الخاضعة لإشراف الولايات المتحدة، ويوغسلافيا التي كانت متمردة على الكتلة السوفييتية. علاوة على ذلك، كانت قد عقدت مؤخراً اتفاقية بين الاتحاد السوفييتي وألبانيا تقضي بتقديم مساعدة إلى ألبانيا لقاء منح السوفييت حق بناء قاعدة غواصات لها

اتصال مباشر بالبحر الأبيض المتوسط [٢] إن قواعد ومنطق لعبة الحرب الباردة كانت تقضي بأن تحبط الولايات المتحدة هذه الخطوة.

بدأت مجموعة العمل بتجنيد المهاجرين الألبان المبعثرين الذين كانوا يعيشون في اليونان وأماكن أخرى، وهؤلاء جرى إخضاعهم لتدريب عسكري أساسي، من ضمنه تدريب على حرب العصابات، وذلك في مواقع أقيمت في جزيرة مالطا البريطانية في البحر الأبيض المتوسط، وفي القطاع الذي تحتله أمريكا في المانيا الغربية، وبدرجة أقل في انكلترة ذاتها[٣] لقد قال فرانك وازنر Frank Wisner رئيس قسم العمليات السرية في وكالة المخابرات المركزية متحدثاً إلى فيلبي، ومؤتمناً إياه على هذا السر: «عندما نريد تقويض أي مكان نجد أن البريطانيين يملكون جزيرة في متناول اليد»[٤].

كان يتم إعادة المهاجرين إلى وطنهم بصورة متقطعة، وعلى مدى نحو ثلاث سنوات ونصف السنة، متسللين إلى جبال اليونان ثم يجتازون الحدود أو يتم إنزالهم بالمظلات من طائرات تنطلق من قواعد في أوروبا الغربية، أو يدخلون ألبانيا بحراً من إيطاليا. وكانت طائرات ومناطيد أمريكية تلقي من الجو نشرات دعائية ومواد نادرة الوجود في ألبانيا، كالطحين والحلاوة والإبر وشفرات الحلاقة مرفقة بقصاصة ورق كتب عليها أن هذه المواد هدية من «جبهة التحرير الوطني الألبانية» [٥] وهذا مثال آخر على أسلوب «التسويق» الذكي الذي أوجدته وكالة المخابرات المركزية في الولايات المتحدة واستخدمته في العديد من عملياتها.

الخطة، الأمل، كانت في مجملها تقضي بإيصال رجال العصابات إلى المناطق القديمة في وطنهم لكي يحاولوا إثارة المشاعر المعادية للسوفييت وللشيوعيين مما يؤدي بالتالي إلى انتفاضات. كان على رجال العصابات أن يوزعوا النشرات الدعائية، وأن يجمعوا معلومات سياسية واقتصادية وعسكرية وأن يمارسوا أعمالاً تخريبية وأن يجندوا أفراداً في خلايا ويزودوهم بمعدات. ومع زيادة عدد الرجال وكميات المواد لاحقاً كانت هذه الخلايا تتوسع لتصبح «مراكز مقاومة»[٦].

وكان الرأي التقليدي السائد في الحرب الباردة أن جماهير أوروبا الشرقية كانت تنتظر من يطلق ضمنها شرارة ثورة علنية للحصول على حريتها. وحتى لو كان هذا هو واقع الأمر، فإن اختيار إشعال نار الثورة كان مشكوكاً فيه إلى حد كبير، لأنه كان بين رجال العصابات كثيرون من المؤيدين لاستعادة العرش الألباني في شخص الملك زوغو الرجعي الذي كان يعيش في المنفى، وآخرين ممن سبق لهم أن تعاونوا مع الفاشيست الإيطاليين أو مع النازيين عندما كان هؤلاء يحتلون ألبانيا في زمن الحرب.

لا ريب في أنه كان في مختلف لجان المهاجرين من هم أصحاب ميول جمهورية وديموقراطية، ولكن أوراق وزارة الخارجية الأمريكية، التي رفعت عنها السرية لاحقاً تكشف أن عملاء ألباناً بارزين لعبوا أدواراً قيادية في تشكيل هذه اللجان. كان هؤلاء أفراداً وصفتهم وزارة الخارجية الأمريكية بأنهم أصحاب خلفيات سياسية متنوعة نوعاً ما، وأنهم «عاجلاً أو آجلاً» سيسببون حرجاً للحكومة». وقد سُمح لهؤلاء بدخول الولايات المتحدة رغم اعتراضات وزارة الخارجية العائدة إلى «اعتبارات استخبارية». أحد هؤلاء السادة المتنوعين كان (خافر ديفا hafer Deva) وزير الداخلية في زمن الاحتلال الإيطالي والذي كان مسؤولاً عن ترحيل «اليهود والشيوعيين والوطنيين والأشخاص المشبوهين» (وهذا ما بيّنه تقرير نازي تم الاستيلاء عليه) إلى معسكرات الإبادة في بولندا(٧).

بدأت محطة إذاعة سرية قوية، باسم اللجنة الوطنية من أجل ألبانيا الحرة، وبتمويل من وكالة الاستخبارات المركزية، البث داخل البلاد، داعية إلى تحرير الدولة من الاتحاد السوفييتي.

في مطلع العام ١٩٥١ صدرت أخبار عديدة من ألبانيا عن مقاومة منظمة وانتفاضات علنية(٨). أما إلى أي مدى كانت هذه الأمور تحدث نتيجة للتسلل والتحريض الغربي، فهذا أمر يستحيل البت فيه. وفوق ذلك لم يكن في الحملة إلا القليل لإبراز جهودها. فقد كانت طوال الوقت ملاحقة بأخطاء لوجستية وبالواقع الكئيب فيما يتعلق باستقبال جماهير الألبانيين للمهاجرين كأناس أدنى من محررين،

إما بسبب الخوف من نظام حكم أنور خوجا القاسي، أو لأن هذه الجماهير كانت تدعم التبديلات الاجتماعية الجارية أكثر مما تثق بما يعرضه المهاجرون.

أسوأ الأمور أن السلطات الألبانية كانت تبدو عادة على علم بالمنطقة التي سيصل إليها رجال العصابات، وموعد وصولهم. لم يكن كيم فيلبي المصدر المحتمل الوحيد لكشف هذه المعلومات. فقد كان من المؤكد تقريباً أن المجموعات الألبانية مخترقة، كما أن ثرثرة المهاجرين الحمقى يمكن أن تكون أسهمت في حدوث الفضيحة. إن فيلبي، في إشارة منه إلى عادة أعضاء مجموعة (CIA. SIS) في السخرية من الألبان كتب يقول: «حتى في أشد اللحظات جدية، كنا نحن الانكلو-سكسون ننسى أن عملاءنا كانوا يتربصون على مسافة قصيرة من الأشجار»[٩].

كان الأمن متراخياً إلى حد أن (سايروس سولزبيرغر Cyrus Sulzberger)، مراسل جريدة «نيويورك تايمز»، أرسل عدة رسائل من منطقة البحر الأبيض المتوسط تدور حول التدخل ولا تحتاج فعلياً إلى قراءة بين السطور[١٠] (لم تحمل مقالاته عناوين رئيسية لافتة للانتباه، ولم تعلق عليها واشنطن بصورة علنية، ولم يطرح أحد من المراسلين أي سؤال محرج على مسؤولي الحكومة.. وبالتالي: «لا وجود لحدث» (بالنسبة للأمريكيين).

بالرغم من الإخفاقات المتتابعة الواحد بعد الآخر، وبدون سبب وجيه لتوقع أي شيء مختلف في المستقبل، استمرت العملية حتى ربيع العام ١٩٥٣ وتسببت في موت أو سجن مئات الرجال. لم يكن الأمر ببساطة هوس بتر أحد أصابع ستالين. لقد استُثمرت الوجاهة المهنية وسير الحياة المهنية وكانت هناك حاجة لنجاح ملحوظ في «إعادة تجميع الخسائر السابقة» و «تبرير القرارات الصادرة»[١١].

إن الرجال الذين خسرتهم الحملة كانوا ألبانيين فقط، ولا يعرفون كلمة واحدة من لغة الملكة الانكليزية ولم يكونوا يعرفون السير مرفوعي القامة.

غيـر أنه كـان هناك خطر تصـاعد العـمليـة إلى نزاع مع الاتحـاد السـوفييـتي. والواقـع أن السـوفيـيت أرسلوا بعض الطـائرات المقـاتلة الجـديدة إلى ألبـانيـا، بما يفترض أنه أمل في أن يتمكنوا من إسقاط الطائرات الأجنبية المغيرة[١٢]. ولم يكن من الممكن أن تخفق هذه العملية في تذكير ستالين وأنور خوجا وكامل الكتلة الاشتراكية بتدخل غربي آخر كان قد حدث قبل ثلاثين عاماً في الاتحاد السوفييتي. كل ما كانت تفعله هذه العملية هو أنها تزيد هذه الأطراف شعوراً بالخوف من النوايا الغربية وأن تقنعها بزيادة إحكام إجراءات الأمن الداخلي. والحقيقة أن أنور خوجا كـان لا يفتـأ خـلال السنين اللاحقـة بالحـديث عن «الغـزو» الأمـريكي والبـريطاني واستخدام هذه الكلمة لتبرير سياسة العزلة التي اتبعها[١٣].

في مطلع الستينيات من القرن العشرين فعل أنور خوجا ما فشلت وكالة الاستخبارات المركزية والمخابرات البريطانية في فعله: لقد أخرج ألبانيا من فلك الاتحاد السوفييتي. وقام هذا الزعيم الألباني بتطهير حكومته من المسؤولين الموالين للاتحاد السوفييتي وانحاز ببلاده إلى الصين. لم يكن هناك عمل انتقامي عسكري من جانب الاتحاد السوفييتي. وفي منتصف السبعينيات من القرن العشرين «تخلى أنور خوجا عن الصين أيضاً».

إيران ١٩٥٣
جعلها آمنة لملك الملوك

«وهكذا نتخلص من ذلك المعتوه مصدق»، بهذه العبارة خاطب جون فوستر دالس John Foster Dulles مجموعة من كبار صانعي السياسة في واشنطن في أحد أيام شهر حزيران (يونيو) ١٩٥٣[١]. كان وزير الخارجية الأمريكي يمسك بيده خطة عملية للإطاحة برئيس وزراء إيران من إعداد كرميت (كيم) روزفلت Kermit (Kim) Roosevelt أحد موظفي وكالة المخابرات المركزية. لم يكن في الغرفة إلا فيما ندر أي نقاش بين كبار أصحاب السلطة، ولم تكن هناك إلا فيما ندر أسئلة استطلاعية، ولم يقم أحد بإثارة أية مسائل قانونية أو أخلاقية.

كتب روزفلت لاحقاً: «هذا قرار خطير كان علينا اتخاذه، وهو قرار ينطوي على مجازفة ضخمة. وهو بالتأكيد يستحق دراسة وافية، والنظر فيه عن كثب، في مكان ما على أعلى المستويات. ولم يسبق أن نال مثل هذا القدر من التفكير في هذا الاجتماع. والحقيقة انني كنت متيقناً من الناحية الأخلاقية أن نحو نصف الحاضرين في الاجتماع كانوا يودون معارضة المشروع لو أنهم شعروا بحرية المعارضة أو امتلكوا الشجاعة للكلام»[٢].

كان روزفلت، حفيد ثيودور Theodore وأحد أبناء عم فرانكلين Franklin، يعبّر عن الدهشة أكثر مما يعبر عن خيبة الأمل بسبب عدم معالجة التهاون في صنع السياسة الخارجية الأمريكية.

كانت المبادرة لعزل مصدق قد جاءت أصلاً من البريطانيين، لأن الزعيم الإيراني المتقدم في السن اتخذ دور الطليعة في التحرك البرلماني لتأميم شركة النفط الأنغلو - إيرانية التي تملكها بريطانيا، والتي كانت شركة النفط الوحيدة

العاملة في إيران. في شهر آذار (مارس) ١٩٥١ جرى إقرار مشروع قانون التأميم، وفي نهاية شهر نيسان (إبريل) انتخب مصدق رئيساً للوزراء بأغلبية كبيرة من أعضاء البرلمان. في الأول من أيار (مايو) وضع التأميم موضع التنفيذ. وقد صرح مصدق بأن الشعب الإيراني «يفتح كنزاً مرصوداً يربض فوقه تنين» (٣).

وكما توقع رئيس الوزراء، لم يتقبل البريطانيون التأميم تقبلاً لطيفاً، مع أنه نال تأييد البرلمان الإيراني بإجماع الأصوات وتأييد غالبية طاغية من الشعب الإيراني لأسباب تعود إلى العدالة الاقتصادية والكبرياء الوطنية. وقد حاولت حكومة مصدق أن تفعل كل الأمور الصحيحة لتهدئة خواطر البريطانيين: عرضت أن تخصص ٢٥ بالمئة من الأرباح الصافية لعملية النفط كتعويض، وضمنت سلامة المستخدمين البريطانيين ووظائفهم، وأبدت استعدادها لبيع النفط الإيراني بدون أن يختل نظام الرقابة المحكم الأثير إلى قلوب عمالقة النفط الدوليين. ولكن البريطانيين لم يرضوا بشيء من ذلك. كانوا يريدون استعادة شركة النفط التي يملكونها، وكانوا يريدون رأس مصدق، فالخادم لا يهين سيده وينجو من العقاب.

قام الأسطول البريطاني باستعراض قوة عسكرية تبعه حصار اقتصادي دولي قاس ومقاطعة، وتجميد الممتلكات الإيرانية، الأمر الذي أدى إلى ركود تام في صادرات النفط الإيراني وتجارة إيران الخارجية، وأوقع البلد الذي كان يعاني أصلاً من الفقر في حالة تقرب من الاملاق، وجعلت دفع أي تعويض أمراً مستحيلاً. مع ذلك، وبعد وقت طويل من تحرك البريطانيين لطرد مصدق، طالبوا بتعويض ليس فقط عن الممتلكات المادية لشركة النفط الأنكلو-إيرانية، بل طالبوا أيضاً بقيمة مشروعهم لتطوير حقول النفط، وهو طلب تستحيل تلبيته، كما أنه، في نظر الوطنيين الإيرانيين، شيء عوضت عنه أضعافاً مضاعفة الأرباح البريطانية الضخمة على مدى عقود من السنين.

ما كان لمحاولة بريطانيا لخنق إيران اقتصادياً أن تبرح أرضها بدون تعاون نشط ودعم من جانب إدارة ترومان وإدارة ايزنهاور وشركات النفط الأمريكية. وفي الوقت

ذاته، كانت الحجة التي قدمتها إلى بريطانيا هي أن سقوط مصدق قد يفتح الباب أمام الكلام المألوف عن استيلاء الشيوعيين على الحكم [٤]. ولكن بعد طرد البريطانيين من إيران، لم يكن أمامهم بديل سوى التوجه إلى الولايات المتحدة طلباً للمساعدة في إسقاط مصدق. في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٥٢ اتصلت حكومة تشرشل بروزفلت، الذي كان كآمر واقع رئيس قسم الشرق الأوسط في وكالة المخابرات المركزية، الذي أبلغ البريطانيين أنه يشعر «بعدم وجود فرصة للحصول على موافقة من إدارة ترومان واتشيسون التي كانت تقترب من نهاية عهدها، غير أن موقف إدارة الجمهوريين الجديدة قد يكون مختلفاً تماماً» [٥].

بالتأكيد كان جون فوستر دالس مختلفاً. إن هذا المعادي للشيوعية والمؤمن بالوحي رأى في مصدق صورة تختزل كل ما يكرهه دالس في العالم الثالث: الحياد التام في الحرب الباردة، التسامح مع الشيوعيين، عدم احترام الاستثمار الحر كما يظهر في تأميم النفط. (من دواعي السخرية أن بريطانيا العظمى كانت في السنين السابقة قد أممت العديد من صناعاتها الأساسية، وكانت الحكومة هي المالك الرئيسي لشركة النفط الأنكلو-إيرانية).

بالنسبة لأمثال جون فوستر دالس كان الدكتور محمد مصدق غريب الأطوار، رجلاً مجنوناً. وعندما رأى وزير الخارجية الأمريكي أن إيران كانت دولة فاحشة الثراء في الذهب الأسود، وأن لها حدوداً مع الاتحاد السوفييتي تزيد عن ١٠٠٠ ميل، لذلك فإنه ابتلي عن حق بعدم اتخاذ قرار بشأن ما إذا كان رئيس الوزراء الإيراني يجب أخيراً أن يعتزل الحياة العامة.

ووفقاً لتطور الأمور، فإن إسقاط مصدق في شهر آب (أغسطس) عام ١٩٥٣ كان عملية أمريكية أكثر مما كان عملية بريطانية. وبعد مرور ستة وعشرين عاماً أقدم كرمت روزفلت على خطوة غير عادية بتأليفه كتاباً عن كيفية تنفيذه هو ووكالة المخابرات المركزية العملية. لقد وضع عنواناً لكتابه هو (انقلاب معاكس) وذلك لكي يعزز في داخل الولايات المتحدة فكرة أن الانقلاب الذي نفذته وكالة المخابرات

المركزية كان لغاية واحدة هي منع استيلاء الحزب الشيوعي الإيراني (حزب توده) على السلطة بدعم وثيق من الاتحاد السوفييتي وكانت حجة روزفلت بذلك هي أن مصدق كان لابد من عزله لمنع استيلاء الشيوعيين على الحكم بينما كانت إدارة ترومان تشعر بضرورة بقاء مصدق في السلطة لمنع استيلاء الشيوعيين على الحكم.

ليس من الصواب القول إن روزفلت يقدم دليلاً ضعيفاً لدعم مقولته عن الخطر الشيوعي. والأكثر دقة هو القول أنه لا يقدم أي دليل البتة. بدلاً من ذلك، يتعرض القارئ إلى مجرد تأكيدات لهذه المقولة تتكرر مرة بعد أخرى في الكتاب، وذلك على ما يبدو بدافع الاعتقاد أن التكرار سيقنع حتى الناس الأشد تشككاً. وهكذا فإننا نواجه في الكتاب تبدلات في الموضوع على النحو التالي:

«التهديد السوفييتي كان في الواقع حقيقياً، وخطراً وشيكاً»... إن مصدق «كان قد شكل تحالفاً» مع الاتحاد السوفييتي لعزل الشاه.. «التهديد الجلي لاستيلاء الروس على إيران».. «التحالف بين مصدق وحزب تودة الذي يسيطر عليه الروس كان يتخذ شكلاً تهديدياً».. «اعتماد مصدق المتزايد على الاتحاد السوفييتي».. «يد حزب توده، ومن ورائها الروس، تظهر بصورة أوضح يوماً بعد يوم».. «مساندة الروس لحزب توده ومساندة حزب توده لمصدق أصبحتا أكثر وضوحاً».. كان الاتحاد السوفييتي «أكثر نشاطاً في إيران. وكان إشرافه على قيادة حزب توده يزداد قوة طوال الوقت. وقد مارس هذا الإشراف في معظم الوقت وأمام أعيننا وبتظاهر متعمد».. [٦]. ولكن لا شيء من هذا النشاط التخريبي والتهديدي كان، كما يبدو، مكشوفاً وجلياً أو فيه ما يكفي من التظاهر بحيث يوفر لروزفلت مثالاً واحداً يمكن نقله إلى القارئ المتلهف للمعرفة).

في واقع الأمر، مع أن حزب توده كان إلى حد ما يتبع بإخلاص خط موسكو المتعرج تجاه إيران، فقد كانت علاقة الحزب مع مصدق أكثر تعقيداً بكثير مما أظهره روزفلت وغيره من رواة أحداث الحرب الباردة. كان حزب توده يشعر شعوراً شديد الإبهام إزاء رئيس الوزراء الثري والذي يملك أراضي واسعة وكان مع ذلك

صامداً في وجه الإمبريالية. لقد وصف دين أتشيسون، وزير خارجية ترومان، مصدق بأنه «فارسي هو أساساً غني ورجعي وإقطاعي العقلية» [٧]. أي أنه يصعب أن يكون حليفاً مثالياً لحزب شيوعي.

في ذلك الحين ساند حزب توده سياسات مصدق. ولكنه في أكثر الأحيان كان يهاجمها مهاجمة شديدة، وفي إحدى الحالات، وكان ذلك بتاريخ ١٥ تموز (يوليو) ١٩٥١ قمع مصدق قمعاً وحشياً مظاهرة كان يتبناها حزب توده ونتجت عن ذلك وفاة ١٠٠ شخص وإصابة ٥٠٠ شخص بجراح. علاوة على ذلك، قاد الزعيم الإيراني حملة ناجحة ضد الاحتلال السوفييتي الكامن في شمال إيران منذ الحرب العالمية، وفي شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٧ قاد البرلمان في رفضه الاقتراح الحكومي لإنشاء شركة نفط إيرانية - سوفييتية مشتركة لاستثمار نفط شمال إيران[٨].

ما الذي في الحقيقة يمكن أن يكسبه من التخلي عن أية سلطة من سلطاته لحزب توده و/أو الاتحاد السوفييتي؟ إن الفكرة القائلة بأن الروس كانوا راغبين في أن يتولى حزب توده السلطة هي ليست أكثر من تكهن. بل كان هناك الكثير من الدليل، أو القليل، الذي يمكن معه الاستنتاج بأن الروس، مرة أخرى، كانوا أكثر اهتماماً بعلاقتهم مع الحكومات الغربية، من اهتمامهم بمصير حزب شيوعي محلي في بلد يقع خارج الكتلة الاشتراكية في شرق أوروبا.

لقد جاء في تقرير استخباري صادر عن وزارة الخارجية الأمريكية بتاريخ ٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣، في أواخر أيام إدارة ترومان، أن مصدق لم يسعَ لعقد أي تحالف مع حزب توده، وأن «المعارضة الرئيسية للجبهة الوطنية (ائتلاف حكومة مصدق) ناشئة عن المصالح الثابتة من جهة وحزب توده من جهة أخرى»[٩].

كان حزب توده يعتبر حزباً غير شرعي في عام ١٩٤٩، ولم يرفع مصدق هذا الحظر عن الحزب، مع أنه سمح للحزب بأن ينشط علناً، على الأقل إلى حد ما نظراً لقناعاته الديموقراطية، وعين بعض المتعاطفين مع حزب توده في مناصب حكومية.

كان العديد من أهداف حزب توده متوازياً مع الأهداف التي تتبناها الجبهة الوطنية، حسب قول تقرير لوزارة الخارجية الأمريكية، ولكن «أي تحرك مكشوف من جانب حزب توده لتولي السلطة.. كان من المحتمل أن يوحد المستقلين وغير الشيوعيين من مختلف الاتجاهات السياسية ويؤدي.. إلى جهود قوية لتدمير حزب توده بالقوة» (١٠).

كانت الجبهة الوطنية ذاتها ائتلافاً بين عناصر سياسية شديدة التنوع وعناصر دينية من ضمنها أعداء الشيوعية من الجناح اليميني، يربط بينهم احترامهم لأخلاق مصدق ونزاهته، وكذلك المشاعر الوطنية ولاسيما من حيث تأميم النفط.

عندما سئل كرميت روزفلت في عام ١٩٧٩ عن هذا التقرير الصادر عن وزارة الخارجية، أجاب: «لا أعرف ماذا أقول عن ذلك.. كان لوي هندرسون Loy Henderson (السفير الأمريكي في إيران عام ١٩٥٣) يرى أن هناك خطراً جدياً بأن يقدم مصدق، فعلياً، على وضع إيران تحت السيطرة السوفييتية» (١١). ومع أن روزفلت كان القوة المحركة الرئيسية وراء الانقلاب، فإنه الآن كان يمر في مرحلة الاختبار وأصبح رجلاً تملكته، كما سنرى في الفصل الخاص بالشرق الأوسط، نزعة الكلام التخويفي عن «الاستيلاءات الشيوعية».

لا يملك المرء إلا أن يتساءل كيف تعامل روزفلت أو أي شخص آخر، مع بيان جون فوستر دالس أمام إحدى لجان مجلس الشيوخ الأمريكي في شهر تموز (يوليو) ١٩٥٣، عندما كانت عملية طرد مصدق في طور التنفيذ. قالت الصحف: إن وزير الخارجية قال في شهادته أمام اللجنة «إنه لم تكن هناك بيّنة هامة تشير إلى أن إيران كانت تتعاون مع روسيا. مضيفاً أن المعارضة الإسلامية للشيوعية كانت بوجه عام هي السائدة، ولو أن الحكومة الإيرانية بدت أحياناً تعتمد على تأييد من حزب توده، وهو حزب ذو ميول شيوعية» (١٢).

جاء في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية الاستخباري أن شاه إيران الفتي تدنى وضعه إلى ما يزيد قليلاً على دور سلبي، وذلك على يد مصدق والنهج السياسي الإيراني. لقد تضاءلت سلطته إلى حد «عجزه عن القيام بعمل مستقل». كان مصدق يضغط للحصول على السيطرة على القوات المسلحة وليكون له إشراف أكبر على نفقات البلاط الشاهنشاهي، بينما كان الشاه - «ملك الملوك» - عديم الخبرة وغير الحازم في قراراته متردداً في الإقدام على معارضة مكشوفة لرئيس الوزراء نظراً لشعبية رئيس الوزراء.

إن تسلسل الأحداث التي فجرها روزفلت وكانت خاتمتها تنازل الشاه عن العرش بدا بسيطاً عند استعادته، بل بدا ساذجاً، ولم يكن معتمداً على الحظ. كانت الخطوة الأولى هي طمأنة الشاه من قبل ايزنهاور وتشرشل إلى أنهما معه في كفاحه ضد مصدق لامتلاك السلطة وأنهما مستعدان لتزويده بما يحتاجه من الدعم العسكري والسياسي. والحقيقة هي أن روزفلت لم يكن يعلم ما هو شعور ايزنهاور، أو أنه كان يعمل ما هو شعوره إزاء العملية، بل إنه وصل إلى حد اختلاق رسالة من الرئيس الأمريكي إلى الشاه يعبر فيها عن تشجيعه [١٣].

وفي الوقت ذاته جرى إقناع الشاه بإصدار مراسيم ملكية تقضي بعزل مصدق من منصبه كرئيس وزراء ليحل محله شخص يدعى فضل الله زاهدي، وهو جنرال سبق أن سجنه البريطانيون خلال الحرب بسبب تعاونه مع النازيين [١٤] وفي ساعة متأخرة من ليل ١٥/١٤ آب (اوغسطس) سلم مبعوث من قبل الشاه المرسوم الملكي إلى منزل مصدق، الذي كان يحرسه الجنود. ولم يكن أمراً مفاجئاً أن المبعوث استقبل باستخفاف شديد ولم يسمح له بمقابلة رئيس الوزراء. بدلاً من ذلك، كان عليه أن يترك المرسوم عند خادم وقّع على إيصال باستلام قطعة الورق التي تنص على عزل سيده من السلطة. وليس أمراً مفاجئاً أيضاً أن مصدق لم يتخلَّ عن منصبه. إن رئيس الوزراء، الذي ظل متمسكاً بموقفه القائل إن البرلمان وحده يستطيع عزله، ألقى في صباح اليوم التالي خطاباً عبر الإذاعة قال فيه ان الشاه

حاول، بتشجيع من «عناصر أجنبية» أن يقوم بانقلاب، وأعلن مصدق أنه لذلك مضطر إلى ممارسة كامل السلطة بنفسه، وندد بالجنرال زاهدي واصفاً إياه بأنه خائن، وسعى لإلقاء القبض عليه، ولكن هذا الجنرال خبأه فريق عمل روزفلت.

أما الشاه، الذي خشي أن يكون خسر كل شيء، فقد هرب مع الملكة إلى روما عبر بغداد دون أن يتمكن حتى من إعداد حقيبة ملابس. لم يرتدع روزفلت، بل سارع بإصدار تعليماته بإعداد نسخ مصورة عن المرسوم الملكي لتوزيعها على الجمهور، وأوفد اثنين من العملاء الإيرانيين إلى كبار القادة العسكريين طالباً مساندتهم. يبدو أن هذا الأمر الحاسم كان متروكاً إلى الدقيقة الأخيرة، وكأنها إعادة تفكير في الأمر. والحقيقة أن أحد هذين الإيرانيين كان قد تم تجنيده لهذه الغاية في اليوم ذاته، وهو فقط الذي أفلح في الحصول على التزام بالدعم العسكري من ضابط إيراني برتبة كولونيل كانت تحت امرته دبابات وسيارات مصفحة (١٥).

اعتباراً من ١٦ آب (اوغسطس) شهدت العاصمة الإيرانية طهران مظاهرة جماهيرية نظمتها الجبهة الوطنية تأييداً لمصدق، وتنديداً بالشاه والولايات المتحدة. كان وصف روزفلت للمتظاهرين ببساطة أنهم «من حزب توده بتشجيع قوي من روسيا»، وهو مرة أخرى أخفق في تقديم أي دليل يدعم تأكيده هذا. أما جريدة «نيويورك تايمز» فقد وصفتهم بأنهم «مناصرون لحزب توده ومتطرفون وطنيون»، وصفة المتطرفين الوطنيين كان بالإمكان إطلاقها على أفراد يشكلون حلقة واسعة من الاتجاهات السياسية (١٦).

كان بين المتظاهرين أيضاً عدد من الأفراد العاملين لحساب وكالة المخابرات المركزية. ووفقاً لأقوال (ريتشارد كوتام Richard Cottam) وهو أكاديمي ومؤلف قيل إنه كان يعمل لحساب الوكالة في طهران آنذاك، إن هؤلاء العملاء أرسلوا «إلى الشوارع للتظاهر وكأنهم من حزب توده. لم يكونوا مجرد محرضين على التظاهر، بل كانوا جنوداً من الصاعقة تصرفوا وكأنهم من حزب توده وأخذوا يرشقون

المساجد ورجال الدين بالحجارة» وكان القصد وصم حزب توده، وبصورة ضمنية مصدق، بالعداء للدين [١٧].

خلال المظاهرات نادى حزب توده بمطلبه المألوف، أي إقامة جمهورية ديموقراطية، وناشد أنصار الحزب مصدق أن يشكل جبهة متحدة وأن يزوّدهم بالأسلحة للدفاع عن البلد ضد الانقلاب، ولكن رئيس الوزراء رفض طلبهم [١٨]. بدلاً من ذلك، أصدر في الثامن عشر من آب (أغسطس) أمراً إلى الشرطة والجيش لوضع حد لمظاهرات حزب توده، وقد نفذت الشرطة والجيش هذا الأمر بقسوة شديدة، وبحسب رواية روزفلت والسفير هندرسون للأحداث، فإن مصدق أقدم على هذه الخطوة نتيجة لاجتماع عقده مع هندرسون اشتكى خلاله السفير الأمريكي من المضايقات البالغة التي يتعرض لها المواطنون الأمريكيون من جانب الإيرانيين. أبقى كلا هذين الأمريكيين الغموض يلف مدى ما هو حقيقي من هذه المضايقات وما هو مختلق من قبلهما لهذه المناسبة. على أي حال، قال هندرسون لمصدق إنه ما لم تتوقف هذه المضايقات سيكون مضطراً ليأمر جميع الأمريكيين بمغادرة إيران في الحال. يقول هندرسون: إن مصدق توسل إليه ألا يفعل ذلك لأن رحيل الأمريكيين سيظهر حكومته وكأنها عاجزة عن السيطرة على الوضع في البلد، مع أن رئيس الوزراء الإيراني اتهم، في الوقت ذاته، وكالة المخابرات المركزية بأنها كانت وراء إصدار المراسيم الملكية [١٩]. (في ذلك الحين كانت الجريدة الناطقة باسم حزب توده تدعو إلى طرد الدبلوماسيين الأمريكيين «الذين يتدخلون في شؤون إيران» [٢٠].

مهما يكن دافع مصدق، فقد كان تصرفه في تناقض حاد مع الفكرة القائلة، إنه كان متحالفاً مع حزب توده أو إن الحزب كان في وضع يسمح له بأن يقبض على زمام السلطة. والحقيقة هي أن حزب توده لم يعد إلى الشوارع مرة ثانية.

في اليوم التالي، ١٩ آب (اوغسطس)، قام عملاء روزفلت الإيرانيون باستعراض في طهران. وبمبلغ من المال يناهز مليون دولار وضع في الصندوق الحديدي في السفارة الأمريكية. لم يجد «المنظمون المحترفون الأكفاء كما كان يسميهم روزفلت،

أية صعوبة في شراء جماعة من الغوغاء، ربما باستعمال جزء يسير من هذا المبلغ. (الروايات المختلفة عن دور وكالة المخابرات المركزية في إيران قدرت ما أنفقته الوكالة للإطاحة بمصدق بمبلغ يتراوح بين ١٠,٠٠٠ و١٩ مليون دولار. المبالغ الأكبر تستند إلى تقارير مفادها أن وكالة المخابرات المركزية انخرطت في وضع رشاوى كبيرة إلى أعضاء في البرلمان وإلى إيرانيين آخرين ذوي نفوذ لكسب تأييدهم ضد رئيس الوزراء).

وسرعان ما بدأ الناس يشاهدون صفوفاً من الناس تخرج من البازار القديم، وفي مقدمتهم لاعبون من السيرك ورياضيون لجذب انتباه الجمهور. كان المشاركون في المسيرة يلوحون بأعلام ويهتفون «عاش الشاه». وعلى طرفي المسيرة كان ثمة رجال يوزعون عملة إيرانية مزدانة بصورة الشاه. وخلال تقدم المتظاهرين كانوا يجمعون أتباعاً لهم، أشخاصاً ينضمون إلى المسيرة ويشاركون في الهتافات، وبدون شك لعدد لا يحصى من الأسباب السياسية والشخصية. لقد مال ميزان الحالة النفسية ضد مصدق.

وطوال الطريق، كان بعض المشاركين في المسيرة ينفصلون عنها لمهاجمة مكاتب الصحف والأحزاب السياسية الموالية لمصدق، من ضمنها حزب توده والمكاتب الحكومية. في هذا الوقت صدح صوت عبر الإذاعة معلناً أن «تعليمات الشاه بعزل مصدق قد نفذت». وأن رئيس الوزراء الجديد، فضل الله زاهدي تولى منصبه الآن، وأن صاحب الجلالة الامبراطورية في طريق عودته إلى الوطن!».

كانت هذه كذبة، أو «ما قبل الحقيقة» على حد قول روزفلت. عندها فقط ذهب روزفلت لإحضار زاهدي من مخبئه. في طريقه إليه صادف أنه التقى قائد سلاح الجو الذي كان بين جموع المتظاهرين. طلب روزفلت من هذا الضابط أن يستولي على دبابة لنقل زاهدي بها إلى منزل مصدق حسب الأصول [٢١].

كان بودّ كرميت روزفلت أن يصدق القارىء أن كل الأمور قد نجحت عند هذا الحد ولم يبق سوى إطلاق الهتافات وفتح زجاجات الشمبانيا: كان مصدق قد هرب،

وتولى زاهدي السلطة، وتم إبلاغ الشاه بضرورة العودة - وهذا ما يمثل نصراً دراماتيكياً مفرحاً وسلمياً لإرادة الشعب. ثمة أمر لا يمكن تفسيره، أن روزفلت أغفل بالمرة أن يذكر أن معركة دامت تسع ساعات كانت تحتدم في شوارع طهران وأمام منزل مصدق في ذلك اليوم، بين جنود موالين لمصدق من جهة وآخرين مؤيدين لزاهدي والشاه من جهة أخرى. وذكرت الأخبار أن نحو ٣٠٠ شخص قتلوا ومئات آخرين جرحوا قبل أن يستسلم المدافعون عن مصدق [٢٢].

كذلك فإن روزفلت لم يأتِ على ذكر أي إسهام للبريطانيين في كامل العملية، الأمر الذي أزعج كثيراً العاملين في المخابرات البريطانية (m16)، نظيره وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، التي ادعت أنها وموظفي شركة النفط الانكلو-إيرانية ورجال أعمال محليين وإيرانيين آخرين لعبوا دوراً في الأحداث. ولكنهم التزموا الصمت المطبق عن حقيقة ذلك الدور [٢٣].

ادعت البعثة العسكرية الأمريكية في إيران أنه كان لها دور في العملية، وفقاً لشهادة أدلى بها الميجور جنرال جورج ستيوارث في وقت لاحق أمام الكونغرس:

«الآن، عندما حدثت الأزمة وكان الأمر على وشك الإنهيار، خرقنا معاييرنا المعتادة، وكان بين الأمور الأخرى التي فعلناها أننا زودنا الجيش فوراً وعلى أساس الطوارىء، بأحذية، وبزات عسكرية، ومولدات كهرباء، ومواد طبية أتاحت، بل أوجدت مناخاً يستطيعون فيه مساندة الشاه.. إن البنادق التي كانت في أيديهم، والشاحنات التي نقلتهم، والسيارات المصفحة التي قادوها في الشوارع، والأجهزة اللاسلكية التي سمحت لهم بالتحكم في الوضع، هذه كلها قدمها برنامج المساعدة العسكرية الدفاعية»[٢٤].

لعل الجزء الأخير من كلام الجنرال ينطبق على الجانب الآخر أيضاً.

كتب كينيت لاف Kennet Love مراسل جريدة «نيويورك تايمز» الذي كان في طهران خلال تلك الأيام الحاسمة من شهر آب (اوغسطس): «من الأمور التي يقبلها

العقل أن حزب توده كان بإمكانه أن يقلب ميزان الأمور في ذلك الحين ضد أنصار الملكية، ولكنه لسبب ما بقي مبتعداً كلياً عن النزاع.. تفسيري الخاص هو أن السفارة السوفييتية ضبطت تحرك حزب توده لأن الكرملين، في السنة الأولى ما بعد ستالين، لم يكن مستعداً لتحمل العواقب التي كان من المحتمل أن تنجم عن إقامة نظام في طهران خاضع لإشراف شيوعي».

إن وجهات نظر لافت، التي احتوتها ورقة كتبها في عام ١٩٦٠ ربما استمدت الإلهام من معلومات تلقاها من وكالة المخابرات المركزية. إنه يعترف بأنه كان على صلة وثيقة بالوكالة في طهران بل إنه ساعدها في عمليتها [٢٥].

في وقت سابق من ذلك العام نوهت جريدة «نيويورك تايمز «»بأن الرأي السائد بين مراقبين متباينين في طهران» هو أن «مصدق هو السياسي الأكثر شعبية في البلد». خلال مدة تربو على أربعين عاماً من الحياة العامة «اكتسب مصدق سمعة الوطني النزيه» [٢٦].

في شهر تموز (يوليو) كان مدير الشؤون الإيرانية في وزارة الخارجية الأمريكية قد أدلى بشهادة قال فيها «ان مصدق يتمتع بسيطرة هائلة على جماهير الشعب إلى حد أنه يصعب عليه» [٢٧].

بعد ذلك ببضعة أيام، امتلأت شوارع طهران بما لا يقل عن ١٠٠,٠٠٠ شخص خرجوا للتعبير عن مشاعر العداء للولايات المتحدة وللشاه. ومع أن حزب توده كان راعي هذه المظاهرة، فإن المشاركين فيها تجاوزوا أي عدد تقديري لأعضاء الحزب [٢٨].

ولكن الشعبية والجماهير، من النوع غير المسلح، لم تكن لها أهمية تذكر، لأن ما شهدته طهران في التحليل النهائي هو اختبار قوة عسكرية بين جانبين، أحدهما مؤلف من جنود يطيعون أوامر حفنة من الضباط، بعضهم يراهن في سيرته الوظيفية وطموحاته على اختيار الجانب الرابح، وبعضهم الآخر كان أكثر التزاماً من الناحية الأيدويولوجية. لقد وصفت جريدة «نيويورك تايمز» التراجع المفاجىء في

حظوظ نجاح مصدق أنها «ليست سوى تمرد.. ضد الضباط الموالين لمصدق» من قبل «الضباط الأدنى رتبة» الذين كانوا يبجلون الشاه، والذين سبق لهم أن أخمدوا بوحشية مظاهرات اليوم السابق، ورفضوا أن يفعلوا الشيء نفسه في ١٩ آب (أغسطس) وبدلاً من ذلك انقلبوا على ضباطهم[٢٩].

ليست واضحة الصلة المسبقة بين روزفلت وعملائه من جهة وأي من الضباط الموالين للشاه من جهة أخرى. في مقابلة صحفية أجريت مع روزفلت في نفس الوقت الذي أنهى فيه تقريباً تأليف كتابه، قال روزفلت إن عدداً من الضباط الموالين للشاه سمح لهم باللجوء إلى مجمّع وكالة المخابرات المركزية الملاصق للسفارة الأمريكية في وقت هروب الشاه إلى روما[٣٠]. ولكن بما أن روزفلت لم يأتِ في كتابه بكلمة واحدة على ذكر هذا الحدث الهام والمثير للاهتمام، فلابد من مقاربة تأكيد آخر من تأكيداته بحذر.

في أي حال، ربما كانت مظاهرة ١٩ آب (اوغسطس) التي نظمها الفريق المساعد لروزفلت كانت مجرد التشجيع والشرارة التي كان ينتظرها هؤلاء الضباط. وحتى إذا صح ذلك فإنه يظهر أكثر إلى أي مدى ترك روزفلت الأمور رهن الفرص.

في ضوء سائر البيانات المثيرة للتساؤل والمتناقضة والمخادعة الصادرة أحياناً عن جون فوستر دالس، وكرميت روزفلت، ولوي هندرسون، ومسؤولين أمريكيين آخرين، ما هي الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من دافع أمريكا إلى الإطاحة بمصدق؟ إن عواقب الانقلاب قد توفر أفضل دليل.

على مدى الأعوام الخمسة والعشرين اللاحقة، صمد شاه إيران في موقفه الحليف الأوثق قرباً من الولايات المتحدة في العالم الثالث، إلى درجة أن ذلك كان من شأنه أن يصدم مصدق ذا الموقف المستقل والمحايد. لقد وضع الشاه عملياً بلاده تحت تصرف هيئات عسكرية واستخبارية أميركية لكي تستخدم كسلاح في الحرب الباردة، ونافذة وباب إلى الاتحاد السوفييتي. فقد أقيمت محطات استماع الكتروني

ورادار بالقرب من الحدود السوفييتية، واستخدمت الطائرات الأمريكية إيران قاعدة للقيام بأعمال مراقبة جوية فوق الاتحاد السوفييتي، كما تم تسريب جواسيس عبر الحدود، وملأت الأرض الإيرانية منشآت عسكرية أمريكية. كانت النظرة إلى إيران أنها حلقة حيوية في سلسلة كانت تضعها الولايات المتحدة «لاحتواء» الاتحاد السوفييتي، وقد قال دالس في برقية وجهها إلى القائم بأعمال وزير الخارجية البريطاني في شهر أيلول (سبتمبر): «أظن أننا إذا تمكنا بواسطة التنسيق أن نتحرك بسرعة وفعالية في إيران فإننا سنغلق أخطر فجوة في الخط الممتد من أوروبا إلى جنوب آسيا». في شهر شباط (فبراير) ١٩٥٥ أصبحت إيران عضواً في حلف بغداد الذي أقامته الولايات المتحدة وهدفه، حسب كلام دالس «خلق دائرة صلبة مقاومة ضد الاتحاد السوفييتي» [٣٢].

بعد مرور عام على الانقلاب، وقعت الحكومة الإيرانية عقداً مع كورسونتيوم دولي من شركات النفط. لقد فقدت بريطانيا، بوجود شركاء إيران الجدد الحقوق الحصرية التي كانت تتمتع بها سابقاً، إذ انخفضت حصتها الآن إلى ٤٠٪. وذهبت نسبة ٤٠٪ أخرى الآن إلى شركات نفط أمريكية، بينما كانت البقية حصصاً لبلدان أخرى. بيد أن بريطانيا حصلت على تعويض سخي للغاية لقاء ممتلكاتها السابقة [٣٣].

في العام ١٩٥٨ ترك كرميت روزفلت وكالة المخابرات المركزية وباشر العمل مع شركة نفط أمريكية هي شركة غلف أويل (Gulf Oil Co) وهي إحدى الشركات الأمريكية الأعضاء في الكونسورتيوم، ومن موقعه هذا كان روزفلت مديراً لعلاقات هذه الشركة مع الحكومة الأمريكية والحكومات الأجنبية وأتيحت له فرصة التعامل مع الشاه. وفي العام ١٩٦٠ عينته شركة غلف نائباً لرئيسها. وتبعاً لذلك شكل روزفلت شركة استشارية هي شركة (داونز أند روزفلت Downs and Roosevelt) التي قيل إنها تلقت بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٠، ١١٦,٠٠٠ دولار سنوياً علاوة على النفقات لقاء الجهود التي بذلتها باسم الحكومة الإيرانية. إن زبوناً آخر، هو شركة نورثروب كوربوريشن Northrop Corporation وهي شركة مركزها في لوس أنجلس

وتعمل في مجال الطيران الفضائي وقد دفعت هذه الشركة إلى روزفلت مبلغ ٧٥,٠٠٠ دولار سنوياً لكي يساعد في ترويج مبيعاتها في إيران والمملكة العربية السعودية وبلدان أخرى[٣٤] (راجع الفصل الخاص بالشرق الأوسط للاطلاع على علاقة وكالة المخابرات المركزية ممثلة بروزفلت مع الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية).

ثمة عضو أمريكي آخر في الكونسورتيوم الجديد شركة (ستاندرد أويل كومباني Standard oil Co.) من ولاية نيوجرسي (حالياً أصبح اسمها شركة إيكسن Exxon) وهي شركة زبونة لمؤسسة (سوليفن أند كرومويل Sullivan and Cromwell) وهذه المؤسسة هي مؤسسة حقوقية كان جون فوستر دالس كبير أعضائها لمدة طويلة، وكان الن Allen، شقيق جون فوستر ومدير وكالة المخابرات المركزية هو بدوره عضواً في هذه المؤسسة. لقد ذكر الصحفي جاك أندرسون بعد ذلك بسنوات أن عائلة روكفلر التي تسيطر على شركة ستاندرد أويل وعلى بنك تشيز مانهاتن (Chase Manhattan) قد ساعدت «في ترتيب الانقلاب الذي دبرته وكالة المخابرات المركزية للإطاحة بمصدق». وقد أورد أندرسون عدداً من الطرق التي عبر بواسطتها الشاه عن امتنانه لعائلة روكفلر، بما في ذلك وضع أرصدة كبيرة من ثروته الشخصية في مصرف تشيز مانهاتن، كما أن مشروعاً للتنمية السكنية نُفذ في إيران من قبل إحدى الشركات التي تملكها عائلة روكفلر [٣٦].

الرواية المألوفة عن أحداث إيران في عام ١٩٥٣ هي أنه - بغض النظر عن أي شيء آخر يمكن أن يقوله المرء تأييداً للعملية أو ضدها - فإن الولايات المتحدة أنقذت إيران من حكم سوفييتي/ شيوعي. مع ذلك لم يفعل الاتحاد السوفييتي أي شيء خلال السنتين اللتين حدثت فيهما أعمال التخريب الأمريكية والبريطانية في بلد مجاور له، لكي يساند ذلك البلد، فعندما قام الأسطول البريطاني بأكبر عرض لقواته منذ الحرب العالمية الثانية في المياه الإيرانية، لم يقدم السوفييت على أية خطوات عدائية، كذلك عندما فرضت بريطانيا العظمى عقوبات دولية قاسية أوصلت إيران إلى أزمة اقتصادية عميقة وجعلتها سهلة المنال، لم «تقع آبار النفط

رهينة» لدى الخطر البلشفيكي، هذا بالرغم من أن حزب توده بكامله كان في تصرف البلشفيك كعملاء لهم حسب قول روزفلت [٣٧]. بل حتى في مواجهة الانقلاب، وتأثير الأيدي الأجنبية فيه، لم تقدم موسكو على خطوة تهديدية، ولم يطلب مصدق في أية مرحلة مساعدة روسية.

ولكن بعد ذلك بعام قالت جريدة «نيويورك تايمز» في إحدى افتتاحياتها: إن «موسكو.. أحصت صيصإنها قبل أن يفقس البيض ورأت الجريدة أن إيران ستكون «الجمهورية الشعبية الديمقراطية» التالية. في الوقت ذاته حذرت الصحيفة، بأسلوب فيه غطرسة مفاجئة، من أن «البلدان النامية بثرواتها الغنية أمامها الآن درس عن الكلفة الباهظة التي يتحتم على أحد هذه البلدان أن يدفعها لقاء الأخذ بالوطنية المتعصبة» [٣٨].

بعد ذلك بعقد من السنين، قال ألن دالس بأسلوب وقور أن الشيوعية «حققت السيطرة على الجهاز الحكومي» في إيران [٣٩]. وبعد ذلك بعقد آخر من السنين أرادت مجلة (فورتشن Fortune) أن تستشهد بواحد من الأمثلة، فاستعادت القصة قائلة ان مصدق «تآمر مع الحزب الشيوعي الإيراني، حزب توده، للإطاحة بالشاه محمد رضا بهلوي وشبك مع الاتحاد السوفييتي» [٤٠].

ولكن ماذا عن الشعب الإيراني؟ وماذا عاد عليه من نفع «إنقاذه من الشيوعية»؟ بالنسبة للغالبية العظمى من السكان كانت الحياة تحت حكم الشاه صورة قاتمة من الفقر المدقع والإرهاب البوليسي والتعذيب. لقد أعدم الآلاف من الناس باسم محاربة الشيوعية. والانشقاق سحق منذ بداية نظام الحكم الجديد بمساعدة أمريكية. لقد كتب (كينيت لاف) أنه يعتقد أن ضابط وكالة المخابرات المركزية جورج كارول George Carrol الذي كان يعرفه شخصياً، عمل مع الجنرال فرحات دادسيتان Farhat Dadsetan، الحاكم العسكري الجديد لمدينة طهران، فيما يتعلق «بالاستعدادات الرامية لخلق حركة انشقاق خطرة وفعالة تبدأ من منطقة البازار ومن حزب توده في أول أسبوعين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٣[٤٢].

إن البوليس السري الإيراني ذا السمعة القبيحة (السافاك Savak) الذي أنشئ تحت إشراف وكالة المخابرات المركزية وإسرائيل، نشر عسسه في سائر أنحاء العالم لمعاقبة المنشقين الإيرانيين. وبحسب قول محلل سابق في وكالة المخابرات المركزية مختص بشؤون إيران، قامت الوكالة بتعليم السافاك أساليب التعذيب [٤٣]. وقد أوجزت منظمة العفو الدولية الوضع في عام ١٩٧٦ بقولها: ان إيران كان فيها «أعلى معدل في العالم لعقوبة الإعدام، ولم يكن فيها نظام صالح للمحاكم المدنية، بل كان لها تاريخ في التعذيب لا يصدقه العقل. وما من بلد في العالم له سجل أسوأ من سجل إيران في حقوق الإنسان» [٤٤].

إذا أضيف إلى ذلك مستوى من الفساد «أذهل أعتق مراقبي اللصوصية في الشرق الأوسط» [٤٥] تصبح مفهومة حاجة الشاه إلى قوات الجيش والشرطة الضخمة التي كانت بتصرفه، والتي كانت تعتمد على برامج مساعدة وتدريب ضخمة بصورة غير عادية من الولايات المتحدة، للسيطرة على الوضع خلال المدة التي كانت له فيها السيطرة على الوضع. لقد قال السناتور (هيوبرت همفري Hubert Humphrey)، بشيء من الدهشة على ما يبدو:

«هل تعلمون ماذا قال قائد الجيش الإيراني لأحد رجالنا؟ لقد قال: إن الجيش في أحسن حال بفضل المساعدة الأمريكية - فهو الآن قادر على التعامل مع السكان المدنيين. الجيش لن يحارب الروس. إنه يخطط لمحاربة الشعب الإيراني» [٤٧].

حيث الفشل قد يكون نصيب القوة، تلجأ وكالة المخابرات المركزية إلى سلاحها الأكثر موثوقية - المال. فهي رغبة منها في ضمان التأييد للشاه، أو على الأقل عدم حدوث انشقاق، بدأت تقدم دفعات من المال إلى زعماء من رجال الدين الإيرانيين، وهؤلاء هم دائماً مجموعة من أصحاب النزوات. بدأت الدفعات تقدم إلى آيات الله والملالي في عام ١٩٥٣ واستمرت بانتظام حتى عام ١٩٧٧ عندما أوقفها فجأة

الرئيس كارتر، «مصدر مطلع في المخابرات قدّر المبالغ التي دفعت بما يصل إلى ٤٠٠ مليون دولار سنوياً، بينما رأى آخرون أن هذا الرقم مبالَغ فيه، وهو بالتأكيد مبالغ فيه. ويعتقد أن حجب الأموال عن رجال الدين كان أحد العناصر التي أدت إلى بداية النهاية لملك الملوك [٤٨].

سورية ١٩٥٦ - ١٩٥٧
شراء حكومة جديدة

قال جون فوستر دالس في عام ١٩٥٦ «إن الحياء تحوّل بصورة متزايدة إلى مفهوم عتيق وإنه - باستثناء ظروف استثنائية جداً- مفهوم غير أخلاقي وقصير النظر» [١].

قصر نظر الحكومة الحيادية ربما يكمن في عجزها عن فهم أن حيادها من شأنه أن يؤدي إلى محاولة جون فوستر دالس الإطاحة بها.

لم يكن سلوك سورية بالشكل الذي كانت واشنطن ترى أن حكومة من العالم الثالث يجب أن تسلكه. أحد الأسباب أن سورية كانت الدولة الوحيدة في المنطقة التي رفضت أية مساعدة اقتصادية أو عسكرية من الولايات المتحدة. فدمشق لم تهتم كثيراً بالقيود المرافقة للمساعدة - ذلك أن قبول المساعدة العسكرية كان يعني عادة وجود مستشارين وفنيين عسكريين أمريكيين، علاوة على ذلك قضى قانون الأمن المشترك الأمريكي لعام ١٩٥٥ بأن يساهم البلد المتلقي للمساعدة في «القوة الدفاعية للعالم الحر» وأعلن هذا القانون أن سياسة الولايات المتحدة تقضي «بتشجيع جهود الأمم الحرة الأخرى.. لتقرير المبادرات في القطاع الخاص والتنافس (أي الرأسمالية) [٢].

ثمة صعوبة أخرى أوجدتها سورية هي أنه بالرغم من أن حكومتها في السنين الأخيرة كانت بشكل أو بآخر حكومات محافظة امتنعت عن الأخذ بالعادات اليسارية المكروهة لتأميم الشركات المملتكة من أمريكيين، كان المسؤولون الأمريكيون - الذين عانوا مما يمكن وصفه بهاجس معاداة الشيوعية أو كانوا ضحايا دعايتهم - يشاهدون دوماً كتابات بخط اليد على الجدران منذرة بالشر. ولفهم ذلك، لابد من

قراءة بعض الوثائق التي كانت سرية ورفعت عنها السرية لاحقاً، وهي من وثائق مجلس الأمن القومي الأمريكي، بعضها يستند إلى تقارير من السفارة الأمريكية في دمشق خلال العامين ١٩٥٥ و ١٩٥٦ .

«إذا استمر التوجه الشعبي نحو اليسار في سورية لأية مدة طويلة، سيكون هناك خطر حقيقي بأن تقع سورية كلياً تحت سيطرة الجناح اليساري إما بانقلاب أو باغتصاب السلطة».. «إن ميل السوريين الأساسي لمعاداة الولايات المتحدة والغرب تغذيه المسرحيات السياسية التي لا مفر منها حول مشكلة فلسطين».. «إن أربع حكومات متلاحقة لم تعمر طويلاً في سورية قد سمحت بأنشطة شيوعية مستمرة ومتزايدة».. «الشيوعيون يساندون العصابات اليسارية في الجيش».. «عدم المبالاة بالشيوعيين من قبل السياسيين وضباط الجيش» هو تهديد للأمن.. «إن حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي السوري قادران على زيادة تدهور الأمن الداخلي السوري».. وخطر قيام حزب البعث العربي الاشتراكي «بانقلاب» و «ازدياد التغلغل الشيوعي في الحكومة والجيش».. «سورية، من بين جميع الدول العربية هي الأشد إخلاصاً لسياسة الحياد مع مبالغات في العداء للغرب».. «إذا استمر هذا التوجه هناك احتمال كبير بأن تنتج عنه سورية الخاضعة لسيطرة شيوعية، الأمر الذي يهدد السلام والاستقرار في المنطقة ويعرض للخطر تحقيق أهدافنا في الشرق الأدنى».. علينا «أن نولي مناهج العمل في الشرق الأدنى الأولوية بهدف التأثير في الوضع القائم في سورية والتوصية بخطوات محددة لمكافحة التخريب الشيوعي» (٣).

يبدو أن الفكرة عن وجود رجال عسكريين يساريين و/أو غير مبالين بالشيوعيين لابد أنها كانت ظاهرة متنافرة مع العقل الرسمي الأمريكي. لكن لا وجود في الوثائق لأية إشارة إلى قيام اليساريين/ الشيوعيين/ حزب البعث العربي الاشتراكي بأي عمل فعلي غير شرعي أو شرير، رغم أن اللغة المستخدمة مماثلة لتلك التي رأيناها في الفصل الخاص بجمهورية غواتيمالا: إن هؤلاء الناس لا

ينضمون إلى أي شيء، بل «يتسللون» «يخترقون» «يسيطرون»، إنهم «انتهازيون». في واقع الأمر، السلوك الذي ورد وصفه هو شبيه سلوك الحيوانات السياسية الأخرى التي تحاول التأثير في قطاعات رئيسية في المجتمع واستمالة حلفاء. ولكن بالنسبة لأصحاب مناصب المسؤولية في مجلس الأمن القومي ووزارة الخارجية الأمريكية، النية الشريرة لهؤلاء الناس وخطرهم هما واضحان بجلاء لا يحتاج إلى مزيد من الإيضاح.

ثمة استثناء واحد، لعله تعبير يفسر ملاحظة غير مريحة:

«في الحقيقة، لا يبدو أن الحزب الشيوعي يضع بين أهدافه المباشرة الاستيلاء على السلطة، بل إنه يسعى لتدمير الوحدة الوطنية وتعزيز التأييد للسياسات السوفييتية ومعارضة السياسات الغربية وتفاقم حالات التوتر في العالم العربي. لقد حقق تقدماً هاماً نحو هذه الأهداف» [٤].

لا وجود لأي دليل إلى ما قصده المؤلف بعبارة «الوحدة الوطنية».

بحسب منطق السفير الأمريكي لدى سورية (جيمس موز الابن James Moose Jr.) إن وجود حكومة سورية يسيطر عليها الشيوعيون، إنما يهدد بوضوح المصالح الأمريكية في البلد المجاور، تركيا، التي بدورها يمكن أن تقوم بعملية التفاف على جميع الدول الأعضاء في حلف شمال الأطلسي وهلم جرا[٥]. ومن الواضح أنه نظراً لعدم إمكانية الاعتماد على الحكومة السورية في عمل أي شيء إزاء هذه الكارثة الكبيرة، فلابد من عمل شيء بشأن الحكومة السورية.

إننا نضيف إلى ذلك مكيدة الشرق الأوسط المضادة: في هذه الحالة يتآمر العراق مع البريطانيين للإطاحة بالحكومة السورية وحكومة عبد الناصر في مصر، يضغط البريطانيون على الأمريكيين للانضمام إلى المؤامرة[٦]. تطرح وكالة المخابرات المركزية حلاً وسطاً – اتركوا عبد الناصر وشأنه، على الأقل في الوقت الراهن. وسنفعل شيئاً ما بشأن سورية[٧].

إن هذا سيناريو غير مهضوم، وهو فضيحة، ولكنه من تقاليد الشرق الأوسط في ذلك الزمن. وللبريطانيين خبرة قديمة في ذلك. أما دالس والأمريكيون، الذين

كانوا مستمرين في ابتهاجهم في صنع الملوك في إيران، فقد كانوا يتطلعون إلى الإمعان في إعادة تكوين منطقة النفط على صورتهم ومثالهم.

لقد كان (ويلبور كرين ايفلاند Wilbur Crane Eveland) عضواً رئيسياً في مجلس الأمن القومي، هذه المجموعة عالية المستوى في واشنطن التي، نظرياً، تراقب وتشرف على الأنشطة السرية لوكالة المخابرات المركزية، وبسبب خلفية ايفلاند وخبرته في الشرق الأوسط، طلبت وكالة المخابرات المركزية أن يعار إليها للقيام بسلسلة من المهمات الخاصة بها.

كان (ارشيبالد روزفلت Archibald Roosevelt) على غرار ابن عمه كرميت، مسؤولاً رفيع المستوى في وكالة المخابرات المركزية، وكلاهما حفيدان ل-(تدي Teddy). كان كرميت العقل المدبر لإسقاط الحكومة الإيرانية في عام ١٩٥٣. وكان ارشيبالد يدغدغه الأمل في أن يفعل شيئاً مماثلاً في سورية. تولى ميخائيل بك إليان ذات مرة منصب وزير خارجية سورية. وفي عام ١٩٥٦ كان هو زعيم حزب الشعب المحافظ.

في اجتماع عقده هؤلاء الرجال الثلاثة في دمشق، سورية في الأول من شهر تموز (يوليو) عام ١٩٥٦، حسب الوصف الذي قدمه ايفلاند في مذكراته، طرح روزفلت على اليان السؤال التالي: «إلى ماذا نحتاج لإعطاء المحافظين السوريين ما يكفي من السيطرة لتطهير الحكم من الشيوعيين واليساريين المتعاطفين معهم؟ كان جواب إليان: بتحديد الأسماء والأماكن، محطتي الإذاعة في دمشق وحلب، عدداً قليلاً من كبار الضباط، ومبالغ كافية من المال لشراء الصحف التي هي حالياً في أيدٍ مصرية وسعودية».

«تابع روزفلت سبر الموضوع. سأل اليان: هل يمكن القيام بذلك بواسطة أموال وممتلكات الولايات المتحدة وحدها دون أن يكون لأي بلد آخر غربي أو من بلدان الشرق الأدنى علاقة بذلك»؟ «أجاب اليان، حتماً، وأومأ برأسه بوقار».

في ٢٦ تموز (يوليو) أعلن الرئيس جمال عبد الناصر أن حكومته ستتولى إدارة تشغيل قناة السويس. كان رد فعل البريطانيين والفرنسيين سريعاً وملتهباً. أما الولايات المتحدة فكانت أقل عدائية مكشوفة، مع أنها انتقدت هذا الإجراء، وجمدت أموال الحكومة المصرية الموجودة في الولايات المتحدة. إن هذا الحادث غير المتوقع وضع عقدة في خطط وكالة المخابرات المركزية لأن عبد الناصر - كما شرح اليان في حديث مع ايفلاند - صار الآن بطل العالم العربي وصار التعاون مع أية قوة غربية للإطاحة بحكومة عربية أمراً لا يمكن الدفاع عنه سياسياً.

بالتالي، حدد تاريخ ٢٥ تشرين الأول (أوكتوبر) موعداً للانقلاب. من الناحية اللوجستيكية، كما شرحها اليان، كانت الخطة تتطلب من عقداء وعمداء الجيش السوري أن:

«يفرضوا سيطرتهم على دمشق، وحلب، وحمص، وحماه. وعليهم أن يتحكموا بنقاط الحدود مع الأردن والعراق ولبنان من أجل إغلاق حدود سورية ريثما تعلن محطات الإذاعة أن حكومة جديدة قد تولت السلطة برئاسة الكولونيل قباني، الذي سيضع وحدات مسلحة أمام المواقع الرئيسية في سائر أنحاء دمشق. وبعد أن تتم السيطرة على الوضع، سيقوم اليان بإبلاغ المدنيين الذين وقع عليهم اختياره أن عليهم تشكيل حكومة جديدة، ولكن حرصاً على عدم تسرب الخبر لن يتم إبلاغ أحد منهم إلا قبل أسبوع من الانقلاب».

المال اللازم للعملية لابد له من أن ينتقل من يد إلى أخرى. لقد طلب اليان تسلم نصف مليون ليرة سورية (نحو ١٦٧,٠٠٠ دولار). إضافة إلى ذلك، طلب السوري اليان، من أجل ضمان مشاركة المتآمرين السوريين، أن يتلقى تأكيداً من أعلى مستويات الحكومة الأمريكية أن الولايات المتحدة ستدعم الانقلاب وستعترف فوراً بالحكومة الجديدة، وقال اليان في شرحه للخطة: إن إبلاغ هذه الضمانة يمكن أن يتم على النحو التالي: في شهر نيسان (أبريل) كان قد ذُكر أن الولايات المتحدة ستعارض العدوان في الشرق الأوسط، ولكن ليس بدون موافقة الكونغرس. ثم سأل

اليـان: هل بإمكان الرئيس الأمـريكي أن يكرر هذا الكلام في ضـوء أزمة السـويس في تاريخ محـدد لإبلاغ زملاء اليـان أن يتوقعـوا فيه كـلام ايزنهاور؟ هـذا سيمثل الضـمانة التي يطلبونها.

وصل إلى دمـشق رد إيجـابي من واشنطـن في اليـوم التـالي. الفـرصـة المناسـبـة للبيان المطلوب يجب إيجـادهـا، وسيكون وزير الخارجية دالس هو من سيسـتخدم هذه الفـرصـة. كـانت الخطة الموضـوعـة تقضـي بأن ينوّه دالس علنـاً بكلام ايزنهـاور خـلال المدة بين ١٦ و١٨ تشـرين الأول (أوكـتـوبـر)، وبذلك تتـوفـر لإليـان مـدة الأسـبـوع التي يحتاجها لجمع فريقه المدني.

قبل مـضي وقت طويل، عـقـد جون فـوسـتـر دالـس مؤتمراً صـحـفـيـاً. في ضـوء الهـجـمـات الإسـرائيليـة الأخـيـرة على الأردن، طرح أحـد الصـحـفـيين الموجـودين في المؤتمر الصـحـفي سـؤالاً عـمـا إذا كـانت الولايات المتحـدة سـتـهب لمسـاعـدة الأردن بموجب «إعـلاننا الصـادر في ٩ نيسـان (أبريل)». أجاب وزير الخـارجيـة: أجل، مكرراً الإشارة إلى بيان نيسان (أبريل). كان ذلك بتاريخ ١٦ تشرين الأول (أكتوبر).

ولكن عـقب ذلك بـوقت قـصـيـر كـانت هناك رسـالة من إليـان في دمـشق إلى ايفلاند في بيروت تنبئ بتأجيل الانقلاب خمسـة أيام إلى ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) لأن الكولونيل قباني أبلغ إليان أن جماعته غير مكتملي الاستعداد.

كان التـأخير أمـراً حـاسـمـاً، ففي وقت مـبكر من صـباح الثـلاثين من الشـهـر، ظهـر ميـخائيل إليـان وهو في حـالة اضطراب شـديد عند باب ايفـلاند. قال صـارخـاً «الليلة الماضيـة غزت اسـرائيل مـصـر وهي في هذا الوقت بالذات تتـجـه نحـو قناة السـويس! كيف خطر لكم أن تطلبـوا منا الإطاحة بحكومتنا في نفس اللحظة التي شـرعت فيـها إسـرائيل بشن حـرب على دولة عـربية»؟ (٨).

إن التـوجـه اليـسـاري في جـرس سـورية واصل رنينه في واشنطن. لقـد كـتب الرئيس ايـزنهـاور في وقت لاحق أن آلـن دالس، مـدير وكـالة المخـابرات المركـزية «رفع

في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ تقارير تشير إلى أن الوزارة السورية الجديدة لها توجه نحو اليسار» [٩]. بعد ذلك بشهرين، أعدّ دالس «تقريراً عن الوضع في سورية» تحدث فيه عن «توجه متزايد نحو حكومة هي قطعاً يسارية موالية للسوفييت». كان دالس مهموماً بوجود «ضباط يساريين منظمين ينتمون إلى حزب البعث العربي الاشتراكي» [١٠]. في ذلك الشهر بالذات جاء في وثيقة داخلية صادرة عن وزارة الخارجية الأمريكية ما يلي:

«يُعتقد، أن البريطانيين، يحبذون تحريضاً نشطاً على إجراء تغيير في نظام الحكم الراهن في سورية، في جهد لضمان توجه موالٍ للغرب من قبل حكومات سورية في المستقبل.. والولايات المتحدة تشاطر الحكومة البريطانية اهتمامها بالوضع في سورية» [١١].

بعد ذلك، في شهر حزيران (يونيو) تحدثت مذكرة داخلية صادرة عن وزارة الدفاع الأمريكية عن احتمال حدوث «انقلاب يساري». وبحسب ما جاء في المذكرة، كان يفترض أن هذا الانقلاب سيكون ضد «الحكومة السورية اليسارية» [١٢].

وهكذا كان ضباط وكالة المخابرات المركزية، في بيروت ودمشق يحاولون مرة أخرى إعداد المسرح لانقلاب في سورية. في هذه المناسبة كان كرميت روزفلت بدلاً من ابن عمه ارشيبالد، يحرك الأمور، وقد وضع الترتيبات لنقل شخص يدعى (هاورد روكي ستون Haward Rocky Stone) من السودان إلى دمشق لضمان أن تكون «هندسة» الانقلاب من قبل شخص «موالٍ». كان ستون، وهو في الثانية والثلاثين من عمره، أسطورة في العمل السري لوكالة المخابرات المركزية باعتباره الرجل الذي ساعد كيم روزفلت في الإطاحة بالحكومة الإيرانية قبل ذلك بأربع سنوات، مع أن ماهية إسهامه بدقة ظلت غامضة.

الشخص المقترح للاستفادة من هذه المؤامرة بالذات كان يفترض أن يكون أديب الشيشكلي، دكتاتور سورية اليميني السابق، الذي كان يعيش متخفياً في لبنان. إن رئيس جهاز الأمن السابق في عهد الشيشكلي، الكولونيل ابراهيم الحسيني، الذي

كان آنذاك الملحق العسكري السوري في روما، جرى تسريبه سراً إلى لبنان بجواز سفر مزوّر من وكالة المخابرات المركزية، وكان سيتم تهريب الحسيني من لبنان عبر الحدود السورية في سيارة دبلوماسية أمريكية ليجتمع مع عملاء وكالة المخابرات المركزية السوريين الرئيسيين وتقديم تأكيدات بأن الشيشكلي سيعود حاكماً لسورية بمجرد الإطاحة بالحكومة السورية.

ولكن الانقلاب افتضح أمره قبل أن يقلع. إن ضباط الجيش السوري الذين أسندت إليهم أدوار رئيسية في العملية ذهبوا إلى مكتب رئيس المخابرات السورية، العقيد السراج، وسلموه أموال الرشوة التي قدمت لهم، وأفشوا أسماء ضباط وكالة المخابرات المركزية الذين سلموهم هذه الأموال، وهم اللفتنانت كولونيل (روبرت مولوي Robert Molloy)، الملحق العسكري الأمريكي، (فرانسيس جيتون Francis Jeton) وهو ضابط مخابرات متمرس وصفته الرسمية نائب قنصل في السفارة الأمريكية، والرجل الأسطوري هوارد ستون، وكانت صفته الرسمية سكرتير ثان للشؤون السياسية، وقد اعتبروا جميعاً أشخاصاً غير مرغوب فيهم وطردوا من البلد في شهر آب (اوغسطس).

الكولونيل مولوي كان مصمماً أن يغادر سورية بأسلوب يدل على شخصيته. فعندما اقتربت سيارته من الحدود اللبنانية، صدم الحارس السوري الذي كان يرافقه على دراجته النارية وصرخ في وجه الحارس الذي سقط عن الدراجة «يجب إبلاغ الكولونيل السراج وأصدقائه الشيوعيين» أن مولوي «سيجعل الرصاص يخترق أجسادهم بيد واحدة مربوطة وراء ظهره إذا ما اعترضوا طريقه مرة أخرى».

إن بيان الحكومة السورية الذي رافق أمر الطرد ذكر أن ستون أجرى اتصالاً في أول الأمر مع الحزب القومي الاجتماعي المحظور ثم مع ضباط الجيش. عندما أبلغ الضباط عن المؤامرة، طلب منهم أن يستمروا في اتصالاتهم مع الأمريكيين، واجتمعوا بعد ذلك بالشيشكلي والحسيني في منازل كبار أعضاء السفارة الأمريكية. وقيل إن الحسيني أبلغ الضباط أن الولايات المتحدة مستعدة لأن تقدم لحكومة

سورية جديدة ما بين ٣٠٠ و٤٠٠ مليون دولار بشكل مساعدة إذا عقدت الحكومة صلحاً مع إسرائيل.

حدث أمر جانبي مضحك في هذه المسألة عندما كذّب وزير الدفاع السوري والسفير السوري في إيطاليا الادعاء بأن الحسيني لم يكن له أي دخل في المؤامرة. السفير أشار إلى أن الحسيني لم يكن موجوداً في سورية منذ ٢٠ تموز (يوليو) وأن جواز سفره لا يتضمن أية إشارة إلى أنه كان خارج إيطاليا منذ ذلك الحين.

وصفت وزارة الخارجية الأمريكية الاتهام السوري بأنه «اختلاق بكامله» وردت عليه بطرد السفير السوري والسكرتير الثاني في السفارة واستدعاء السفير الأمريكي من سورية. وكانت هذه أول مرة منذ عام ١٩١٥ تطرد فيها الولايات المتحدة رئيس بعثة دولة أجنبية [١٣].

في أعقاب هذا الخلاف، ذكرت جريدة «نيويورك تايمز» أن:

«هناك نظريات عديدة تشرح سبب تصدي سورية للولايات المتحدة. إحدى هذه النظريات أنها فعلت ذلك بتحريض من الاتحاد السوفييتي. نظرية أخرى فسرت الأمر بأن سورية اختلقت قصة تجسس معادية للولايات المتحدة لكي تحوّل انتباه الرأي العام عن أهمية مفاوضات سورية مع موسكو» [١٤].

تضمن عدد الجريدة نفسه تكهنات عن تفسيرات تبدو مقبولة [١٥]. ولكن النيويورك تايمز بدت سواء في أخبارها وفي مقالها الرئيسي أنها تأخذ في الاعتبار احتمال أن يكون الاتهام السوري صحيحاً.

عندما أتى الرئيس ايزنهاور في مذكراته على ذكر الحادث، لم يقدم أي نفي للاتهام. تعليقه الوحيد عليه كان: «أن العمل بكامله يكتنفه الغموض ولكن هناك شبهة قوية أن يكون الشيوعيون قد أحكموا إشرافهم على الحكومة. علاوة على ذلك، لدينا تقارير جديدة تفيد بأن سورية تتلقى أسلحة من الاتحاد السوفييتي» [١٦].

ظل توجه سورية الحيادي: «اليساري» هاجس الولايات المتحدة. بعد خمس سنوات، عندما كان جون كنيدي سيد البيت الأبيض، اجتمع مع رئيس الوزراء البريطاني (مكميلان Macmillan) واتفق الزعيمان، بحسب تقرير لوكالة المخابرات المركزية، على «اختراق وتثقيف العناصر التخريبية في القوات المسلحة السورية، ولاسيما في الجيش السوري، بحيث يمكن أن يقوم الغرب بتوجيه سورية» (١٧).

بعد عقود من السنين، كانت واشنطن لا تزال قلقة، مع أن سورية لم «تتحول إلى دولة شيوعية».

الشرق الأوسط ١٩٥٧ - ١٩٥٨
مبدأ ايزنهاور يدعي وجود ساحة خلفية أخرى لأمريكا

في التاسع من آذار (مارس) ١٩٥٧، أقر الكونغرس الأمريكي مشروع قرار رئاسي عُرف باسم مبدأ ايزنهاور. كان هذا عبارة عن قطعة ورق، شأنه شأن مبدأ ترومان ومبدأ مونرو من قبله، وبموجبه منحت الحكومة الأمريكية حكومة الولايات المتحدة حقاً عجيباً وتُحسد عليه، بأن تتدخل عسكرياً في بلدان أخرى. بجرّة قلم أضيف الشرق الأوسط إلى أوروبا ونصف الكرة الأرضية الغربي كساحة لعب لأمريكا.

جاء في القرار أن «الولايات المتحدة تعتبر الحفاظ على استقلال ووحدة أراضي دول الشرق الأوسط حيوياً للمصلحة القومية والسلام العالمي». مع ذلك، فإن وكالة المخابرات المركزية، كما رأينا، أطلقت في هذه المدة بالذات، عمليتها للإطاحة بحكومة سورية.

الجانب العملي في القرار تضمنه الإعلان المقتضب أن الولايات المتحدة «مستعدة لاستخدام قواتها المسلحة لمساعدة أي بلد في الشرق الأوسط يطلب مساعدته ضد عدوان مسلح من قبل أي بلد خاضع لسيطرة الشيوعية الدولية». لم يرد أي شيء عن عدوان غير شيوعي أو ضد الشيوعية قد يعرض للخطر السلام العالمي.

كان ويلبور كرين ايفلاند، المختص بالشرق الأوسط والعامل لدى وكالة المخابرات المركزية آنذاك، قد حضر قبل ذلك بشهرين، اجتماعاً في وزارة الخارجية دعت لانعقاده من أجل بحث القرار. قرأ ايفلاند مسودة القرار وقد جاء فيها: «إن العديد، إن لم يكن جميع دول الشرق الأوسط مدركة للخطر الناجم عن الشيوعية الدولية» وقد كتب لاحقاً ما يلي:

«صدمني ما قرأت. تساءلت، من هو الذي توصل إلى هذا التحديد لما يعتبره العرب خطراً عليهم؟ إن الجيش الإسرائيلي غزا مصر للتو ولا يزال يحتل شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة. ولولا تهديد روسيا بالتدخل نيابة عن المصريين، لربما كانت القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية الآن في قلب القاهرة لتحتفل بالسقوط المذل لعبد الناصر (1).

إن وجهة النظر المبسطة والمركزة على قطب واحد، التي جاءت بصورة ضمنية في مبدأ ايزنهاور، لم تتجاهل المشاعر المعادية لإسرائيل فقط، بل تجاهلت أيضاً التيارات الوطنية، والقومية العربية، والحياد، والاشتراكية السائدة في العديد من الأوساط ذات النفوذ في الشرق الأوسط، الذين صاغوا القرار رأوا فقط ساحة معركة للحرب الباردة. وهم بذلك أفلحوا في خلق ساحة معركة.

في شهر نيسان (ابريل) عزل الملك حسين، ملك الأردن، رئيس وزرائه سليمان النابلسي وسط شائعات، يبدو أن لها أساساً، عن انقلاب ضد الملك بتشجيع من مصر وسورية والفلسطينيين المقيمين في الأردن. كان هذا منعطفاً في النزاع بين سياسة حسين الموالية للغرب والميول الحيادية لحكومة النابلسي، وكان النابلسي قد أعلن أن الأردن، تمشياً مع سياسة الحياد، سيقيم علاقات أوثق مع الاتحاد السوفييتي وسيقبل مساعدة سوفييتية إذا عرضت عليه. وهو في الوقت ذاته رفض مساعدة أمريكية لأن الولايات المتحدة، كما قال، أبلغته أن المساعدة الاقتصادية ستحجب «إذا لم يقطع الأردن روابطه مع مصر» و «لم يوافق على توطين اللاجئين الفلسطينيين في الأردن» وهي تهمة نفتها وزارة الخارجية الأمريكية. وأضاف النابلسي أن «الشيوعية لا تشكل خطراً على العرب».

بالمقابل، إتهم حسين «الشيوعية الدولية وأتباعها». المسؤولة المباشرة عن «الجهود الرامية لتدمير بلدي». ولدى الإلحاح عليه بأن يذكر أموراً محددة تسند هذا الاتهام، امتنع عن تقديم أي شيء.

عندما قامت أعمال شغب في مدن أردنية عديدة، ولم يعد بالإمكان استبعاد نشوب حرب أهلية، أظهر حسين أنه كفؤ لمواجهة التهديد لاستمرار حكمه وأعلن الأحكام العرفية، وطهّر الحكومة والعسكريين من ذوي الميول الناصرية واليسارية، وألغى المعارضة السياسية بكاملها. وما لبث الأردن أن عاد إلى وضعه دولة يسودها الهدوء النسبي.

بيد أن الولايات المتحدة استغلت استخدام حسين لعبارة «الشيوعية الدولية» لكي تبرر إرسال وحدات من الأسطول السادس على وجه السرعة إلى شرقي البحر الأبيض المتوسط. هذه الوحدات مؤلفة من حاملة طائرات كبرى، وطرّادتين، و١٥ مدمرة، وتبعت هذه الوحدات بعد وقت قصير سفن أخرى من الأسطول وفوج من المارينز نزل على الشاطىء في لبنان - «للإعداد من أجل تدخل محتمل في المستقبل في الأردن» (٢).

بالرغم من حقيقة أنه لم يحدث أي شيء يشبه «عدوان عسكري من جانب أي بلد تسيطر عليه الشيوعية الدولية»، فإن وزارة الخارجية الأميركية وجهت دعوة علنية إلى الملك لتطبيق مبدأ ايزنهاور (٣) لكن حسين الذي لم يصل به الأمر إلى حد أن يطلب استعراض القوة، رفض تطبيق مبدأ ايزنهاور علماً منه أن خطوة كهذه من شأنها فقط أن تضيف الوقود إلى النيران التي كانت قد بدأت تشتعل في الحياة السياسية الأردنية. وقد كتب له البقاء بدون تطبيق مبدأ ايزنهاور.

في وقت ما خلال ذلك العام بدأت وكالة المخابرات المركزية تقدم دفعات سنوية سرية إلى الملك حسين، في أول الأمر كانت هذه الدفعات في حدود ملايين الدولارات سنوياً. واستمرت هذه الممارسة مدة ٢٠ عاماً كانت خلالها الوكالة تقدم إلى حسين أيضاً نساء ليكنَّ في صحبته. وقد ادعت وكالة المخابرات المركزية لاحقاً، على سبيل تبرير الدفعات التي تقدمها له، أن الملك حسين سمح لأجهزة المخابرات الأميركية بالعمل بحرية في الأردن. وكان الملك حسين نفسه يقدم معلومات

استخبارية إلى وكالة المخابرات المركزية وقام بتوزيع جزء من الأموال التي يتلقاها على مسؤولين حكوميين آخرين قدموا معلومات إلى الوكالة أو تعاونوا معها [٤].

بعد ذلك ببضعة أشهر كانت سورية هي التي تحتل مقدمة المسرح في ميلودراما «الشيوعية الدولية» في واشنطن. كان السوريون قد أقاموا علاقات مع الاتحاد السوفييتي بواسطة التجارة، والمساعدة الاقتصادية، ومشتريات الأسلحة والتدريب. وقد اختارت الولايات المتحدة أن ترى شيئاً ينذر بالشر في ذلك ولو أن ذلك كان شيئاً أوجده إلى حد غير قليل جون فوستر دالس، على نحو ما رأينا في الفصل السابق من هذا الكتاب. إن كراهية أميركا لسوريا ازدادت في شهر آب (أغسطس) عقب فضح الحكومة السورية لمؤامرة دبرتها وكالة المخابرات المركزية للإطاحة بهذه الحكومة.

ارتاح المسؤولون في واشنطن والإعلام الأميركي بسهولة إلى عادة الحديث عن سورية «كدولة تابعة للسوفييت» أو «شبه دولة تدور في فلك السوفييت». لم يكن هذا أبداً أسلوباً موضوعياً في نقل الأخبار. إن كينيت لاف، وهو مراسل لجريدة نيويورك تايمز على علاقة وثيقة بوكالة المخابرات المركزية (راجع الفصل الخاص بإيران) كشف لاحقاً عن جانب من الخلفية:

«إن السفارة الأميركية في سورية اختلقت أخباراً مزورة نشرت في واشنطن ولندن عبر قنوات دبلوماسية وصحفية مفادها أن أسلحة روسية كانت تتدفق على مرفأ اللاذقية السوري، وأن ما لا يقل عن ١٢٣ طائرة ميغ قد وصلت إلى سورية، وأن العقيد عبد الحميد السراج، رئيس المخابرات السورية قد تولى السيطرة في انقلاب أوصى به الشيوعيون. لقد تجولت في سائر أنحاء سورية بدون أن أصادف أية عرقلة خلال شهري تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٦، وتبين لي في الحقيقة أنه لا وجود «لأكثر من ١٢٣ طائرة ميغ». لم تكن هناك أية طائرة، ولم تصل أية أسلحة روسية منذ شهور، ولم يكن هناك أي انقلاب، مع أن بعض المراسلين في بيروت التي تبعدها عن دمشق مسافة رحلة بالسيارة مدتها ساعتان، كانوا يبعثون برسائلهم المتضمنة أخباراً مزورة غير مسنودة إلى أي مصدر، بل كان يغذيهم بها زوار

السفارة الأميركية في دمشق إضافة إلى أحد رجال وكالة المخابرات المركزية، وهو رجل جوّال كان يعمل تحت غطاء أنه وكيل لوزارة الخزانة الأميركية. إن السراج، الذي كان معادياً للشيوعية، كان لتوِّه قد أحبط مؤامرة غبية تدعمها بريطانيا والولايات المتحدة والعراق (للإطاحة بالحكومة السورية). لقد كانت سورية هادئة ولكنها قلقة خشية أن تمهد الدعاية إلى انقلاب جديد أو إلى غزو مدعوم من الغرب» (٥).

إن ايزنهاور، وكأنه يريد تعزيز اقتناع ما بقي من المتشككين، أرسل مبعوثاً شخصياً، هو (لوي هندرسون Loy Henderson) للقيام بجولة في الشرق الأوسط. ولم يكن أمراً مفاجئاً أن هندرسون عاد من جولته باستنتاج مفاده أن «هناك خوف في سائر بلدان الشرق الأوسط من احتمال أن يتمكن السوفييت من الإطاحة بأنظمة الحكم في كل بلد من هذه البلدان عن طريق استغلال الأزمة في سورية» (٦). ولم يقدم أي مؤشر إلى ما إذا كان السوريون أنفسهم يرون أنهم يواجهون أزمة.

وكمؤشر إلى كيفية اختلاق الأزمات التي أعلن عنها البيت الأبيض، وطريقة التعسف في الإعلانات الصادرة عن يوم الحساب في الآخرة بشأن الاتحاد السوفييتي، يحسن بنا أن نفكر في الكلام التالي الوارد في المذكرة الداخلية لوزارة الدفاع الأمريكية بتاريخ حزيران (يونيو) ١٩٥٧، قبل نحو شهرين من ذهاب هندرسون إلى الشرق الأوسط:

«لم يظهر الاتحاد السوفييتي أية نية لتدخل مباشر في أية أزمة من أزمات الشرق الأوسط السابقة، ونعتقد أنه من غير المحتمل أن يتدخل، تدخلاً مباشراً، لضمان نجاح انقلاب يساري في سورية» (٧).

في مطلع شهر أيلول (سبتمبر)، بعد يوم من عودة هندرسون أعلنت الولايات المتحدة أنه يجري مرة أخرى إرسال الأسطول السادس إلى البحر الأبيض المتوسط وإرسال أسلحة ومعدات عسكرية أخرى إلى الأردن، ولبنان، والعراق وتركيا على وجه

السرعة. بعد ذلك بأيام أضيفت المملكة العربية السعودية إلى هذه القائمة. رد الاتحاد السوفييتي بإرسال شحنات أسلحة إلى سورية ومصر واليمن.

اتهمت الحكومة السورية الولايات المتحدة بإرسال سفن حربية إلى مقربة من الساحل السوري في «تحد علني» وقالت ان طائرات مجهولة الهوية حلقت باستمرار نهاراً وليلاً ولمدة أربعة أيام فوق منطقة اللاذقية. واللاذقية هي الميناء البحري الذي وصلت إليه السفن السوفييتية.

علاوة على ذلك، اتهمت الحكومة السورية الولايات المتحدة «بتحريض» تركيا على حشد ما يقدر بخمسين ألف جندي على الحدود السورية. وقد هزئت سورية من تفسير هذا الحشد بأن هذه القوات التركية كانت تقوم بمناورات. لقد كتب ايزنهاور فيما بعد أن هذه القوات كانت على الحدود «بجاهزية للعمل» وان الولايات المتحدة كانت قد أكدت لقادة تركيا والعراق والأردن أنهم «إذا شعروا بضرورة القيام بعمل ضد عدوان ترتكبه الحكومة السورية، فإن الولايات المتحدة ستتعهد بتسريع شحنات الأسلحة التي التزمت بها إلى بلدان الشرق الأوسط وأنها إضافة إلى ذلك ستعوض الخسائر بأسرع ما يمكن». ولم يكن الرئيس على خصومة مع الفكرة القائلة أن هذا الإجراء قد يتخذ لردع، حسب كلماته، «عدوان مرتقب» من جانب سورية، لأنه بذلك سيكون إجراء «ذا طبيعة دفاعية في الأساس» (التأكيد على كلمة مرتقب أضيف إلى النص) (٨).

الدور الأمريكي هنا كان بالإمكان ان يكون أكثر نشاطاً مما يوحي به كلام ايزنهاور. إن أحد مستشاريه (ايميت جون هيوز Emmet John Hughes) كتب شارحاً كيف أن (كريستيان هيرتر Christian Herter) مساعد وزير الخارجية، الذي حل لاحقاً محل جون فوستر دالس المريض كوزير للخارجية، «أعاد بتفصيل مؤسف رواية.. بعض المحاولات الأمريكية السرية المرتبكة التي جرت مؤخراً لحفز القوات التركية على القيام بشكل ما غامض من أشكال المعركة مع سورية» (٩).

أعطى دالس في تصريح علني الانطباع بأن الولايات المتحدة حريصة على تطبيق مبدأ ايزنهاور بشكل ما، ويفترض أن ذلك سيكون «مبرراً» للقيام بعمل آخر ضد سورية، ولكنه لم يتمكن من تقديم أي تفسير لكيفية جعل ذلك ممكناً. ومن المؤكد أن سورية لن تقدم الطلب الضروري بهذا الخصوص.

كان الحل الوحيد يكمن في أن تهاجم سورية بلداً عربياً آخر، وبالتالي فإن هذا البلد سيطلب مساعدة أمريكية، ويبدو أن هذا هو الأساس المنطقي الوحيد وراء هيجان النشاط العسكري والدبلوماسي الموجه نحو سورية من جانب الولايات المتحدة. لقد توصلت دراسة أجريت لحساب البنتاغون بعد ذلك بسنوات، إلى استنتاج مفاده أن واشنطن بدت في «الأزمة السورية عام ١٩٥٧» أنها تنشد استخداماً أولاً للقوة من قبل الهدف» [١٠]. (يُقصد ب - «الهدف» سورية).

خلال تلك المدة، كان هم المسؤولين في واشنطن يراوح بين بذل الجهد للحصول على شهادات من دول عربية أخرى بأن سورية كانت في الحقيقة نوعاً من أنواع الدول التي تدور في الفلك السوفييتي، وأنها تشكل تهديداً للمنطقة، وكان هؤلاء المسؤولون يؤكدون أن الولايات المتحدة تلقت فيضاً من هذه الشهادات بالذات. ولكن الأردن، والعراق والمملكة العربية السعودية نفت جميعها أنها تشعر بتهديد من سورية. وبطبيعة الحال فإن مصر، أقرب حلفاء سورية إليها، انضمت إلى هذا النفي. في ذروة «الأزمة» غادر الملك حسين ملك الأردن بلاده في إجازة يقضيها في أوروبا، وأعلن رئيس وزراء العراق أن بلاده وسورية توصلا إلى «تفاهم كامل»، وقال الملك سعود، ملك المملكة العربية السعودية، في رسالة إلى ايزنهاور: إن قلق الولايات المتحدة من جراء سورية «مبالغ فيه»، وطلب من الرئيس الأمريكي «تأكيدات جديدة بأن الولايات المتحدة ستمتنع عن التدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية». وأضاف الملك سعود أن «الجهود الرامية إلى قلب نظام الحكم في سورية من شأنها فقط أن تجعل السوريين أكثر انقياداً للنفوذ السوفييتي»، وهذه وجهة نظر شارك فيها العديد من المراقبين في كل الجهات.

في الوقت ذاته قالت جريدة نيويورك تايمز ما يلي:

«منذ بداية الأزمة الناشئة عن انجراف سورية إلى اليسار، كان الانفعال بين جاراتها العربية أقل من الانفعال في الولايات المتحدة. وقد شعر الدبلوماسيون الأجانب في المنطقة، ومن ضمنهم أمريكيون كثر، أن الهياج الذي نشأ في واشنطن لا يتناسب مع القضية».

ولعل دالس، بالتالي، تأثر بهذا الافتقار إلى تأييد المقولة الأمريكية، إذ أنه عندما طلب منه «أن يبين على وجه التحديد ما هي العلاقة بين الأسلحة السوفييتية في المنطقة وذلك الجزء الذي تضيفه سورية إلى هذه الأسلحة»، كان رده الوحيد أن «الوضع الداخلي في سورية ليس كامل الوضوح بل متقلب نوعاً ما». وقال بطريقة ضمنية: إن سورية ليست بعد في قبضة الشيوعية الدولية.

في اليوم التالي، عمدت سورية، التي لم تكن راغبة في عزل نفسها عن الغرب، إلى تخفيف لهجتها بالمثل، فأعلنت أن السفن الحربية الأمريكية صارت على بعد ميل ونصف الميل من الشواطئ السورية وواصلت «رحيلها بهدوء» [١١].

يبدو أنه خلال هذه السنة بالذات، سنة ١٩٥٧ المفعمة بالقلق، كانت الولايات المتحدة منخرطة في مؤامرة للإطاحة بعبد الناصر وقوميته المثيرة للمتاعب، غير أن التفاصيل كانت ضئيلة. في شهر كانون الثاني (يناير)، عندما كان الملك سعود والوصي على عرش العراق عبد الإله في نيويورك لحضور اجتماع الأمم المتحدة، اتصل بهما مدير وكالة المخابرات المركزية آلن دالس، وأحد كبار مساعديه، كرميت روزفلت، حاملين معهما عروضاً بتخطيط سري من جانب وكالة المخابرات المركزية وتمويلاً للإطاحة بالزعيم المصري الذي كانت خطبه الراديكالية، التي كانت لا تزال في بدايتها، تشكل في نظر هذين الزائرين الملكيين تهديداً لفكرة النظام الملكي ذاتها. كان عبد الناصر مع ضباط آخرين من الجيش قد أسقطوا ملك مصر فاروق في عام ١٩٥٢. ومن دواعي السخرية أن كرميت روزفلت ووكالة المخابرات المركزية عزي

إليهما الفضل في هندسة هذا الانقلاب بشكل ما. بيد أنه ليس ثمة أبداً ما يؤكد قيامهما بهذا العمل فعلاً [١٢].

كتب ايفلاند يقول، «أصر عبد الإله على مشاركة بريطانيا في أي شيء سري، ولكن السعوديين رفضوا لأنهم كانوا قد قطعوا العلاقات مع بريطانيا. ونتيجة لذلك، تعاملت وكالة المخابرات المركزية مع كل من هذين الطرفين على انفراد، ووافقت على تمويل حصة الملك سعود في مخطط جديد للمنطقة لمعارضة عبد الناصر والقضاء على نفوذه في سورية، وتحقيقاً لهذا الهدف، شكلت في بيروت مجموعة عمل سرية مؤلفة من ممثلي أجهزة المخابرات البريطانية، والعراقية، والأردنية واللبنانية» [١٣].

كانت متابعة المؤامرة في منتصف فصل الربيع في منزل غصن زغبي في بيروت. كان زغبي، وهو من أصل لبناني، رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية في بيروت. إنه مع كرميت روزفلت، الذي كان يقيم معه. استضافا عدة مؤتمرات لمخططين سريين. تابع ايفلاند كلامه قائلاً: «كانت حركتهم السرية ذهاباً وإياباً جلية. وكان مجيء ومغادرة ضباط ارتباط عراقيين وأردنيين ولبنانيين خلال الليل من الوضوح بحيث إنه قيل: إن السفير المصري في لبنان بدأ يخمن أين ومتى سيحدث الانقلاب التالي الذي تدبره الولايات المتحدة». في أحد هذه الاجتماعات، أبلغ ممثل المخابرات السرية البريطانية المجتمعين أن مجموعات جرى نشرها في الميدان لاغتيال عبد الناصر.

بعد ذلك بوقت قصير، علم ايفلاند من أحد مسؤولي وكالة المخابرات المركزية أن جون فوستر دالس وأخاه آلن، أصدرا توجيهاً إلى روزفلت للعمل مع البريطانيين للإطاحة بعبد الناصر. كان روزفلت آنذاك يتحدث عن «ثورة في القصر» في مصر [١٤].

ومن هذه النقطة وإلى ما بعدها نحن نصطاد في مياه عكرة، لأن الأحداث التي تبعت أنتجت أسئلة أكثر مما أنتجت أجوبة. ذلك أنه بالبلدان الستة المذكورة أعلاه، مضافة إليها تركيا وإسرائيل اللتان كما يبدو بدأتا تشاركان في العمل، ونظراً لأن

الثقة والمحبة بين مختلف الحكومات كانتا أقل من الكمال، فقد كان من المحتم أن تبرز مجموعة كبيرة من خطط للمؤامرة، وأنصاف خطط، وخطط جانبية، كانت هذه أحياناً تتدنى إلى حدود الكوميديا الهزيلة، ولو أن البعض يصفها بأنها لا تعدو أن تكون «دبلوماسية» شرق أوسطية عادية.

بين تموز (يوليو) ١٩٥٧ وتشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٥٨ أعلنت الحكومتان المصرية والسورية ووسائط الإعلام في البلدين اكتشاف على ما يبدو ما لا يقل عن ثماني مؤامرات لإسقاط إحدى الحكومتين، واغتيال عبد الناصر و/أو الحيلولة دون الوحدة المتوقعة بين البلدين. في معظم الأحيان كانت الأخبار تأتي على ذكر المملكة العربية السعودية والعراق والولايات المتحدة باعتبارها الجهات الضالعة في المؤامرة، ولكن كان من المستحيل استناداً إلى الانخراط في المكيدة كما ظهر على السطح أن نفك الخيوط المحددة للدور الأمريكي[١٥].

يبدو أنه طبقاً للمهازل التي استمرت، كانت واحدة على الأقل من المؤامرات لاغتيال عبد الناصر ناجمة عن فهم الأخوين دالس عبارة الرئيس ايزنهاور التي قال فيها: إنه يأمل «بتصفية مشكلة عبد الناصر» على أنها أمر بالاغتيال، مع أن الرئيس الأمريكي، كما تقول الرواية، كان يشير فقط إلى تحسين العلاقات الأمريكية - المصرية. بعد أن أدرك وزير الخارجية دالس الخطأ، أصدر أمراً بإيقاف العملية [١٦]. (بعد ذلك بثلاثة أعوام، كرر آلن دالس «سوء تفسير» عبارة أخرى وردت على لسان ايزنهاور باعتبارها أمراً باغتيال رئيس وزراء الكونغو باتريس لومومبا).

إن ما كان يصدر في تلك المدة بكاملها من أخبار رسمية أمريكية كان من شأنه أن يجعل العالم يصدق أن الاتحاد السوفييتي كان المسؤول بامتياز عن النزاع في الأردن، و «الأزمة» في سورية، وعدم الاستقرار العام في الشرق الأوسط، وأن هدف السوفييت كان السيطرة على المنطقة، بينما الغاية الوحيدة للسياسة الأمريكية كانت ضد هذه الهجمة السوفييتية والمحافظة على «استقلال» الدول العربية. مع ذلك، فإن الاتحاد السوفييتي دعا - في ثلاث مناسبات متفرقة في عام ١٩٥٧ - في

شباط (فبراير) ونيسان (ابريل) وأيلول (سبتمبر) - إلى صدور إعلان رباعي (الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وبريطانيا العظمى وفرنسا) ينبذ استخدام القوة والتدخل في الشؤون الداخلية لبلدان الشرق الأوسط. النداء في شهر شباط (فبراير) دعا إضافة إلى ذلك لفرض حظر من جانب الدول الأربع على شحنات الأسلحة إلى المنطقة، وإلى انسحاب جميع القوات الأجنبية، وتصفية جميع القواعد الأجنبية، وعقد مؤتمر من أجل التوصل إلى تسوية عامة في الشرق الأوسط.

إن الاستراتيجية السوفييتية كانت ترمي بوضوح إلى الحياد في الشرق الأوسط وإلى إزالة التهديد الذي كانت المنطقة تشعر به منذ زمن طويل من جانب السيطرة المعادية المحتملة على الإقليم المنتج للنفط من جانب فرنسا وبريطانيا العظمى بصورة تقليدية، وحالياً من جانب الولايات المتحدة، التي تسعى إلى ملء «فراغ القوة» الذي نشأ عن تدني وضع الدولتين الأوروبيتين كقوتين متحكمتين بالشرق الأوسط.

لا يروي لنا التاريخ ما كان يمكن أن يكون الشرق الأوسط المتحرر من استغلال الدول الكبرى له، فلا فرنسا، ولا بريطانيا العظمى، ولا الولايات المتحدة كانت تتصاع حتى إلى فضح «الخدعة» السوفييتية، هذا إذا كانت فعلاً خدعة. لقد أوجزت جريدة نيويورك تايمز موقف الدول الغربية الثلاث من المبادرتين الأولى والثانية قائلة: إنه موقف يرمي إلى الاستخفاف بالمقترحات السوفييتية باعتبارها ترمي إلى الاعتراف بحق الاتحاد السوفييتي في أن يكون له صوت مباشر في شؤون الشرق الأوسط. وقد طلبت الدول الثلاث من الروس أن يعرضوا شكاواهم على الأمم المتحدة.

على أثر الاقتراح الذي قدم في شهر أيلول «سبتمبر» قال جون فوستر دالاس، رداً على سؤال في مؤتمر صحفي: «إن الولايات المتحدة ترتاب في كل هذه الترتيبات مع الاتحاد السوفييتي، الرامية إلى نفض أيدينا. إن ما يمكن أن تعنيه هو أن ننفض أيدينا بينما تكون أيدي السوفييت تلعب تحت الطاولة». يبدو أن هذا كان التعليق العلني الوحيد الذي رأت الحكومة الأمريكية أن تدلي به في هذه المسألة [١٧].

قد يكون من المفيد التكهن حول رد الفعل من جانب الدول الغربية عما إذا كان الاتحاد السوفييتي قد أعلن «مبدأ خروشوف» متخذاً لنفسه نفس مجال العمل في الشرق الأوسط الذي نص عليه مبدأ ايزنهاور.

في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨ أعلنت سورية ومصر خطتهما لإقامة وحدة بينهما تشكلت بواسطتها دولة جديدة هي الجمهورية العربية المتحدة. إن مبادرة هذه الوحدة الاندماجية جاءت من سورية، وكان الدافع إليها إلى حد غير قليل خوف سورية من استمرار ألعاب القوة الأمريكية ضدها. ومن دواعي السخرية أن الحزب الشيوعي الذي كان محظوراً في مصر، قد جرى حله في سورية بموجب ترتيبات الوحدة، وهذا هدف أخفقت في تحقيقه وكالة المخابرات المركزية بنشاطها السري قبل عام ونصف العام.

بعد مرور أسبوعين على ولادة الجمهورية العربية المتحدة، وفي رد مباشر على ولادتها، أعلن العراق والأردن تشكيل «الاتحاد العربي»، وكان دور الولايات المتحدة في ذلك دور القابلة القانونية عند الولادة. إن هذا الاتحاد لم يعمر طويلاً، ففي انقلاب دموي في العراق في شهر تموز (يوليو) أطيح بالنظام الملكي، وأقام نظام الحكم الجديد جمهورية، وأعلن على الفور تخليه عن الحلف.

إن الأبواق المنذرة (بأرماغادون Armagaddon) - أي الآخرة - ترددت أصواتها مرة أخرى في المكتب البيضوي بكل وضوح. لقد كتب ايزنهاور في مذكراته «أن هذا الانعطاف الكئيب في الأحداث كان يمكن أن ينتج عنه، إذا لم نرد عليه رداً قوياً، استئصال كامل للنفوذ الغربي في الشرق الأوسط» (١٨).

مع أن الرئيس الأمريكي ما كان يمكن أن يكون غبياً بحيث يتحدث عن القلق حول النفط، فإن حملته المعبرة عن قلقه كان من المحتمل أن تكون ناجمة عن كون واحد من أكبر احتياطيات النفط في العالم أصبح الآن تحت حكم حكومة قد يثبت أنها حكومة لا يمكن الاعتماد عليها كحليفة مثلما كان الأمر مع نظام الحكم السابق، وأنها حكومة مستقلة عن واشنطن أكثر مما يجب.

لقد انتهى زمن الاكتفاء باستعراض القوة. ففي اليوم التالي بالذات تم إرسال جنود المارينز مع قوات من الأسطول الأمريكي وسلاح الجو الأمريكي ليس إلى العراق بل إلى لبنان.

لقد كان لبنان بكل سهولة هو الحليف الأقرب للولايات المتحدة من بين كل الدول العربية. فلبنان وحده الذي أيد مبدأ أيزنهاور بحماسة وهو بدون لبس كان لفزع واشنطن من سورية صداه عنده. ولمزيد من الدقة نقول: إن الرئيس اللبناني في ذلك الحين كميل شمعون، ووزير خارجيته شارل مالك، وهو حاصل على دكتوراه في الفلسفة من جامعة هارفارد، قد وضعا كل ما لديهما من بيض الحرب الباردة في السلة الأمريكية.

كان لدى شمعون العديد من الأسباب للانضمام إلى الولايات المتحدة. فالظاهر أن وكالة المخابرات المركزية لعبت دوراً في انتخابه عام ١٩٥٢[١٩]. وفي عام ١٩٥٧ كانت الوكالة سخية في تقديم مبالغ من المال إلى شمعون لاستخدامها في دعم مرشحين للمجلس النيابي (البرلمان) في انتخابات شهر حزيران (يونيو)، بحيث يدعمه هؤلاء، ومن المفترض أن يدعموا أيضاً السياسة الأمريكية. وقدمت الوكالة أيضاً مبالغ من المال لغاية محددة هي معارضة المرشحين الذين استقالوا احتجاجاً على التزام شمعون بمبدأ ايزنهاور، وكانت هذه المعارضة بمثابة عقاب لهم.

جرياً على العادة في مثل هذه العمليات، أرسلت وكالة المخابرات المركزية «خبيراً مختصاً بالانتخابات» مع الأموال إلى بيروت لكي يساعد في التخطيط. وانطلق المسؤولون الأمريكيون في واشنطن ولبنان، في العمل، مفترضين، كما قال بعضهم لبعض: إن مصر، وسورية والمملكة العربية السعودية سوف تتدخل مالياً في الانتخابات. كما أن السفير الأمريكي في لبنان، (دونالد هيث Donald Heath) كان يحاجج قائلاً بدون أن تكون لديه نية السخرية: «إنه بدعم كل من الرئيس اللبناني والمجلس النيابي الجديد، للمبادىء الأمريكية، سنكون قد أظهرنا أن الديموقراطية التمثيلية يمكن أن تنجح في الشرق الأوسط».

ليس معروفاً إلى أي حد كان التمويل الأمريكي يساعد، أو حتى كيف جرى إنفاق المال، ولكن النتيجة كانت نجاحاً ساحقاً للنواب الموالين للحكومة إلى حد أنه تسبب في احتجاجات كبيرة في لبنان، واتهام شمعون بأنه اشترى النواب لكي يعدل الدستور من أجل مسعاه للحصول على ولاية ثانية مدتها ست سنوات يحظرها الدستور، عندما يحين موعد الانتخابات الرئاسية في السنة التالية [٢٠].

في أواخر نيسان (ابريل) ١٩٥٨، وصلت حالات التوتر في لبنان إلى نقطة الانفجار. إن توجه حكومة شمعون المفرط نحو الولاء لأمريكا، ورفضه تبديد الشائعات عن رغبته في السعي لولاية ثانية أشعلت غضب الوطنيين اللبنانيين ودعاة القومية العربية التي كان عبد الناصر يروّج لها في سائر أنحاء الشرق الأوسط. كانت هناك مطالبات بأن تعود الحكومة إلى الالتزام الدقيق بالحياد الذي نص عليه الميثاق الوطني عام ١٩٤٣ عندما أعلن استقلال لبنان عن فرنسا.

اندفع المناضلون إلى القيام بمظاهرات، وجرى تفجير قنابل واشتباكات مع الشرطة، ثم عندما اغتيل في أوائل شهر أيار (مايو) رئيس تحرير صحيفة مناوئة للحكومة، انفجرت ثورة مسلحة في أجزاء عديدة من البلد، ونهبت مكتبات وكالة المعلومات الأمريكية في طرابلس وبيروت. كان لبنان يحتوي كل مسببات الحرب الأهلية.

كتب ايزنهاور «وراء كل هذه الأمور، كانت قناعتنا راسخة بأن الشيوعيين مسؤولون في المقام الأول عن الاضطراب، وأن الرئيس شمعون كان دافعه الوحيد هو الشعور القوي بالوطنية».

لم يوضح الرئيس الأمريكي من يعني أو ماذا يعني «بالشيوعيين». بيد أنه، في الفقرة التالية يشير، بدون تفسير، إلى الاتحاد السوفييتي باعتباره «محرك المتاعب» في الشرق الأوسط. وفي الصفحة التالية من مذكراته، كتب هذا الجندي القديم أنه «لاريب عندنا» في اتهام شمعون «لمصر وسورية بالتحريض على الثورة وتسليح المتمردين» [٢١].

في غمرة القتال، أعلن جون فوستر دالس أنه يرى «الشيوعية الدولية» كمصدر النزاع، وللمرة الثالثة في غضون عام واحد جرى إرسال الأسطول السادس إلى شرقي البحر الأبيض المتوسط، وأرسلت بطريق الجو إلى لبنان لوازم الشرطة لإخماد أعمال الشغب، إضافة إلى دبابات ومعدات ثقيلة أخرى.

في مؤتمر صحفي لاحق، أعلن دالس أنه حتى إذا لم تكن الشيوعية الدولية متورطة، فإن مبدأ ايزنهاور يظل قابلاً للتطبيق لأنه ينص في أحد أحكامه على «أن استقلال هذه البلدان أمر حيوي للسلام والمصلحة القومية للولايات المتحدة». وقال: «إن هذا بالتأكيد تكليف للقيام بعمل شيء ما إذا رأينا أن سلامنا ومصالحنا الحيوية معرضة للخطر من قبل أية جهة» (٢٢). بذلك أضفى أحد الذين صاغوا مبدأ ايزنهاور على نفسه تكليفاً.

استناداً إلى كل الروايات كانت مصر وسورية تدعمان قضية الثوار بالسلاح والرجال والمال، إضافة إلى الأخبار الإذاعية الحماسية من القاهرة، مع أنه من العسير تأكيد مدى المساندة المادية. ذهبتْ إلى لبنان مجموعة مراقبة تابعة للأمم المتحدة في شهر حزيران (يونيو) بطلب من وزير الخارجية شارل مالك وقالت في تقريرها أنها لم تجد أي دليل إلى تدخل ذي أهمية من جانب الجمهورية العربية المتحدة. وصدر تقرير ثان للأمم المتحدة في شهر تموز (يوليو) مؤكداً تلك النتيجة. غير أنه يظل قابلاً للتساؤل إلى أي حد يمكن الوثوق بهذه التقارير، التي تعالج تقييماً شائكاً إلى هذا الحد، علماً أنها صادرة عن هيئة تعمل للترويج إلى حل وسط.

في أي حال، كانت المسألة هل يمثل النزاع في لبنان حرباً أهلية شرعية مصدرها داخلي أم أنه من فعل ما جرت العادة على وصفه «بالمحرضين من الخارج» حول هذه النقطة لاحظ المؤرخ (ريتشارد بارنت Richard Barnet) ما يلي:

«لاشك في أن مجموعة المراقبة قللت من شأن مشاركة الجمهورية العربية المتحدة، ولكن المجموعة من الناحية الأساسية كانت على صواب. كان عبدالناصر

يحاول استغلال حالة الاضطراب في لبنان ولكن لم يكن هو من أوجدها. فلبنان، الذي كان دائماً مليئاً بالترسانات السرية وأسواق الأسلحة، لم يكن يحتاج إلى أسلحة أجنبية من أجل عنفه الداخلي. والتدخل المصري لم يكن المحرض ولا العامل الرئيسي في الصراع الأهلي. مرة أخرى كانت حكومة فقدت القدرة على ممارسة الحكم بصورة فعالة توجه اللوم في إخفاقها إلى عوامل خارجية [٢٣].

إن الرئيس ايزنهاور – متابعاً تفكيره سريع التبدل في المسألة – كتب أنه يبدو الآن أن عبد الناصر «سيكون مثلنا سعيداً برؤية نهاية مؤقتة للصراع وأنه اتصل بحكومتنا عارضاً عليها أن يحاول استخدام نفوذه لإنهاء المشكلة» [٢٤].

لقد ضحى كميل شمعون باستقلال لبنان وحياده على مذبح طموحه الشخصي والمساعدة الأمريكية المديدة، المشتقة من مشاركته في مبدأ ايزنهاور. إن المسلمين اللبنانيين، الذين كانوا يشكلون معظم معارضي شمعون، كانوا أيضاً يشعرون بالمرارة لأن الرئيس المسيحي وضع البلد مرة أخرى خارج التيار الرئيسي في العالم العربي، على نحو ما فعل في عام ١٩٥٦ عندما رفض قطع العلاقات مع فرنسا وبريطانيا العظمى إثر غزوهما مصر.

أما شمعون نفسه فقد اعترف بأهمية انحيازه إلى أمريكا في كلام كاشف للأمور أدلى به إلى ويلبور كرين ايفلاند. فقد كتب ايفلاند ذلك في أواخر نيسان (ابريل): «اقترحت عليه أن بإمكانه أن يخفف التوترات ببيان ينبذ فيه تحركاً لإعادة انتخابه. شخر شمعون وطلب أن أنظر إلى الرزنامة: كان يوم ٢٣ آذار (مارس) قد مضى عليه شهر، ولم يعد ممكناً بعد ذلك التاريخ إقرار تعديل يسمح له بولاية ثانية بصورة شرعية، ومن الجلي – كما قال – أن مسألة رئاسة الجمهورية ليست المسألة الحقيقية، بل التخلي عن مبدأ ايزنهاور هو ما يريده معارضوه» [٢٥].

ولكن شمعون بدلاً من التخلي عن هذا المبدأ استعان به. ومع أن القتال في أنحاء متفرقة، وأحياناً كان قتالاً عنيفاً، كان لا يزال مستمراً في لبنان، فإن الانقلاب

في العراق بتاريخ ١٤ تموز (يوليو) هو الذي حوّل الميزان لمصلحة تقدم شمعون بطلب رسمي للحصول على مساعدة عسكرية واستجابة الولايات المتحدة الفورية لهذا الطلب. إن تقريراً أعدته وكالة المخابرات المركزية عن مؤامرة ضد الملك حسين ملك الأردن أجج شعور واشنطن المستمر بالحاجة إلى الإسراع في الشرق الأوسط.

مع حلول ذلك الوقت، كان شمعون قد أعلن نيته بترك منصبه عند انتهاء ولايته في شهر أيلول (سبتمبر). كان همه الآن منصرفاً إلى مساعدته من جانب القوات الأمريكية للبقاء على قيد الحياة حتى ذلك التاريخ، إضافة إلى قيام القوات الأمريكية بعمل ضد المتمردين. ذلك أن الخوف من الاغتيال أبقاه خلال الشهرين السابقين بصورة مستمرة داخل القصر الرئاسي، ممتنعاً حتى عن الاقتراب من إحدى النوافذ. إن قتل ملك العراق ورئيس الوزراء خلال الانقلاب لم يهدف إلى جعله أكثر شعوراً بالأمن.

وضع مبدأ ايزنهاور موضع التطبيق ليس فقط في مواجهة معارضته الواسعة الانتشار داخل لبنان، بل في تجاهل حقيقة كون الوضع في لبنان لا يسمح بتطبيقه حتى بموجب أحكام هذا المبدأ المثيرة للشك. فقد كان من الصعب الادعاء بأن لبنان تعرض «لعدوان مسلح من جانب بلد تسيطر عليه الشيوعية الدولية». وإذا كانت هناك حاجة لدليل آخر، فإن الدبلوماسي المخضرم (روبرت مورفي Robert Murphy)، الذي أرسله ايزنهاور إلى لبنان بعد بضعة أيام من نزول القوات الأمريكية في لبنان، قدم هذا الدليل الإضافي. لقد كتب مورفي في وقت لاحق أنه توصل إلى نتيجة مفادها أن «الشيوعية لم يكن لها دور مباشر أو كبير في التمرد» [٢٦].

مع ذلك، كان بإمكان ايزنهاور أن يكتب أن الحكومة الأمريكية «كانت تتحرك وفقاً لأحكام قرار الشرق الأوسط (مبدأ ايزنهاور)، ولكن النزاع اتسع متحولاً إلى شيء لا يشمله القرار بأحكامه، لذلك قال ايزنهاور: إنني إذا أتيح لي الوقت سأتوجه إلى الكونغرس لأطلب تفويضاً إضافياً» [٢٧]. والظاهر أن الرئيس أيزنهاور لم يعول كثيراً على جون فوستر دالس بعد أن قرر أن التكليف بموجب القرار كان مفتوحاً بدون حدود.

هكذا جرى إرسال القوات العسكرية الأميركية إلى لبنان. وقد شاركت في العملية ٧٠ سفينة من سفن الأسطول ومئات الطائرات، بقي كثير منها لتشكل جزءاً من الوجود الأميركي المنظور. مع حلول يوم ٢٥ تموز (يوليو) بلغ عدد القوات الأميركية على الشاطىء ما لا يقل عن ١٠,٦٠٠. ومع حلول ١٣ آب (أغسطس) ارتفع عددها إلى ١٤,٠٠٠، أي ما يزيد عن كامل عدد أفراد الجيش اللبناني والدرك أيضاً [٢٨].

كتب أيزنهاور ما يلي: «في خطابي عبر الإذاعة والتلفزيون كنت حريصاً على استعمال عبارة «مرابطة» في لبنان بدلاً من قوات «غزو» [٢٩]. كان ذلك تمييزاً من المحتمل أنه غاب عن كثيرين من اللبنانيين، في مناصب عليا ودنيا، ومؤيدين للثوار ومؤيدين للحكومة، من ضمنهم قوات المدرعات الحكومية التي كانت مستعدة لإغلاق الدخول إلى بيروت في وجه القوات الأميركية، إن تدخلاً في آخر دقيقة على الأرض من جانب السفير الأميركي ربما كان هو الذي حال دون وقوع اشتباك مسلح [٣٠].

في لقاء بين روبرت مورفي والقائد العام للقوات اللبنانية الجنرال فؤاد شهاب - روى ايفلاند ما جرى فيه بعد أن أوجز له مورفي ما جرى في الاجتماع - استمع الدبلوماسي الأميركي إلى تحذير بأن الشعب اللبناني «كان قلقاً، ومستاء، ومصمماً على ضرورة استقالة شمعون وانسحاب القوات الأميركية في الحال، وإلا فإن الجنرال لن يكون مسؤولاً عن العواقب. خلال خمسة عشر عاماً كان ضباطه يعملون وفقاً لأوامره، أما الآن فإنه يخشى أن يثوروا ويهاجموا القوات الأميركية».

يتابع ايفلاند رواية ما حدث فيقول: إن مورفي كان يصغي مظهراً الصبر، ثم.. «اصطحب الجنرال إلى نافذة مشرفة على البحر، وأشار بإصبعه إلى حاملة الطائرات الضخمة (ساراتوغا Saratoga) التي كانت تتمايل عند الأفق، وأوضح مبعوث الرئيس الأميركي بهدوء أن طائرة واحدة فقط من هذه الحاملة، مسلحة بأسلحة نووية يمكنها أن تمحو من سطح الأرض بيروت وجوارها. وما لبث مورفي

أن أضاف إلى ذلك أنه أُوفد لكي يضمن عدم نشوء الضرورة لإطلاق القوات الأميركية طلقة واحدة. كان متأكداً أن شهاب سيضمن عدم حدوث استفزازات من الجانب اللبناني. وبذلك، كما أخبرني مورفي، انتهت المحادثة. ويبدو الآن أن الجنرال كان «قد استعاد السيطرة» على جنوده [٣١].

يبدو أن لا أحد من الأطراف فكر ماذا سيكون مصير آلاف العسكريين الأميركيين في بيروت إذا مُحيتْ من وجه الأرض.

ازدادت الحرب الأهلية في لبنان اتساعاً خلال الأسبوعين التابعين للتدخل الأميركي. خلال هذه المدة كانت أجهزة الإذاعة التابعة لوكالة المخابرات المركزية في الشرق الأوسط مشغولة ببث دعاية من مصادر متخفية، وهذا تكتيك استخدمته الوكالة عدة مرات. في حالة إحدى المواد التي أُذيعت كان الهدف الجلي منها هو تحويل مشاعر العداء للولايات المتحدة إلى مشاعر عداء للاتحاد السوفييتي وأهداف أخرى، ولكن سكان الشرق الأوسط لم يكونوا الوحيدين الذين استمعوا إلى هذه المادة الإذاعية، إذ أن الصحافة الأميركية التقطتها ونقلتها إلى رأي عام أميركي غير ذكي. وهذا ما ظهر في الصحف الأميركية:

«بيروت، ٢٣ تموز (يونايتد برس) - بدأت محطة إذاعية عربية غامضة ثانية البث بالأمس وهي تدعو نفسها «صوت العدالة» وتدعي أنها تبث من سوريا. إن برنامجها الذي سمع هنا كان يتألف من نقد مرير للاتحاد السوفييتي ولرئيس الوزراء السوفييتي خروشوف. قبل ذلك بدأت إذاعة «صوت العراق» البث بحملة ضد الحكومة الثورية العراقية، وقد وصفت إذاعة «صوت العدالة» خروشوف بأنه «جلاد هنغاريا» وأنذرت سكان الشرق الأوسط بأنهم سيواجهون نفس مصير الهنغاريين إذا حصل الروس على موطىء قدم في الشرق الأوسط» [٣٢].

بتاريخ ٣١ تموز (يوليو) اختار مجلس النواب اللبناني بسهولة الجنرال شهاب ليخلف شمعون كرئيس للجمهورية في شهر أيلول (سبتمبر)، وهذا حدثٌ سرعان ما

وضع حداً للقتال في لبنان وشكّل بداية النهاية للنزاع. الذي يبدو في التحليل النهائي أنه كان احتجاجاً أكثر عنفاً مما كان حرباً أهلية. وخفَّ التوتر أكثر من السابق عندما أعلنت الولايات المتحدة بعيد ذلك أنها تنوي سحب فوج جنود المارينز كمقدمة لانسحاب عام.

آخر دفعة من الجنود الأميركيين غادرت لبنان في أواخر تشرين الأول (أوكتوبر) بدون أن تطلق طلقة واحدة في حالة غضب. تُرى ما الذي تم إنجازه بوجود هذه القوات؟.

استنتج الذين ألفوا دراسة البنتاغون التي أشرنا إليها سابقاً أن «التوصل إلى تقييم متوازن لسلوك الولايات المتحدة في أزمة لبنان كانت صعبة بسبب الارتياب بأن النتيجة ستكون ذاتها حتى إذا لم تكن الولايات المتحدة قد فعلت أي شيء، إلى حد أن ايزنهاور عبّر عن بعض الشك في هذا الصدد» (٣٣).

التدخل الأمريكي ضد الحكومة العراقية الجديدة كان أكثر سرية. لقد أعدت خطة سرية لغزو أمريكي تركي للعراق أطلق عليها الاسم الرمزي (كنون - بون Can-non-Bone) وقد صاغت الخطة هيئة رئاسة الأركان المشتركة للقوات الأمريكية بُعيد الانقلاب في عام ١٩٥٨. وقيل: إن التهديدات السوفييتية بالتدخل إلى جانب العراق هي وحدها التي أرغمت واشنطن على التراجع. ولكن الولايات المتحدة بدأت في عام ١٩٦٠ بتمويل رجال العصابات الأكراد في العراق الذين كانوا يقاتلون من أجل الحصول على قدر من الحكم الذاتي (٣٤).

في الوقت ذاته شرع العراقيون بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم بالعمل لخلق منظمة دولية لمجابهة قوة احتكارات النفط الغربية. هذه المنظمة أصبحت فيما بعد (اوبك OPEC) - أي منظمة البلدان المصدِّرة للنفط - ولم تستقبلها بعض الأوساط الغربية بالفرح. وفي شباط (فبراير) ١٩٦٠ طلب قسم الشرق الأدنى للأعمال السرية التابع لوكالة المخابرات المركزية أن تجد الوكالة طريقة «لشل قدرة» قاسم

بسبب «ترويجه للمصالح السياسية للكتلة السوفييتية في العراق». قال قسم الشرق الأدنى «لا نسعى عن وعي لإزالة هذا الشخص نهائياً من المشهد، ولا نعترض أيضاً إذا حدث هذا التعقيد».

حسب تطور الأمور، أرسلت وكالة المخابرات المركزية بالبريد إلى قاسم من بلد آسيوي منديلاً مرمّزاً باسمه (أي يحمل الحروف الأولى من الاسم monogram) يحتوي على «عنصر يسبب الإقعاد». لو حدث فعلاً أن تسلم هذا الزعيم العراقي المنديل فمن المؤكد أنه ما كان ليؤدي إلى وفاته. هذا الأمر كان متروكاً لأبناء بلده الذين أعدموه بعد ثلاث سنوات [٣٥].

تجاوزت النتائج المباشرة أهمية التدخل في لبنان، وكذلك استعراضات القوة التي جرت فيما يتعلق بالأردن سورية، في المدة الواقعة قبل التدخل وبعده عرض أيزنهاور ودالاس ومسؤولون آخرون في واشنطن العديد من المبررات المختلفة للقيام بعمل عسكري أميركي في لبنان: حماية أرواح الأميركيين، وحماية للممتلكات الأميركية. إن مبدأ أيزنهاور بتفسيرات مختلفة، والسيادة اللبنانية، ووحدة أراضي لبنان واستقلاله، الخ، والمصالح القومية الأميركية، والسلام العالمي، والدفاع المشترك عن النفس، والقانون الدولي، والقانون والنظام، ومكافحة «الناصرية».. الحاجة إلى «عمل شيء ما» [٣٦].

يبدو أن الرئيس أيزنهاور في إيجازه لهذا الأمر في مذكراته استقر رأيه على مفهوم منطقي واحد بالذات، ولعل هذا هو الأقرب إلى حقيقة الأمر. كان هذا المفهوم هو جعل العالم - وعلى وجه التحديد الاتحاد السوفييتي وعبد الناصر - يعلم أن الولايات المتحدة تملك في واقع الأمر قوة غير محدودة، وأن هذه القوة يمكن نقلها إلى أي جزء من العالم بسرعة كبيرة، وأنها يمكن أن تستخدم وسوف تستخدم للتعامل بصورة حاسمة مع أي وضع لا ترضى عنه الولايات المتحدة لأي سبب من الأسباب [٣٧].

في الوقت ذاته كان ذلك رسالة إلى البريطانيين والفرنسيين مفادها أن هناك قوة عظمى غربية واحدة في فترة ما بعد الحرب العالمية، وأن أيام الفرنسيين والبريطانيين كقوتين عظميين في أراضي النفط قد ولَّت.

العبيكان للاستثمار
Obeikan Investment Group

إحدى شركات

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing

أحدث الإصدارات

Follow Us
obeikn reader
obeikanpub

كتبنا الصوتية
storytel
Kitab Sawti
www.kitabsawti.com
دار ضاد للنشر الإلكتروني
Dhad Audio Publishing
WWW.DHAD.SA

كتبنا الإلكترونية
Google Play
amazonkindle

لخدمات البيع والتوصيل
نون noon
سوق
amazon احدى شركات

أندونيسيا ١٩٥٧ - ١٩٥٨
الحرب والصور العارية

قال (فرانك وايزنر Frank Wisner)، نائب مدير التخطيط (العمليات السرية) في وكالة المخابرات المركزية، ذات يوم في خريف عام ١٩٥٦ «أظن أن الوقت قد حان لوضع قدم سوكارنو في النار» [1] كان وايزنر يتحدث عن الرجل الذي قاد أندونيسيا منذ كفاحها من أجل الاستقلال عن هولندة عقب الحرب. قبل ذلك ببضعة شهور، أي في شهر أيار (مايو)، ألقى سوكارنو خطاباً مفعماً بالعواطف أمام الكونغرس الأميركي طالب فيه بمزيد من التفهم لمشاكل واحتياجات الدول النامية على شاكلة دولته [2].

كانت الحملة الأميركية التي تلت ذلك من أجل الإطاحة بالزعيم المحب للمظاهر، زعيم خامس دولة في العالم من حيث عدد السكان، تقضي بأن تتراوح بين مناورات عسكرية واسعة النطاق وخديعة جنسية تؤدي إلى النتائج.

كان سوكارنو في العام السابق قد أشرف على تنظيم مؤتمر باندونغ كرد على منظمة معاهدة جنوب شرق آسيا، وهي تحالف سياسي وعسكري أوجدته الولايات المتحدة بين دول المنطقة من أجل «احتواء الشيوعية». في مدينة باندونغ الأندونيسية أُعلنَ أن مبدأ الحياد هو عقيدة العالم النامي. بالنسبة للعاملين في محطة وكالة المخابرات المركزية في أندونيسيا كان هذا المؤتمر نوعاً من الهرطقة، إلى حد أن أفكار هؤلاء العاملين في المحطة اتجهت إلى الاغتيال كوسيلة لتخريب المؤتمر.

في عام ١٩٧٥، استمعت لجنة مجلس الشيوخ الأميركي التي كانت تحقق في أعمال وكالة المخابرات المركزية إلى شهادة مفادها أن ضباط الوكالة الموجودين في أحد بلدان شرق آسيا اقترحوا اغتيال زعيم شرق آسيوي من أجل «إحباط مؤتمر

شيوعي وشيك الانعقاد في عام ١٩٥٥»[٣] (الاحتمال الأكبر هو أن الزعيم المشار إليه كان إما سوكارنو أو شوإن لاي رئيس وزراء الصين) لكن اللجنة قالت: إنه ساد في المقر العام لوكالة المخابرات المركزية في واشنطن هدوء أصحاب الرؤوس الحامية ورُفِضَ الاقتراح رفضاً باتاً.

مع ذلك تحطمت في ظروف غامضة طائرة كانت تحمل ثمانية أعضاء من الوفد الصيني، وفيتنامياً واحداً وصحفيين أوروبيين كانا موفدين إلى مؤتمر باندونغ. ادعت الحكومة الصينية أن تحطم الطائرة كان عملاً تخريبياً قامت به الولايات المتحدة وتايوان، ومحاولة فاشلة لاغتيال شوإن لاي. كانت الطائرة المستأجرة والتابعة للخطوط الجوية الهندية قد أقلعت من هونغ كونغ في ١١ نيسان (ابريل) ١٩٥٥ وتحطمت في جنوب بحر الصين. كان مقرراً أن يكون شوإن لاي على متن طائرة أخرى مستأجرة تابعة للخطوط الجوية الهندية بعد ذلك بيوم أو يومين وقد أعلنت الحكومة الصينية - استناداً إلى ما وصفته بأخبار صحفية منقولة عن جريدة «تايمز أوف انديا» - أن سبب سقوط الطائرة قنبلتان موقوتتان يبدو أنهما وضعتا على متن الطائرة في هونغ كونغ. لقد استعيدت من حطام الطائرة لاحقاً آلية ساعة وعلى الأثر أعلنت شرطة هونغ كونغ أن هذه قضية «قتل جماعي مخطط له بعناية». بعد شهور من الزمن أعلنت الشرطة البريطانية في هونغ كونغ أنها كانت تلاحق شخصاً من الصين الوطنية بسبب تآمره لإسقاط الطائرة ولكن هذا الرجل هرب إلى تايوان[٤].

في عام ١٩٦٧، ظهر في الهند كتيّب غريب عنوانه «كنت عميلاً لوكالة المخابرات المركزية في الهند»، مؤلفه أمريكي يدعى (جون ديسكو سميث John Discoe Smith). الكتاب كان من منشورات الحزب الشيوعي الهندي، وأساسه مقالات كتبها سميث لمجلة (ليتيراتورنايا غازيتا Literaturrnaya Gazetta) التي تصدر في موسكو، بعد هرب سميث إلى الاتحاد السوفييتي حوالي عام ١٩٦٠. سميث من مواليد عام ١٩٢٦ في مدينة كوينسي، ولاية ماساشوستس، كتب مبيناً أنه كان فني

اتصالات ومسؤول الرموز في السفارة الأمريكية في نيودلهي عام ١٩٥٥ ويؤدي أيضاً مهمات لوكالة المخابرات المركزية. إحدى هذه المهمات تسليم رزمة إلى أحد مواطني الصين الوطنية، وادعى سميث، أنه علم لاحقاً أن الرزمة كانت تحتوي القنبلتين الموقوتتين اللتين استخدمتا في نسف طائرة الخطوط الجوية الهندية. لا يمكن التأكد من صحة رواية سميث، مع أن عمله في السفارة الأمريكية في نيودلهي من عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٥٩ يؤكده سجل الموظفين في وزارة الخارجية الأمريكية (٥).

في مكان آخر، جاء في تقرير لإحدى لجان مجلس الشيوخ الأمريكي أن اللجنة «تلقت دليلاً ما إلى تورط وكالة المخابرات المركزية بخطط لاغتيال سوكارنو رئيس أندونيسيا» «وأن التخطيط وصل إلى مرحلة متقدمة بتعيين عميل يعتقد أنه تم تجنيده لهذه المهمة(٦). (ذكرت اللجنة أن الأشخاص المختصين في وكالة المخابرات المركزية بالاغتيالات المحتملة والأساليب المناسبة كان يطلق عليهم داخل الوكالة اسم «لجنة تغيير الصحة البشرية).

ومما زاد في قلق القادة الأمريكيين، أن سوكارنو كان قد قام برحلات إلى الاتحاد السوفييتي والصين (مع أنه زار البيت الأبيض أيضاً) وأنه اشترى أسلحة من بلدان أوروبية شرقية (ولكن بعد أن رفضت الولايات المتحدة أن تبيعه أسلحة) (٧)، وأنه أمّم العديد من ممتلكات الهولنديين الخاصة، وربما كان الأمر الأكثر مدعاة للانزعاج، أن الحزب الشيوعي الأندونيسي حقق مكاسب باهرة في الانتخابات وفي النقابات، وبذلك اكتسب دوراً هاماً في الحكومة الائتلافية.

كان ذلك سيناريو مألوفاً في العالم الثالث، وكان رد فعل صانعي السياسة في واشنطن مألوفاً بالمثل. فهؤلاء، مرة أخرى لم يستطيعوا، أو لم يكونوا مستعدين للتمييز بين القومية والشيوعية، أو بين الحياد والنية الشريرة. بأي تعريف للكلمة لم يكن سوكارنو شيوعياً، بل كان وطنياً أندونيسياً و «سوكارنوياً» سبق له أن سحق قوات الحزب الشيوعي الأندونيسي في عام ١٩٤٨ بعد تحقيق النصر في الكفاح من أجل الاستقلال(٨). ثم إنه كان يقدم العرض الذي يميزه إلى حد كبير بتقديم تنازلات

إلى كل من الحزب الشيوعي والجيش، بحيث يوازن أحدهما ضد الآخر. أما بما يخص استبعاد الحزب الشيوعي، الذي يربو عدد أعضائه على المليون، من عضوية الحكومة، فقد أعلن سوكارنو أنه «لا يستطيع ولا يريد أن يمتطي حصاناً بثلاث قوائم» (٩).

أما بالنسبة للولايات المتحدة، فإن عملية التوازن التي أقدم عليها سوكارنو كانت تعتمد على ظروف مجهولة لا يمكن تركها رهن تقلبات النهج السياسي الأندونيسي، فلم يكن مهماً لواشنطن أن يسلك الحزب الشيوعي طريق الشرعية والسلام، أو وجود «أزمة» معينة، أو «فوضى» في أندونيسيا تتخذ منها مسوغاً للتدخل. التدخل هناك سيأتي لاحقاً.

لن يكون التدخل هو الأول من نوعه. في عام ١٩٥٥ خلال حملة الانتخابات العامة في أندونيسيا قدمت وكالة المخابرات المركزية مليون دولار إلى حزب (مسجومي Masjumi)، وهو ائتلاف من أحزاب الوسط ومنظمات إسلامية، في مسعى خائب لإفشال الحزب الوطني بزعامة سوكارنو والحزب الشيوعي. ووفقاً لأقوال (جوزيف بيركهولدر سميث Joseph Burkholder Smith)، وهو ضابط سابق في وكالة المخابرات المركزية، كان المشروع يقضي «بشطب كامل الأموال، بمعنى أن الوكالة لن تطلب حساباً مفصلاً عن كيفية إنفاق هذه الأموال. لم أجد أي دليل يبين ما فعله حزب مسجومي بمبلغ المليون دولار» (١٠).

قررت وكالة المخابرات المركزية في عام ١٩٥٧ أن الوضع يستدعي مزيداً من العمل المباشر، ولم يكن من العسير إيجاد رفاق سلاح أندونيسيين إذ كانت هناك عصابة من ضباط الجيش وغيرهم الذين كانوا يكرهون النفوذ المتزايد للحزب الشيوعي، ولأسباب تتعلق بطموحاتهم الشخصية، وهؤلاء جميعاً كانوا يريدون التخلص من سوكارنو أو على أقل تقدير أن يخرج من الجزر الأندونيسية. (أندونيسيا أكبر أرخبيل في العالم وهي تتألف من نحو ٣٠٠٠ جزيرة).

إن العملية العسكرية التي وقع عليها اختيار وكالة المخابرات المركزية كانت على نطاق استوجب الحصول على مساعدة كبيرة من البنتاغون، ومثل هذه المساعدة يمكن تأمينها للقيام بعملية سياسية بشرط أن تقرها «المجموعة الخاصة» في مجلس الأمن القومي. (المجموعة الخاصة هي عبارة عن مجموعة صغيرة من كبار مسؤولي مجلس الأمن القومي الذين يتصرفون باسم الرئيس الأميركي لحمايته وحماية البلد بواسطة تقييمهم للأعمال السرية المقترحة وتأكدهم من أن وكالة المخابرات المركزية لم تفرط في مواقفها، وقد كانت هذه المجموعة تعرف في أوقات أخرى باسم لجنة ٥٤١٢، أو لجنة ٣٠٣، أو لجنة الأربعين، أو المجموعة الاستشارية للعمليات).

الأسلوب الذي اتبعته الوكالة من أجل الحصول على هذه الموافقة هو مثال لكيفية تعريف وكالة المخابرات المركزية أحياناً للسياسة الخارجية الأميركية. إن جوزف بيركهولار سميث، الذي شغل منصب رئيس القسم الإندونيسي في الوكالة في واشنطن من منتصف عام ١٩٥٦ حتى أوائل عام ١٩٥٨، قد وصف هذا الأسلوب في مذكراته: فبدلاً من عرض الخطة أولاً على واشنطن من أجل الموافقة، حيث «الإشارة السابقة لأوإنها إلى هذه الخطة قد تحبطها..».

«بدأنا نزوّد وزارتي الخارجية والدفاع بمعلومات استخبارية لا يمكن لأحد أن ينكر أنها مساهمة مفيدة لفهم أندونيسيا. وعندما كانوا يقرؤون ما يكفي من الأنباء المفزعة كنا نخطط لتقديم اقتراح بضرورة دعم خطط كبار الضباط الهادفة إلى الانتقاص من سلطة سوكارنو. كان هذا أسلوباً في العمل أصبح الأساس للعديد من المغامرات السياسية في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. بعبارة أخرى، كان القول: «إن وكالة المخابرات المركزية أخذت على عاتقها أن تتدخل في الشؤون الداخلية لبلدان على غرار تشيلي فقط بعد أن صدر إليها الأمر بذلك من قبل اللجنة الخاصة هذا القول كان كاذباً.. ففي حالات كثيرة كنا نعد برنامج العمل بأنفسنا بعد أن نكون قد جمعنا ما يكفي من المعلومات الاستخبارية لجعل هذه

المعلومات تبدو وكأن الظروف اقتضتها. لقد كان نشاطنا في أندونيسيا في العامين ١٩٥٧ و١٩٥٨ أحد الأمثلة على ذلك» [١١].

عندما حقق الحزب الشيوعي مرة أخرى نجاحاً في الانتخابات المحلية التي أجريت في شهر تموز (يوليو)، رأت وكالة المخابرات المركزية في هذا النجاح «مساعداً كبيراً لنا في إقناع سلطات واشنطن بخطورة الوضع الأندونيسي. إن الشخص الوحيد الذي كما يبدو لم يكن يشعر بالفزع الشديد لنجاحات الحزب الشيوعي هو السفير (أليسون Alison). كان هذا كل ما نحتاجه لإقناع جون فوستر دالس بأنه وضع الإنسان الخطأ في أندونيسيا. ثم دارت الدواليب لإزالة هذه العقبة الأخيرة من طريق عمليتنا» [١٢]. كتب سميث أن جون أليسون في المقام الأول لم يكن من كبار المعجبين بوكالة المخابرات المركزية. ثم إنه في أوائل عام ١٩٥٨، أي بعد أقل من عام أمضاه في منصبه، حل محله كسفير في أندونيسيا (هوارد جونز Howard Jones) الذي كان اختياره مبعث سرور للعاملين في محطة أندونيسيا التابعة لوكالة المخابرات المركزية[١٣].

بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ أُلقيت عدة قنابل يدوية باتجاه سوكارنو بينما كان يغادر إحدى المدارس. نجا هو من الإصابة ولكن عشرة أشخاص لاقوا حتفهم وجرح ٤٨ طفلاً. لم تكن لدى وكالة المخابرات المركزية في أندونيسيا أية فكرة عن المسؤول، ولكنها سرعان ما نشرت قصة مفادها أن الحزب الشيوعي الأندونيسي كان وراء هذا العمل «بإيحاء من الأشخاص السوفييت الذين يتصل بهم الحزب، لكي يبدو أن خصوم سوكارنو رجال متوحشون ومتهورون». ولكن تبيّن أن مرتكبي العمل هم من مجموعة إسلامية لا علاقة لها بالحزب الشيوعي ولا بمدبري الأعمال السرية العسكريين في وكالة المخابرات المركزية[١٤].

كان موضوع العلاقة الوثيقة المفترضة بين سوكارنو والحزب الشيوعي يبرز عند كل فرصة. وقد قررت وكالة المخابرات المركزية أن تستثمر أخباراً مفادها أن مضيفة

شقراء جميلة تصحب سوكارنو في طائرته أينما ذهب خلال رحلته إلى الاتحاد السوفييتي، وأن الفتاة نفسها جاءت إلى أندونيسيا بصحبة الرئيس السوفييتي (كليمنت فوروشيلوف Kliment Voroshilov) وشوهدت مرات عديدة بصحبة سوكارنو، كانت الفكرة التي يراد الإيحاء بها أن ما اشتهر عن سوكارنو من ملاحقة النساء أوقعه في فخ عميلة سوفييتية، وأوحت الأخبار التي روّجتها الوكالة، بصورة ضمنية، أن سوكارنو رضخ لسيطرة السوفييت بتأثير من الفتاة أو بابتزازه بالتهديد أو بكلا الأمرين.

كتب سميث قائلاً: «هذا شكّل أساس خيالنا الجامح. لقد حققنا في واقع الأمر نجاحاً كبيراً في هذا الموضوع، فقد ظهرت القصة في الصحف في سائر أنحاء العالم، وعندما أرادت مجلة (راوند تيبل Round Table) البريطانية الفصلية الجادة التي تعنى بالشؤون الدولية أن تحلل الثورة الأندونيسية في عددها الصادر في آذار (مارس) ١٩٥٥، ذكرت أن ابتزاز سوكارنو من قبل جاسوسة سوفيتية هو أحد أسباب الانتفاضة».

يبدو أن نجاح هذه العملية ألهمَ ضباط وكالة المخابرات المركزية في واشنطن بأن يسيروا بالموضوع خطوة أخرى. لقد بُذل جهد كبير لإيجاد فيلم خلاعي أو على الأقل صور فوتوغرافية يمكن تمريرها على أنها تمثل سوكارنو وصديقته الروسية وهما متعاطيان «نشاطه المحبب إليه». وعند التدقيق في أفلام خلاعية متوفرة (قدمها رئيس الشرطة في لوس أنجلس) لم تنجح في تقديم اثنين يمكن تمريرهما على أنهما سوكارنو (أسمر وأصلع) وامرأة روسية شقراء وجميلة، عندئذ أخذت وكالة المخابرات المركزية على عاتقها أن تنتج أفلامها الخاصة بها «الأفلام ذاتها التي كان السوفييت يبتزون سوكارنو بها». وصنعت الوكالة قناعاً بحجم كامل وجه الزعيم الأندونيسي، من أجل إرساله إلى لوس انجلس حيث تدفع الشرطة رشوة لأحد الممثلين الذين يقومون بأدوار خلاعية لكي يضعه فوق وجهه في أثناء تمثيله أحد الأدوار الرئيسية. كانت نتيجة هذا المشروع على الأقل بعض الصور الفوتوغرافية، مع أن هذه الصور كما يبدو لم تُستعمل قط [١٥].

إحدى النتائج الأخرى لمحاولة الابتزاز كانت فيلماً أنتجه لحساب وكالة المخابرات المركزية (روبرت ماهيو Robert Maheu) العميل السابق لمكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) وله علاقة حميمية ب-(هوارد هيوز) وكان نجم فيلم ماهيو ممثلاً يشبه سوكارنو. مصير الفيلم النهائي، وكان عنوإنه «أيام سعيدة» لم نعرف عنه شيئاً[١٦].

في أجزاء أخرى من العالم، وفي أوقات أخرى، قامت وكالة المخابرات المركزية بعمل أفضل من هذا النوع. إذ أنتجت ستة أفلام عن أشخاص استهدفتهم (بنيّة سيئة Flagrante delicto) وقد اجتذبتهم جاسوسات إلى بيوت آمنة تابعة للوكالة.

في عام ١٩٦٠ كتب الكولونيل ترومان سميث، الضابط المتقاعد في الجيش الأمريكي، في مجلة (ريدرز دايجست Readers Digest) عن المخابرات السوفييتية قائلاً: «يصعب على معظمنا أن يقدّر مدى خطرها لأن أساليبها دنيئة إلى حد أنها يمكن أن تكون كل شيء إلا أن تستعصي على فهم شخص عادي لديه شعور بالصواب والخطأ». أحد أساليب المخابرات السوفييتية التي وجدها هذا الكولونيل الطيّب دنيئة جداً هو إنتاج أفلام جنسية واستخدامها في الابتزاز. وقد كتب يقول: «إن الناس تقبلوا استخدام مثل هذه الأساليب ولا يجدون أي شيء مخالف للذوق عند استخدام أساليب أكثر عنفاً» [١٧].

يمكن استخدام الجنس في المنزل أيضاً لخدمة أهداف السياسة الخارجية الأمريكية. فتحت غطاء برنامج المساعدات الخارجية الأمريكية، الذي كان يسمى في ذلك الحين إدارة التعاون الاقتصادي، جرى تدريب رجال شرطة أندونيسيين، وبعد ذلك تجنيدهم لتقديم معلومات عن أنشطة السوفييت والصينيين والحزب الشيوعي في بلدهم. بعض الرجال كانوا مؤهلين لهذا العمل وأُرسلوا إلى واشنطن للحصول على تدريب خاص ولعملية تليينهم من أجل تجنيدهم. ويقال: «إن ضباط الشرطة هؤلاء، على غرار سوكارنو كانوا جميعاً مهووسين بالرغبة في النوم مع امرأة بيضاء» وتبعاً لذلك نقلوا خلال إقامتهم إلى منطقة ممارسة الجنس الحقيرة في بالتيمور لكي يمتعوا أنفسهم [١٨].

إن موافقة اللجنة الخاصة على مهمة العمل السياسي كانت ستحصل في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ [١٩]. وإن الآلية شبه العسكرية التابعة لوكالة المخابرات المركزية وضعت موضع التشغيل. في هذا المشروع، كما في غيره، تمتعت الوكالة بميزة أن الولايات المتحدة امبراطورية عسكرية ممتدة على نطاق واسع. إن المقر الرئيسي للعملية أقيم في سنغافوره المجاورة بفضل البريطانيين، وأقيمت قواعد تدريب في الفلبين، وبنيت مدارج للطائرات في أنحاء مختلفة من المحيط الهادي استعداداً لإرسال طائرات في مهمة قصف للقنابل أو مهمة نقل جوي، وقد جرى تجميع «جنود مرتزقة» من جنسيات أندونيسية وفلبينية وتايوانية وأمريكية وجنسيات أخرى، في جزيرة أوكيناوا وفي الفيليبين مع كميات ضخمة من الأسلحة والمعدات.

لهذه الغاية، ولتنفيذ العملية العسكرية الأكثر طموحاً حتى الآن من قبل وكالة المخابرات المركزية، جرى تسليح عشرات الآلاف من المتمردين وتزويدهم بالمعدات وتدريبهم من قبل الجيش الأمريكي. إن غواصات الأسطول الأمريكي التي تقوم بأعمال الدورية مقابل ساحل سومطرة، وهي كبرى الجزر الأندونيسية، أنزلت على الشاطىء مجموعات مزودة بالتموينات وأجهزة الاتصالات. وأوجد سلاح الجو الأمريكي قوة نقل جوي ضخمة كانت تلقي من الجو عدة آلاف من الأسلحة في عمق الأراضي الأندونيسية وجرى تجهيز أسطول جوي مؤلف من خمس عشرة قاذفة من طراز (ب - ٢٦ B - ٢٦) لاستخدامها في القتال بعد «تطهيرها» أي «إزالة العلامات الفارقة عنها» لضمان عدم معرفة انتمائها ولضمان إمكانية إنكار المعرفة بسائر المعدات التي تلقى من الجو إذا اكتشف أمرها.

في الشهور الأولى من العام ١٩٥٨، بدأ يتفجر التمرد في جزء إثر الآخر من سلسلة الجزر الأندونيسية. وبدأ الطيارون التابعون لوكالة المخابرات المركزية يحلقون بطائراتهم للقيام بأعمال قصف وإطلاق نار الرشاشات دعماً للثوار. وفي واشنطن أقنعت الوكالة الكولونيل (أليكس كاويلارونغ Col. Alex Kawilarung)

الملحق العسكري الأندونيسي بالانشقاق على دولته. وسرعان ما ظهر في أندونيسيا لقيادة قوات التمرد. مع ذلك، طال القتال وامتد حتى فصل الربيع وثبت أن المتمردين عاجزون عن تحقيق انتصارات حاسمة أو الانتقال إلى دور الهجوم رغم أن طائرات وكالة المخابرات المركزية كانت بغاراتها تفتك بقوات الحكومة. وقد ادعى سوكارنو لاحقاً أن إحدى الطائرات قصفت صباح أحد أيام الأحد من شهر نيسان (أبريل) سفينة راسية في مرفأ جزيرة (أمبون Ambon) - ولاقى جميع الذين كانوا على متنها حتفهم - كما قصفت الطائرة كنيسة ودمرت البناء وقتلت جميع من كانوا في داخله. وقال ان نتيجة هذه الغارة وحدها كانت ٧٠٠ إصابة.

بتاريخ ١٥ أيار (مايو) قصفت طائرة تابعة لوكالة المخابرات المركزية السوق في جزيرة أمبون مما أدى إلى مقتل عدد كبير من المدنيين وهم في طريقهم إلى الكنيسة في خميس الصعود. كان على الحكومة الأندونيسية أن تقوم بعمل لقمع المظاهرات الشعبية.

بعد ذلك بثلاثة أيام وخلال قصف آخر لجزيرة أمبون أسقطت طائرة آلن لورانس بوب Allan Lowrance Pope الطيار التابع لوكالة المخابرات المركزية فوقع في الأسر. كان هذا الطيار البالغ من العمر ثلاثين عاماً وهو من مدينة (بيرين) بولاية فلوريدا قد قام بخمس وخمسين غارة ليلية على الخطوط الشيوعية في كوريا لحساب سلاح الجو، وفي وقت لاحق أمضى شهرين في التحليق عبر المنطقة الشيوعية لحساب وكالة المخابرات المركزية لإلقاء تموينات إلى القوات الفرنسية في (ديان بيان فو Dien Bien Phu). أما الآن فلم يحالفه الحظ فكان عليه أن يمضي أربع سنوات أسيراً في أندونيسيا قبل أن يوافق سوكارنو على رجاء من روبرت كنيدي لإطلاق سراحه.

لقد أسر بوب وهو يحمل مجموعة من الوثائق التي تدين الولايات المتحدة، بما في ذلك تلك الوثائق التي تثبت أنه طيار في سلاح الجو الأمريكي وفي شركة الطيران التابعة لوكالة المخابرات المركزية. وعلى غرار جميع الرجال الذين يقومون بمهمات سرية جوية، كان بوب قد اجتاز أسلوباً متقناً قبل أن ينطلق لإزالة العلامات

الفارقة عنه وعن طائرته، ولكنه كما يبدو قام بتهريب الأوراق على متن الطائرة لأنه كان يعلم أنه إذا أُسر بصفة «مدني مجهول الاسم ومجهول الدولة» هذا يعني عملياً أنه لن يحظى بحقوق قانونية، بل إنه سيواجه خطر قتله بالرصاص باعتباره جاسوساً كما جرت العادة. بيدَ أن العسكري الأمريكي الذي يقع في الأسر يصبح سلعة ذات قيمة بالنسبة لآسريه بينما هو يبقى على قيد الحياة.

لقد حصلت الحكومة الأندونيسية على تنازلات مادية فورية من الولايات المتحدة نتيجة لهذا الحادث. ولكن لا نعرف هل وافقت أندونيسيا بموجب ذلك أن تلزم الصمت إزاء موضوع بوب، غير أن هذا الطيار والوثائق التي كانت معه عرضا أمام العالم في مؤتمر صحفي بتاريخ ٢٧ أيار (مايو) وكان هذا يناقض عدة بيانات صدرت مؤخراً من قبل مسؤولين أمريكيين كبار [٢٠]. الأهم بين هذه البيانات كان إعلان الرئيس ايزنهاور في الثلاثين من نيسان (ابريل) بشأن أندونيسيا ما يلي: «أن سياستنا هي سياسة حياد متأن والسير الصحيح طوال الطريق بحيث لا نساند جانباً ضد آخر عندما لا يعنينا شيء من ذلك» [٢١].

جاء في مقال رئيسي في جريدة «نيويورك تايمز» بتاريخ ٩ أيار (مايو) ما يلي:

«من سوء الطالع أن مسؤولين رفيعي المستوى في الحكومة الأندونيسية قد تابعوا نشر الخبر الكاذب القائل: إن الولايات المتحدة تقرّ تقديم المساعدة للثوار في أندونيسيا. لقد جرى توضيح موقف حكومة الولايات المتحدة المرة تلو الأخرى، فوزير خارجيتنا كان حاسماً في إعلانه أن هذا البلد لن يحيد عن الحياد الصحيح.. وإن الولايات المتحدة غير مستعدة لتقديم المساعدة في الإطاحة بحكومة دستورية. هذه هي الحقائق الصلبة. وجاكرتا لا تخدم قضيتها في هذا الصدد بتجاهلها هذه الحقائق.

مع فضح موضوع بوب وعدم إحراز الثوار نجاحاً في الميدان، قررت وكالة المخابرات المركزية أن الهدف لم يعد يستحق الجهد، وبدأت بتقليص مساندتها، ومع حلول نهاية حزيران (يونيو) كان جنود الجيش الأندونيسي الموالين للرئيس سوكارنو قد سحقوا ثورة التمرد العسكري.

واصل الزعيم الأندونيسي عمله الحصيف بإقامة توازن بين الشيوعيين والجيش حتى عام ١٩٦٥ عندما تمكن الجيش، في نهاية الأمر، - ومن المحتمل بمساعدة وكالة المخابرات المركزية، من الإطاحة بنظام حكمه.

أوروبا الغربية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين جبهات داخل جبهات داخل جبهات

في مؤتمر حزب العمال البريطاني عام ١٩٦٠ اتُّهم (مايكل فوت Micheal Foot) الزعيم المقبل للحزب وعضو جناحه اليساري، من قبل زعيم الحزب في ذلك الحين (هيو غيتسكيل Hugh Gaitskell) بأنه «رفيق درب fellow traveller» بمعنى أنه ليس عضواً عاملاً. كان رد فوت أنه، في إشارة إلى غيتسكيل وآخرين من الجناح اليميني، سأل: «ولكن مع من هم مسافرون»؟ [(١)].

تبين فيما بعد أن رفقتهم كانت مع وكالة المخابرات المركزية منذ بعض الأعوام. أما الركاب المرافقون لهم فقد كانوا فرنسيين، وألماناً، وهولنديين، وإيطاليين وكثيرين آخرين من دول أوروبا الغربية، وكانوا جميعاً مشاركين في عملية تقودها وكالة المخابرات المركزية لكسب أفئدة وعقول الليبراليين، والديموقراطيين الاجتماعيين، واشتراكيين متنوعين، لحمايتهم من الوقوع في مخالب الدب الروسي.

كان ذلك مشروعاً ذا أبعاد رئيسية، فعلى مدى نحو عشرين عاماً، استخدمت الوكالة عشرات من المؤسسات الأمريكية، وأمانات الأعمال الخيرية وما شابه، من ضمنها بضع مؤسسات من صنعها، كقنوات لتقديم دفعات من المال إلى منظمات من كل الأنواع داخل الولايات المتحدة وخارجها، والعديد من هذه المؤسسات كان، بدوره، يموّل مجموعات أخرى. كان عدد المؤسسات التي لها علاقة بذلك كبيراً، وكان عدد العلاقات فيما بينها والتداخل بينها كبيراً إلى حد أنه لم يكن من المحتمل أن يستوعب أي شخص في وكالة المخابرات المركزية الصورة الكاملة، دعك عن ممارسة إشراف عريض عليها أو القيام بمحاسبة صحيحة. (راجع الملحق المتضمن خارطة تنظيمية جزئية).

أمـا المتـفـعـون فـي نهـاية الأمـر من هذا السـيل من النقـد فـقـد كـانوا أحـزاباً سيـاسـيـة، ومـجـلات، ووكـالات أنبـاء، ونقـابات صـحـفـيـين ونقـابات أخـرى ومنـظمـات عمالية، وهيئات طلابية وشبابية، وروابط محـامين، وغير هؤلاء من الجهـات الملتزمة «بالعالم الحـر» الذي يمكن الاعتمـاد عليه في زيادة نشر بشـارة الإنجيل إذا زوّدت بما يكفي من المال.

إن المنظمـة الأمـامية الرئيسـية التي أقـامتهـا وكـالة المخـابرات المركـزية في هذه المدة كـانت المنظمـة التـي أطلق عليـهـا اسـم فـخم هو «كـونغـرس مـن أجل الحـرية الثقـافيـة». في شـهـر حـزيران (يـونيـو) ١٩٥٠ تجمّع أدبـاء وعلمـاء بارزون من الولايات المتحـدة وأوروبا في قاعة مسـرح قصـر (تيتـيانا Titiana) الواقع في القطـاع الأمـريكي من برلين، بمواجهـة حضـور كبيـر لإطلاق منظمـة كانت غـايتهـا «الدفـاع عن الحـرية والديموقـراطيـة ضـد الاسـتبـداد الجـديد الذي يكتسـح العـالم». وسـرعـان مـا امتـدت هذه المنظمـة في كل الاتجاهـات، مع حلقـات بحث، ومؤتمـرات وبرنامج واسـع لأنشطة سيـاسـية وثقـافية في أوروبا الغربيـة وفي الهنـد، واسـتراليـا، واليابان، وأفـريقـيا وبلدان أخـرى. عـلاوة على ذلك، كـان لهـا أكثـر من ثلاثين مطبـوعـة فـصليـة تحت جناحـهـا المالي، من ضمنها، في أوروبا:

- في بريطانيا العظمى:

سوشالست كومنتري Socialist Commentary

سيانس اند فريدام Science and Freedom

منيرفا Minerva

سوفييت سورفي (او سورفي) (Soviet Survey) or Survey

شاينا كوراترلي China Qwarterly

انكاونتر Encounter

في فرنسا:

بروف Preuves

سنسور كونتر ليزارت أي لا بنسي Censure Contre les Artes et la Pensee

موندو نويفو mundo Nuevo

كوادرنوس Cuadernos

(الأخيرتان باللغة الاسبانية لإرسالهما إلى أمريكا اللاتينية)

بيرسبكتيف Perspektiv في الدانمرك

ارغومنتن Argumenten في السويد

ايرودالمي يوساغ Irodalmi Ujsag في هنغاريا

در مونات Der Monat في ألمانيا

فوروم Forum في النمسا

تمبو بريزنتي Tempo Presente في ايطاليا

فيزيون Vision في سويسرة

وكانت للالتقاء روابط مع (نيو ليدر New Leader)، و(افريكا ريبورت Africa Report) و(ايست يورب East Europe) و(أطلس Atlas) في نيويورك [٢].

وبشكل عام، كانت فصليات المنظمة مجلات سياسية وثقافية راقية الأسلوب، ويقول المدير السابق في وكالة المخابرات المركزية (راي كلاين Ray Cline) «إنه ما كان بإمكانها أن تستمر مالياً بدون الأموال التي تدفعها لها وكالة المخابرات المركزية» [٣].

بين المنظمات الإعلامية الأخرى في أوروبا التي كانت تساعدها بالأموال وكالة المخابرات المركزية في ذلك الوقت وكالة أنباء المانيا الغربية (دينا Dena) (عرفت

لاحقاً باسم دي بي أي (A.P.D) (٤). والجمعية الدولية للكتاب (بن PEN)، مقرها في باريس، وصحف فرنسية معينة (٥)، واتحاد الصحفيين، و(فوروم وورلد فيتشرز - Forum World Feoture) وهي مؤسسة خدمات إخبارية في لندن كانت مواضيعها تشترى من قبل نحو ١٤٠ صحيفة في سائر أنحاء العالم، من ضمنها ٣٠ صحيفة في الولايات المتحدة، ومن بين هذه الثلاثين صحيفة: واشنطن بوست وأربع صحف يومية كبرى أخرى. لقد ذكرت لجنة الكنيسة في مجلس الشيوخ الأمريكي أن «صحفاً يومية أمريكية كبرى، كانت تستفيد من هذه الخدمة الإخبارية أُبلغت أن (فوروم وورلد فيتشرز) «خاضعة لإشراف وكالة المخابرات المركزية». استفادت أيضاً جريدتا (ذا غارديان The Guardian) و(صنداي تايمز Sunday Times) في بريطانيا العظمى من هذه الخدمة الإخبارية التي كان اسمها سابقاً (فوروم سيرفيس Forum Service). ويقول أحد الكتّاب الرئيسيين في (فوروم): إنه مع حلول عام ١٩٦٧ أصبحت هذه الخدمة الاخبارية «الجهد الإعلامي الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية في العالم»، وهذا ليس بالإنجاز الضئيل إذا علمنا أن وكالة المخابرات المركزية في أوج نشاطها، كانت تخصص ما قيل: إنه ٢٩ بالمئة من ميزانيتها للإعلام والدعاية (Propaganda) (٦).

ثمة متلقٍ مهم آخر من بين الذين يحصلون على أموال من وكالة المخابرات المركزية هو (اكزل شبرنغر Axel Springer) قطب الصحافة في ألمانيا الغربية الذي سُربت إليه سراً سبعة ملايين دولار في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين لمساعدته في بناء امبراطوريته الصحفية الشاسعة. وكان شبرنغر، حتى وفاته في عام ١٩٨٣ رئيس أكبر تجمع لدور النشر في أوروبا الغربية، ثابتاً كالطود في محاباته الغرب ومعاداته للشيوعية. لقد قال ناشر مجلة (در شبيغل Der Spiegel) الألمانية الغربية الأسبوعية الواسعة النفوذ، (رودلف أوغستين Rudolf Augstain)، «ما من رجل فرد في ألمانيا، قبل هتلر أو بعده، ربما باستثناء بسمارك والامبراطورية، كان يملك من القوة مقدار ما يملكه شبرنغر». ويقال: إن علاقته مع وكالة المخابرات المركزية استمرت على الأقل حتى مطلع السبعينيات من القرن العشرين (٧).

إن مؤسس البرنامج الأمريكي (توم برادن Tom Braden) رئيس قسم المنظمات الدولية في وكالة المخابرات المركزية كتب فيما بعد أن الوكالة عينت أحد المسؤولين في منظمة (كونغرس من أجل الحرية الثقافية) وأصبح مسؤول آخر رئيس تحرير أهم مجلة تصدر عن (كونغرس من أجل الحرية الثقافية)، هي مجلة (انكاونتر En-counter) [٨]. ومن المحتمل أنه كان في كل مجموعة تتلقى أموالاً عميل على الأقل أو ضابط من وكالة المخابرات المركزية. لقد قال (برادن): «إن عملاء الوكالة كان بوسعهم أن يقترحوا برنامجاً ضد الشيوعية على القادة الرسميين للمنظمات. وأضاف، غير أنه كانت هناك سياسة «لحماية نزاهة المنظمة عن طريق عدم الطلب إليها مساندة كل جانب من جوانب السياسة الرسمية الأميركية» [٩].

إن مجلات الحرية الثقافية كانت تخاطب اليسار غير الماركسي (على النقيض كانت مجلة فوروم مجلة محافظة) تعالج بصورة عامة صراع الطبقات والإفراط في تأميم الصناعة. وهم انتسبوا إلى أطروحة «نهاية الأيديولوجيا» لمؤلفها (دانيال بل) وأساس فكرتها هو بما أن لا أحد يستطيع أن يدعو عن قناعة إلى موت الرأسمالية، فإن فكرة موت الاشتراكية أو أية أيديولوجية أخرى يجب الحط من قيمتها. وفي الوقت ذاته فإن المجلات نادت بإصلاح الرأسمالية أي أن تكون رأسمالية بوجه إنساني.

كانت فكرة إصلاح الرأسمالية بالنسبة لأنصار الحرب الباردة في واشنطن الذين كانوا يدفعون الأموال لا تثير إلا الحد الأدنى من الاهتمام. كانت نتيجة ذلك التزام المجلات بأوروبا غربية موحدة وقوية وجيدة التسليح وحليفة للولايات المتحدة، من شأنها أن تمثل قلعة ضد الكتلة السوفييتية، وأن تساند السوق المشتركة ومنظمة حلف شمال الأطلسي، وأن تقوم بتحليل نقدي لما كان يعتبر التكوين الفكري للتخريب الذي تمارسه الشيوعية الدولية، وأن تدعو إلى التشكيك في نزع السلاح، والتهدئة، والحياد، هذه الأمور التي كانت تتبناها الحملة البارزة لنزع السلاح النووي في بريطانيا العظمى وما شابه هذه الحملة. أما نقد السياسة الخارجية الأميركية فقد كان يحدث في إطار فرضيات الحرب الباردة. على سبيل المثال، إن تدخلاً أميركياً معيناً ليس الطريقة الأكثر

فاعلية في مكافحة الشيوعية، ولا يعني ذلك أن هناك خطأ في التدخل من حيث أنه تدخل ولا يعني أن الولايات المتحدة تساند الجانب الخطأ.

المطبوعات «الخاصة» كهذه يمكن أن تنافح عن وجهات النظر التي لا تستطيع الأجهزة الحكومية الرسمية الأمريكية كإذاعة صوت أميركا أن تنافح عنها، ومع ذلك تظل لها صدقيتها. والشيء ذاته يصدق في العديد من المنظمات الخاصة الأخرى التي كانت تتلقى أموالاً من وكالة المخابرات المركزية في ذلك الحين.

في عام ١٩٦٠ نجحت حملة نزع السلاح النووي وعناصر أخرى من الجناح اليساري في حزب العمال في كسب مؤتمر الحزب إلى جانب سياسة نزع السلاح النووي نزعاً كاملاً من طرف واحد، والحياد في الحرب الباردة. إضافة إلى ذلك، رفض المؤتمر مشروعي قرارين يدعوان إلى تأييد حلف شمال الأطلسي. ومع أن حزب العمال لم يكن آنذاك في الحكم، فإن هذه الأعمال كانت لها قيمة كبيرة دعائياً ونفسياً. كانت نظرة واشنطن إلى تطور الأحداث مشوبة بقلق غير قليل، لأن مثل هذه المشاعر يمكنها أن تنتقل إلى أحزاب رئيسية في البلدان الأخرى الأعضاء في حلف شمال الأطلسي.

إن الجناح اليميني في حزب العمال الذي كانت له علاقات وثيقة، ولا نقول حميمية، مع مطبوعات «كونغرس الحرية الثقافية» (انكاونتر)، و(نيو ليدر)، وغيرهما من «ممتلكات وكالة المخابرات المركزية وجبهاتها»، تعهد بتنظيم حملة هدفها أن تقلب قرار نزع السلاح إلى عكسه. واللجنة التي شُكّلت لهذه الغاية أصدرت نداء للحصول على أموال، وسرعان ما أعلنت أنها تلقت العديد من التبرعات الصغيرة، مع مبلغ كبير جاءها من مصدر رغب في إبقاء اسمه مكتوماً. طوال السنة التالية كان هناك تمويل يكفي لإقامة مكتب دائم، وتعيين رئيس للمكتب بدوام كامل ومدفوع الأجر، وتعيين موظفين مدفوعي الأجر، وعاملين في الميدان، ولتغطية نفقات السفر، وإصدار أطنان من النشرات التي أرسلت إلى قائمة كبيرة من العناوين ضمن الحركة ونشرة منظمة توزع مجاناً.

لم يكن خصومهم قادرين على الاقتراب من مماثلة هذا الهجوم الدعائي. في مؤتمر عام ١٩٦١، رفضت القرارات الداعية إلى الأحادية والحياد رفضاً قاطعاً وعاد حزب العمال إلى حظيرة حلف شمال الأطلسي. [١٠].

كان مؤيدو وكالة المخابرات المركزية يدافعون دائماً عن أنشطة الوكالة العديدة في أوروبا الغربية بحجة أن الروس كانوا السباقين في العمل هناك وكان لابد من مجابهتهم. ومهما يكن مقدار الصحة في هذا التأكيد تبقى الحقيقة هي ما قاله (توم برادن): «إن الجهد الأميركي انتشر في بعض المجالات «حيث لم يكن الروس قد بدؤوا العمل بعد» [١١].

لم يحدد برادن ما هي هذه المجالات ولكن يبدو أن الأحزاب السياسية هي واحدة منها. لقد كانت لوكالة المخابرات المركزية علاقات عمل/ وتمويل مع كبار أعضاء الحزب الديمقراطي الاجتماعي في ألمانيا الغربية، ومع حزبين في النمسا، ومع حزب المسيحيين الديموقراطيين في إيطاليا ومع الحزب الليبرالي إضافة إلى حزب العمال في بريطانيا [١٢]، وربما كان هناك حزب واحد على أقل تقدير في كل بلد آخر من بلدان أوروبا الغربية، جميعها يفترض أنها مستقلة عن أي من القوتين العظميين، وهذا أمر لم تستطع الأحزاب الشيوعية، سواء التي تلقى مساندة الاتحاد السوفييتي أو لا تلقاها، أن تتقبله بسهولة.

يوفر لنا الإعلام حالة أخرى تستدعي التوقف عندها. لم يقدم لنا برادن ولا أي شخص غيره على ما يبدو أمثلة عن مطبوعات أو وكالات أنباء في أوروبا الغربية – موالية للشيوعية أو معادية للحلف الأطلسي، الخ – ظاهرها أنها مستقلة في الحرب الباردة ولكنها سراً تتلقى تمويلاً من الاتحاد السوفييتي.

أهم من ذلك أنه يجب أن نعي أن جميع أنواع المشاريع والمؤسسات المدعومة من وكالة المخابرات المركزية في أوروبا الغربية كانت تلقى مساندة من وكالة المخابرات المركزية في سائر أنحاء العالم الثالث على مدى عقود من السنين على أساس روتيني

دون أن يكون هناك مقابل روسي منظور. إن القوة المتنامية لليسار في أوروبا ما بعد الحرب كانت محركاً كافياً لجعل وكالة المخابرات المركزية تطور برامج سرية، وهذا ظرف مستمد من الحرب العالمية الثانية وحقائق الحياة الاقتصادية، وليس من الدعاية السوفييتية.

عملية غلاديو Operation Gladio

الأساس المنطقي وراء هذه العملية هي ريبتكم الدائمة في الحرب الباردة: هنالك احتمال كبير بأن يشرع الروس في غزو أوروبا الغربية بدون استفزاز. وإذا ما تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالجيوش الغربية وأرغموها على الفرار لابد من بقاء أشخاص معينين لكي يزعجوا الروس بحرب عصابات وبأعمال تخريب وليكونوا صلة اتصال مع أولئك الذين في الخارج. إن الذين سيبقون في الأرض سيتم تزويدهم بأموال وأسلحة وأجهزة اتصالات وتمارين التدريب. إن التخطيط لهذه الشبكة السرية شبه العسكرية، التي أطلق عليها اسم «عملية غلاديو» (كلمة غلاديو إيطالية تعني السيف) بدأ في عام ١٩٤٩، وشمل في أول الأمر البريطانيين والأمريكيين والبلجيكيين. مع مرور الزمن أقامت وحدات في كل بلد أوروبي غير شيوعي – من ضمنها اليونان وتركيا والسويد وسويسرا الدولتان الحياديتان – مع استثناء ظاهر يتمثل في ايرلندا وفنلندا. إن مسألة ما إذا كانت هذه الوحدات خاضعة أكثر لإشراف الحكومات الوطنية أو لحلف شمال الأطلسي تظل أمراً غير واضح عن قصد مع أنه يبدو من وجهة النظر العملانية أن وكالة المخابرات المركزية ومختلف أجهزة المخابرات الأخرى كانت هي التي تصدر الأوامر.

وتبين فيما بعد، أنه في غياب كامل لأية غزوات روسية استخدمت العملية بصورة حصرية تقريباً لإلحاق ضرر سياسي بالحركات اليسارية الداخلية.

إن حكاية غلاديو تفجرت في إيطاليا في خريف عام ١٩٩٠، وكان منشأ تفجرها تحقيقاً قضائياً في حادث انفجار سيارة في عام ١٩٧٢ وقد أظهر التحقيق

أن المتفجرات جاءت من أحد ١٣٩ مستودعاً سرياً للأسلحة احتفظ بها لقوات غلاديو في إيطاليا. وتبعاً، لذلك، فإن رئيس هيئة التحقيق البرلمانية الإيطالية في هذه المسألة كشف النقاب عن أنه «عندما بدأت عملية غلاديو كان الأميركيون يصرون في أكثر الأحيان على أن المنظمة يجب أن تستخدم أيضاً لمجابهة أية عمليات انشقاق». لقد روى الجنرال اليوناني المتقاعد (نيكوس كوريس Nikos Kouris) قصة مماثلة، معلناً أن قوة يونانية شكلت بمساعدة من وكالة المخابرات المركزية في عام ١٩٥٥ للتدخل في حالة حدوث تهديد شيوعي، سواء كان خارجياً أو داخلياً. «كان هناك عسكريون سابقون، وجنود مدربون تدريباً خاصاً ومدنيون أيضاً. إن ما جمع بين هؤلاء هو قاسم مشترك أيديولوجي واحد: «التطرف اليميني».

إن العملية الإيطالية، كما في ألمانيا كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإرهابيين. لقد صارح (روبرتو كافاليرو Roberto Cavallero) العميل السابق في عملية غلاديو الرأي العام بقوله إنه كانت هناك صلة مباشرة بين غلاديو وموجة التفجيرات الإرهابية في إيطاليا خلال السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن العشرين والتي أدت إلى موت ما لا يقل عن ٣٠٠ شخص. وقال: «إن غلاديو كانت قد دربته مع كثيرين غيره لإعداد مجموعات مهمتها، في حالة تقدم قوات الجناح اليساري في بلدنا أن تملأ الشوارع، وأن تخلق حالة من التوتر تستدعي تدخلاً عسكرياً». لقد كان كافاليرو بطبيعة الحال يشير إلى النجاحات الانتخابية للحزب الشيوعي الإيطالي وليس إلى غزو من قبل الاتحاد السوفييتي.

كان أسوأ عمل إرهابي فرد هو تفجير محطة السكة الحديدية في بولونيا في شهر آب (أغسطس) عام ١٩٨٠ الذي أودى بحياة ٨٦ شخصاً. وقد قالت جريدة «الاوبزرفر» اللندنية فيما بعد:

«إن اللوم في تفجيرات السكك الحديدية الإيطالية كان موجهاً إلى اليسار المتطرف كجزء من استراتيجية ترمي إلى إقناع الناخبين بأن البلد في حالة توتر وأنه لا بديل أمامهم سوى الاقتراع لصالح الحزب الديموقراطي المسيحي. إن كل الدلائل تشير إلى أن العقل المدبر لهذه الأعمال كان من داخل غلاديو».

أحد الرجال المطلوبين لاستجوابهم في إيطاليا حول تفجير بولونيا، هو (روبرتو فيوري Roberto Fiore) الذي عاش في لندن منذ ذلك الحين ورفضت الحكومة البريطانية ترحيله. يبدو أنه تحت جناح الحماية للاستخبارات البريطانية (M16) التي زوّدها بمعلومات استخبارية قيّمة.

إن خطف (الدو مورو Aldo Moro) زعيم الديموقراطيين المسيحيين وقتله في عام ١٩٧٨، هذا العمل الذي عُزي إلى الألوية الحمراء، يبدو الآن أنه كان هو أيضاً من عمل عملاء غلاديو الاستفزازيين الذين تسللوا إلى المنظمة. وكان مورو قد أعلن قبيل خطفه أنه عازم على الدخول في حكومة ائتلافية مع الحزب الشيوعي.

في بلجيكا، عام ١٩٨٣، ولإقناع الرأي العام بوجود أزمة أمنية، قام مديرو غلاديو وضباط الشرطة بسلسلة من عمليات إطلاق نار بصورة عشوائية في محلات السوبرماركت، وهذه السلسلة، سواء عن قصد أم عن غير قصد، أدت إلى عدة وفيات. بعد ذلك بعام، قفزت مجموعة من المارينز الأمريكيين بالمظلات في بلجيكا بقصد مهاجمة مركز للشرطة. قُتل في هذه العملية مواطن بلجيكي وفقد أحد رجال المارينز عينه في العملية، التي كانت مدبرة لزج الشرطة البلجيكية المحلية في حالة تأهب أعلى، ولإعطاء السكان الذين يشعرون بالراحة، الانطباع بأن البلد على حافة ثورة شيوعية. المسدسات التي استخدمت في العملية خبئت لاحقاً في أحد منازل بروكسل، وهو منزل كانت تستعمله مجموعة شيوعية منشقة.

الاتحاد السوفييتي أواخر الأربعينيات
وحتى الستينيات من القرن العشرين
من طائرات التجسس إلى نشر الكتب

المعلومات.. مئات من الشباب الأمريكيين والمهاجرين الروس ضحوا بأرواحهم لكي تتمكن الولايات المتحدة من تجميع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الاتحاد السوفييتي.. تقريباً معلومات مهما كان نوعها عن الأرض التي وصفها تشرشل بأنها «أحجية ملفوفة بغموض في داخل لغز».

بيد أنه لا يوجد أي دليل على أن أياً من المعلومات التي جُمعت أنقذت حياة أي إنسان، أو خدمت أية غاية مفيدة للعالم. حالياً، هناك أطنان من الملفات المليئة بتقارير، ومجلدات من معلومات نسخت من الكومبيوتر، وأشرطة، وصور فوتوغرافية، الخ، مكدسة في خزائن وقد علاها الغبار في مستودعات داخل الولايات المتحدة وألمانيا الغربية. ولعل جزءاً كبيراً من هذه المواد قد أُتلف، والكثير منها لم يلق عليها أحد نظرة ولن يلقي عليها أحد نظرة.

اعتباراً من أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، أرسل الجهاز العسكري الأمريكي، ووكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي، بصورة منظمة، طائرات للتحليق فوق حدود الاتحاد السوفييتي لجمع معطيات بصرية، وفوتوغرافية والكترونية ذات طبيعة عسكرية أو صناعية، ولاسيما ما يتعلق منها بالصواريخ والقدرة النووية السوفييتية. إن طائرات وأجهزة متطورة ومعقدة بصورة متزايدة، وكذلك أقماراً اصطناعية وغواصات ومراكز تنصّت الكتروني في تركيا وإيران، أنتجت كميات ضخمة من مدخلات الكومبيوتر. في بعض الأوقات، كانت الطائرات تنحرف دون قصد فتحلّق فوق الأرض السوفييتية، وفي أوقات أخرى كانت تفعل

ذلك عامدة من أجل تصوير هدف معين، أو لتفعيل منشآت الرادار من أجل التقاط إشاراتها، أو لتقييم رد فعل الدفاعات الأرضية السوفييتية ضد أي هجوم. لقد كانت لعبة خطرة «بالصوص» الجوي وفي أحيان كثيرة كانت الطائرات تقابل بنيران الدفاع الجوي أو بطائرات مقاتلة سوفييتية.

في كلا العامين ١٩٥٠ و١٩٥١ أسقطت طائرة تجسس على متنها عشرة أشخاص لم ينجُ أحد منهم. وفي العام ١٩٦٩ اعتبر ملاحو إحدى الطائرات وعددهم ٣١ في حكم المفقودين، هذه المرة أسقطتهم مقاتلات كوريا الشمالية فوق بحر اليابان. وخلال السنوات الواقعة بين التاريخين، وقعت عشرات الحوادث الجوية بين طائرات أمريكية وقوة نارية شيوعية، نجمت عن مئات، إن لم نقل آلاف الطيران التجسسي. بعض طائرات التجسس تمكنت من العودة سالمة إلى القاعدة (التي قد تكون في تركيا، أو إيران، أو اليونان، أو باكستان، أو اليابان، أو النروج) بعد أن تكون تعرضت لهجوم وحتى بعد أن تكون قد أصيبت.. أسقطت طائرات أخرى ونجمت عن إسقاطها خسارة في الأرواح، أو وقوع ركاب الطائرة في الأسر السوفييتي(١).

هنالك ارتباك كبير بشأن إحصاء عدد ومصير الطيارين الأمريكيين الذين أسرهم السوفييت بعد هبوط طائراتهم هبوطاً اضطرارياً، وإسقاطها خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. لقد ذكر الرئيس الروسي بوريس يلتسين في عام ١٩٩٢ أن تسع طائرات أمريكية أسقطت في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين وأن اثني عشر أمريكياً من الناجين أسروا ولم يكتشف بعد مصيرهم النهائي. بعد ذلك بخمسة شهور، أبلغ (ديمتري فولكوغونوف Dimitri Volkogonov)، الجنرال السوفييتي السابق، والرئيس الشريك للجنة روسية - أمريكية كانت تحقق في كامل موضوع الأمريكيين المفقودين، أبلغ لجنة تابعة لمجلس الشيوخ الأمريكي أن ٧٣٠ طياراً وقعوا في الأسر خلال طيران التجسس في الحرب الباردة (٢).

الأبرز بين هذه الحوادث كان بطبيعة الحال إسقاط طائرة (يو- تو U-٢) التي كان يقودها فرانسيس غاري باورز Francis Gery Powers) بتاريخ الأول من أيار

(مـايو) ١٩٦٠. إن طائـرة (يو - تو) التي تسـتطيع التـحليق على ارتفـاع كـبيـر جـداً، طُورت بسبب إمكانيـة إصابة وإسقاط الطائـرات التي تحلق على ارتفـاعات عادية. إن اختـفـاء باورز وطـائرته (اليـوتو) في مكان مـا مـن الاتحـاد السـوفـيـيـتي أوقع حكومـة الولايات المتحدة علناً في فخ التورط في قصـة كاذبة لتغطيـة الموضـوع، وفي أقـوال إنكارية وتعديلهـا. في النهـاية، عندمـا عـرض الروس باورز وطـائرته أمـام العـالم، لم يكن أمـام الرئيس ايزنهـاور بديل سـوى الإقـرار بالحقـيقـة. غـيـر أنه أضـاف بصـورة جـارحــة: ان تحليق طـائرات مـن نوع تحليق طـائرة (يو- تو) «هـو أمــر كــريه ولكنه حيـوي)، إذا أخـذنا بالاعـتـبـار أن الروس هم «مـجـتـمـع سـرية وإخـفـاء» [٣]. أحـد مـستـشـاري ايزنهـاور (ايميت جـون هيـوز Emmet John Hughs) ذكـر في وقت لاحق أن الأمـر يتطلب من الإدارة الأمـريكية سـتة أيام فقط «لتحول الكذب الذي لا يقبله العقل إلى حق سيادي» [٤].

في مناسـبـات كثـيـرة احـتـجـت الولايات المتحـدة لدى الاتحـاد السـوفـيـيـتي على الهجمات السوفييتية التي تعرضت لها طائرات أمريكيـة لم تكن فعـلاً فوق الأراضي السوفييتية بل فوق بحر اليابان، على سبيل المثال. إن هذه التحليقـات، مع أنها كانت للتجسس، لكن إذا تحدثنا بدقة نجد أنها مقبولة بموجب القانون الدولي.

إن أخطر عـاقبـة من عـواقب مـسـألة طائـرة يو- تو كانت أنهـا حكمت بالفـشل على اجتمـاع قمة بين ايزنهاور وخروشوف كان مقرراً له أن يعقد في باريس بعد أسبوعين من حادث اليو- تو، وكان معلقاً عليه أمل كبير في السـلام والوفاق من سائر شعوب العالم.

هل كـانت قضـية اليـو- تو حـادثاً سـيئ الحظ في التوقيت حكم عليه التاريخ أن يكون هكذا؟ إن (الكولونيل ل. فليـتـشـر بروتي Col. L.Fletcher Prouty)، الضـابط المتقـاعـد من سـلاح الجـو الأمـريكي، يقـول خـلاف ذلك. لقـد خـدم بروتي من العـامين ١٩٥٥ و١٩٦٣ كضـابط ارتبـاط بين وكـالة المخـابرات المركـزية والبنتـاغـون في مـسـائل تخص تقديم المسـاندة العسكرية إلى «عمليـات خاصة». يقول بروتي في كتابه بعنوان (الفـريق السـري The Secret Team): «إن وكـالة المخـابرات المركـزية وزمـلاء معينين

من الوكالة في البنتاغون قد خربوا هذا التحليق بالذات من قبل طائرة يو- تو، والتي كانت المرة الأخيرة المقرر تحليقها فيها قبل موعد القمة. يفترض أنهم فعلوا ذلك لأنهم لم يستطيبوا تخفيف توترات الحرب الباردة التي هي أساس وجودهم».

بحسب افتراض روتي أن الأسلوب الذي استخدم كان بسيطاً إلى حد لافت للنظر. فمحرك طائرة يو- تو يحتاج إلى حقنات من الهيدروجين السائل للمحافظة على ارتفاع الطائرة في الجو ارتفاعاً كبيراً للغاية، الأمر الذي يجعلها خارج نطاق القوة النارية السوفييتية وخارج مدى الطائرات الاعتراضية. فإذا كانت حاوية الهيدروجين قد ملئت جزئياً عند الإقلاع من تركيا، ستكون المسألة مسألة وقت - أي أنها محسوبة بحيث تصادف وجود الطائرة فوق الأراضي السوفييتية - أي قبل أن تضطر الطائرة للهبوط إلى مستوى أدنى. عند هذا الحد، ليس هناك ما يؤكد هل أُسقطت الطائرة فعلاً أم أن باورز اختار الهبوط بمظلة تاركاً الطائرة لتسقط وتتحطم. لقد ادعى الاتحاد السوفييتي أنه أسقط طائرة اليو- تو بصاروخ وهي على ارتفاعها العالي المعتاد، ولكن ربما كان هذا الادعاء كاذباً وأنه عائد إلى الفشل المسبب للإحباط على مدى أربع سنوات في إسقاط طائرة يو- تو واحدة وهي في الجو. على أية حال تمكن الروس من أن يعرضوا أمام العالم طائرة تجسس في حالة سليمة جزئياً مع طيار جاسوس في حالة سليمة بالكامل، حاملاً معه كل أنواع الأوراق التي تدينه، مع إبرة للانتحار غير مستعملة. يقول بروتي: «إن وجود أوراق التعريف بالهوية لم يكن بسبب السهو، بل كان متعمداً، لأن لا الطيار ولا الطائرة أزيلت عنهما العلامات الفارقة في هذه الرحلة وفقاً لما هو مطلوب في الرحلات الأخرى» [٥].

إن باورز لا يتحدث في كتابه عن موضوع الهيدروجين السائل إطلاقاً، فهو يعتقد أن طائرته جرى تعطيلها وأُرغمت على الانحدار بواسطة موجات صدمة من صاروخ سوفييتي اقترب منها. ولكنه يتحدث عن مشاكل فنية في الطائرة قبل اقتراب الصاروخ المفترض منها [٦].

في ضوء الضجة التي سببها إسقاط طائرة ركاب تجارية كورية جنوبية من قبل الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٨٣، ادعى الروس أنها كانت تقوم بأعمال تجسس، فإنه يثير اهتمامنا أن نلاحظ أن بروتي يذكر أيضاً أن الولايات استخدمت في إحدى المرات طائرة تجارية وطنية ظاهرها أنها في رحلة نظيفة، وأن الطائرة المذكورة تنتمي إلى بلد أجنبي غير محدد «للقيام ببعض التصوير التجسسي أو بمشروع سري آخر» (٧).

بالنسبة للروس، طائرات التجسس كانت تشكل أكثر من مجرد انتهاك لمجالهم الجوي، ورفضوا الفكرة التي طرحتها الولايات المتحدة ومفادها أن التحليقات هي مجرد شكل آخر من أشكال التجسس – «أنشطة جمع معلومات استخبارية تمارسها جميع البلدان» على حد قول واشنطن(٨): (آنذاك لم يكن ثمة ما يشير إلى تحليقات سوفييتية فوق الولايات المتحدة) (٩) لقد كانت نظرة الروس إلى هذه التحليقات أنها بصورة خاصة استفزازية لأن الطائرات وسيلة من وسائل الأعمال الحربية، وأنه يمكن اعتبارها بداية لأعمال حربية. وقد تكون حاملة للقنابل. ولم يغب عن ذاكرة الروس ان النازيين مهدوا لغزو الاتحاد السوفييتي برحلات استكشاف متكررة فوق أراضيهم. ولم ينسوا أيضاً أن طائرات أمريكية تحمل قنابل نووية حلقت في شهر نيسان (ابريل) ١٩٥٨ فوق المحيط المتجمد الشمالي باتجاه الاتحاد السوفييتي بسبب شارة إنذار زائف ظهرت على الرادار الأمريكي. صدر الأمر لهذه الطائرات بالعودة عندما كان يفصلها عن الاتحاد السوفييتي طيران مدته ساعتان فقط.

لم يحدث أن ألقت طائرة أمريكية قنابل على الاتحاد السوفييتي، ولكن العديد منها أنزلت رجالاً لتنفيذ مهمات عدائية. هؤلاء الرجال الذين أنزلوا من الجو كانوا من الروس الذين هاجروا إلى الغرب حيث جندتهم وكالة المخابرات المركزية وأجهزة الاستخبارات الغربية الأخرى.

منظمة المهاجرين الرئيسية عُرفت باسم «التحالف الوطني للتضامنيين الروس» أو «اتحاد العمال الوطني»، وكانت مؤلفة بصورة رئيسية من مجموعتين متباينتين: أبناء الروس الذين ذهبوا إلى الغرب عقب الثورة، ثم أولئك الروس ممن استقر بهم

المقام في أوروبا الغربية في نهاية الحرب العالمية الثانية، إما بفعل الظروف أو باختيارهم. وأيضاً كلا المجموعتين كانوا قد تعاونوا مع النازيين خلال الحرب. ومع أن التحالف الوطني للروس التضامنيين (NTS) كان يصنف بصورة عامة في الجناح اليميني لمختلف منظمات المهاجرين، فإن تعاونهم كان بدافع العداء للستالينية أكثر مما هو موالاة للنازية.

كانت قاعدة (NTS) الرئيسية في ألمانيا الغربية، حيث كانت وكالة المخابرات المركزية طوال الخمسينيات من القرن العشرين هي المحسنة الرئيسية للمنظمة، وغالباً سندها الوحيد. وكانت الوكالة توفر لأعضاء (NTS) التدريب الموسع في مدرسة تابعة لوكالة المخابرات المركزية أقيمت في ألمانيا تحمل اسماً يبهر الإنسان هو «معهد دراسة الاتحاد السوفييتي»، كما في مدارس أخرى في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، وبعد هذا التدريب كان يتم إنزالهم من الجو في الأراضي السوفييتية. كان هؤلاء الرجال يهبطون على أرض بلدهم الأصلي مجهزين تجهيزاً جيداً بالمعدات، وبكل شيء ابتداء من الأسلحة إلى الدراجات الهوائية التي تطوى، وملابس رجال الضفادع والحصيرة المطاطية لعبور أسيجة الأسلاك الشائكة المشحونة بالكهرباء.

كان الروس يعادون إلى بلدهم الأصلي لأسباب متنوعة: لجمع معلومات استخبارية عن المنشآت العسكرية والتكنولوجية، ارتكاب أعمال الاغتيال، الحصول على نماذج حديثة من وثائق التعريف بالهوية، مساعدة العملاء الغربيين على الهرب، القيام بأعمال تخريبية تدربوا عليها تدريباً جيداً (أساليب إخراج القطارات عن السكة الحديدية، تدمير الجسور، القيام بأعمال ضد مصانع السلاح ومراكز إنتاج الطاقة الخ)، أو التحريض على النضال السياسي المسلح ضد الحكم الشيوعي عبر إقامة صلة مع حركات المقاومة، وهذا هدف غير واقعي بالمرة نظراً لضعف هذه الحركات، باستثناء واحدة منها أقسم يمين الولاء لها أعضاء من (NTS) المتعصبين.

لا يمكن قط معرفة عدد الرجال الذين أرسلتهم تسللاً وكالة المخابرات المركزية إلى الاتحاد السوفييتي، ليس فقط عن طريق الجو بل باجتياز الحدود وبالقوارب أيضاً. ربما كان العدد مئات كثيرة على أقل تقدير. أما فيما يتعلق بمصيرهم، فقد نشر الاتحاد السوفييتي كتاباً في عام ١٩٦١ بعنوان (قبض عليهم متلبسين Caught in the Act) وقد تضمن الكتاب أسماء أكثر من عشرين متسللاً ادعى الروس أنهم قبضوا عليهم، في أكثر الأحيان فور وصولهم تقريباً، كما تضمن الكتاب تفاصيل أخرى عنهم. بعضهم أُعدم، آخرون صدرت بحقهم أحكام بالسجن، وقيل: «إن واحداً كان فرداً سبق له ان اشترك في إعدام اليهود بالجملة في منطقة الاحتلال السوفييتي في ألمانيا.» يؤكد الكتاب أن كثيرين آخرين قبض عليهم ولم يرد ذكرهم في الكتاب. لعل هذا كلام لخدمة الذات، لأنه كان من السهل نسبياً للروس أن يتسللوا إلى صفوف المهاجرين في أوروبا الغربية وأن يعرفوا منهم كامل العملية.

بالتأكيد لم تكن وكالة المخابرات المركزية ساذجة بالنسبة لهذا الأسلوب. فقد وصل بها الأمر إلى حد تعذيب الذين اشتبهت بانشقاقهم في ميونيخ - باستعمال أساليب مقصورة على عدد محدود كسكب مادة التربانتين على خصيتي الرجل أو حبس شخص ما في حجرة وعزف موسيقا أندونيسية بمستويات تسبب الصمم إلى أن ينهار (١١). ادعى الروس أيضاً أن بعض الذين جرى تهريبهم كانوا مزودين بجهاز إرشاد ضوئي لاسلكي لتوجيه الطائرات إلى مكان إنزال العملاء الآخرين، كما يمكن استعماله لتوجيه قاذفات القنابل الأمريكية في حالة نشوب حرب.

بعض المهاجرين أفلحوا في العودة إلى أوروبا الغربية بما جمعوا من نتف المعلومات، أو بعد محاولة تنفيذ مهمة أخرى. في حين أن آخرين، تم تزويدهم بمجموعة كاملة من الوثائق الضرورية، صدرت إليهم تعليمات بأن يندمجوا في المجتمع السوفييتي ليصبحوا «عملاء محليين». هنالك آخرون طغت عليهم عواطف العودة إلى «الوطن» فسلموا أنفسهم. مرة أخرى «العامل الإنساني» الذي لا تستطيع أية كمية من التدريب أو تلقين الأفكار أن تلتف عليه (١٢).

ما من عملية أمريكية ضد الاتحاد السوفييتي لها حظ من التمام بدون جانبها الدعائي Propaganda أي حمل الإنجيل إلى الوثنيين بطرق عديدة جداً تكشف عن الطاقة الإبداعية لدى وكالة المخابرات المركزية وفريقها من المهاجرين.

لقد طُورت آليات جديدة لتمكين الطائرات والمناطيد من إسقاط منشورات معادية للشيوعية فوق الاتحاد السوفييتي. وعندما كانت الريح تهب في الاتجاه الصحيح كانت أعداد لا تحصى من النشرات والكتيبات تلقى على الأرض من الجو، أو كانت كميات من المطبوعات ترسل عائمة عبر الأنهر في رزم لا ينفذ إليها الماء.

عندما كان مواطنون سوفييت يأتون إلى الغرب كان يستقبلهم عند كل منعطف أشخاص من (NTS) ويقدمون لهم الصحف والمجلات التي يصدرونها باللغتين الروسية والأوكرانية. وتسهيلاً لإقامة اتصالات، كانت (NTS) تنخرط أحياناً في عمليات السوق السوداء فتفتح دكاكين صغيرة تبيع بضائع إلى الروس بأسعار رخيصة. ومن شمال أفريقيا إلى اسكندينافيا كانت شبكة وكالة المخابرات المركزية تواجه البحارة والسياح والمسؤولين والرياضيين الروس، وحتى الجنود الروس في ألمانيا الشرقية، لتقدم لهم الحقيقة كما يراها «العالم الحر»، وكذلك لاقتناص المعلومات منهم، ولإغرائهم بالانشقاق عن بلدهم ولتجنيدهم كجواسيس. كان يجري تفتيش الغرف في الفنادق، والتنصت على الهواتف، وتقديم الرشا أو الابتزاز بالتهديد في محاولات لتحقيق هذه الغايات. وكانت تجري أعمال لإيقاع دبلوماسيين سوفييت في الفخ أو لاستفزازهم بحيث يتسبب ذلك بطردهم و/ أو إحراج الاتحاد السوفييتي [١٣].

حملة الدعاية دفعت الحكومة الأمريكية إلى العمل في مجال نشر الكتب تحت ترتيبات متنوعة مع ناشرين وموزعين وشخصيات أدبية ومؤلفين أميركيين وأجانب، وكانت وكالة المخابرات المركزية ووكالة المعلومات الأميركية تنتج أو تموّل أو ترعى «أكثر من ألف كتاب» مع حلول العام ١٩٦٧، وكانت هذه الكتب موجهة نحو غاية

دعائية [١٤]. لقد بيع العديد من هذه الكتب في الولايات المتحدة وأيضاً في الخارج. وما من كتاب منها حمل أية إشارة تدل على علاقة للحكومة الأميركية. لقد قالت وكالة المعلومات الأميركية عن بعض هذه الكتب: «إننا نشرف على العمل من الفكرة ذاتها وصولاً إلى المخطوطة في صيغتها النهائية» [١٥].

بعض الكتب كان يُنشَر، وأحياناً يُكتب، فقط بعد موافقة وكالة المعلومات الأميركية أو وكالة المخابرات المركزية على شراء عدد كبير من النسخ. وما من سبيل لمعرفة أثر هذا الحافز المالي على الناشر أو المؤلف فيما يتعلق بلهجة الكتاب وتوجهه. في بعض الحالات كانت واشنطن تسمح بتقديم معلومات سرية إلى أحد المؤلفين أو كانت تساعده في تأليف الكتاب. في عام ١٩٦٧، عقب الكشف عن أنشطة وكالة المخابرات المركزية في الداخل، وصل هذا الأسلوب في العمل إلى نهايته في الولايات المتحدة مع أنه استمر في الخارج. لقد ذكرت إحدى لجان مجلس الشيوخ الأميركي في عام ١٩٧٦، أن وكالة المخابرات المركزية كانت لها علاقة خلال بضعة الأعوام السابقة بنشر نحو ٢٥٠ كتاباً، معظمها بلغات أجنبية [١٦]. بعض هذه الكتب كانت في معظم الحالات تعاد طباعتها في الولايات المتحدة.

غير أن الهوية الحقيقية لمعظم الكتب لا تزال قيد السرية. من بين الكتب التي كُشِفَ عنها، الكتب التالية: «ديناميكيات المجتمع السوفييتي» بقلم (والت روستوف Walt Rostow) و «الطبقة الجديدة» بقلم (ميلوفان دجيلاس Milovan Djilas)، و«مختصَر تاريخ الحزب الشيوعي» بقلم (روبرت أ. بيرتون Robert A. Burton)، و«برامج المساعدة الخارجية التي تقدمها الكتلة السوفييتية والصين الشيوعية» بقلم (كورت مولر Kurt Muller)، و «السعي لنظام عالمي» بقلم (ريتشارد ن. غاردنر Richard N.Gardner)، و «بيكين والحروب الشعبية» بقلم الميجر جنرال (سام غريفيث Major General Sam Grifith)، و «طريقة ينان» بقلم (يويوسيو رافينز Eudocio Ravines)، و «الحياة والموت في روسيا السوفييتية» بقلم (فالنتين غونزالز Valentin Gonzalez)، و «تلة النمل» بقلم (سوزان لابين Suzanne Labin)،

و«سياسة الكفاح: الجبهة الشيوعية والحرب السياسية» بقلم (جيمس د. أتكنسون James D. Atkinson)، و «من الاستعمار إلى الشيوعية» بقلم (هوانغ فان تشي Hoang Van Chi)، و «لماذا فيتنام»؟ بقلم (فرانك تراجر Frank Trager)، و«الإرهاب في فيتنام» بقلم (جي مالين Jay Mallin). إضافة إلى ذلك موّلت وكالة المخابرات المركزية ووزعت في سائر أنحاء العالم الفيلم الكرتوني الذي وضعه (جورج أورويل George Orwell) وعنوإنه «مزرعة الحيوان» (١٧).

إن الاختراق الدعائي للكتلة الاشتراكية الأشد تحريفاً كان بواسطة الموجات الهوائية: إن العديد من أجهزة البث، ونسبة عالية من الكهرباء، وفي أكثر الأحيان برمجة على مدار الساعة قد أوصلت (إذاعة الحرية) و(إذاعة روسيا الحرة) إلى الاتحاد السوفييتي، وإذاعة (أوروبا الحرة) و(إذاعة القطاع الأميركي الموجهة إلى أوروبا الشرقية) وإذاعة صوت أميركا الموجهة إلى جميع أنحاء العالم. وباستثناء هذه الإذاعة الأخيرة، فإن محطات الإذاعة المذكورة كانت في ظاهرها مؤسسات خاصة تمولها «منح» من شركات أميركية وتبرعات صغيرة من الشعب الأميركي ومن مصادر خاصة أخرى. في واقع الأمر موّلت وكالة المخابرات المركزية سراً جميع التكاليف تقريباً حتى عام ١٩٧١. إن فضح دور الوكالة في عام ١٩٦٧ (مع أنه كان يفترض على نطاق واسع وجود هذا الدور قبل ذلك بوقت طويل) أدى إلى تشريع الكونغرس الأميركي لاحقاً بتمويل حكومي مكشوف لهذه المحطات.

أدت هذه المحطات خدمة لغرض ملء بعض الثغرات وتصحيح بعض الأكاذيب في الإعلام الشيوعي، ولكنها لم تتمكن من التهرب من تقديم صورة للعالم، بشرقه وغربه، صورة التقطت بهفواتها وتشويهاتها. إن مهمة هذه المحطات في الحياة كانت التأكيد على كل ما يمكنه أن يظهر أن أنظمة الحكم الشيوعية تبدو سيئة. وقد كتب (فيكتور مارشيتي Victor Marchetti)، وهو مسؤول كبير سابق في وكالة المخابرات المركزية يقول: «بالنسبة لكثيرين في الوكالة كانت القيمة الأولى للإذاعات هي في زرع الاستياء في أوروبا الشرقية ومن خلال ذلك إضعاف الحكومات الشيوعية» (١٨).

كثيرون من الروس الذين عملوا متعاونين مع محطات إذاعة مختلفة، كانت تركز طويلاً على الحرية، والديموقراطية والاهتمامات الإنسانية الأخرى جرى الإعلان لاحقاً عن هوياتهم من قبل وزارة العدل الأميركية كأعضاء في مؤسسة (إينساتز غروبين Einsatzgruppen) السيئة الصيت التي أنشأها هيتلر والتي كانت تجمع العديد من اليهود في الاتحاد السوفييتي وتقتلهم. أحد منفذي هذه الأعمال كان (ستانسلاف ستانكييفيتش Stanislaw Stankievich) الذي تحت إمرته قتل اليهود بأعداد كبيرة في بيلاروسيا وفي هذه المجزرة دفن أطفال أحياء جنباً إلى جنب مع الموتى، وربما حدث ذلك توفيراً للذخيرة. انتهى الأمر بالمدعو ستانكيفيتش عاملاً في إذاعة الحرية. كذلك فإن مجرمي حرب من الألمان قد استخدموا من قبل وكالة المخابرات المركزية في عمليات متنوعة معادية للسوفييت [١٩].

كل المرويات تخبرنا أن البرامج المتنوعة لتجميع معلومات استراتيجية عن الاتحاد السوفييتي، وخاصة عبر التسلل إلى البلد وتشجيع المواطنين السوفييت في الغرب، كانت إخفاقاً ذريعاً. المعلومات التي تنقل كانت عادة تافهة، غير متجانسة، مشوهة أو فات أوإنها. أسوأ من ذلك، أنها كثيراً ما كانت مزوّقة، إن لم تكن مختلقة من أساسها. كثيرون من مهاجري ما بعد الحرب في أوروبا الغربية كانوا يعتمدون في معيشتهم على العمل في جمع المعلومات، وبضاعتهم كانت الأكثر رواجاً، وهؤلاء كانوا يكتبون من مضمون اجتماع حقيقي أو من صنع الخيال مع مواطن سوفييتي تقريراً هو في أكثر الأحيان متضمناً حقائق عادية يضيفون إليها شيئاً من التلوين السياسي. وأحياناً كانت توضع صيغ للتقرير قد تبلغ أربع صيغ مختلفة في الأسلوب وفي كمية «الحقائق»، يكتبها أربعة أشخاص مختلفين، ثم تباع هذه التقارير كل على حدة إلى أجهزة المخابرات الأمريكية، والبريطانية، والفرنسية والألمانية والغربية. أما الصيغة التي تباع إلى وكالة المخابرات المركزية فقد كانت تحتوي على كل ما تتضمن الصيغ الأخرى وترسل في النهاية إلى الوكالة من قبل البلدان الأخرى بدون الكشف عن مصدرها. إن تحليل جميع التقارير كان يميل إلى إعطاء الوكالة الاستنتاج بأن منظمة (NTS) كانت تقدم لها أكمل صورة من

صور جميع المصادر الأخرى وأن المعلومات كانت منسقة. كانت منظمة (NTS) تبدو جيدة، وكانت الملفات تزداد سماكة [٢٠].

في تلك الأثناء كانت الملفات الروسية لدى وكالة المخابرات المركزية في واشنطن تقترب من أحجام هائلة بوصول المعطيات المستمدة من فتح البريد بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، الذي بدأ في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين واستمر على أقل تقدير حتى السبعينيات من القرن ذاته[٢١]. (قال مستشار لمكاتب البريد في عام ١٩٧٩ «لو لم يكن هناك برنامج لتغطية بريد الأمن القومي، لربما كان مكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) قد حيل بينه وبين معرفة ما إذا كانت دولة ما تخطط لشن حرب علينا»[٢٢].

إن (هاري روستزكي Hurry Rositzke) المسؤول السابق في وكالة المخابرات المركزية، والذي كان مشاركاً عن قرب في العمليات ضد السوفييت بعد الحرب، كتب في وقت لاحق أن المهمة الأولى التي أسندت إلى المهاجرين الذين تسللوا إلى الاتحاد السوفييتي خلال السنوات المبكرة - ولعل ذلك يمكن أن يقال عن طائرات التجسس - كانت توفير «إنذار مبكر» بهجوم عسكري سوفييتي على الغرب، أي غزو كان يبدو دائماً في أذهان مقاتلي الحرب الباردة في الحكومة الأمريكية، «وشيك الحدوث». هذا الخوف كان يذكرنا بصيحات الإنذار التي كانت تتردد عقب الثورة الروسية (راجع مقدمة الطبعة الأصلية) وانتعش هذا الخرق بالرغم من أن روسيا تعرضت مؤخراً لدمار من جراء حرب كبرى وبالكاد كان وضعها يمكنها من القيام بعملية عسكرية من حجم كهذا. مع ذلك، كتب روستزكي «كان التقدير الرسمي أن القوات السوفييتية كانت قادرة على الوصول إلى القنال الانكليزي في غضون أسابيع.. كانت إحدى البدهيات في واشنطن أن ستالين كان يخطط للحرب. ولكن متى تحدث الحرب»؟. بيد أنه نوّه بأن «مجرد وجود عملاء مزودين بأجهزة لاسلكية على الأرض السوفييتية دون أن يضطروا إلى إرسال إنذارات مبكرة كانت له قيمة ما تدعو إلى الحيطة والحذر من حيث التخفيف من حالة الرعب من الحرب في أوساط العسكريين الذين يضعون تقييمات للوضع في ذروة الحرب الباردة» [٢٣].

لقد أنذر تقرير سري صادر عن «مجلس موارد الأمن القومي» في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٥١ «بأنه مع سير الأمور على النحو الحالي، فإن المعتدين السوفييت سيتمكنون في عام ١٩٥٣ إن لم يكن في عام ١٩٥٢من السيطرة الكاملة على الوضع العالمي» (٢٤).

مع أن روستزكي كان رجلاً ملتزماً بالعداء للشيوعية، فإنه أدرك عدم واقعية هذا التفكير. ولكنه، كما أوضح، قال: إن رأيه كان رأي الأقلية في الوسط الرسمي في واشنطن:

«إن الحقائق المتوفرة، حتى التي توفرت آنذاك، توحي بأن الاحتمال الأكبر كثيراً هو أن استراتيجية موسكو بعد الحرب - بما في ذلك تحويل أوروبا الشرقية إلى حاجز غربي - كانت في أساسها استراتيجية دفاعية. جادلت حول هذه المقولة مع بعض المحللين في وكالة المخابرات المركزية الذين يعملون في مجال التقييمات السوفييتية، ومع بعض العاملين في البنتاغون، ولكن وجهة النظر هذه لم تكن لها شعبية في ذلك الحين. ومع ذلك، فإنها حقيقة بسيطة أنه لم يُكتب أي سيناريو آنذاك، ولم يكتب منذ ذلك الحين أي سيناريو يظهر سبباً لرغبة الروس في الاستيلاء على أوروبا الغربية بالقوة، أو لقصف الولايات المتحدة، فلم يكن من شأن أي من هذين العملين أن يسهم بطريقة ملموسة في المصلحة الوطنية السوفييتية بل كان من شأن أي منهما أن يعرض الدولة السوفييتية لخطر التدمير. إن هذه المسألة الأساسية لم يطرحها أحد قط، لأن موشور الحرب الباردة أوجد في عقول المخططين الاستراتيجيين الدبلوماسيين والعسكريين صورة عالم أسود وأبيض، ولم يكن هناك لون رمادي» (٢٥).

نوّه روستزكي بأنه كان لابد من مرور سنوات عديدة قبل أن يتضح لواشنطن عدم وجود إنذارات، مبكرة أو غير مبكرة، لإبلاغها إليها. بيد أن ذلك لم يكن له تأثير ملحوظ على تعزيز القوة العسكرية في الولايات المتحدة أو على بروباغندا الحرب الباردة.

فرنسا والجزائر في ستينيات القرن العشرين: الدولة: هذه هي وكالة المخابرات المركزية

عندما تولى جون ف. كنيدي منصبه في كانون الثاني (يناير) ١٩٦١، جابهته وكالة المخابرات المركزية وهي في السمت من قوتها ومصداقيتها. فخلال السنوات الأربع عشرة الأولى من عمر الوكالة، لم يجرِ تحقيق رسمي من قبل الكونغرس في عملها، ولم تُشكل لجنة «مراقبة لعملها»، والتحقيقات التي أجرتها هيئات مستقلة في عمل الوكالة خلال تلك المدة ضمنت بقاء كل ما يتعلق بالأمور السرية على حاله من السرية. وباستثناء حادث طائرة (يوتو) في العام السابق، لم تكن هناك إحراجات تحتل أخبارها الصفحات الأولى من الصحف، ولم تكن هناك فضائح أو إخفاقات معروفة. الأمران اللذان حظيا بشهرة شعبية – الانقلابان في غواتيمالا وإيران – اعتبرا على نطاق واسع قصتَي نجاح لوكالة المخابرات المركزية: إن إنكارات البيت الأبيض والإعلام المطواع أبقت مغامرات الوكالة الفاشلة في أندونيسيا عام ١٩٥٨ خارج نطاق النقد الذي تستحقه من الرأي العام.

من المحتمل أنه كان لوكالة المخابرات المركزية موظفون في ما وراء البحار، تحت تغطيات رسمية وغير رسمية، أكثر مما كان لوزارة الخارجية الأمريكية، وهذا إضافة إلى عدد لا يحصى من عملائها مدفوعي الأجر. وفي أكثر الأحيان كان رئيس إحدى محطات وكالة المخابرات المركزية يمضي في بلد ما وقتاً أطول مما يمضيه السفير الأمريكي، ويكون بتصرفه مال أوفر، ويمارس نفوذاً أكبر. وكان مسؤولو الوكالة يتجاوزون كلياً السفير والأعراف المعتادة عندما يلائم ذلك أغراضهم، فيتعاملون مباشرة مع رئيس الدولة أو غيره من كبار المسؤولين في البلد الذي يعملون فيه.

كانت لوكالة المخابرات المركزية قدراتها العسكرية الخاصة، بما في ذلك سلاحها الجوي الخاص، لخدمة نياتها وأغراضها كافة، وجهاز سلكها الخارجي

الخاص وسياستها الخارجية الخاصة ولكن دون تقاطع أغراضها مع أيديولوجية وأهداف الحرب الباردة والعداء للشيوعية التي تتبناها الولايات المتحدة.

بدا أن الوكالة لم تكن تخشى أن تتعرض لكشف أعمالها أو إدانتها، فشعرت بحرية القيام بالعديد من تجارب (الدكتور سترينجيلف Dr. Strangelove experiments) التي تشمل التحكم بالعقل البشري وكل أنواع الأسلحة البيوكيميائية، بما في ذلك نشر كميات هائلة من الجراثيم في الجو داخل الولايات المتحدة، ما نتج عنه الكثير من الأمراض وعدد من الوفيات.

هذا كله كان عملاً متهوراً بالنسبة لضباط وكالة المخابرات المركزية الذين كانوا يلعبون ألعاب رجالهم باللعب التي يلهو بها صبيإنهم.. وقلما كانوا يعترفون بحدود لحريتهم في العمل. كانوا حكام مستعمرات بريطانيين، والعالم كله بالنسبة لهم كان الهند.

ثم إنه، في منتصف شهر نيسان (ابريل) حدثت كارثة خليج الخنازير في كوبا. كانت التداعيات الدولية قد بدأت تهدأ عندما شغلت الوكالة مرة أخرى العناوين الرئيسية في صحف العالم. ففي ٢٢ نيسان (ابريل) استولى أربعة جنرالات فرنسيين على السلطة في الجزائر في محاولة للحفاظ على اتحاد الجزائر مع فرنسا.. إن هذا التمرد الذي لم يدم سوى أربعة أيام، كان مجابهة صريحة مع الرئيس الفرنسي شارل ديغول، الذي كان قد أعلن بصورة دراماتيكية سياسة تؤدي «ليس إلى جزائر تحكمها فرنسا، بل إلى جزائر جزائرية».

في اليوم التالي، قالت جريدة (الـ بايس Il Paese) الإيطالية اليسارية « :إنه ليس من قبيل المصادفة أن بعض الناس في باريس يتهمون جهاز الأمن السري الأمريكي الذي يرأسه آلن دالس بالاشتراك في مؤامرة الجنرالات (المتطرفين) الأربعة» (١).

إنه لأمر محاط بالغموض ما إذا كانت (الـ بايس) هي المصدر الرئيسي لهذه التهمة. وقد كتب دالس نفسه في وقت لاحق أن هذه الجريدة الإيطالية «كانت من

أوائل الذين أطلقوا التهمة، وأعرب عن رأيه بأن «هذه الخرافة كانت ابتكاراً شيوعياً محضاً» [٢].

قالت جريدة «نيويورك تايمز»: إن الشائعات بدأ كما يبدو تداولها من شخص إلى آخر في يوم حدوث التمرد [٣]، وهذا خبر لقي صداه في جريدة «واشنطن ستار» التي أضافت إليه أن بعض الشائعات أطلقها «موظفون من مرتبة دنيا في قصر الاليزيه نفسه» الذين «أفهموا المراسلين أن مؤامرة الجنرالات كانت مدعومة بقوة من عناصر معادية للشيوعية في حكومة الولايات المتحدة وأجهزتها العسكرية» [٤].

ومهما كانت مصادر القصة، فقد أخذت تنتشر بسرعة في أنحاء العالم، ورفضت وزارة الخارجية الفرنسية أن تدحض هذا الادعاء. إن جريدة «لوموند» أكدت في افتتاحية نشرتها على صفحتها الأولى بتاريخ ٢٨ نيسان (ابريل) أن «سلوك الولايات المتحدة خلال الأزمة الأخيرة لم يكن يدل على النباهة. ويبدو أمراً ثابتاً أن عملاء أمريكيين شجعوا بشكل أو بآخر (شال Challe - قائد التمرد -.. وأن الرئيس كنيدي، بطبيعة الحال، لم يكن على علم بكل ذلك» [٥].

إن الأخبار الواردة من جميع المصادر كانت متفقة على أنه إذا صح فعلاً أن وكالة المخابرات المركزية لها ضلع في التمرد، فإن ذلك يعود إلى سببين:

الأول: القلق من أنه إذا حصلت الجزائر على استقلالها، فإن «الشيوعيين» لن يلبثوا أن يستولوا على السلطة، وهؤلاء موجودون في صفوف جبهة التحرير الوطنية التي حاربت الجيش الفرنسي في الجزائر خلال سنوات عديدة - معركة الجزائر العاصمة الأسطورية. وجبهة التحرير الوطنية كانت هي الجهة المتوقع أن يتفاوض معها ديغول على تسوية.

الثاني: الأمل في أن يعجل ذلك في سقوط ديغول، وهو هدف مبتغى لأن الرئيس الفرنسي كان عقبة كأداء أمام طموحات الولايات المتحدة بشأن حلف شمال الأطلسي: فهو، بين أمور أخرى، كان يرفض دمج القوات الفرنسية في قيادة عسكرية موحدة، وكان يعارض الإشراف الأمريكي الحصري على أسلحة الحلف النووية.

يبدو من كل المرويات أن الضباط المتمردين اعتمدوا على مساندة أوساط عسكرية ومدنية هامة داخل فرنسا من أجل امتداد التمرد إلى الوطن الأم وإسقاط ديغول، ومع أن ذلك بدا من نسج الخيال، فمن الحقائق الثابتة أن الحكومة الفرنسية حملت هذه الإمكانية على محمل الجد. فقد ظهر رئيس الوزراء الفرنسي (ميشيل دوبريه Michel Debre) على التلفزيون ليحذر الأمة من غزو وشيك من قبل المظليين لمنطقة باريس وليحث الجماهير على المعارضة [٦].

رد فعل الصحافة الأمريكية على هذه الادعاءات كان ذا صفة مضحكة لا تخطئها العين. إن (ماركيز تشايلدز Marquis Childs) كاتب المقالات في جريدة «واشنطن بوست» قال: إن الفرنسيين صدموا بتمرد الجنرالات إلى حد أنهم اضطروا إلى إيجاد كبش فداء، في الوقت ذاته نقل عن «أحد كبار المسؤولين في الحكومة الفرنسية» قوله:

«بطبيعة الحال، لا علاقة لحكومتكم، لا وزارة خارجيتكم ولا رئيس دولتكم، بهذا الأمر. أما وأن لكم عدة مئات من العملاء في كل أجزاء العالم، فلا عجب أن يكون بعضهم على اتصال مع الجنرالات في الجزائر» [٧].

مجلة «تايم» قللت من شأن الرواية، وقالت بدورها: «إنهم جعلوا من الولايات المتحدة كبش فداء وأن وكالة المخابرات المركزية أصبحت «هدفاً مفضلاً في الأسابيع الأخيرة» [٨].

وكتب جيمس رستون (James Reston) في «نيويورك تايمز» أن وكالة المخابرات المركزية:

«كان لها ضلع في اتصال محرج مع ضباط معادين لديغول قاموا في الأسبوع الماضي بتمرد في الجزائر.. (إن حادثي خليج الخنازير والجزائر) قد زادا الشعور في البيت الأبيض بأن وكالة المخابرات المركزية تجاوزت حدود عمل وكالة مهمتها جمع المعلومات الاستخبارية الموضوعية وأصبحت المدافعة عن الرجال والسياسات الذين يسببون إحراجاً للإدارة» [٩].

بيد أن (س.ل.سولزبرغر Sulzberger. L. C) الذي كان الأوثق صلة من العاملين في جريدة «نيويورك تايمز» بوكالة المخابرات المركزية منذ تأسيسها، قال صراحة «لا أحد من الأمريكيين في الجزائر له أية علاقة بزعيم متمرد.. ولا أحد من الموظفين القنصليين شاهد أي متمرد». (ولكن بعد ذلك بأيام قليلة كشف وزير الخارجية الأمريكي (دين راسك Dean Rusk) النقاب عن أن مبعوثاً من الجنرالات الفرنسيين المتمردين زار القنصلية الأمريكية في الجزائر ليطلب مساعدة ولكنه قوبل بالصد في الحال».

كتب سولز برغر قائلاً: «هذا الأمر كان جهداً متعمداً لتسميم العلاقات الفرنسية - الأمريكية» بدايته في موسكو، ولكن حرض على بذله «مسؤولون فرنسيون معادون لأمريكا» و «أشخاص ساذجون في واشنطن.. وعندما يتحرى المرء الحقيقة يجد أن هذا كله كانت بدايته في مقال نشرته جريدة «ازفستيا» في موسكو بتاريخ ٢٥ نيسان (ابريل)» [١٠]. هذا الكلام الأخير، كما رأينا، لم يكن صحيحاً.

إن عميد كُتّاب المقالات الصحفية الأمريكية، (والتر ليبمان Walter Lippman) الذي سبق له أن قابل ديغول في باريس قبيل حركة التمرد، كتب يقول:

«إن سبب عدم إدانة الحكومة الفرنسية وكالة المخابرات المركزية لتشجيعها الجنرالات المتمردين في الجزائر، هو أنها كانت تشعر بالغضب من جراء تدخل وكالة المخابرات المركزية في السياسة الداخلية الفرنسية. إن التظلم الفرنسي، سواء أكان مبرراً أم لا، له علاقة بتشريع فرنسي صدر مؤخراً بشأن الأسلحة النووية الفرنسية، والمحاولة المزعومة من جانب عملاء الوكالة للتدخل في هذا التشريع» [١١].

كررت مجلة «نيوزويك» الادعاء بأن «مسؤولين فرنسيين» هم الذين كانوا المصدر الرئيسي للشائعات في المقام الأول، وعندما تحدتهم الإدارة الأمريكية أنكر الفرنسيون أنهم مطلقو هذه الشائعات ونحَوا باتجاه تلطيف التهم، وقد أعلن بعض المسؤولين الفرنسيين لاحقاً أن هذه المسألة يجب إغلاقها مع أنهم كانوا لا يزالون ممتنعين عن الاستبعاد الصريح لهذه الادعاءات حول التورط الأميركي [١٢].

في مطلع شهر أيار (مايو) ١٩٦١ نشرت (الاكسبرس)، وهي المجلة الفرنسية الأسبوعية الليبرالية المقروءة على نطاق واسع، ما ربما كان أول رواية مفصلة لهذا الأمر الغامض. فقد نقل إليها مراسلها في الجزائر (كلود كريف Claude Krief) ما يلي:

«الحقائق معروفة الآن في كل من باريس وواشنطن، مع أنه لن يتم أبداً الاعتراف بها علناً، في الأحاديث الخاصة، لا يبقيها أعلى الشخصيات الفرنسية في نطاق السرية. وما يقولونه هو مايلي: «إن وكالة المخابرات المركزية لعبت دوراً مباشراً في الانقلاب الجزائري، وهي بالتأكيد كان لها تأثير كبير في القرار الذي اتخذه الجنرال السابق شال للبدء بالتمرد».

قبل ذلك بوقت غير طويل، كان شال يشغل منصب القائد العام لقوات الحلفاء في أوروبا الوسطى التابعة لمنظمة حلف شمال الأطلسي، ونتيجة لذلك كان على اتصال يومي بضباط عسكريين أمريكيين(١٤). وقد كتب كريف أن مسؤولين أميركيين معينين في حلف شمال الأطلسي وفي البنتاغون كانوا قد شجعوا شال، وبالتالي كانت لهذا الجنرال عدة لقاءات مع ضباط من وكالة المخابرات المركزية، وقد قال له هؤلاء: «إن التخلص من ديغول سيؤدي خدمة كبيرة للعالم الحر». ولاحظ كريف أن شال، بالرغم من طموحه الشديد، كان شديد الحذر وجدياً في تفكيره: «جميع الذين عرفوه معرفة جيدة لديهم قناعة عميقة بأنه لقي تشجيعاً من وكالة المخابرات المركزية للمضي في التمرد».

في مأدبة غداء في واشنطن في العام السابق كان (جاك سوستيل Jacques Soustelle)، الحاكم العام السابق للجزائر والذي كشف عن اختلافه مع سياسة ديغول الجزائرية، قد اجتمع مع مسؤولين من وكالة المخابرات المركزية، من ضمنهم (ريتشارد بيسيل Richard Bissell)، رئيس العمليات السرية. وقد أقنع سوستيل مسؤولي الوكالة حسب أقوال كريف، بأن الجزائر ستصبح، من خلال أخطاء ديغول «قاعدة سوفييتية». مأدبة الغداء تلك أصبحت مثار اهتمام الرأي العام في التكهنات

المتعلقة بدور محتمل لوكالة المخابرات المركزية. فقد ذكرت «نيويورك تايمز» وغيرها من الصحف أن المأدبة أقامتها وكالة المخابرات المركزية تكريماً لسوستيل[١٥] بيد أن مسؤولين أميركيين أصروا على أن شخصاً ما في السفارة الفرنسية رتّب موضوع المأدبة بناء على طلب سوستيل. وقال هؤلاء المسؤولون: إن هذا المسؤول الفرنسي كان حاضراً طوال الاجتماع وبالتالي لا يمكن أن تكون هناك مؤامرة حيكت في الظلام[١٦]. تُرى ما الذي يجعل السفارة الفرنسية تستضيف مأدبة غداء لخصم بارز ولدود للرئيس ديغول، وهذا الخصم هو رجل كان قد أُقصي قبل شهرين فقط من مجلس وزراء ديغول بسبب ميوله «المتطرفة»؟ هذا السؤال لم يجد له تفسيراً. كذلك يُطرح السؤال: ما الذي يجعل واشنطن الحريصة على البروتوكول تسمح بحضور وكالة المخابرات المركزية هذه المأدبة؟ على أية حال يبدو من الحماقة الإيحاء ضمناً بأن تلك المأدبة كانت الفرصة الوحيدة أمام سوستيل ووكالة المخابرات المركزية للتحدث معاً خلال إقامته في الولايات المتحدة التي استمرت أكثر من أسبوع.

إن اجتماعاً سرياً عُقد في مدريد نال هو أيضاً شهرة واسعة في نطاق هذا الجدل. يقول كريف إن الاجتماع عُقد في ١٢ نيسان (أبريل) ١٩٦١، ويصفه بأنه اجتماع ضم «عملاء أجانب من مختلف الجنسيات من ضمنهم أعضاء في وكالة المخابرات المركزية ومتآمرين في الجزائر، وهؤلاء كشفوا خططهم لممثلي وكالة المخابرات المركزية». يُقال إن الأميركيين احتجوا بغضب قائلين إن سياسة ديغول «تشل منظمة حلف شمال الأطلسي وتجعل الدفاع عن أوروبا مستحيلاً». وأكدوا للجنرالات أنهم إذا نجحوا مع أتباعهم فإن واشنطن ستعترف بالحكومة الجزائرية الجديدة في غضون ٤٨ ساعة.

قد يصح أن الحكومة الفرنسية كانت تملك دليلاً على تورط وكالة المخابرات المركزية، ولكن في العالم غير الطبيعي للدبلوماسية الدولية. لن يكون من شأن ذلك بالضرورة أن يؤدي إلى إعلان غير مبهم، لأن خطوة كهذه يمكن أن تنتج عنها مجابهة

مكشوفة بين فرنسا والولايات المتحدة وهذه المجابهة ورطة يتوقع من كلا الطرفين أن يبذلا أقصى الجهود لتجنبها. إضافة إلى ذلك، إن هذه الخطوة قد تضع الفرنسيين في موقف الاضطرار لعمل شيء ما. ولكن ما الذي يمكنهم أن يفعلوه؟ إن قطع العلاقات مع الولايات المتحدة لم يكن رأياً واقعياً، كما أن الفرنسيين لم يكونوا في أي وضع يمكنهم من الرد اقتصادياً أو عسكرياً، ولكن القادة الفرنسيين وصل بهم الغضب حد عدم السماح لهذه المسألة بأن يطويها الغموض. ولذلك، وإكمالاً للسيناريو المفترض، طرقوا الباب الخلفي بكل ما عليه من مآخذ.

على نحو مماثل كانت الولايات المتحدة تعلم أن الروس، خلال عام واحد على الأقل، كانوا يتنصتون على الاتصالات الهاتفية للحكومة الأميركية ومسؤولي الكونغرس، ولكنهم لم يقولوا شيئاً في العلن لعدم القدرة على وضع حد لهذه الممارسة لأسباب فنية[١٧]. ثم إن هذا أمر يخص «عدواً» وليس حليفاً.

خلال المدة بين عام ١٩٥٨ ومنتصف الستينيات من القرن العشرين، حدث نحو ٣٠ محاولة خطيرة لاغتيال شارل ديغول، إضافة إلى أي عدد من المحاولات التي بقيت في مرحلة التخطيط ولم تتعداها كثيراً[١٨]. يقال: إن هذا عدد قياسي على نطاق عالمي بالنسبة لرئيس دولة. في إحدى المحاولات على الأقل، ربما كانت وكالة المخابرات المركزية مشاركة في التآمر على حياة الرئيس الفرنسي. مع حلول منتصف الستينيات من القرن العشرين، بلغت الخلافات بين ديغول وواشنطن بشأن منظمة حلف شمال الأطلسي نقطة الانفجار تقريباً. ففي شهر شباط (فبراير) من عام ١٩٦٠، أمهل ديغول حلف شمال الأطلسي والولايات المتحدة مهلة محددة لوضع قواعدهما العسكرية في فرنسا تحت الإشراف الفرنسي أو تفكيكها.

في عام ١٩٧٥، نشرت جريدة «شيكاغو تريبيون» على صدر صفحتها الأولى مقالاً، مما جاء فيه:

«لقد جرى إبلاغ زعماء الكونغرس عن تورط وكالة المخابرات المركزية في مؤامرة حاكها منشقون فرنسيون لاغتيال الرئيس الفرنسي الراحل شارل ديغول. لقد

كشف ممثل لوكالة المخابرات المركزية في غضون الأسبوعين الأخيرين، تفاصيل أولية عن الخطة.. ففي وقت ما في منتصف الستينيات من القرن العشرين – ربما في عام ١٩٦٥ أو ١٩٦٦ – قيل: إن منشقين في حكومة ديغول أجروا اتصالاً مع وكالة المخابرات المركزية طالبين المساعدة في مؤامرة لقتل الرئيس الفرنسي. ليس واضحاً أية جهة هي التي حرضت على إجراء الاتصال.. ووفقاً لأقوال مسؤول الإعلام في وكالة المخابرات المركزية، جرت مباحثات حول أفضل السبل للتخلص من ديغول، الذي كان آنذاك قد أصبح شوكة في جنب إدارة الرئيس جونسون بسبب طرده القواعد العسكرية الأمريكية من الأرض الفرنسية ومطالبته بانسحاب قوات الولايات المتحدة من حرب الهند الصينية. وهكذا يقال: إن الخطة التالية نتجت عن المحادثات بين أشخاص من وكالة المخابرات المركزية ومنشقين فرنسيين. غير أنه لا يوجد دليل إلى أن المؤامرة تجاوزت مرحلة الحديث.

كانت الخطة تقضي بدس قاتل مأجور، مسلح بخاتم مسموم، في جمع من قدامى الجنود الفرنسيين عندما يقيم ديغول استقبالاً لهم. كان على القاتل أن يندس في وقت متأخر من النهار، أي عندما يفترض أن تكون يد ديغول منهكة وربما أصابها خدر من جراء مصافحة مئات من الأيدي. عندها كان على القاتل أن يشد على يد الجنرال تعبيراً عن صداقة قاتلة بينما لا ينتبه ديغول إلى وخزة دبوس صغير مسموم وهو يخترق جسده. عندئذ يمضي القاتل على مهل ويُفقد أثره بين الجموع بينما يبدأ السم جريانه في عروق ديغول وصولاً إلى القلب أو الدماغ، تبعاً لنوع السم المستخدم. لم يكشف أحد مدى سرعة حدوث الوفاة، هذا إذا كان هذا الأمر جرى بحثه في ذلك الحين.

في العرض الذي قدم إلى قادة الكونغرس، لم يكن هناك أي تلميح إلى ما كان يمكن أن يكون دور وكالة المخابرات المركزية لو أن المؤامرة أعطت ثمارها [١٩].

المنشقون الذين كان لهم ضلع في المؤامرة المزعومة كانوا ضباطاً مستائين في الجيش الفرنسي ومستوطنين سابقين في الجزائر كانوا لا يزالون يحملون ضغينة

نحو ديغول لأنه «باع شرف فرنسا» بانسحابه من المستعمرة الواقعة في شمال أفريقيا.

لم يرد في شهادة وكالة المخابرات المركزية أمام الكونغرس أي ذكر لأي تورط من جانب (لندون جونسون Lyndon Johnson) مع أنه كان معروفاً تمام المعرفة أنه لم يكن هناك حب مفقود بين جونسون وديغول. لقد كان الزعيم الفرنسي على يقين راسخ أن الولايات المتحدة كانت وراء فشل رحلته إلى أمريكا الجنوبية في عام ١٩٦٤. كان اعتقاده أن وكالة المخابرات المركزية استخدمت شبكة عملائها في أمريكا الجنوبية للحيلولة دون خروج جموع غفيرة لاستقباله[٢٠] ثمة ما يدل إلى أن الجنرال لم يكن يتصرف بتأثير نزعة الارتياب. في عام ١٩٧٠ أدلى الدكتور (ألفرد ستيبان Alfred Steppan) أستاذ العلوم السياسية في جامعة (ييل Yale) بشهادة أمام الكونغرس حول خبرته في أمريكا الجنوبية في عام ١٩٦٤ عندما كان صحفياً يمثل مجلة الاكونومبست.

«عندما كان ديغول يهم بالقيام برحلته إلى أمريكا اللاتينية، قال كثيرون من سكان أمريكا اللاتينية الذين أجرى مقابلات معهم (موظفون في شعارات مختلفة): إنهم يتعرضون لضغط حقيقي وشديد من قبل جماعات أمريكية مختلفة، بألا يكونوا مبالغين في الود تجاه ديغول، لأننا نعتبر أمريكا اللاتينية ضمن منطقة نفوذ الولايات المتحدة» [٢١].

بعد نشر مقالة جريدة (شيكاغو تريبيون)، أكد (وليام كولبي William Colby) مدير وكالة المخابرات المركزية أن «أجانب» اتصلوا بالوكالة عارضين مؤامرة لقتل ديغول. الوكالة رفضت الفكرة، حسب قول كولبي، ولكنه لا يعرف هل جرى إبلاغ الحكومة الفرنسية بالمؤامرة؟ [٢٢]. وليس واضحاً هل كان الحادث الذي أشار إليه كولبي له علاقة بما روته جريدة «شيكاغو تريبيون»؟.

في وقت مبكر من مساء يوم الاثنين ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠، مات شارل ديغول بسلام عن عمر ٨٠ عاماً، بينما كان يجلس على أريكة ويشاهد مسلسلاً تلفزيونياً عاطفياً عنوانه «نانو Nanou».

أندونيسيا ١٩٦٥:

تصفية الرئيس سوكارنو.. و٥٠٠,٠٠٠ آخرين

زحفت عصابات إسلامية ليلاً، مسلحة بمدى ذات نصل عريض تسمى (بارانجي Parange) فدخلت بيوت الشيوعيين وقتلت عائلات بكاملها.. يخبرنا مسافرون عن أنهار صغيرة وسواقي امتلأت فعلاً بأجساد الأموات. واضطرب النقل النهري اضطراباً خطيراً في بعض الأماكن. مجلة «تايم»، كانون الأول (ديسمبر)١٩٦٥[١].

زهاء مئة شيوعي، أو شخص مشتبه بأنه شيوعي، سيقوا من الحديقة النباتية في المدينة وأبيدوا عن بكرة أبيهم بمدفع رشاش.. إن رأس من كان مدير المدرسة، وهو عضو في الحزب الشيوعي، قد علق على عامود وتجولوا به بين تلاميذه السابقين الذين تمت دعوتهم إلى اجتماع خاص. «نيويورك تايمز»، أيار (مايو) ١٩٦٥ [٢].

إن تقديرات مجموع عدد الأندونيسيين الذين قتلوا خلال سنوات عديدة إثر انقلاب فاشل تتراوح بين ٥٠٠,٠٠٠ ومليون [٣].

في الساعات الأولى من صباح الأول من تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٦٥ خطفت قوة صغيرة من صغار الضباط العسكريين ستة جنرالات وقتلتهم واستولت على العديد من النقاط الرئيسية في العاصمة جاكرتا.

بعد ذلك ذهبوا إلى الإذاعة ليعلنوا أن عملهم الذي قاموا به كان لإحباط تمرد من قبل «مجلس الجنرالات» حددوا له يوم عيد الجيش، في الخامس من تشرين الأول. وقالوا: إن هذا التمرد كان برعاية وكالة المخابرات المركزية وكان هدفه الاستيلاء على السلطة من الرئيس سوكارنو.

بيد أن الضباط المتمردين في جاكرتا سُحقوا في نهاية اليوم من قبل الجيش بقيادة الجنرال (سوهارتو Suharto)، مع أن بعض فئات الجيش المساندة للتمرد في مدن أخرى ظلت صامدة يوماً أو يومين آخرين(٤).

كان سوهارتو قد خدم مع المستعمرين الهولنديين والغزاة اليابانيين وادعى هو وزملاؤه أن الحزب الشيوعي الكبير وصاحب النفوذ كان وراء «محاولة الانقلاب» التي قام بها صغار الضباط، وأن وراء هذا الحزب كانت الصين الشيوعية. لقد تحركت قوات الجيش الظافرة لأخذ زمام الحكم في أيديها والحد من سلطة سوكارنو «لم يمض وقت طويل حتى انتقصوا من مكانته بحيث لم يعد أكثر من رئيس شكلي»(٥) ونفذت قوات الجيش حمّام دم للقضاء نهائياً على الحزب الشيوعي الذي كان سوكارنو قد سمح له بالمشاركة في السلطة الوطنية خلال سنين عديدة. أخيراً كان هذا هو الوضع الذي يمكن أن يضفي الشرعية على هذه الأعمال المرغوب فيها منذ وقت طويل.

إن المنظمات والأفراد المعادين للشيوعية، وخاصة المسلمين منهم، جرى تشجيعهم على المشاركة في ذبح كل من يشتبه بأنه متعاطف مع الحزب الشيوعي. كذلك فإن الأندونيسيين المتحدرين من أصل صيني سقطوا ضحايا المتحمسين الذين أصابتهم لوثة جنون. وقد استثير الشعب الأندونيسي جزئياً من جراء عرض صور في التلفزيون والصحافة لجثث الجنرالات الذين ذبحوا وقت تعفنت هذه الجثث. وقيل للرأي العام أن هؤلاء الرجال جرى خصيهم أو اقتلعت عيونهم من قبل نساء شيوعيات. (أخطأ لاحقاً الجيش بسماحه بإجراء فحص طبي رسمي بعد الوفاة لضم نتيجته إلى الأدلة التي عرضت في بعض المحاكمات، ولم تشر التقارير المفصلة تفصيلاً كبيراً عن الإصابات إلا إلى جروح وبعض الرضوض ولم تذكر أي شيء عن قلع العيون أو الخصي)(٦).

ما تبع ذلك وصفته جريدة «نيويورك تايمز» بأنه «واحد من أكثر المجازر وحشية في التاريخ السياسي الحديث»(٧). وقالت مجلة (لايف Life) «إن العنف اصطبغ ليس فقط بالتعصب وإنما أيضاً بالتعطش للدماء وبشيء يشبه السحر»(٨).

بعد خمسة وعشرين عاماً، كشف دبلوماسيون أميركيون عن أنهم كانوا قد وضعوا بالنظام قوائم شاملة بأسماء نشطاء «شيوعيين، بدءاً من المراتب العليا نزولاً إلى الأعضاء القرويين، وسلموا ما يعادل ٥٠٠٠ اسم إلى الجيش الأندونيسي الذي كان يطارد هؤلاء الأشخاص ويقتلهم». «بعدئذ كان الأمريكيون يدققون في أسماء الذين قُتلوا أو أُسروا».

قال (روبرت مارتنز Robert Martens) الموظف السابق في القسم السياسي في السفارة الأمريكية في جاكرتا، في عام ١٩٩٠: «لقد كانت في الواقع مساعدة كبيرة للجيش. لعل الجيش قتل أشخاصاً كثيرين، وربما كانت يداي ملوثتين بكثير من الدماء، ولكن هذا كله ليس بالأمر السيء، يأتي وقت يضطر فيه المرء إلى الضرب بقسوة في لحظة حاسمة».

قال (مارشال غرين Marshall Green) الذي كان سفير الولايات المتحدة لدى أندونيسيا في زمن الانقلاب: «أعلم أنه كان هناك مزيد من المعلومات عن الحزب الشيوعي أكثر مما لدى الأندونيسيين أنفسهم. وقد قال لي مارتنز في عدد من المناسبات: «إن الحكومة لم تكن تملك معلومات جيدة جداً عن التشكيلة الشيوعية، وأعطاني الانطباع بأن هذه المعلومات كانت متفوقة على كل ما لديهم».

لقد قال (هاورد فيدرسبيل Howard Federspiel) الذي كان في عام ١٩٦٥ خبيراً في الشؤون الأندونيسية في مكتب المخابرات والأبحاث التابع لوزارة الخارجية الأمريكية: «لم يكن أحد يهتم بتعرضهم للذبح ماداموا شيوعيين. ولا أحد كان يشغل نفسه كثيراً بهذا الأمر».

ومع أن (جوزيف لازارسكي Goseph Lazarsky) الذي كان نائب رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية في أندونيسيا، والدبلوماسي السابق ادوارد ماسترز Ed-ward Masters)، الذي كان رئيس (مارتنز)، قد أكدا أن ضباط وكالة المخابرات المركزية أسهموا في إعداد قوائم الموت، فإن الوكالة في (لانغلي Langley) نفت نفياً قاطعاً أية مشاركة من جانبها[٩].

أنجزت المجزرة نهاية مرضية للمنظمة الوطنية للحزب الشيوعي التي كانت حسنة التنظيم، ولكنها لم تضع الأسئلة الأساسية التي في أساس أحداث عام ١٩٦٥ قيد الاطلاع:

«هل كان هناك فعلاً مجلس جنرالات يرمي إلى الاستيلاء على الحكومة في غضون أيام؟ إن رواية شبه رسمية عن المسألة كلها نُشرت في أندونيسيا في ١٩٦٨ أنكرت وجود هذا المجلس(١٠). غير أن دراسة أعدتها وكالة المخابرات المركزية ونشرتها في العام ذاته أكدت أنه كان هناك فعلاً مجلس جنرالات ولكن هدفه كان فقط ابتكار طريقة لحماية نفسه من خطة منسوبة إلى سوكارنو لسحق الجيش(١١)».

ترى ماذا كانت طبيعة ضلوع الحزب الشيوعي وهدفه، هذا إذا كان بالفعل ضالعاً، في محاولة الانقلاب المزعومة؟ هل كان بعض أعضاء الحزب يعرفون مسبقاً خطط صغار الضباط واكتفوا بتقديم الدعم المعنوي، أم أنهم قاموا بدور أكثر فاعلية؟ الرواية شبه الرسمية ذكرت أن هدف الحزب الشيوعي لم يكن الاستيلاء على السلطة السياسية لنفسه بل «منع الجيش من تصفية الحزب بعد وفاة سوكارنو»(١٢). (كان سوكارنو يعاني من مرض في الكلية في شهر آب (أغسطس) ولكنه تعافى بسرعة، ودوره في العملية لا يزال لغزاً إلى حد كبير). إن دراسة وكالة المخابرات المركزية توصلت إلى استنتاج مماثل: «يبدو الآن واضحاً أن الانقلاب الأندونيسي لم يكن حركة للإطاحة بسوكارنو و/أو الحكومة الأندونيسية القائمة. من الناحية الأساسية كانت حركة لتطهير قيادة الجيش»(١٣).

ماذا كان دور وكالة المخابرات المركزية، هذا إذا كان لها دور؟ هل كانت محاولة الانقلاب بتحريض من عميل مثير للمشاعر نشر قصة مجلس الجنرالات وتمرده الوشيك؟ (إن قتل، وحتى خطف الجنرالات الستة ربما لم يكن بالإمكان التنبؤ به سلفاً - فثلاثة منهم ذبحوا فعلاً في أثناء مقاومتهم الخطف)(١٤). هل كانت الغاية

من مشاركة الحزب الشيوعي توفير عذر لتدمير الحزب؟ في الواقع هناك مؤشرات إلى وجود عميل محرض في الدراما التي كُشِفَت، هذا العميل هو شخص يدعى (قمر الزمان بن أحمد مبايضةKamarusamen bin Ahmad Mubaidah) المعروف باسم (سجام Sjam). ووفقاً لشهادة لاحقة أدلى بها بعض الضباط المعتقلين، كان سجام هو الذي دفع فكرة مجلس الجنرالات المعادي وشدد على ضرورة الرد على هذه الفكرة. وخلال المحاكمات وفي الدراسة التي أعدتها وكالة المخابرات المركزية، كانت الغاية من المحاولة هي إثبات أن (سجام) بعمله هذا كان يتصرف نيابة عن (ايديت Aidit) زعيم الحزب الشيوعي. إن تقديم هذا الواقع قد يفسر سبب اتخاذ وكالة المخابرات المركزية خطوتها الفريدة بنشر مثل هذا الكتاب، أي إلصاق مسؤولية محاولة الانقلاب بالحزب الشيوعي من أجل «تبرير» الرعب الذي أعقب المحاولة.

ولكن (سجام) يمكن أن يكون قد عمل لمصلحة وكالة المخابرات المركزية و/أو الجنرالات بنفس الطريقة. ويبدو أنه كان مساعداً موثوقاً ل-(إيديت) ومن الممكن أن يكون هو الذي حرض زعيم الحزب الشيوعي على المشاركة في المؤامرة بدلاً من حدوث العكس. لقد كانت خلفية سجام متلونة وغامضة، وشهادته في إحدى المحاكمات، التي بدا فيها متهماً، كان هدفها أن يثبت أن (إيديت) هو المدبر الوحيد لمحاولة الانقلاب[١٥].

إن وكالة المخابرات المركزية بضلوعها الوثيق في الشؤون السياسية الأندونيسية منذ منتصف الخمسينيات من القرن العشرين على أقل تقدير (راجع فصل أندونيسيا ١٩٥٧ - ١٩٥٨)، كانت بلاشك قد اخترقت الحزب الشيوعي على مستويات مختلفة، بل ان العسكريين اخترقوه أكثر من الوكالة، وبالتالي لقد كان في وضع جيد لنشر المعلومات الخاطئة وغرس الأفكار المتعلقة بأعمال معينة سواء عن طريق سجام أو غيره.

إن رغبة الحكومة الأمريكية في التخلص من سوكارنو - الزعيم في حركة عدم الانحياز وفي حركات العالم الثالث المعادية للإمبريالية، وحامي الحزب الشيوعي -

لم تتقص عندما فشلت الانتفاضة العسكرية التي دعمتها وكالة المخابرات المركزية في عام ١٩٥٨. بين مختلف الأنباء التي نشرت في أوائل الستينيات من القرن العشرين والدالة على اهتمام مستمر بهذا الهدف، هنالك مذكرة صادرة عن وكالة المخابرات المركزية في شهر حزيران (يونيو) ١٩٦٢ وهي ذات دلالة مدهشة. إن كاتب هذه المذكرة، وقد حذف اسمه، كان يتحدث عن الانطباعات التي تكونت لديه من خلال أحاديث مع «دبلوماسيين غربيين» بشأن اجتماع عقد مؤخراً بين الرئيس كينيدي ورئيس الوزراء البريطاني ماكميلان. تقول المذكرة: إن هذين الزعيمين اتفقا على محاولة عزل سوكارنو في آسيا وافريقيا. علاوة على ذلك، «اتفقا على تصفية الرئيس سوكارنو تبعاً للوضع والفرص المتاحة. (من غير الواضح (المتحدث هو ضابط في وكالة المخابرات المركزية) ما إذا كان القصد من كلمة تصفية القتل أو الإطاحة بالرئيس سوكارنو)»(١٦).

مهما كان المقصود بكلمة التصفية، فقد كان سوكارنو آنذاك، من حيث كل الأغراض العملية، قد تمت تصفيته كشوكة دولية في الجسم. والأمر الأكثر أهمية هو أن الحزب الشيوعي، الذي كان أكبر حزب شيوعي في العالم خارج الكتلة السوفييتية والصين، سبق أن تقزم ولجأ من تبقى من أعضائه إلى العمل السري. لم تكن الأمور لتسير بشكل أفضل بالنسبة للولايات المتحدة والطغمة العسكرية الجديدة لو كان جرى تخطيط لهذا الوضع.

لو كان الجنرالات هم الذين خططوا حسب الزعم للانقلاب الذي قاموا به، فإن هنالك دليلاً دافعاً يثبت أن الولايات المتحدة كانت ضالعة في التخطيط بشكل وثيق قبل ذلك، أي خلال وبعد أحداث ٣٠ أيلول (سبتمبر)/ ١ تشرين الأول (أكتوبر). إحدى نواحي هذا الدليل هي العلاقة الوثيقة من المؤسستين العسكريتين الأمريكية والأندونيسية التي كانت الولايات المتحدة قد نمّتها خلال سنين عديدة. لقد كان الرئيس كينيدي، كما يقول مساعده السابق (آرثر شليزينغر Arthur Schlesinger) «حريصاً على تعزيز القوى المعادية للشيوعية، وخاصة الجيش، لكي يتأكد من أن

الحزب الشيوعي الأندونيسي القوي لن يرث البلاد إذا حدث شيء للرئيس سوكارنو»[١٧].

لقد لاحظ روجر هيلسمان Roger Hilsman، الذي امتد عمله المهني بين وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية الأمريكية، أنه مع حلول عام ١٩٦٣..

«كان نحو ثلث ضباط الأركان العامة الأندونيسية يتلقون شكلاً ما من أشكال التدريب من الأمريكيين، وأن نصف الضباط الآخرين كانوا يتلقون هذا التدريب. ونتيجة لكل من مشروع العمل المدني والبرنامج العسكري حصل تعارف جيد إلى حد ما بين العسكريين الأمريكيين والأندونيسيين، وقامت بين الطرفين روابط احترام شخصي بل ومحبة[١٨].

إن هذه الملاحظة تعززها تقارير صادرة عن لجنة مجلس النواب للشؤون الخارجية:

«في زمن محاولة الانقلاب الشيوعي والانقلاب المضاد العسكري (هكذا جاء في التقارير) بتاريخ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٦٥ كان أكثر من ١٢٠٠ ضابط اندونيسي من ضمنهم شخصيات عسكرية رفيعة المستوى، قد تدربوا في الولايات المتحدة. ونتيجة لذلك نشأت صداقات واتصالات عديدة بين المؤسستين العسكريتين الأندونيسية والأمريكية، ولاسيما بين أعضاء الجيشين. وفي فترة ما بعد الانقلاب، أي عندما كان الوضع السياسي لا يزال غير مستقر، تمكنت الولايات المتحدة بواسطة استخدام قنوات الاتصال هذه، من تقديم دعم معنوي ومادي رمزي إلى القوات المعادية للشيوعية[١٩].

عندما كان المتدرب في برنامج المساعدة العسكرية يعود إلى وطنه يكون قد حقق تعارفاً مع بعض الأمريكيين وتكوّن لديه تقدير معقول للولايات المتحدة. إن تأثير ذلك قد يكون وفّر فرصة قيّمة للتواصل في المستقبل على غرار ما حدث خلال محاولة الانقلاب المدعومة من الشيوعيين في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٥، وبعدها مباشرة[٢٠].

كتبت جريدة «نيويورك تايمز»: أنه قيل: إن وكالة المخابرات المركزية نجحت في اختراق قمة الحكومة والجيش في أندونيسيا إلى حد ان الولايات المتحدة عزفت عن إيقاف العمليات السرية للوكالة بواسطة سحب برامج المساعدة والمعلومات في العامين ١٩٦٤ و١٩٦٥ إن ما عُرض رسمياً في واشنطن على أنه تسامح مع إهانات سوكارنو واستفزازاته كان إلى حد كبير رغبة في إبقاء جبهات وكالة المخابرات المركزية في العمل أطول مدة ممكنة[٢١].

أخيراً، لدينا شهادة وزير الدفاع (روبرت ماكنمارا Robert Macnamara) أمام إحدى لجان مجلس الشيوخ في عام ١٩٦٦:

«السناتور سباركان: في وقت ما، عندما كانت أندونيسيا في حالة - عندما كنا نتعرض للكثير من النقد بسبب استمرار تقديم المساعدة العسكرية - في ذلك الحين لم نكن نستطيع أن نقول ماذا كانت الغاية من هذه المساعدة العسكرية. هل ما يزال الأمر سراً؟.

ماكنماراً: بالعودة إلى الوراء، أرى أن تلك المساعدة كان لها ما يسوّغها.

سباركمان: هل ترى أنه كان لها مردود؟.

ماكنمارا: نعم يا سيدي»[٢٢].

هناك أقوال أخرى قد تكون ذات علاقة بمسألة التورط الأميركي. إن السفير الأميركي السابق (مارشال غرين Marshall Green) تحدث في استراليا عام ١٩٧٣ عندما كان سفيراً هناك فقال حسبما نُسب إليه: «أتذكر أن أندونيسيا كانت في عام ١٩٦٥ على حد السكين. وأتذكر أناساً من هنا كانوا يحاجون بأن أندونيسيا لن تكون بلداً شيوعياً. ولكن عندما أعلن سوكارنو في خطاب ألقاه في ١٧ آب (اغسطس) أن أندونيسيا ستكون لديها حكومة شيوعية في غضون عام واحد (؟) عندذاك كنت شبه متأكد.. أن ما فعلناه كان يجب أن نفعله، ومن الأفضل أن تشعروا بالسرور بأننا فعلنا ما فعلناه إذ أننا لو لم نفعل لكانت آسيا الآن مكاناً مختلفاً»[٢٣].

كتب (جيمس رستون James Reston) في جريدة «نيويورك تايمز» عام ١٩٦٦ مايلي: «إن واشنطن حريصة على عدم ادعاء الفضل في هذا التغيير (المقصود التغيير من سوكارنو إلى سوهارتو).. ولكن ذلك لا يعني أن واشنطن لا شأن لها بهذا الأمر. لقد كانت هناك اتصالات كثيرة جداً بين القوى المعادية للشيوعية في ذلك البلد مع ما لا يقل عن مسؤول واحد رفيع المستوى في واشنطن قبل وخلال المجزرة الأندونيسية، لقد كانت هناك اتصالات أكثر بصورة عامة مما يعتقد. إن قوات الجنرال سوهارتو التي كانت في أحيان تفتقر افتقاراً شديداً إلى الغذاء والذخائر، كانت تحصل على المساعدة من هنا عبر بلدان ثالثة مختلفة، ومن المشكوك فيه هل كانت محاولة سوهارتو ستحدث بدون أن تظهر أمريكا قوتها في فيتنام، ولم يكن بإمكان المحاولة أن تستمر بدون المساعدة السرية التي كانت تتلقاها بصورة غير مباشرة من هنا»[٢٤].

إن (نيفيل ماكسويل Neville Maxwell)، مسؤول الأبحاث الرئيسي في معهد دراسات الكومونولث، جامعة أوكسفورد، كتب ما يلي:

«قبل بضع سنين كنت أقوم بأبحاث في باكستان حول الخلفية الدبلوماسية للنزاع بين الهند وباكستان في عام ١٩٦٥، وقد عثرت في صحف وزارة الخارجية التي سمح لي بالاطلاع عليها، على رسالة موجهة إلى وزير الخارجية آنذاك، السيد بوتو، وهي مرسلة من أحد سفرائه في أوروبا (أعتقد أنها من السيد ج. أ .رحيم، في باريس) يطلعه فيها على محادثة جرت بينه وبين مسؤول المخابرات الهولندي الملحق بمنظمة حلف شمال الأطلسي. بحسب ما لاحظته في تلك الرسالة أن مسؤول المخابرات المذكور قال للدبلوماسي الباكستاني: «إن أندونيسيا جاهزة للسقوط في حضن الغرب كالتفاحة المتعفنة». وقال: «إن أجهزة المخابرات الغربية ستنظم انقلاباً شيوعياً سابقاً لأوانه «وهذا سيكون» محكوماً عليه مسبقاً بالفشل، بشرط توفر فرصة شرعية ومرحب بها أمام الجيش لسحق الشيوعيين ولجعل سوكارنو أسير إرادة الجيش الحسنة». كان تقرير السفير مؤرخاً في شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٤[٢٥].

يجب أن نتذكر أن أندونيسيا كانت مستعمرة هولندية وأن الهولنديين كانت لا تزال لهم صلات خاصة مع هذا البلد.

إن سجل «النظام الجديد» الذي فرضه الجنرال سوهارتو على شعب أندونيسيا لنحو ثلاثة عقود من السنين كان ملفتاً للنظر. فالحكومة تدير الدولة على مستوى عصابات شيكاغو في الثلاثينات من القرن العشرين وتقود عمليات ابتزاز للحماية. والسجناء السياسيون يملؤون السجون. والتعذيب أمر روتيني[٢٦]، وفرق الموت تتجول على هواها وتقتل ليس فقط «المخربين» ولكن «المشتبه بأنهم مجرمون»، بأعداد تبلغ الآلاف[٢٧]... «إن أحد ضباط الجيش (في مقاطعة آتشي Aceh) يطلق طلقة واحدة في الهواء، عندئذ يكون على جميع الذكور من الشباب أن يركضوا إلى ساحة مركزية قبل أن يطلق الجندي طلقة أخرى. عندئذ، كل من يصل متأخراً - أو لم يغادر منزله - يقتل رمياً بالرصاص عند رؤيته».

و ٢٠٠,٠٠٠ آخرون

في عام ١٩٧٥ غزت أندونيسيا المستعمرة البرتغالية سابقاً تيمور الشرقية East Timor، التي تقع عند الحد الشرقي للأرخبيل الأندونيسي، والتي كانت قد أعلنت استقلالها بعد أن تخلت البرتغال عن الإشراف عليها. كان هذا الغزو بداية مجزرة كتب لها أن تستمر حتى التسعينيات من القرن العشرين. وقد قدرت منظمة العفو الدولية في عام ١٩٨٩ أن الجنود الأندونيسيين قتلوا ٢٠٠,٠٠٠[٢٨] إنسان من مجموع سكان يتراوح عددهم بين ٦٠٠,٠٠٠ و٧٠٠,٠٠٠، بهدف ضم تيمور الشرقية بالقوة[٢٩]. إن مستوى الفظائع التي ارتكبت كان موازياً للفظائع التي ارتكبت ضد الحزب الشيوعي في أندونيسيا ذاتها.

إن الغزو الذي حدث في السابع من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٥ - والذي قالت عنه جريدة «نيويورك تايمز» إنه: «بأي تعريف، عدوان صارخ ارتكبته أندونيسيا»[٣٠] - بدأ في اليوم الذي تلى مغادرة الرئيس الأمريكي (جيرالد فورد

Gerald Ford) ووزير الخارجية هنري كيسنجر أندونيسيا إثر اجتماع عقداه مع الرئيس سوهارتو. كتب الصحفي (جاك اندرسون Jack Anderson) لاحقاً عن ذلك:

«مع حلول الثالث من كانون الأول ١٩٧٥، جاء في تقرير استخباري إلى واشنطن ان كبار قادة الحكومة المدنية في أندونيسيا، قرروا أن الحل الوحيد للوضع في تيمور البرتغالية هو أن تشن أندونيسيا هجوماً مكشوفاً ضد (فريتلين Fretilin)، حركة المقاومة الرئيسية في تيمور الشرقية».

ولكن ثمة ضرورة جوهرية لتحييد الولايات المتحدة لأن الجيش الأندونيسي يعتمد اعتماداً شديداً على الأسلحة الأمريكية التي، بموجب القانون، يحظر استخدامها في عدوان.

الذي حدث هو أن الرئيس جيرالد فورد كان في طريقه إلى أندونيسيا للقيام بزيارة دولة. سبق ذلك تحذير ورد في تقرير استخباري من أن سوهارتو سيطرح موضوع تيمور «وسيحاول الحصول على موقف متعاطف».

نجاح سوهارتو أكده فورد نفسه. كانت الولايات المتحدة قد عانت من نكسة مدمرة في فيتنام، بحيث صارت أندونيسيا أهم حليف للأمريكيين في المنطقة. واستنتج فورد أن مصلحة الولايات المتحدة القومية «لابد أن تكون في الوقوف إلى جانب أندونيسيا».

أعطى فورد موافقته الضمنية بتاريخ ٦ كانون الأول ١٩٧٥ - بعد الغزو بخمسة أيام، صوتت الأمم المتحدة على قرار بإدانة الهجوم باعتباره عملاً كريهاً من أعمال العدوان الدولي. امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت. بعد ذلك ناور مندوب الولايات المتحدة من وراء الستار لمقاومة تحرك الأمم المتحدة الهادف إلى إرغام أندونيسيا على التخلي عن غزوها[٣١].

طوال السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين أيّد مسؤولو وزارة الخارجية الأمريكية في تصريحات للصحافة وفي الشهادة أمام الكونغرس مطالبة أندونيسيا

بتيمور الشرقية (على عكس الأمم المتحدة والأسرة الأوروبية)، وهوّنوا من شأن المذابح تهويناً ملحوظاً. في تلك الأثناء كان المستشارون العسكريون الأمريكيون، وهم دائمو الحضور، وكان التدريب والأسلحة وطائرات الهيليكوبتر الحربية، وجميع الأدوات التي لا يستغنى عنها في حرب عصرية وذات كفاءة ضد الانشقاق، مستمرة في التدفق على الجهاز العسكري الأندونيسي. قد لا يكون هذا كل شيء، لأن جبهة فريتلين تحدثت في عدد من المناسبات عن قيام مستشارين أمريكيين بإدارة القتال وحتى المشاركة فيه[٣٢].

لقد كان بإمكان الشاه تماماً أن يسلح هو الأكراد، والواقع أنه كان يفعل ذلك إلى حد ما، ولكن الأكراد لم يثقوا به. وضعوا ثقتهم في الولايات المتحدة ورغبوا في أن تكون هي مصدر تسليحهم. بعد ذلك بسنوات عديدة وضعت إحدى لجان الكونغرس المعروفة باسم لجنة (بايك Pike) والتي أجرت تحقيقاً في عدة عمليات من عمليات وكالة المخابرات المركزية، الأمور على النحو التالي: «إن الولايات المتحدة عملت في الواقع كضامن لعدم تخلي الشاه عنهم نهائياً»[٣].

لم يمر وقت طويل حتى كانت وكالة المخابرات المركزية تدخل إلى مستودعاتها بحيث أخذت سلسلة من الأسلحة الصغيرة والبنادق السوفييتية والصينية والملايين من قطع الذخائر طريقها إلى المتمردين الأكراد، وكان المصدر الشيوعي للأسلحة هو الوسيلة المعتادة لضمان «الإنكار الذي يصدَّق». في نهاية الأمر وصلت قيمة المساعدة العسكرية إلى نحو ١٦ مليون دولار.

الأكراد هم جماعة اثنية متميزة، إنهم مسلمون ولكنهم، خلافاً لمعظم العراقيين الآخرين ليسوا عرباً. والشعب الكردي موجود بصورة رئيسية في تركيا وإيران والعراق وسورية. وعلى مدى عقود من السنين انخرط أكراد العراق في حرب متقطعة ضد الحكومة سعياً وراء هدف «الحكم الذاتي»، والحكم الذاتي مفهوم ليس محدداً تحديداً دقيقاً من قبَلهم، وربما كان واضحاً فقط أنه كان دون إقامة دولة مستقلة.

إن التاريخ السياسي لأكراد العراق في ماضيهم القريب كان قطعة محيِّرة من صورة مختلطة الألوان. فقبل عشر سنين أقاموا تحالفاً وثيقاً مع الحزب الشيوعي العراقي، بحيث أنه عندما بدأ حزب البعث الحاكم يضطهد الشيوعيين أخذ هؤلاء يلجؤون إلى مناطق الأكراد.

كان الزعيم الكردي، مصطفى البرزاني، في السبعينيات من عمره، وقد أمضى ١٢ عاماً في الاتحاد السوفييتي، وكان يتكلم اللغة الروسية. أما حالياً، أي في العام ١٩٧٢ فقد أصبح الشيوعيون حلفاء للبعثيين في محاولة لقمع «العميل الإمبريالي البرزاني»، وأخذت الدعاية الكردية تبرز المساعدة العسكرية السوفييتية للحكومة

العراقية، بما في ذلك ادعاءات بأن الروس كانوا يرسلون قاذفات قنابل ضد الأكراد. وفي الوقت ذاته رسم الأكراد صورة لأنفسهم وكأنهم «ديموقراطيون اجتماعيون» من النوعية الأوروبية وبلغ بهم الأمر حد تقديم طلب للعضوية في منظمة الاشتراكية الدولية(٤). مع ذلك، قال البرزاني مراراً إنه «لا يثق بأية دولة عظمى» غير الولايات المتحدة، وأكد أنه إذا نجحت قضيته فإن الأكراد سيكونون «مستعدين لأن يصبحوا الولاية الواحدة والخمسين»(٥). كل هذا فوق الرغبة في إقامة مجتمع إسلامي.

في شهر تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٧٣ عندما وقع الهجوم المفاجئ على إسرائيل في (يوم كيبور Yom Kippur) – ملاحظة المترجم يوم الغفران بالعبرية – وانشغل العراق بصفته حليفاً لمصر وسورية كان الأكراد مستعدين لشن هجوم كبير، بناء على اقتراح من إسرائيل، كان من شأنه ربما أن يكون مفيداً جداً لقضيتهم الخاصة ولتخفيف بعض الضغط عن إسرائيل عن طريق إشغال الجيش العراقي، ولكن كيسنجر رفض السماح للأكراد بالتحرك، وكان قد طلب في ١٦ تشرين الأول (أوكتوبر) من وكالة المخابرات المركزية أن ترسل إليهم برقية نصها التالي: «نحن لا نكرر، أننا لا نعتبر أن من مصلحتكم الإقدام على الأعمال العسكرية الهجومية التي اقترحتها عليكم إسرائيل»، وقد أطاع الأكراد(٦).

اعتبر تقرير لجنة بايك هذا الحادث مثالاً لسياسة جلية هي سياسة «لا رابح» اتبعتها الولايات المتحدة وإيران. فقد ذكرت اللجنة:

إن وضع الأكراد المستمر في التدهور يعكس حقيقة أن ما من دولة من الدول التي كانت تمدهم بالمساعدة كانت راغبة رغبة جدية في أن يحققوا هدفهم في إقامة ولاية ذات حكم ذاتي. فقد عرضت مذكرة أعدتها وكالة المخابرات المركزية بتاريخ ٢٢ آذار (مارس) ١٩٧٤ موقفي إيران والولايات المتحدة بوضوح. جاء في المذكرة: إننا نود أن نرى أن إيران لا تنظر بتعاطف إلى إقامة حكومة رسمية ذات حكم ذاتي. فإيران، شأنها شأننا، وجدت فائدة في وضع متأزم.. يضعف فيه العراق ذاتياً نتيجة لرفض الأكراد التخلي عن حكمهم الذاتي، ولا تكون إيران ولا نحن راغبين في إيجاد حل للمسألة بطريقة أو أخرى» (٧).

جاء في التقرير: «لم نطلع عملاءنا على هذه السياسة، بل شجعناهم على مواصلة القتال. وحتى في سياق العمل السري، كان مشروعنا مشروعاً حقيقياً»[٨].

في اليوم التالي لمذكرة وكالة المخابرات المركزية المذكورة أعلاه، ٢٣ آذار (مارس) ١٩٧٤، وصل وزير الدفاع السوفييتي (آندريه غريشكو Andrei Grechko)، الذي صادق البرزاني خلال إقامته في الاتحاد السوفييتي، إلى العراق لمساعدة الحكومة في التوصل إلى تسوية مع الأكراد. ولكن البرزاني، بناء على نصيحة من إيران والولايات المتحدة، رفض القبول بأية شروط[٩] وفي وقت سابق من ذلك الشهر كانت الحكومة العراقية قد أصدرت قانوناً يعرض على الأكراد قدراً محدوداً من الحكم الذاتي، ولكنهم رفضوه أيضاً، ولا نعرف هل فعلوا ذلك بناء على طلب «حلفائهم» أم لا.

اكتشفت لجنة الكونغرس أن «وكالة المخابرات المركزية كانت عندها معلومات أوحت لها أن الشاه سيتخلى عن الأكراد في لحظة توصله إلى اتفاق مع العراق بشأن الخلافات على الحدود». لقد وصفت الوكالة وجهة نظر الشاه في الأكراد أنهم «ورقة للعب بها» في هذا الخلاف مع العراق. ووصفت مذكرة صادرة عن وكالة المخابرات المركزية الأكراد بأنهم «أداة مفيدة بشكل فريد لإضعاف قدرة العراق على المغامرات الدولية»[١٠].

لعل الوصف الأخير كان إشارة إلى توقيع العراق معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفييتي في نيسان (أبريل) ١٩٧٢، حصل بموجبها على مساعدة عسكرية ومنح الأسطول السوفييتي امتيازات معينة في مرافئه. بعد ذلك، أي في شهر حزيران (يونيو) أمم العراق الفاحش الثراء في النفط الكونسورتيوم الذي يملكه الغرب، أي شركة نفط العراق (٢٣.٧٥ منها للولايات المتحدة) كخطوة أشاد بها السوفييت بحرارة، وبعد هذه الخطوة انطلق البلدان نحو عقد اتفاقية تجارية واقتصادية[١١].

الذي حدث، هو أن النفط هو الذي جمع بين إيران والعراق. أراد الشاه في عام ١٩٧٣ أن يعزز وضع إيران في علاقتها مع منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك)، وكان جزء حاسم من خطة استمالة العراق والبلدان العربية الأخرى المجاورة هو استعداد إيران للغدر بالأكراد المزعجين[١٢]. ولم يكن أي من هذه البلدان يريد أن تستخلص الأقليات لديها أية أفكار من نجاح يحرزه الأكراد.

لم يكن الشاه مستعداً لاتخاذ خطوته حتى شهر آذار (مارس) ١٩٧٥. كان تحرك الأحداث سريعاً. اجتمع الشاه مع نائب رئيس جمهورية العراق، وبموجب اتفاق بينهما، قطع الشاه كل المؤن عن الأكراد، ومن ضمنها الجزء الأمريكي. في اليوم التالي شن العراقيون هجومهم الأكبر. بعد ذلك بأيام أرسل الأكراد المذهولون رسالة استغاثة إلى وكالة المخابرات المركزية قالوا فيها: «هنالك ارتباك وقنوط في أوساط شعبنا وقواتنا. مصير شعبنا في خطر غير مسبوق. الدمار التام يحوم فوق رؤوسنا. ليس لدينا تفسير لكل ذلك. نناشدكم ونناشد حكومة الولايات المتحدة التدخل وفقاً لوعودكم..»[١٣].

في اليوم ذاته وجه الأكراد نداء إلى كيسنجر أيضاً:

«معالي الوزير، بما أننا آمنا دائماً بالحل السلمي للخلافات بما فيها الخلافات بين إيران والعراق، يسرنا أن نرى البلدين وقد توصلا إلى اتفاقية ما.. بيد أن قلوبنا تنزف دماً إذ نرى أن إحدى النتائج الفرعية الفورية لاتفاقهما هي تدمير شعبنا الأعزل.. إن حركتنا وشعبنا يجري تدميرهما بطريقة لا يصدقها العقل وبالتزام الجميع الصمت. نشعر مع معاليكم أن على الولايات المتحدة مسؤولية معنوية وسياسية تجاه شعبنا الذي التزم بسياسة بلدكم»[١٤].

لم يتلق الأكراد الذين بلا معين جواباً على ندائهم، لا من وكالة المخابرات المركزية ولا من كيسنجر. مع نهاية الشهر كانت قواتهم قد تقزمت. وقد أُعدم عدة مئات من الزعماء الأكراد.

ختاماً، لاحظ تقرير بايك:

«تمكن أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ لاجئ من الهرب إلى إيران. ولكن بعد وصولهم إلى إيران لم تقدم الولايات المتحدة ولا إيران مساعدة إنسانية كافية. في الواقع، ما لبثت إيران لاحقاً أن أعادت ٤٠,٠٠٠ من اللاجئين ورفضت حكومة الولايات المتحدة أن تسمح حتى للاجئ واحد من المجيء إلى الولايات المتحدة بطريقة اللجوء السياسي مع أنهم كانوا مؤهلين لذلك.

عندما قابل أعضاء لجنة بايك هنري كيسنجر وسألوه عن دور الولايات المتحدة في هذه الميلودراما، أجابهم بعبارته الشهيرة: «يجب عدم الخلط بين العمل السري والعمل التبشيري».

المغرب ١٩٨٣

قذارة فيديو

كانت أمام حكومة المغرب، في كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣ مهمة محزنة، هي إعلان «الوفاة الأليمة» في حادث سيارة، للجنرال أحمد دليمي، أحد ثقات الملك الحسن لمدة أكثر من ٢٠ عاماً، وقائد القوات الجنوبية للجيش المغربي.

وعندما حدا التهور بمراسل جريدة «لوموند» أن يوحي بأن وفاة دليمي ربما لم تكن نتيجة حادث، جرى طرده نهائياً من البلد[١].

بعد ذلك في شهر آذار (مارس) قال أحمد رامي، وهو عالم سياسي مغربي يعيش في المنفى في السويد، ودون أي إبهام، إن الملك الحسن ورجاله الأمنيين قتلوا الدليمي وأن وكالة المخابرات المركزية متورطة تورطاً عميقاً[٢].

كان أحمد رامي ملازماً في الجيش المغربي وقائداً «لحركة الضباط الأحرار»، وهي حركة سرية لضباط في الجيش نذروا أنفسهم للإطاحة بالملك والتخلص من النظام الملكي، أيضاً التخلص من فساد الملك شخصياً ومن «جرائمه ضد حقوق الإنسان». اضطر رامي للعيش خارج وطنه بسبب حكم بالإعدام صدر بحقه في المغرب بسبب دوره في محاولة فاشلة لإسقاط طائرة كان يستقلها الحسن في عام ١٩٧٩.

كان الضباط المنشقون يدعمون إقامة «جمهورية إسلامية عربية ديموقراطية في المغرب» والتوصل عن طريق التفاوض إلى تسوية للحرب المدمرة مع مقاتلي جبهة بوليساريو في الصحراء الغربية، وهي حرب مكنت خلالها المساعدة العسكرية الأمريكية والعسكريون الأمريكيون المغرب من إبقاء الحرب في مأزق[٣].

وبينما كان أحمد دليمي يعمل بصفته الساعد الأيمن للملك، كان في الوقت ذاته مرتبطاً بصورة سرية بالضباط الأحرار. وعندما كان يذهب خارج البلد كان

يلتقي رامي، وقد بحث الرجلان خلال عام ١٩٨٢ خططاً لمحاولة القيام بانقلاب في شهر تموز (يوليو) من العام التالي.

يقول رامي: «غير أنه لم يكن معروفاً لنا ما إذا كانت وكالة المخابرات المركزية تجري تحقيقاً مع دليمي. وعندما سلمت وكالة المخابرات المركزية الملك الحسن في كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣ ملفاً، كان الملف يحتوي على فيلم فيديو يجمع بين دليمي وبيني في لقاء تم في استوكهولم خلال كانون الأول (ديسمبر) الماضي. وكان هذا الفيلم كافياً للتخلص من دليمي[٤].

ذكرت صحيفة «نيويورك تايمز» أن المغرب كان قد أصبح «الحليف الأقرب والأكثر فائدة للولايات المتحدة في العالم العربي»[٥]. وقد كان واضحاً أن الحسن ربط مصيره بإدارة ريغان. وفي عام ١٩٨١ وحده زاره كل من وزير الدفاع الأمريكي (كاسبار واينبرغر Caspar Weinberger) ووزير الخارجية الأمريكي (الكسندر هيغ Alexander Haig) ونائب مدير وكالة المخابرات المركزية، ورئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي وكثيرون من المسؤولين الآخرين رفيعي المستوى في واشنطن. وقيل: إن مساعد وزير الدفاع الأمريكي لشؤون الأمن الدولي وصل إلى المغرب وبرفقته فريق مؤلف من ٢٣ مستشاراً وخبيراً عسكرياً، وإن أكثر من مئة أمريكي كانوا يعملون مع القوات المسلحة المغربية[٦].

كان الحسن قد تعاون في الأعوام السابقة تعاوناً واسعاً مع السياسات الأمريكية في افريقيا. وقد أرسل في العامين ١٩٧٧ و١٩٧٨ قوات مغربية إلى زائير لمساندة الأعمال الأمريكية هناك، وابتداء من منتصف السبعينيات من القرن العشرين أخذ يساعد قوات منظمة (يونيتا Unita) في أنغولا جنباً إلى جنب من الولايات المتحدة وجنوب افريقيا في جهودهما المستمرة للإطاحة بحكومة MPLA. وفي الوقت ذاته سمح الملك الحسن لوكالة المخابرات المركزية بناء محطتها في المغرب لتكون ربما أحد أهم المراكز الرئيسية للوكالة في افريقيا[٧].

بهذه الطرق وغيرها من الطرق المهمة، اكتسب الحسن امتنان الولايات المتحدة وحمايتها. وهكذا فإن وكالة المخابرات المركزية كشفت للملك حياة الجنرال دليمي المزدوجة. وقيل: إن دليمي، علاوة على ذلك، دعا إلى حصول المغرب على مساعدة من فرنسا، الدولة التي استعمرت المغرب سابقاً، عوضاً عن مساعدة من الولايات المتحدة. وقد رأت وكالة المخابرات المركزية في ذلك تهديداً للوضع الأمريكي في المغرب وأصرت على تخلص الحسن من ثقاته الذين يحبذون علاقات أوثق مع فرنسا[٨].

يقول أحمد رامي: إن دليمي استُدعي عند الساعة الحادية عشرة مساء في ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣ إلى القصر في مدينة مراكش. وهناك اصطحبه عشرة من رجال الأمن إلى حجرة الاستجواب في القبو. وعند الساعة الواحدة صباحاً وصل «ضابطان أمريكيان» مع الملك إلى حجرة الاستجواب الذي استمر ساعات عديدة. لقد جرى تعذيب دليمي، وعند الساعة الخامسة صباحاً أطلقت عليه النار. بعد ذلك وضعت جثته في سيارته التي جرى تفجيرها في إحدى ضواحي المدينة. لم يُسمح لأحد، حتى أفراد عائلته، برؤية جثته[٩].

سورينام ١٩٨٢ - ١٩٨٤
مرة أخرى، الفزاعة الكوبية

كان بالتأكيد أمراً غير معتاد أن يطلع مدير وكالة المخابرات المركزية الكونغرس، مسبقاً، على خطة ما من خطط الوكالة للإطاحة بحكومة أجنبية. وقد قال وليام كولبي أمام لجنتي المخابرات في مجلسي النواب والشيوخ الأمريكيين في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٢: إن الرئيس ريغان خوّل وكالة المخابرات المركزية سلطة محاولة الإطاحة بحاكم سورينام الكولونيل (ديزي بوترس Desi Bouterse) وقيل: إن خطة الوكالة كانت تقضي بتشكيل قوة شبه عسكرية من المقيمين في المنفى لغزو سورينام لأن بوترس، الذي كان استولى على السلطة في انقلاب عسكري عام ١٩٨٠. يقود هذا البلد الصغير في أمريكا الجنوبية نحو «الفلك الكوبي» الشهير والبغيض[١].

ومع أن أعضاء لجنتي الكونغرس «لم يعارضوا من حيث المبدأ فكرة محاولة الإطاحة بحكومة أجنبية»[٢]. إلا أنهم اعترضوا على الاقتراح على أساس أنه لا يوجد دليل يثبت أن كوبا كانت «تستغل الحكومة في سورينام أو كانت تحصل على موطىء قدم عسكري في ذلك البلد»[٣].

وبقدر ما لم تكن حجة عقلانية من هذا النوع تترك تأثيراً عميقاً في ذهن رونالد ريغان أو تكبح إلى حد بعيد وكالة المخابرات المركزية، لم يكن ثمة سبب للاعتقاد بأن هذه كانت نهاية القصة.

بل ولاحتى بدايتها. قبل ذلك بشهرين، أي في تشرين الأول (أوكتوبر)، كانت حكومة بوترس قد هددت بطرد دبلوماسيَّيْن أمريكيين اتهمتهما بتشجيع نقابات العمال المحافظة في البلد، وبلعب دور رئيسي في تنظيم مظاهرات معادية للحكومة وإضرابات ترمي إلى إسقاط الحكومة[٤]. ثم أعلنت سورينام في الثامن من كانون

الأول أن محاولة انقلاب جرت ضد الحكومة. وقد اعتُقل عدد من المتآمرين المزعومين بعضهم يتظاهر «بأنه سكران وهو يحاول الهرب» ومن الجلي أن ذلك تعبير ملطف عن إعدامهم. لقد ادعى بوترس أن المعتقلين كانوا يتآمرون مع وكالة المخابرات المركزية(٥). أحدهم، والذي فقد حياته، وكان زعيماً لنقابة محافظة يدعى (سيريل دال Syril Daol) سبق له أن ساعد في تنظيم مظاهرات ضد الحكومة في وقت سابق من ذلك العام وقيل: إنه كانت له علاقات مع وكالة المخابرات المركزية عن طريق ارتباط نقابته المسماة (مويدربوند Moeder bond) بالمعهد الأمريكي للتنمية العمالية الحرة التابع لوكالة المخابرات المركزية (AIFLD)(٦).

في الشهر اللاحق طُلب فعلاً من الدبلوماسيَين الأمريكيين أن يغادرا البلد بسبب «نشاطاتهما المخربة للاستقرار»(٧).

في شهر تموز (يوليو) عام ١٩٨٣، تضخمت المؤامرة. وقد ذكرت جريدة «نيويورك تايمز» أن غزواً لسورينام كان محدداً له الأول من ذلك الشهر من قبل مرتزقة قاعدتهم في ولاية فلوريدا، قد أُلغي بعد أن اكتشفت خطط الغزو من قبل وكالة الأمن الداخلي في هولندا، الدولة التي كانت تستعمر سابقاً سورينام، وكانت آنذاك تسمى (غيانا الهولندية Dutch Guiana). وقيل: إن قوات الغزو كانت تتألف من نحو ٣٠ رجل نصفهم مواطنون من الولايات المتحدة ودول أمريكية جنوبية أما الباقون فإنهم من مواطني سورينام، وكان مقرراً نقلهم بالطائرة من فلوريدا إلى مدينة (باراماريبو Paramaribo) عاصمة سورينام الواقعة في الطرف الشمالي لأمريكا الجنوبية. وكانت الخطة تقضي بتعزيز الغزاة بعد ذلك بمواطنين من سورينام يعيشون في المنفى ويتم نقلهم من هولندا. هذه المجموعة الأخيرة كانت مخترقة من الهولنديين لكي يطلعوا منها على الخطط(٨).

وكما جرت العادة فيما يتعلق بالأهداف الأمريكية في أمريكا اللاتينية، وجدت القصص حول وجود أعداد كبيرة من الجنود الكوبيين في سورينام طريقها إلى التداول دولياً. وعلى غرار نظرائهم في جامايكا وغرينادا، ظل هؤلاء المحاربون أشخاصاً خرافيين.

في ربيع عام ١٩٨٣، عقدت سورينام اتفاقيات مع الحكومة اليمينية في البرازيل المجاورة تنص على تقديم مساعدة اقتصادية وعسكرية وتدريب عسكري. وحسب تقديرات إدارة ريغان كان ينبغي أن تكون سورينام آنذاك في «الفلك البرازيلي». أما الحقيقة ببساطة فهي أن سورينام، شأنها شأن غيرها من الدول النامية، كانت مستعدة لقبول المساعدة من أية جهة تستطيع الحصول منها على مساعدة. والواقع أن البرازيل، التي اعترفت علناً أن غايتها كانت «إنقاذ سورينام من كوبا» قد قامت بخطوتها بناء على إلحاح من واشنطن[٩]. تطورت الأمور بحيث أن بوترس طرد في شهر تشرين الأول (أكتوبر) جميع المستشارين الكوبيين وأعضاء السفارة الكوبية، بمن فيهم السفير، وعلّق جميع الاتفاقات المعقودة مع هافانا. وقد أعلن عن الطرد في اليوم الذي غزت فيه الولايات المتحدة غرينادا، وكان الطرد بتأثير اعتقاد بوترس بأن كوبا لعبت دوراً ما في الإطاحة (بموريس بيشوب Mau-rice Bishop) وأنه بالتالي يمكن أن يواجه مصيراً مماثلاً، إن لم يكن غزواً مماثلاً[١٠] وكما رأينا فإن هذا الاعتقاد بشأن كوبا لم تكن له أية صلة بالحقيقة بل من المحتمل أنه كان نتيجة لتشجيع من الولايات المتحدة. وقد ذكرت مجلة «نيوزويك» فيما بعد أن «الدبلوماسيين الأمريكيين في العاصمة باراماريبو كانوا حريصين على إبقاء بوترس معتقداً بوجود دليل على أن كوبا ساعدت الانقلاب في غرينادا، وأن الباقي ترك لنزعة الريبة المضخمة لديه»[١١].

وفقاً لكل الروايات كان ديزي بوترس مقصراً جداً كزعيم وكشخص. فقبل أحداث تشرين الأول (أكتوبر) بوقت طويل قالت الأنباء: إن كوبا وغرينادا أعربتا في أحاديث خاصة «عن الانزعاج وحتى الغضب بسبب الأذى الذي لحق بصورة اليسار في المنطقة على أيدي من كان البلدان يعتبرونهم ثوريين غير ناضجين يقودون ثورة غير ناضجة»[١٢]. ومع أن بوترس كان قد تعلم أن يردد كالببغاء كليشيهات الاشتراكية ومعاداة الإمبريالية، بدت مبادئه كامنة في مكان آخر. وحسب أقوال أحد الدبلوماسيين في سورينام «بوترس عبارة عن حرباء». الشيء الأول بالنسبة له هو

سلامته الشخصية، والشيء الثاني هو بقاؤه الرجل الذي يتولى السلطة»[١٣]. لقد اتهم بوترس أحياناً بادعاء وجود مؤامرة ضده كذريعة للتخلص من بعض الذين عارضوا حكمه (كانت هناك مزاعم عن وقوع عدة محاولات انقلابية أخرى إضافة إلى المحاولة التي وقعت في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٢ المذكورة أعلاه). خلال المدة الواقعة بين كانون الأول ١٩٨٣ وكانون الثاني ١٩٨٤ اهتزت سورينام من جراء احتجاج آلاف العمال المضربين على زيادات في الضرائب وعلى ارتفاعات حادة في الأسعار. وإذ صدرت دعوات لعزل رئيس الوزراء (إيرول اليبوكس Errol Alibux) وحدثت أعمال تخريب خطيرة لمؤسسات الكهرباء والمياه، رضخ بوترس فعزل اليبوكس وألغى زيادات الأسعار ولكنه لم يوافق على المطالبة بأن يعيد العسكريون السلطة إلى المدنيين[١٤] ومع أن هذا السيناريو يذكر بأنشطة وكالة المخابرات المركزية في غيانا البريطانية وجامايكا وغيرهما، وما سبق لحكومة سورينام أن اتهمت به الولايات المتحدة في تشرين الأول ١٩٨٢، لم يرد أي خبر عن ضلوع وكالة المخابرات المركزية في اضطرابات تلك المدة. ولكن كشف النقاب في عام ١٩٨٥ عن أن مؤسسة المنحة الوطنية للديمقراطية التي كان يموّلها الكونغرس لدعم المنظمات الأجنبية المتعاطفة مع أهداف السياسة الخارجية الأمريكية كانت تمول منظمات في سورينام خلال المدة الواقعة بين عامي ١٩٨٣ - ١٩٨٥[١٥].

ليبيا ١٩٨١ - ١٩٨٩
رونالد ريغان يقابل ندّه

جماهير الناس الكبرى تميل في أعماق قلوبها إلى أن تصاب بالفساد وليس أن تتجه نحو الشر عن وعي وعن قصد.. ولذلك ونظراً للبساطة البدائية لعقولهم فإن وقوعهم ضحية لكذبة كبرى أسهل كثيراً من وقوعهم ضحية كذبة صغيرة لأنهم هم أنفسهم يكذبون في الأمور الصغيرة ولكنهم يخجلون من الأكاذيب إذا كانت مفرطة في ضخامتها.

ادولف هتلر[١]

أعلن رئيس الولايات المتحدة «أن الدليل الذي نملكه هو دليل مباشر ودقيق ولا يمكن دحضه». كان الرئيس الأمريكي يشرح سبب القصف الجوي الأمريكي لليبيا يوم ١٤ نيسان ١٩٨٦ انتقاماً من التفجير الليبي قبل ذلك بتسعة أيام لنادٍ ليلي في برلين الغربية يتردد عليه الجنود الأمريكيون، ما أدى إلى مقتل جنديين ومدني واحد وجرح آخرين كثيرين[٢].

في واقع الأمر الدليل على المسؤولية الليبية عن هذا التفجير لم تعرض على العالم إطلاقاً لا بصورة مباشرة ولا باختصار. ولكن لم يأبه أحد كثيراً بذلك. فعلى امتداد أكثر من عقد من السنين كان يقال دائماً للرأي العام الأمريكي أن الزعيم الليبي معمر القذافي كان وراء الأعمال الإرهابية الواحد بعد الآخر في كل جزء من العالم. قبل الهجوم الأمريكي ببضعة أيام كان الرئيس ريغان قد أشار إلى القذافي قائلاً: «إنه الكلب المجنون في الشرق الأوسط» ذلك كان مجرد مثال آخر.

القنابل التي ألقيت على ليبيا أودت بأرواح عدد من الناس قيل: إنه يتراوح بين ٤٠ و١٠٠ شخص جميعهم ما عدا واحد مدنيون، وأدت إلى جرح أكثر من ١٠٠

آخرين أو نحو ذلك. لقد دمرت السفارة الفرنسية الواقعة في منطقة سكنية. كانت بين القتلى الابنة الشابة المتبناة من قبل القذافي، إضافة إلى فتاة في العقد الثاني من عمرها من لندن كانت تزور ليبيا، كما أن جميع أبناء القذافي السبعة الآخرين وزوجته نقلوا إلى المستشفى لمعالجتهم من الصدمة وجروح مختلفة[٣].

لم تدّعِ الولايات المتحدة أن أحداً من القتلى أو الجرحى كانت له أية علاقة بتفجير النادي الليلي في برلين. وعل غرار إرهابيي الشرق الأوسط الذين ألقوا قنابل يدوية على مكان بيع التذاكر لطائرات شركة العال من أجل قتل إسرائيليين لمجرد أنهم إسرائيليون، وعلى غرار الإرهابيين الذين زرعوا قنبلة في رحلة طائرة بان أمريكان رقم ١٠٣ لقتل أمريكيين لمجرد أنهم أمريكيون، كان قصف ليبيا محاولة لقتل ليبيين لمجرد أنهم ليبيون. بعد الغارة الجوية أعلن (لاري سبيكس Larry Speakes) المتحدث باسم البيت الأبيض: «إننا نأمل أن هذا العمل سيجهض ويثبط الهجمات الليبية ضد مدنيين أبرياء في المستقبل»[٤].

لقد كان القذافي هو الليبي الأول المطلوب قتله من قبل الولايات المتحدة. لقد كان القصف الجوي محاولة اغتيال. قال «ضابط مخابرات تابع لسلاح الجو الأمريكي مطّلع على الأمور» نقلت كلامه جريدة «نيويورك تايمز»: «لا جدال في أن القذافي كان هو المستهدف. هكذا كان يقول الإيجاز الصادر عن المخابرات. كانوا يبغون قتله»[٥] وهذا ما يجب فعله مع كلب مجنون.

عقب ذلك، رفع اثنان من أبناء القذافي دعوى قضائية في الولايات المتحدة لكي يكف الرئيس ريغان عن القيام بمزيد من «محاولات اغتيال» لأسرتهم. لقد زعمت هذه الدعوى، التي رفضتها المحكمة، أن ريغان وغيره من كبار المسؤولين الأمريكيين، بإصدار أوامر لشن الغارات، قد انتهكوا أمراً إدارياً يحظر القيام بمحاولات لاغتيال قادة حكومات أجنبية[٦]. رفعت دعوى قضائية أخرى في واشنطن باسم ٦٥ شخصاً قتلوا أو جرحوا في القصف[٧] في أثناء ذلك كان الأسطول الأمريكي يمنح ١٥٨ وساماً للطيارين الذين أسقطوا قنابل من حجم ٥٠٠ باوند و٢٠٠٠ باوند خلال عتمة الليل على أناس كانوا نياماً [٨].

إن فكرة استهداف عائلة القذافي كان مصدرها وكالة المخابرات المركزية، التي ادعت أن الثقافة البدوية تقضي بتقليص مكانة القذافي إذا لم يتمكن من حماية بيته. «إذا تمكنتم فعلاً من تدمير منزل القذافي - وامتداداً أسرته أيضاً - تكونون قد دمرتم صلة هامة مع الشعب من حيث الولاء»(٩).

ولضمان وصول الرسالة إلى الشعب الليبي، كررت إذاعة صوت أمريكا القول لليبيين، بعد القصف، أن أشياء من نوع «العقيد القذافي هي عبء مأساوي عليكم» وما دمتم تطيعون أوامره عليكم «أن تتحملوا العواقب»(١٠).

ادعاء الرئيس الأمريكي بوجود دليل لا يدحض كان يستند إلى التقاط مزعوم لاتصالات بين العاصمة الليبية طرابلس والسفارة الليبية في برلين الشرقية. لقد أعلن ريغان أن ليبيا أرسلت بتاريخ ٢٥ آذار (مارس) أوامر إلى السفارة «بارتكاب عمل إرهابي ضد الأمريكيين، والتسبب بأقصى الإصابات بدون تمييز»، ثم إن السفارة نبهت طرابلس بتاريخ ٤ نيسان (ابريل) أن الهجوم سينفذ في اليوم التالي، وأن «طرابلس ستكون سعيدة عندما تقرأ العناوين الرئيسية في الصحف غداً» وبعد عملية التفجير أبلغت السفارة طرابلس بأن العمل كان ناجحاً ولا يمكن تتبع مصدره(١١).

هذه، على أقل تقدير، تفسيرات ونقل ملخص. أما النصوص الحرفية الكاملة، وغير المعالجة، ولم يحذف منها شيء للاتصالات ذات العلاقة، فلم تنشر. كانت هذه الاتصالات قد التقطتها وكالة الأمن القومي وحلت رموزها بمساعدة المخابرات الاتحادية الألمانية التي كانت قد تمكنت قبل سنين من حل رموز الشيفرة الليبية. بعد اكتمال حل الرموز، قالت مجلة (در شبيغل Der Spiegel)، كبرى المجلات الألمانية. إنه لم يكن واضحاً ماذا جاء في البرقيات المرسلة فعلاً، إذ كانت هناك صيغ مختلفة. علاوة على ذلك، توصلت وكالة الأمن القومي الأمريكية والمخابرات الألمانية الاتحادية، إلى استنتاجات مختلفة حول معنى الرسائل «ولكن هذه الاختلافات

طويت بسرعة لأسباب سياسية». «إن مسؤولي الأمن الألمان، الذين أصروا على عدم التركيز على ليبيا وحدها في التحقيق وحذروا من «اتهام سابق لأوانه»، وجهوا أنظارهم أيضاً إلى جماعات الديسكو المتنافسة وإلى المتاجرين بالمخدرات» وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٨٧، قال مسؤول كبير في بون للصحفي (سيمور هيرش Sey-mour Herch) المتابع للتحقيق: ان الحكومة الألمانية مستمرة في «نقدها الشديد وتشككها» في الموقف الأمريكي الذي يربط بين ليبيا والتفجير، وفي نهاية العام التالي أعلنت ألمانيا انتهاء التحقيق[١٢].

قال هيرش «بعض مسؤولي البيت الأبيض كانت عندهم شكوك فورية في أن القضية ضد ليبيا كانت واضحة المعالم. أكثر من ذلك، كان معروفاً أن مقهى الديسكو هو مكان يكثر الجنود السود التردد عليه، ولم يعرف إطلاقاً عن الليبيين أنهم يستهدفون السود أو أقليات أخرى»[١٣]. لكن كما رأينا في حالات أخرى عديدة، موقف حكومة واشنطن الرسمي، عندما يتكرر مرات كافية، يتحول إلى حقيقة رسمية. بعد مرور ثلاث سنوات على الحادث، صار بإمكان مجلة «تايم» أن تذكر كأمر حقيقي، أن «إرهابيين مدعومين من ليبيا فجروا مقهى ديسكو في برلين الغربية» ما وفر عذراً للقصف «الثأري» الأمريكي[١٤].

لقد جرى الكثير من تخطيط واشنطن السري للعملية الليبية في الوقت ذاته الذي كانت تجري فيه المحادثات السرية وصفقة الأسلحة مع إيران. وهكذا، فإن إدارة ريغان كانت ماضية في إزالة أحد مصادر الإرهاب في الشرق الأوسط بينما كانت تسلح مصدراً آخر، علاوة على ذلك شملت المهمتان بعضاً من ذات رجال الأمن، وخاصة (جون بويندكستر John Poindexter) و(اوليفر نورث Oliver North).

ومع أن إدارة كارتر لم تنفذ أية هجمات عسكرية علنية على ليبيا، إلا أنها ربما كانت متورطة في عمل سري خطير جداً. ففي ٢٧ حزيران (يونيو) ١٩٨٠ دمر صاروخ طائرة ركاب إيطالية فوق البحر الأبيض المتوسط، وأودى ذلك بأرواح ٨١

شخصاً، وفي الوقت ذاته كانت طائرة ليبية لعل القذافي كان يستقلها، تطير في الجوار. مراقبو حركات الطيران الإيطاليون سجلوا رحلتها على أنها رحلة «شخصيات عامة رقم ٥٦ VIP ٥٦» أذاع تلفزيون الدولة الإيطالية أن الطائرة أسقطت خطأ بصاروخ من أحد بلدان حلف شمال الأطلسي، ربما إيطاليا. بعد ذلك بعام، جاء في نبأ صادر عن وزارة الدفاع الإيطالية، أن الصاروخ الذي استعمل كان من نوع (سايدوندر Sidewinder) الذي يطلق من الجو إلى الجو، وهو سلاح يستخدمه حلف شمال الأطلسي. وبدأت الصحافة الإيطالية تتكهن عن خطة فاشلة لاغتيال الزعيم الليبي، وبدلاً من ذلك أُسقِطت الطائرة الإيطالية بسلاح إحدى دول حلف الأطلسي. (في الوقت ذاته الذي وقعت فيه الكارثة ألمح القذافي إلى أن الولايات المتحدة هي المسؤولة) لقد أصدرت كل من الولايات المتحدة وفرنسا - خصمَي ليبيا الرئيسيين - إنكاراً كما أن حلف شمال الأطلسي أصدر إنكاراً، ولكن الجهات العسكرية الإيطالية بذلت أقصى الجهود لإخفاء معلومات عن القضية. مع ذلك اعترف ضابط في سلاح الجو بتدمير شريط الرادار الخاص بذلك المساء، كما أن تحقيق السلطات المدنية أوحى أن كثيرين من رجال سلاح الجو جرى إقناعهم بأن يكذبوا أو أن «ينسوا» هذا الحادث [١٥].

تولى رونالد ريغان وزملاؤه المتطرفون في عقيدتهم مناصبهم في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٨١ ملتزمين بعملية نقل واسعة للثروة من الفقراء إلى الأغنياء. إحدى الطرق المحورية التي حققوا فيها هذا الهدف ببراعة كانت زيادة الميزانية العسكرية زيادة كبيرة، بمعنى الرفاه للأغنياء ولأصدقاء وزارة الدفاع وشركاء العمل التجاري ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. ولكن لكي يتمكن تجمع الصناعات العسكرية والمخابرات من إقناع الرأي العام الأميركي والكونغرس بذلك، كان لابد من بيع مواد جديدة للحروب، ونشوء نزاعات مسلحة، وانشقاقات على الحكومات، والعمل ضد هذه الانشقاقات.. أو إطلاق شائعات و «تهديدات» من هذا النوع.. وأعداء ولاسيما من النوع المرعب الذي يجب الدفاع عن النفس ضده.

كان القذافي شخصاً رهيباً: متقلباً، لا يمكن التنبؤ بأعماله، متعجرفاً من الطراز الأول. وقائداً من العالم الثالث، يجلس فوق تاسع أكبر احتياطي للنفط في العالم، ورجلاً له قناعات متجذرة بالوحدة الإسلامية والعروبة ومعاداة الإمبريالية ومعاداة الصهيونية، وثورياً كثير التفاخر بنفسه، وفي عمر الشباب حيث إنه يستطيع أن يكون في آن واحد فزّاعة ومهرجاً، رجلاً ينفذ أو يدعم الكثير من الأعمال الإرهابية الحقيقية بحيث إن أية مبالغة بشأنه تكون قابلة للتصديق.

كانت هنالك عناصر خصام شخصي مرير بين الرجلين. رونالد ريغان - رجل كان يلعب بالضربات الجوية وكأنه يقوم بإخراج مشاهد سينمائية - اختار أن يخاصم رجلاً كان مثله أسير الأيديولوجية وترك أثره على الإعلام العالمي بسلسلة من الملاحظات والأعمال العقائدية وكذلك بواسطة أقوال بسيطة وغبية. (قال القذافي: إن جميع الأنبياء العظماء في العصور الحديثة جاؤوا من الصحراء ولم يكونوا متعلمين: «محمد ويسوع وأنا شخصياً»)[١٦].

بيد أن الزعيم الليبي كان يتمتع بوعي اجتماعي وهذه صفة لم يُعرف أنها جزء من الحمض النووي «D. N. A» للرئيس ريغان. «أنت لا ترى هنا فقراً أو جوعاً. الاحتياجات الأساسية مؤمنة إلى درجة أكبر مما هي في أي بلد عربي آخر. هذا ما قالته مجلة «نيوزويك» عن ليبيا في عام ١٩٨١»[١٧].

جريمة القذافي الرئيسية في نظر ريغان لم تكن دعمه للجماعات الإرهابية بل إنه ساند المجموعات الإرهابية الخطأ، بمعنى أن القذافي لم يكن يدعم نفس الإرهابيين الذين تدعمهم واشنطن، مثل جماعات الكونترا في نيكاراغوا، ومنظمة يونيتا في أنغولا، والمنفيين الكوبيين في ميامي، وحكومتي جمهوريتي السلفادور وغواتيمالا، والعسكريين الأميركيين في غرينادا. مجموعة الإرهابيين الوحيدة التي دعمها الرجلان معاً هي مجموعة المجاهدين في أفغانستان.

بعض العمليات الحربية الأميركية ضد القذافي، الفعلية منها أو التي جرى التهديد بها، واتهامات ليبيا بالإرهاب، الواقعية منها والمختلقة كان توقيتها يُقصد منه تحريك الشهية الأميركية عندما كان الكونغرس يناقش الميزانية العسكرية أو تقديم مساعدة للإرهابيين المفضلين لدى ريغان، الذين كان يسميهم المقاتلين من أجل الحرية. على سبيل المثال، كان قصف ليبيا بتاريخ ١٤ نيسان ١٩٨٦ قبل يوم واحد من افتتاح مجلس النواب الأمريكي جولة جديدة في النقاش حول تقديم مساعدة إلى الكونترا. وعندما تحدث ريغان في الخامس عشر من الشهر نفسه قال: «أود أن أذكّر مجلس النواب عندما يصوّت هذا الأسبوع أن الإرهابي الأول القذافي قد أرسل ٤٠٠ مليون دولار وترسانة من الأسلحة والمستشارين إلى نيكاراغوا»[١٨].

وقد أعلن ريغان بُعيد توليه منصبه تعيين مجموعة خاصة لدراسة «المشكلة الليبية». وبدا أن في وزارة الخارجية الأميركية مدرستين فكريتين: مدرسة تدعو إلى الضغط الدبلوماسي على القذافي وأخرى لها وجهة نظر في مزيد من المجابهة. وقد قال أحد المسؤولين: «لا أحد يدعو إلى اللطف معه»[١٩].

سرعان ما جرى إعداد خطة كبرى من قبل وكالة المخابرات المركزية كشفت عنها مجلة «نيوزويك» في شهر آب ١٩٨١: «خطة واسعة النطاق ومتعددة المراحل ومكلفة لإسقاط نظام الحكم الليبي» وتحقيق ما سمته وكالة المخابرات المركزية إزالة القذافي «نهائياً» من السلطة. كانت الخطة تدعو إلى برنامج تشويه إعلامي هدفه إحراج القذافي وحكومته وخلق «حكومة مضادة» لكي تتحدى ادعاءه بالقيادة القومية، وشن حملة متصاعدة شبه عسكرية تشمل عمليات حرب عصابات على مقياس صغير[٢٠].

كان التصعيد فورياً. ففي ١٩ آب اجتازت الطائرات الأميركية «خط الموت الذي رسمه القذافي» أي الحد الذي يصل إلى ١٢٠ ميلاً الذي ادّعته ليبيا في خليج سدرة

وإسقاط طائرتين نفاثتين ليبيتين. إن الولايات المتحدة التي اعتبرت هذه المياه مياهاً دولية، مثلها مثل معظم بقية العالم - مع أن هذا المفهوم قابل للنقاش أكثر عندما يطبق على الطائرات منه عندما يطبق على السفن[٢١] - تعمدت اختيار هذه المنطقة لإجراء مناورات عسكرية وكما كان متوقعاً، بلعت ليبيا الطعم، على الأقل حسب قول واشنطن، التي ادعت أن الطائرات الليبية كانت البادئة بإطلاق النار.

كان القذافي غاضباً واتهم الولايات المتحدة بارتكاب «إرهاب دولي» وقيل: إنه هدد في اتصال هاتفي مع زعيم أثيوبيا باغتيال ريغان[٢٢] وقد رد مسؤول عمل في منصب ضمن وكالة الأمن القومي في عهد ريغان بقوله «إنه لا مراء في أن الشيء الوحيد الذي يجب عمله للقذافي هو قتله. إنه يستحق الموت»[٢٣].

سرعان ما شرعت وسائط الإعلام الأمريكية في نشر أخبار عن تهديدات أطلقها القذافي بقتل ريغان وغيره من كبار المسؤولين الأمريكيين. في شهر تشرين الأول، نشرت قصة مفادها أن السفير الأمريكي في إيطاليا أُخرج من البلاد بسرعة بعد أن اكتشفت السلطات الإيطالية مؤامرة ليبية لاغتياله، «أُجهضت بعد أن رحّلت الشرطة الإيطالية عشرة ليبيين متهمين بالإجرام». ولكن بعض المسؤولين الأمريكيين في واشنطن وروما خالفوا هذه القصة، بينما أيدها مصدر حكومي آخر[٢٤].

بعد شهر كان هناك نبأ عن محاولة لاغتيال دبلوماسي أمريكي في باريس - أُطلقت سبع طلقات على (كريستيان تشابمان Christian Chapman) - الذي وصف القذافي بأنه «القديس شفيع الإرهاب» - بأن ليبيا كانت وراء محاولة قتل تشابمان، مع أنه اعترف بأنه لا يملك معلومات أخرى تدين ليبيا مباشرة. ولكن تشابمان - حسب قول الحكومة الفرنسية - كان قد تلقى مؤخراً بعض التهديدات، منها تهديدات أصلها يمتد إلى طرابلس[٢٥]. بيد أن تحليلاً للحادث نشرته جريدة نيويورك تايمز توصل إلى نتيجة مفادها أن «شيئاً ما أقل تنظيماً من محاولة اغتيال منظمة ربما كان له ضلع في الأمر»[٢٦].

في أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) أعلنت الإدارة أن عدداً من الإرهابيين الذين تدربوا في ليبيا قد دخلوا الولايات المتحدة مع خطط لاغتيال الرئيس ريغان أو مسؤولين آخرين. هذا كان حافزاً على إجراء حملة تفتيش واسعة في أنحاء الولايات المتحدة بحثاً عن «الفريق الليبي المكلف بالقتل» وعن أمريكيين يمكن أن يكون هذا الفريق قد لجأ إليهم للمساعدة، ومن ضمن هؤلاء الأمريكيين منظمة وذر Weather - أي الطقس - السرية. آنذاك دخل الصورة الإرهابي الدولي سيء الصيت (كارلوس Carlos)، وقالت الإدارة انها تلقت مباشرة من مخبرين أوصافاً للتدريب وخطط الإرهابيين. كانت تظهر في وسائط الإعلام كل يوم تفاصيل جديدة منذرة بالشر، وكانت وسائط الإعلام قد نسيت أنها كشفت في شهر آب (أغسطس) الشروع في حملة لتشويه الحكومة الليبية إعلامياً[٢٧] قال ريغان للصحفيين: «لدينا دليل وهو (أي القذافي) يعرفه». وقد ألح المراسلون على البيت الأبيض أن يكشف لهم هذا الدليل فقوبل إلحاحهم بالرفض. غير أن بعض المسؤولين، ومن ضمنهم بعض كبار مسؤولي مكتب التحقيقات الفيدرالي قيل انهم متشككون في هذه الأنباء[٢٨].

وصف آنذاك الصحفي (جاك اندرسون Jack Anderson) المجموعة التي قدمت المعلومات عن الجماعة الإرهابية بأنها غامضة وغير موثوقة، وأضاف ان كثيراً من هؤلاء عرفوا بأن لهم علاقات مع المخابرات الإسرائيلية «التي لابد أن عندها أسبابها الخاصة لتشجيع حدوث خلاف بين الولايات المتحدة وليبيا»، إذ ان هناك عداوة متأصلة متبادلة بين إسرائيل والقذافي[٢٩].

في منتصف العام ١٩٨١ شُكلت مجموعة بحث برئاسة (وليم كلارك William Clark) نائب وزير الخارجية الأمريكي للنظر في كامل مسألة القذافي. بعد ذلك بسنوات كتب سيمور هرش ما يلي:

«وفقاً لمصادر رئيسية هناك قليل من الشك لدى مجموعة البحث التي يرأسها كلارك في من هو المسؤول عن تسريب هذا الكم الكبير من أخبار العداء للقذافي - أي وكالة المخابرات المركزية، بتأييد من الرئيس الأمريكي، وهيغ وكلارك.

ويستعيد أحد المسؤولين إلى الذاكرة «أن موضوع مجموعة القتل الليبية لم يستطع هضمه. ولقد جئنا بهذا التهديد الإرهابي الكبير إلى الحكومة الأمريكية. وكان الأمر كله اختلاقاً كاملاً. في نهاية الأمر استنتج أحد أعضاء مجموعة البحث أن وليم كيسي مدير وكالة المخابرات المركزية، كان في الواقع يدير عملية داخل الحكومة الأمريكية: لقد كان يغذي النظام المخابراتي بتشويه المعلومات بحيث يبدو هذا التشويه أخباراً منفصلة ومستقلة وتأخذها الأجهزة الحكومية الأخرى على محمل الجد»(٣٠) وتبين فيما بعد أن معظم القتلة المفترضين كانوا لبنانيين سبق لهم أن ساعدوا في مفاوضات ريغان للإفراج عن رهائن أمريكيين في بيروت وأنهم كانوا يكرهون القذافي(٣١) بعد أن أدت القصة غرضها تلاشت نهائياً.

غير أن الكثير من التهديدات المنسوبة إلى القذافي كانت عبارة عن معلومات غير صحيحة، لقد كانت هناك خطط حقيقية أعدها الغرب لقتله. ففي شهر شباط (فبراير) ١٩٨١، لم يكن بدٌّ من إلغاء مؤامرة فرنسية. كان البحث جارياً لتعاون الولايات المتحدة فيها، عندما فشل الرئيس الفرنسي (جيسكار Giscard) على غير توقع في الانتخابات(٣٢). وصلت الأمور إلى أبعد من ذلك في عام ١٩٨٤، عندما شاركت وكالة المخابرات المركزية الأجهزة السرية الفرنسية في معلومات استخبارية حساسة من ضمنها صور فضائية ورصد لاتصالات، وذلك من أجل مساعدة الوكالة الأمريكية في أمرين كبيرين على أقل تقدير ولكنهما أمران فاشلان، أي في عمليات لاغتيال القذافي أو الإطاحة به، إذ كان الفرنسيون يرون فيه تهديداً لمصالحهم في افريقيا. إحدى العمليات كانت نتيجتها معركة حامية في ليبيا بين منفيين وموالين للقذافي(٣٣).

وفي عام ١٩٨٥ كان على وزارة الخارجية الأمريكية أن تبذل جهوداً كبيرة لوقف خطة تبناها البيت الأبيض للقيام بعملية أمريكية مصرية برية جوية لغزو ليبيا. لقد وصف وزير الخارجية الأمريكي (جورج شولتز George Shultz) الخطة بأنها «تدل

على الجنون» كما أن زملاءه في وزارة الخارجية وصفوا موظفي مجلس الأمن القومي الذين يسيرون على هواهم بأنهم «أولئك المجانين في البيت الأبيض»(٣٤).

عندما حلّ عيد الميلاد في ذلك العام، وبعد مقتل نحو (٢٠) شخصاً بينهم خمسة أمريكيين في اعتداءات بالقنابل على مطاري روما وفيينا، جرى بسرعة اتهام المشبوهين المعتادين وكانت إيران والفئة الفلسطينية المنشقة برئاسة الشرير أبو نضال في رأس القائمة(٣٥) ولكن إدارة ريغان سرعان ما أضافت القذافي إلى القائمة، معلنة أن وكالة المخابرات المركزية وجدت علاقة ليبية قوية، مع أن كل ما كان لدى إدارة ريغان من أدلّة هو أن جوازات السفر التونسية لثلاثة من الإرهابيين، جرى تتبع أثرها إلى ليبيا. وفي غضون أيام أعلن ريغان أن هناك دليلاً «لا يدحض» يشير إلى دور القذافي في تفجيرات المطارين، مع أنه كان يعلم أن ذلك لم يكن صحيحاً. وفي الوقت ذاته، أُعلِن عن فرض عقوبات اقتصادية جديدة على ليبيا «لإبعاد العقوبات الاقتصادية من الطريق لكي نتمكن من فعل أكثر من ذلك في المرة القادمة»(٣٦). المرة القادمة كانت في شهر آذار ١٩٨٦ عندما اجتازت طائرات نفاثة تابعة للأسطول الأمريكي مرة أخرى «خط الموت» الذي رسمه القذافي متحدية العمل الثأري، ولما لم يقع أي عمل ثأري عادت هذه الطائرات في اليوم التالي واليوم الذي بعده وهاجمت مرتين موقعاً ليبياً للمدفعية المضادة للطائرات ودمرت ثلاث سفن أو أربعاً. وقد أكدت واشنطن أن ليبيا كانت البادئة في اليوم الثاني بإطلاق عدة صواريخ باتجاه الطائرات الأمريكية.

بعد ذلك بوقت قصير أجرت جريدة «صنداي تايمز» اللندنية مقابلة مع مهندسي الكترونيات كانوا يعملون آنذاك في ليبيا. وقد قال أحد المهندسين: إنه كان يراقب على شاشات الرادار خلال يومي القتال ورأى الطائرات الأمريكية تجتاز ليس فقط المياه الإقليمية الليبية المحددة باثني عشر ميلاً، بل رآها تحلّق أيضاً فوق البر الليبي.

قال هذا المهندس: «رأيت الطائرات وهي تطير مسافة تقرب من ثمانية أميال داخل المجال الجوي الليبي. ولا أعتقد أن الليبيين كان لديهم خيار آخر سوى الرد. وفي رأيي إنهم كانوا مترددين في أن يفعلوا ذلك»[٣٧].

عقب الهجوم الأمريكي الأول على ليبيا في شهر آذار، تحدث القذافي هاتفياً مع الملك فهد ملك المملكة العربية السعودية الذي أبلغ المسؤولين الأمريكيين بعد ذلك أن الزعيم الليبي بدا عميق التأثر بالعنف الموجه ضده. وقد أطلق الملك على القذافي وصف الرجل «الذي لا يمكن فهمه وليس له اتجاه معين» وهو وصف يماثل تقارير أخرى ظهرت خلال الثمانينيات من القرن العشرين وتحدثت عن قذافي شديد الاكتئاب ولا يبدو أنه يفهم ماذا لدى الولايات المتحدة ضده. لقد قام بنحو ٦ محاولات عن طريق أطراف ثلاثة قبل وخلال أحداث شهر آذار لفتح حوار مع واشنطن، ولكن مسؤولي إدارة ريغان صدوا جميع هذه المحاولات. والذين كان من شأنهم أن يكونوا وسطاء أوروبيين وعرباً، ومن ضمنهم الملك فهد، قيل لهم بحزم: إن الولايات المتحدة غير مهتمة «بحوار مباشر أو غير مباشر» مع القذافي[٣٨].

تلك على الأقل كانت السياسة الرسمية أو الوجه الذي يظهر للرأي العام. بيد أنه كانت هناك أنباء تفيد أن البيت الأبيض كان يتعامل سراً مع الزعيم الليبي، ولكن لم يعرف إلى أي مدى كان هذا التعامل. الاتصال المؤكد الوحيد كان عندما اجتمع مع القذافي في ليبيا في شهر تشرين الثاني ١٩٨٥ السفير الأمريكي لدى الفاتيكان (وليم ولسون William Wilson) وقد تبرأت واشنطن رسمياً من هذا اللقاء قائلة: إنه لم يكن مسموحاً به وخسر ولسون منصبه بعد الكشف عن هذا اللقاء[٣٩].

في تلك الأثناء، وطوال مدة إدارة ريغان، كانت الولايات المتحدة تزيد مساعدتها العسكرية إلى البلدان المجاورة مباشرة لليبيا وتجري تمرينات عسكرية مع مصر هدفها استفزاز القذافي، وتفرض عقوبات اقتصادية متعددة الأشكال على ليبيا بدرجات متباينة من عدم الفعالية، محاولة توحيد جماعات المعارضة الليبية في المنفى وتقديم الدعم المالي والتشجيع لها، والشيء ذاته إلى حكومتي مصر وفرنسا

للقيام بأعمال مختلفة ضد القذافي، من بينها الاغتيال. لابد من ملاحظة أن فرنسا - شريكة الولايات المتحدة الرئيسية في «مقاومة الإرهاب» - أغرقت عمداً في عام ١٩٨٦ سفينة «السلام الأخضر Green Peace» واسمها (رينبو ووريور Rainbow Warrior)، فقتلت مصور «غرين بيس». حدث ذلك بموافقة صريحة من الرئيس الفرنسي (فرانسوا ميتران Francois Mitterand)[٤٠].

تشويه المعلومات كان جزءاً منظماً من العملية: تستخدم فيه الصحافة الأجنبية والأمريكية لنشر خطط إرهابية خيالية ليبية جديدة، وللإعلان - مع كل عمل إرهابي جديد حدث في العالم الغربي - أن ليبيا «ربما» كانت مسؤولة عنه لجعل القذافي يعتقد أن مساعديه الرئيسيين الذين يثق بهم إنما هم غير أوفياء له، وأن العسكريين الليبيين كانوا يتآمرون ضده، وأن الخبراء العسكريين الروس كانوا يتآمرون أيضاً ضده، وأن جنوده كانوا يهربون من الخدمة بصورة جماعية، أو أن هجوماً عسكرياً أمريكياً يلوح في الأفق، وكان مأمولاً من هذا النهج أن يجر الرجل إلى أعمال «غير عقلانية». كان التنبؤ بسقوطه الوشيك منتظماً كالتنبؤ بسقوط كاسترو[٤١]. إحدى العمليات شملت إنزال مغاوير من الأسطول على الشواطىء الليبية مخلفين بعد انسحابهم إشارات تشي بهذه الغارات - علب عيدان ثقاب مثلاً وأعقاب سجائر إسرائيلية - لزيادة توتر أعصاب الليبيين وزيادة خوفهم وريبتهم[٤٢].

إن مذكرة أعدها (جون بويندكستر) مستشار الرئيس الأمريكي للأمن القومي، في آب (أغسطس) ١٩٨٦، التي بيّنت بوضوح بعض مضمون برنامج تشويه المعلومات، أبرزت نفسها في الوقت الذي كان فيه القذافي «هامداً» على جبهة الإرهاب[٤٣] بعيد ذلك، اعترف أحد كبار مسؤولي إدارة ريغان أمام الصحفيين الأمريكيين بأنهم، إذا ألحّوا للحصول على «دليل دامغ» للاتهامات الموجهة إلى ليبيا، فلن يحصلوا على شيء من ذلك. «سيبدو الأمر وكأننا نصرخ مرة أخرى أن الذئب جاء ليهاجم الغنم»[٤٤] وفي رد على مذكرة بويندكستر - التي كان الكشف عنها قد تسبب بفضيحة صغيرة - استقال (برنارد كالب Bernard Kalb) كبير المتحدثين

باسم وزارة الخارجية الأمريكية وكانت استقالته على سبيل الاحتجاج، لأنه شعر بالقلق على الثقة بأمريكا.. بصدقية أمريكا» و «بأي شكل يلحق الأذى بأمريكا»(٤٥).

الموضوع تسلل إلى البريطانيين، الذين وصف مسؤولوهم التحليل الاستخباري الأمريكي لنيات ليبيا بأنها «جامحة في عدم الدقة»، قائلين: إن هذا التحليل نقل إلى البريطانيين في «محاولة متعمدة للغش»(٤٦).

في المدة ذاتها، وعلى ضوء الأخبار الأمريكية (التي ولّدتها مذكرة بويندكستر) عن احتمال توجيه ضربات جديدة إلى ليبيا انتقاماً من أعمال إرهابية مزعومة كان يخطط لها نظام حكم القذافي، دعا رئيس وزراء ليبيا النشيط الولايات المتحدة لتقديم تفاصيل الأعمال المزعومة لكي تتمكن ليبيا من «التعاون بصورة كاملة لتفادي وإجهاض هجمات من هذا القبيل وللقبض على الأفراد الفاعلين وتقديمهم للمحاكمة». وقال: إن طلبه هذا، الذي أرسل إلى واشنطن عبر القنوات الدبلوماسية، ظل بدون جواب(٤٧). في اليوم التالي، تحدى القذافي في خطاب ألقاه في ليبيا، الولايات المتحدة أن تقدم بيانات مصرفية تظهر أن ليبيا موّلت الإرهاب(٤٨).

قال أحد أبناء إيرلندة (son of Erin a) ذات مرة: «إن نصف أكاذيبهم عن الإيرلنديين ليست صحيحة». إن استخدام المعلومات الكاذبة عن القذافي وليبيا من قبل الولايات المتحدة بصورة منتظمة أحاطت الصورة التاريخية بالضباب بحيث صار في منتهى الصعوبة أغلب الأحيان، الفصل بين الواقع والخيال، والتمييز بين دعم ليبي معنوي أو رمزي، ومجرد وعود إلى حركة ثورية بدعم كبير وحيوي. وحقيقة إن إدارة ريغان شعرت بالحاجة إلى شن حملات تزييف معلومات ضد ليبيا، إنما تؤشر إلى ندرة في مواجهة ليبيا وهو متلبسة بالإرهاب.

في الأول من أيلول (سبتمبر) ١٩٦٩ قاد النقيب معمر القذافي مجموعة من رفاقه الضباط في عملية خالية من سفك الدماء لإسقاط النظام الملكي وتأسيس الجمهورية العربية الليبية. وعلى الرغم من «إثارة المتاعب» له في الخارج، حافظ في البداية على حظوته عند الغرب - لقد أحبطت الولايات المتحدة ثلاث مؤامرات

خطيرة ضد حكمه خلال السنتين الأولين[٤٩] - بسبب عدائه الشديد للشيوعية. هذا العداء الناشC أساساً من فهمه لإلحاد الماركسية الضمني بمعناه الظاهري معتبراً إياه خصماً للعقيدة الإسلامية. لكن ذلك لم يمنعه من محاولة إجراء تغييرات اجتماعية واقتصادية ثورية في المجتمع الليبي اعتبرها الآخرون تغييرات ماركسية. هذا، إضافة إلى الدخول في اتفاقيات لتطوير استخراج النفط واتفاقيات للحصول على السلاح من الاتحاد السوفييتي، ربما كانت بداية النهاية لتسامح الغرب مع مغامراته الخارجية[٥٠].

خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، كان القذافي متهماً باستخدام عائداته المالية الكبيرة من النفط لكي يدعم - بالمال، والسلاح، والتدريب، وإقامة المكاتب، وتوفير الملاذ الآمن، وبالدبلوماسية و/أو بالأعمال التخريبية عامة - طيفاً واسعاً من المنظمات الراديكالية: والمنشقة عن حكوماتها/ والإرهابية، وخاصة فئات فلسطينية وحركات إسلامية منشقة عن حكوماتها وحركات أقليات في أجزاء مختلفة من الشرق الأوسط وافريقيا وآسيا، وكذلك منظمة الجيش الجمهوري الإيرلندي ومنظمتي الباسك وكورسيكا الانفصاليتين في أوروبا، وعدة مجموعات كانت تناضل ضد نظام الابارتيد - الفصل العنصري - في جنوب افريقيا، و(نوريبغا Noriega) في بنما والجماعات والسياسيين المنتمين إلى المعارضة في كوستاريكا Costarica، و(سانت لوسيا St. Lucia) وجامايكا، ودومينيكا، والمستعمرات الفرنسية في البحر الكاريبي: غواديلوب، وغيانا الفرنسية وجزر المارتينيك، والجيش الأحمر الياباني، والألوية الحمراء الإيطالية، وعصابة (بادر ماينهوف Baader Meinhof) الألمانية.. وليس هناك نهاية لهذه القائمة.

وكان هناك ادعاء أيضاً بأن ليبيا كانت وراء، أو على الأقل ذات علاقة، بمحاولة قتل البابا يوحنا بولس، واغتيال الرئيس المصري أنور السادات، وتلغيم قناة السويس، ومحاولة تفجير السفارة الأمريكية في القاهرة، والعديد من أعمال خطف الطائرات، وتفجير قنبلة في طائرات ركاب أمريكية فوق اليونان وتفجير كنيس يهودي في

استانبول، والعمل لزعزعة استقرار حكومات تشاد، وليبيريا، والسودان وبلدان أفريقية أخرى.. ثم إن.. القذافي كان يتعاطى المخدرات، مفرط في ميله للنساء، وكان مخنثاً، يلبس ملابس النساء، ويتزين بزينتهن، ويحمل دمية على هيئة دب، ومصاباً بنوبات من الصرع..[٥١].

الأمر الأكثر تأكيداً هي حقيقة أنه على مدى سنوات عديدة كان يستعين بأفراد من وكالة المخابرات المركزية، ولاسيما (ادوين ولسون Edwin Wilson) و(فرانك تربيل Frank Terpil) لتزويده بالطائرات والطيارين والميكانيكيين والمدربين من (معتمري القبعات الخضر Green Beret instructors) وكل أنواع الأسلحة المعقدة والمعدات والمتفجرات، وللمساعدة في إقامة معسكرات تدريب لشبه العسكريين في ليبيا[٥٢].

واستنتجت منظمة العفو الدولية في عام ١٩٨٧ أن ليبيا اعتدت على ما لا يقل عن ٣٧ من الأشخاص الذين انشقوا على القذافي والمقيمين في الخارج منذ عام ١٩٨٠، وقتلت منهم ٢٥ شخصاً[٥٣].

في كانون الثاني (يناير) ١٩٨٩ أضافت وزارة الخارجية الأمريكية إلى أفضال القذافي تأكيدها أن ليبيا كانت تموّل وتدرب «أفراداً وجماعات راديكاليين أنشطتهم تفاقم المشاكل المحلية» في تايلاند، والفلبين، وأندونيسيا، واليابان وكاليدونيا الجديدة. قبل ذلك ببضعة شهور، كانت وكالة المخابرات المركزية قد اتهمت ليبيا ببناء أكبر معمل للغازات السامة في العالم[٥٤]. وفي آذار (مارس) ١٩٩٠ شب حريق في المعمل المذكور فأتت عليه النيران كلياً. وعلى الفور أكد الرئيس بوش شخصياً للعالم أن لا علاقة للولايات المتحدة «إطلاقاً» بالحريق. قبل ذلك بأسبوع سئل المتحدث باسم البيت الأبيض هل يمكن أن تتخذ الولايات المتحدة إجراء عسكرياً لتدمير المعمل. كان الجواب «لا نستبعد أي شيء»[٥٥].

وفي شيكاغو، أعضاء عصابة شوارع..

«أدينوا في أواخر عام ١٩٨٧ بالتخطيط لأنشطة إرهابية» الادعاء العام في الولايات المتحدة اتهم العصابة بأنها، حسب المتوقع، ستحصل على ٢,٥ مليون دولار من ليبيا للقيام بمحاولات اغتيال سياسيين أمريكيين والاعتداء على طائرات ومنشآت حكومية أمريكية»(٥٦).

هذا، بكامله، ما روته جريدة «لوس انجلس تايمز Los Angeles Times)، وبدا كأن زعيم ليبيا وراء ذلك مرة أخرى. في الواقع، «الاغتيالات» سواء أكانت في مرحلة التخطيط أو التنفيذ، لم تكن إحدى التهم الموجهة إلى ليبيا، ولم يقدم أي دليل إطلاقاً في المحاكمة على أن ليبيا كانت لها أية علاقة بالشروع في هذه الأعمال أو تشجيعها، أو انها دفعت أو وعدت بدفع أية أموال. كان أفراد عصابة الركن، وهي فرقة إسلامية، وساذجة في التطرف، قد التقوا مع ممثلين لليبيا في نيويورك، وبنما وليبيا، وتوددوا إليهم محاولين إقناعهم بقدراتهم البطولية وولائهم للقذافي، ملهم هؤلاء هو زعيم «أمة الإسلام» لويس فرقان، الذي يقال: «إن ليبيا وعدته بمبلغ خمسة ملايين دولار. فإذا كانت عصابة الركن قد تلقت وعداً بمبلغ ٢,٥ مليون دولار - وهذا بحسب قولها - يبدو لنا كلا الوعدين ليسا أكثر من مسرّات القذافي الثورية. (ادعى الجيش الجمهوري الايرلندي أيضاً أنه لم يتسلم أية أموال من ليبيا، خلافاً لمزاعم القذافي(٥٧). لعله نوع من العداء لليبيا الذي تغذى به الشعب الأمريكي خلال أكثر من عقد من السنين، هو الذي جعل أعضاء العصابة - عبر استخدام الحكومة مخبرين مشكوك في أمرهم أو عبر الإيقاع بالناس - يحكم عليهم من قبل هيئة المحلفين بأنهم مذنبون بالتآمر، وصدرت بحقهم أحكام بالسجن مدداً طويلة غير اعتيادية. وقيل: إن تلك كانت أول مرة أدين فيها مواطنون أمريكيون بتهم ارتكاب أعمال إرهابية(٥٨).

يبدو الأمر أشبه بأفلام رعب سينمائية من الدرجة الثانية. عشر مرات ينبعث هذا الأمر من الموت ويندفع باتجاه المشاهدين، وعشر مرات يتفتت إلى شرائط، فيتعثر ويسقط إلى الخلف، وينهار في كومة على الأرض، وعشر مرات ينهض مرة

أخرى ويسير الهوينى إلى الأمام. ولكنه ليس شبح مومياء، ولا يجوس أعالي النيل. إنها الفكرة القائلة: إن الزعيم الليبي العقيد معمر القذافي مسؤول عن كل عمل إرهابي في سائر أنحاء العالم، وهذه الفكرة دائبة التردد على صفحات الصحافة الغربية وعلى شاشات أجهزة التلفزيون في الغرب[٥٩].

رحلة طائرة بان أمريكان ١٠٣

في ٢١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٨، انفجرت طائرة بان أمريكان في رحلتها رقم ١٠٣ فوق بلدة لوكربي، اسكتلندة، مما أدى إلى مقتل ٢٧٠ شخصاً أكثر من نصفهم أمريكيون. بعد ذلك بخمسة أعوام أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية أن وكالة المخابرات المركزية «واثقة» أن الأوغاد الذين زرعوا قنبلة في الطائرة أعضاء في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، القيادة العامة، بزعامة أحمد جبريل، ومركزه في سورية، وقد استأجرتهم إيران للانتقام من إسقاط الأمريكيين طائرة ركاب إيرانية[٦٠] ومع أنه لم يكن بالإمكان فعل الشيء الكثير لاعتقال أحمد جبريل وأعوانه، فإن هذا الرأي ظل الرأي الرسمي الأمريكي المؤكد والذي تكرر مراراً، مع أن سورية وإيران اعتُبرتا المفتاحين اللذين يؤديان إلى الإفراج عن الرهائن الغربيين المحتجزين في لبنان. ثم إن شيئاً غريباً حدث في العام ١٩٩٠. ذلك أن الولايات المتحدة كانت تستعد لشن حرب على العراق. فما قولكم في من برز كواحد من حلفائها مرسلاً قوات إلى المملكة العربية السعودية للجهاد ضد صدام حسين؟ لم يكن هذا الواحد سوى أرض سورية التي تشكل ملاذاً للإرهابيين. ومن هي الجهة التي كانت تسعى واشنطن لكسبها إلى جانبها في الحرب؟ إنها إيران الشريرة. هذا لم يُجدِ نفعاً. ففي مطلع شهر تشرين الأول أعلن مسؤولون أمريكيون أن دليلاً اكتشف حديثاً يؤشر إلى أن عملاء المخابرات الليبية ربما كانوا هم الذين صنعوا القنبلة وزرعوها في الطائرة. ولكنهم لم يلبثوا أن نوهوا بأن هذا لا يعفي إيران وسوريا والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، القيادة العامة، من مسؤولية المشاركة في العمل[٦١].

بعد الحرب تسربت، شيئاً فشيئاً، قضية اتهامية مشهورة ضد ليبيا، إلى أن وجهت التهمة في ١٤ تشرين الثاني ١٩٩١ إلى اثنين من مسؤولي المخابرات الليبية غيابياً باعتبارهما مرتكبي الفعل. وقد أكد رئيس القسم الجنائي في وزارة العدل الأمريكية في اليوم ذاته أنه لا يوجد دليل على صلة لأي من إيران أو سورية بتفجير الطائرة «ونحّى جانباً الكلام عن أن هذا الاستنتاج كان بتأثير رغبة الولايات المتحدة في تحسين العلاقات مع سورية»[٦٢]. وخلال العشرين يوماً التالية أفرج عن أربعة رهائن أمريكيين كانوا لا يزالون محتجزين في لبنان ومعهم الرهينة الأبرز وهو البريطاني (تيري ويت Terry Waite).

وما قولكم في الدليل ضد الشخصين الليبيين؟ إنهما قطعتان من معدن بحجم أظافر الأصابع قيل: إنهما من أجهزة للتوقيت الإلكتروني. ينبغي للمرء أن يقرأ الرواية التفصيلية لما تستند إليه القضية ضد ليبيا لكي يتمكن من تقدير هزالها بالكامل[٦٣]. علاوة على ذلك، عرض برنامج «الصمت عن لوكربي Silence over Lockerbie) الذي أذاعته محطة الإذاعة البريطانية (C.B.B) في شهر كانون الأول ١٩٩٣، وقدمت فيه نتائج جديدة تلقي شكوكاً كبيرة على القضية ضد ليبيا وتشير فيها إلى أن بريطانيا والولايات المتحدة اتهمتا ليبيا من أجل تحويل الشكوك عن سورية وإيران. كانت المعلومة الجديدة الهامة هي أن الرجل السويسري الذي يصنع أجهزة التوقيت الالكتروني غيّر إفادته السابقة التي قال فيها: إن ليبيا هي الوحيدة التي اشترت أجهزة من هذا القبيل. لقد تذكر الآن أنه كان قد باع أجهزة توقيت الكتروني إلى ألمانيا الشرقية أيضاً، وكانت هناك صلات وثيقة بين الشرطة السرية في ألمانيا الشرقية والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، القيادة العامة، وغيرها من الجماعات العربية الإرهابية. والأهم من ذلك أن مهندساً يعمل في شركة لصناعة الساعات في سويسرا أعلن أنه كان قد أبلغ المحققين في قضية لوكربي الصلة مع ألمانيا الشرقية في أواخر عام ١٩٩٠، وهذا يعني أن المحققين الدوليين كانوا يعلمون أن اتهامهم لليبيا فيه ثغرة كبيرة، إن لم تكن قاتلة، إما قبل إعلان الاتهام في تشرين

الأول، أو بعد ذلك بوقت قصير[٦٤]. «لقد أعلن (فولكرراث Volker Rath) المدعي العام الألماني والمختص بقضية لوكربي، في عام ١٩٩٤ أن ما من قاضٍ ألماني يمكنه أن يسجن الشخصين المشتبه بهما على أساس الدليل الراهن»[٦٥].

حاشية: في عام ٢٠٠٣ أعلنت الحكومة الليبية قبولها «المسؤولية» عن تفجير الطائرة في عام ١٩٨٨ - ولكن دون أن تعترف بدور فعلي في ذلك الحدث - على أمل إنهاء العقوبات المفروضة عليها من الولايات المتحدة والأمم المتحدة. لقد وافقت ليبيا على ذلك لأن ليبياً اعتُبرت في عام ٢٠٠١ مذنبة بزرع القنبلة خلال محاكمة جرت في لاهاي. بيد أن هذه المحاكمة اعتبرت على نطاق واسع مهزلة[٦٦].

القذافي الجديد؟

لعل معمر القذافي المصاب غالباً بالاكتئاب بدأ يفهم - بعد أن وجد طريقه عبر المعلومات المزورة - لماذا تتهمه الولايات المتحدة والحكومات الأخرى. لقد بدا في النصف الثاني من عام ١٩٨٨ وكأنه نضج، وشرع في جملة من التبديلات التقدمية في المجتمع الليبي إذ حرر الحريات المدنية وأفرج عن مئات من السجناء السياسيين، وألغى القيود المفروضة على السفر إلى الخارج وحرر الاقتصاد «مطلوب من جميع الليبيين أن يصبحوا بورجوازيين». وفي الوقت ذاته تصالح أو حسّن العلاقات مع عدد من الدول الأفريقية المجاورة[٦٧].

ولكن مع بداية العام ١٩٨٩ وبينما كانت واشنطن تستعد للتحول من رونالد ريغان إلى جورج بوش، احتفلت الولايات المتحدة بهذه المناسبة عن طريق القيام ببعض «المناورات العسكرية الأخرى في ساحة ليبيا الخلفية وأسقطت طائرتين ليبيتين أخريين. وقد رأت وزارة الخارجية الأمريكية من المناسب آنذاك أن تصدر روايتها الأكثر تفصيلاً حتى ذلك الحين عن تورط ليبيا في الإرهاب الدولي - «وهذه محاولة لإبقاء الضغط الدولي على ليبيا» حسب ما ورد في جريدة «لوس أنجلس تايمز»[٦٨]. مع ذلك استمر القذافي في إظهار شخصيته الجديدة. فقد أعلن أنه

اتخذ قراراً بقطع أو تقليص تدفق الأموال إلى مجموعات أجنبية مختلفة وأنه أبلغ العديد من الجماعات الفلسطينية أنها لم تعد تتلقى تمويلاً مباشراً من حكومته وأن عليها أن تقفل مكاتبها في ليبيا. واعترف أيضاً بأن ليبيا سبق لها أن مولت جماعات إرهابية ولكنه قال: إنها لم تعد تفعل ذلك - «عندما اكتشفنا أن هذه الجماعات تتسبب بالأذى أكثر مما تفيد القضية العربية أوقفنا مساعداتنا لها نهائياً وسحبنا تأييدنا لها» - مضيفاً إلى ذلك أنه لا يرغب في أية مجابهة مع واشنطن(٦٩).

إن الولايات المتحدة لم تقتنع بأي شيء من هذا الكلام. ولعلها شعرت أنها لن تجني أية فائدة من تقليص حملتها على القذافي، وإنما كانت بذلك ستخسر عدواً.

العراق ١٩٩٠ - ١٩٩١

محرقة الصحراء Desert holocaust

قال جندي في العشرين من عمره «هذا هو الجزء الذي لم أكن أريد رؤيته. كل المشردين، كل الأذى، عندما عبرنا مخيم اللاجئين، هذا شيء لم نكن بحاجة إليه».

قال الرقيب: «إنه في الحقيقة شيء محزن. يأتي إلينا أولاد صغار، وعندما يرون بندقيتي، يبدؤون بالبكاء. هذا في الحقيقة ما ينفطر له قلبي».

قال جندي آخر: «في الليل أنت تقتل ثم تواصل السير. إنك لا تتوقف. لست مضطراً لرؤية أي شيء. لم تعلمنا مؤخرة قواتنا قبل صباح اليوم التالي أن الدمار كان كلياً. لقد قتلنا الفرقة بكاملها»(١).

مع أن أمماً عديدة لها سجل رهيب في الأزمنة الحديثة بإلحاق معاناة شديدة في مواجهتها مع ضحاياها، فإن الأمريكيين كانوا حريصين على إبقاء أنفسهم على مسافة بينما ينزلون بالآخرين بعض أضخم أشياء العصر المرعبة: قنابل ذرية على شعب اليابان، قصف ساحق لكوريا أعادها إلى العصر الحجري، قصف الفيتناميين بقنابل النابالم والمبيدات الحشرية، تزويد بلدان أمريكا اللاتينية خلال ثلاثة عقود من السنين بأدوات وأساليب التعذيب، ثم يشيحون بأبصارهم ويصمون آذانهم لدى سماع صرخات الألم، وينكرون كل شيء.. والآن هاهم يقصفون شعب العراق بمئة وسبعة وسبعين باونداً من القنابل في أعنف هجوم جوي في تاريخ العالم.

ما الذي حمل الولايات المتحدة على تنفيذ هذا التدمير الذي لا هوادة فيه على مدى أكثر من أربعين نهاراً وليلة لإحدى أكثر دول الشرق الأوسط تقدماً واستنارة وعاصمتها العريقة والعصرية؟.

كـان هـذا في النصف الأول من عـام ١٩٩٠. كـان يتم هدم جـدار برلين على أساس يومي. وكان هناك ابتهاج بانتهاء الحرب الباردة وتفاؤل ببدء حقبة جديدة من السلام والازدهار. كانت إدارة بوش تتعرض للضغط لتخفيض الميزانية العسكرية الموحشة في ضخامتها وإقامة «عصرٍ من السلام». ولكن جورج بوش القائد الأعلى للقوات المسلحة، والعامل سابقاً في مجال النفط في ولاية تكساس، والمدير السابق لوكالة المخابرات المركزية، لم يكن على وشك إدارة ظهره إلى إخوانه الكثيرين في المجمّع العسكري والصناعي والمخابراتي. إنه يتهجم على الذين «يقطعون بسذاجتهم عضلة وضعنا الدفاعي» ويصرّ على أنه ينبغي لنا أن نتخذ موقف الحذر والحيطة تجاه الإصلاح في الاتحاد السوفييتي[٢]. لقد قيل في شهر شباط (فبراير): إن «الإدارة والكونغرس يتوقعان أعنف معركة في التاريخ الحديث حول ميزانية الدفاع» وفي شهر حزيران (يونيو) «تصاعد التوتر» بين الكونغرس والبنتاغون «إذ أن الكونغرس استعد لإعداد واحدة من أ هم ميزانيات الدفاع المحورية في العقدين الأخيرين من السنين»[٣]. بعد ذلك بشهر صوّتت لجنة فرعية في مجلس الشيوخ لتخفيض الطاقة البشرية العسكرية بما يقرب من ثلاث مرات أكثر مما أوصت به إدارة بوش.. «إن حجم التخفيضات وتوجهها يشيران إلى أن الرئيس بوش كاد يخسر معركته بشأن كيفية إدارة التخفيضات في الإنفاق العسكري»[٤].

خلال المدة ذاتها، كانت شعبية بوش تنخفض سريعاً من معدل ثابت هو ٨٠ بالمئة في شهر كانون الثاني (يناير) - عندما استفاد من موجة التأييد الشعبي لغزوه بنما في الشهر السابق - إلى ٧٣ بالمئة في شباط (فبراير) فإلى منتصف الستين في شهري أيار (مايو) وحزيران (يونيو)، ونزولاً إلى ٦٣ بالمئة في تموز (يوليو) ثم إلى ٦٠ بالمئة بعد ذلك بأسبوعين[٥].

كان جورج (هربرت ووكر بوش George Herbert Walker Bush) بحاجة إلى شيء دراماتيكي للاستئثار بالعناوين الرئيسية في الصحف وبتأييد الرأي العام، ولإقناع الكونغرس بأن الحاجة إلى جهاز عسكري قوي ليست الآن أقل مما كانت في الماضي لأن العالم لا يزال عالماً مخيفاً وخطراً.

ومع أن رواية واشنطن الرسمية للأحداث عرضت احتلال العراق للبلد المجاور الكويت، على أنه عدوان تعسفي ليس له مبرر، فإن الكويت كانت سابقاً في واقع الأمر إحدى مناطق العراق في أثناء الحكم العثماني وحتى الحرب العالمية الأولى. ولكن بعد الحرب، ومن أجل ممارسة فاعلية على العراق الذي يملك ثروة ضخمة من النفط، قررت وزارة المستعمرات البريطانية أن تجعل من البلد الصغير، الكويت، كياناً منفصلاً، في عملية هدفها قطع معظم منافذ العراق على الخليج الفارسي. وفي عام ١٩٦١ أصبحت الكويت مستقلة، ومرة أخرى لأن هذه كانت إرادة بريطانيا، فحشد العراق قواته على الحدود، ثم تراجع بعد أن أرسلت بريطانيا قواتها. إن حكومات العراق اللاحقة لم تقبل أبداً بشرعية هذه الأمور، وصدرت عنها تهديدات مماثلة في السبعينيات من القرن العشرين، بل جرى تجاوز الحدود مسافة نصف ميل إلى داخل الكويت في عام ١٩٧٦، ولكن بغداد كانت أيضاً منفتحة على حل وسط مع الكويت حصل العراق بموجبه على منفذ إلى جزره السابقة في الخليج[٦].

تكمن جذور النزاع الحالي في الحرب الوحشية بين العراق وإيران في المدة من عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٨٨. إن العراق الذي كان يخوض المعركة، اتهم الكويت بأنها كانت تسرق ما قيمته ٢,٤ بليون دولار من نفط حقل الرميلة الذي يمتد تحت الحدود العراقية - الكويتية المحددة بصورة غامضة. هذا الحقل الذي كان العراق يدعي انه يقع بكامله في الأرض العراقية، وان الكويت أقامت منشآت عسكرية وغيرها على الأرض العراقية، وأسوأ من كل ذلك أن الكويت ودولة الإمارات العربية المتحدة شرعتا بعد انتهاء الحرب مباشرة بزيادة كوتا الإنتاج المحددة من قبل منظمة البلدان المصدرة للنفط (اوبك)، فأغرقتا سوق النفط بالإنتاج وتسببتا في انخفاض الأسعار. كان العراق في حالة عسر وغارقاً في الديون بسبب الحرب الطويلة، وأعلن الرئيس العراقي صدام حسين أن هذه السياسة تشكل تهديداً متزايداً لبلده ووصف هذه الحالة بأنها «حرب اقتصادية»،منوهاً بأن العراق كان يخسر بليون دولار سنوياً مع كل هبوط بمقدار دولار واحد في سعر النفط[٧]، وأصر صدام حسين على

امتلاك جزيرتين في الخليج تحولان دون وصول العراق إلى الخليج، وعلى امتلاك حقل الرميلة دون منازع، إضافة إلى الحصول على تعويضات عن الخسارة في أسعار النفط.

في النصف الثاني من شهر تموز (يوليو) ١٩٩٠، بعد أن استمرت الكويت في الهزء من مطالب العراق المالية ومطالبه في الأرض، واستمرت أيضاً في تجاهل طلب منظمة أوبك إليها أن تلتزم الكوتا المخصصة لها، بدأ العراق يحشد أعداداً كبيرة من القوات على الحدود الكويتية.

ورد الفعل إزاء هذا كله من جانب القوة العظمى الوحيدة المتبقية في العالم والتي عينت نفسها شرطياً عالمياً، أصبح موضوع تحليل كثيف وموضوعاً قابلاً للجدل بعد أن غزا العراق الكويت فعلاً. ترى هل أعطت واشنطن العراق ضوءاً أخضر للغزو؟ هذا الجدل أشعلت ناره حوادث كالتالية:

١٩ **تموز**: صرح وزير الدفاع (ديك تشيني Dick Cheney) أن الالتزام الذي أعلنته أمريكا خلال الحرب بين العراق وإيران بأن تدافع عن الكويت إذا هوجمت لا يزال قائماً. هذه النقطة أكدها (بول وولفوفيتز Paul Wolfofwitz) نائب وزير الدفاع لشؤون السياسة في غداء خاص مع السفراء العرب. (من دواعي السخرية أن الكويت كانت متحالفة مع العراق خوفاً من هجوم إيراني). في وقت لاحق جرى تخفيف كلام تشيني من قبل المتحدث باسمه (بيت وليامز Pete Williams) الذي أوضح أن وزير الدفاع كان يتحدث «بدرجة من الحرية». بعدئذ قال البيت الأبيض لتشيني «إنك تلزمنا بحرب قد لا نريد أن نخوضها» ونصحه بشدة أن تكون التصريحات حول العراق صادرة من الآن فصاعداً عن البيت الأبيض ووزارة الخارجية(٨).

٢٤ **تموز**: أجابت (مارغريت توتوايلر Margaret Tutweiler) المتحدثة باسم وزارة الخارجية، على سؤال بقولها: «لا توجد بيننا وبين الكويت معاهدات دفاعية، ولا توجد التزامات دفاعية وأمنية تجاه الكويت». وعندما سئلت هل ستساعد

الولايات المتحدة الكويت إذا هوجمت؟. فقالت: «نحن نظل أيضاً ملتزمين التزاماً قوياً بتأييد الدفاع عن النفس فردياً وجماعياً لدى أصدقائنا في الخليج الذين تربطنا بهم روابط عميقة وطويلة الأجل» - هذا التصريح اعتبره بعض المسؤولين الكويتيين في أحاديث خاصة بأنه ضعيف جداً[٩].

٢٤ تموز: أجرت الولايات المتحدة مناورة عسكرية نادرة وغير مقررة مسبقاً بالاشتراك مع دولة الإمارات العربية المتحدة، وعند ذلك أعلن (بيت وليامز) نفسه: «نظل ملتزمين التزاماً قوياً بتأييد الدفاع عن النفس فردياً وجماعياً لدى أصدقائنا في الخليج الذين تربطنا بهم روابط عميقة وطويلة الأجل». وأعلن البيت الأبيض: «نحن قلقون من جراء الحشد العسكري العراقي. نحن نطلب من جميع الأطراف أن تبذل جهدها لتجنب العنف»[١٠].

٢٥ تموز: أبلغت السفيرة الأمريكية لدى العراق (إبريل غلاسبي April Glaspie) صدام حسين شخصياً، بعبارة اكتسبت الآن شهرة: «إننا لا رأي لنا في النزاعات العربية - العربية كخلافكم على الحدود مع الكويت». ولكنها تابعت كلامها قائلة للزعيم العراقي: إنها قلقة من جراء نشره قوات كبيرة على الحدود الكويتية في سياق وصم حكومته إجراءات الكويت بأنها «موازية للعدوان العسكري»[١١].

٢٥ تموز: ألغى (جون كيلي John Kelly) مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط وجنوب آسيا تصريحاً كان مقرراً أن يصدر عن إذاعة صوت أمريكا محذراً العراق بكلمات مماثلة لتلك التي استعملها كل من توتوايلر ووليامز[١٢].

لعل صدام حسين لم يعرف بهذه الحادثة مع أنه كان هو شخصياً في شهر نيسان قد حصل على تأكيد من السيناتور (روبرت دول Robert Dole) زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ الأمريكي الذي كان يتحدث باسم الرئيس الأمريكي أن إدارة بوش تنأى بنفسها عن تصريح صوت أمريكا الذي ينتقد انتهاكات العراق لحقوق الإنسان وتعارض أيضاً اقتراحاً في الكونغرس لفرض عقوبات اقتصادية على العراق[١٣].

٢٧ **تموز**: صوّت كل من مجلسي الشيوخ والنواب الأمريكيين على فرض عقوبات اقتصادية على العراق بسبب انتهاكاته لحقوق الإنسان. بيد أن إدارة بوش بادرت على الفور لتكرار معارضتها لهذا الإجراء[١٤].

٢٨ **تموز**: أرسل بوش رسالة شخصية إلى صدام حسين (الظاهر أنه أرسلها بعد استلامه تقرير غلاسبي عن اجتماعها مع الرئيس العراقي) محذراً إياه من استخدام القوة ولكن دون أن يشير مباشرة إلى الكويت[١٥].

٣١ **تموز**: أبلغ كيلي الكونغرس: «لا توجد بيننا وبين أي بلد في الخليج علاقة من نوع معاهدة دفاعية. هذا واضح.. نحن تاريخياً تجنبنا اتخاذ موقف إزاء خلافات الحدود أو إزاء المداولات الداخلية في منظمة أوبك».

سئل (لي هاملتون Lee Hamilton) عضو مجلس النواب إن كان صحيحاً القول أن الولايات المتحدة في حالة «عبور العراق الحدود إلى داخل الكويت» لا يوجد التزام من قبلها بموجب معاهدة تفرض عليها إرسال قوات أمريكية إلى هناك. أجاب كيلي: «هذا صحيح»[١٦].

في اليوم التالي (بتوقيت واشنطن) عبرت القوات العراقية تتقدمها الدبابات الحدود الكويتية، وفي الحال أعلنت الولايات المتحدة معارضتها الشديدة.

بالرغم من التصريحات الرسمية، يبدو أنه كان للولايات المتحدة موقف رسمي فعلاً حول خلاف الحدود بين العراق والكويت. عقب الغزو كانت إحدى الوثائق التي وجدها العراقيون في أحد ملفات المخابرات الكويتية مذكرة تتعلق بالاجتماع الذي عقد في تشرين الثاني ١٩٨٩ بين رئيس أمن الدولة الكويتي ومدير وكالة المخابرات المركزية (وليم وبستر William Webster)، جاء فيها مايلي:

«اتفقنا مع الجانب الأمريكي على أهمية الاستفادة من تدهور الوضع الاقتصادي في العراق لنمارس الضغط على حكومة ذلك البلد لتخطيط حدودنا المشتركة. لقد أعطتنا وكالة المخابرات المركزية وجهة نظرها في الوسيلة المناسبة للضغط، قائلة: «إن التعاون الواسع يجب أن يبدأ بيننا بشرط أن مثل هذه الأنشطة سيتم تنسيقها على مستوى رفيع».

وصفت وكالة المخابرات المركزية الوثيقة بأنها «اختلاق كامل». غير أن جريدة «لوس انجلس تايمز» نوهت «بأن المذكرة ليست تزويراً واضحاً، لاسيما لأنه لو كان المسؤولون العراقيون هم الذين كتبوها لكان من المؤكد أن يجعلوا منها أداة أكثر ضرراً للولايات المتحدة ولمصداقية الكويت»(١٧). الظاهر أن الوثيقة كانت حقيقية ومسيئة بما فيه الكفاية إلى وزير خارجية الكويت - الذي أغمي عليه عندما جابهه نظيره العراقي بالوثيقة في مؤتمر قمة عربي في أواسط آب(١٨).

عندما سئل السفير العراقي في واشنطن لماذا بدت الوثيقة وكأنها مناقضة لتأكيد السفيرة الأمريكية غلاسبي للحياد في هذا الموضوع أجاب قائلاً إن كلامها كان «جزءاً لا يتجزأ من التركيبة»(١٩).

هل كان العراق منساقاً للولايات المتحدة والكويت؟ وهل جرى استفزاز صدام حسين للقيام بالغزو - توقعاً من المتآمرين لعل الغزو لن يتعدى منطقة الحدود - بحيث يمكن تقليص حجم صدام إلى الحد الذي يريده البلدان؟.

في شهر شباط ١٩٩٠ ألقى صدام حسين خطاباً في مؤتمر قمة عربي. كان يمكن لهذا الخطاب بالتأكيد أن يعطي زخماً لهذه المؤامرة. فهو أدان في خطابه استمرار الوجود العسكري الأمريكي في مياه الخليج العربي وحذر من أنه «إذا أخفقت جماعة الخليج ومعها بقية العرب في الاهتمام بالأمر، فإن منطقة الخليج العربي ستحكمها الإرادة الأمريكية». إضافة إلى ذلك ستملي الولايات المتحدة قراراتها بشأن إنتاج النفط وتوزيعه وأسعاره، «كل ذلك على أساس نظرة خاصة لها علاقة فقط بالمصالح الأمريكية ولا يُعطى وفق هذه النظرة أي اعتبار لمصالح الآخرين».

عندما ندقق في موضوع هل كانت هناك مؤامرة على العراق وصدام حسين؟ يجب أن نأخذ بعين الاعتبار، إضافة إلى المؤشرات المذكورة أعلاه، الأمور التالية:

لقد أكد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أن واشنطن أحبطت فرصة التوصل إلى حل سلمي للخلافات بين الكويت والعراق في القمة العربية التي عقدت في شهر أيار، بعد أن كان صدام حسين قد عرض التفاوض مع الكويت على

حدود مقبولة من الجانبين. وقال عرفات: «كانت الولايات المتحدة تشجع الكويت على الامتناع عن تقديم أي حل وسط وهذا يعني أنه لم يكن ثمة مجال لحل عن طريق التفاوض بغية تجنب أزمة الخليج». وقال: إن الكويت أقنعت بدلاً من ذلك بأنها تستطيع الاعتماد على قوة الأسلحة الأمريكية(٢١).

على غرار ذلك، كشف الملك حسين ملك الأردن النقاب عن أن وزير خارجية الكويت صرح قبيل الغزو العراقي بقوله: «نحن لن نرد على العراق.. إذا لم يعجبهم ذلك فليحتلوا بلدنا.. نحن عازمون على إحضار الأمريكيين». كما أن أمير دولة الكويت أبلغ ضباطه العسكريين أن من واجبهم في حالة حدوث غزو أن يصدوا القوات العراقية لمدة ٢٤ ساعة وعندها «ستصل قوات أمريكية وأجنبية إلى الكويت وتطرد القوات العراقية». وعبر الملك حسين عن رأيه أن المفهوم العربي هو أن صدام حسين غُرِّر به للقيام بالغزو، وبذلك أوقعوه في أنشوطة أعدت له(٢٢).

رفض أمير دولة الكويت الموافقة على طلبات العراق المالية، وعرض بدلاً من ذلك على بغداد مبلغاً مهيناً هو نصف مليون دولار. وقد وجه مذكرة إلى رئيس وزرائه قبل الغزو تحدث فيها عن تأييد مصر وواشنطن ولندن لهذه السياسة. وقال الأمير في مذكرته «كونوا ثابتين في محادثاتكم. نحن أقوى مما يعتقد العراقيون»(٢٣).

اعترف وزير النفط والمالية الكويتي بعد الحرب:

«ولكننا كنا نعلم أن الولايات المتحدة لن تسمح بهزيمتنا. أمضيت الكثير من الوقت في واشنطن لارتكاب هذه الغلطة. استقبلت سلسلة من الزوار هنا. كانت السياسة الأمريكية واضحة. صدام حسين وحده لم يفهمها»(٢٤).

ولكن لعلنا رأينا أسباباً عديدة لفشل صدام في فهمها.

لقد أعلن وزير خارجية العراق طارق عزيز أن هبوطاً حاداً في سعر النفط، كان شيئاً يستطيع الكويتيون تحمله بسهولة بما لهم من استثمارات واسعة في الغرب،

ولكن هذا الهبوط الحاد سوف يقلص إيرادات النفط المالية، وهذه الإيرادات تعتبر جوهرية بالنسبة لبغداد الجائعة للنقد. قال طارق عزيز «لم يكن من المعقول أن تتمكن الكويت من المجازفة بالمشاركة في مؤامرة بمثل هذا الحجم ضد بلد كبير وقوي كالعراق، لو لم تكن مسنودة ومحمية من قبل قوة عظمى، وما هذه القوة العظمى سوى الولايات المتحدة»(٢٥). في الواقع ليس هناك مؤشر علني يدل إلى أن الولايات المتحدة، بالرغم من روابطها المالية الوثيقة جداً، حاولت إقناع الكويت باستغلال أي من أعمالها الاستفزازية ضد العراق.

ولم يكن يبدو أن أياً من واشنطن أو الكويت كانت قلقة كثيراً بشأن صد غزو لغزو. ففي الأسبوع السابق للهجوم العراقي، كان خبراء المخابرات يقولون لإدارة بوش بمزيد من الإلحاح أن ثمة احتمالاً لغزو جزء على الأقل من الكويت. هذه التنبؤات «يبدو أنها لم تستدعِ سوى القليل من الاستجابة من قبل الأجهزة الحكومية»(٢٦). خلال تلك المدة كان بوش يتلقى شخصياً إيجازاً ويطلع على المعلومات ذاتها من(وليم وبستر) مدير وكالة المخابرات المركزية، الذي أطلع الرئيس على صور ملتقطة من الأقمار الصناعية لحشد قوات عراقية قرب الحدود الكويتية. وقيل: إن بوش أبدى قليلاً من الاهتمام(٢٧). في الأول من آب اقتحم مسؤول الإنذار في وكالة المخابرات المركزية مكاتب موظفي قسم الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي قائلاً لهم: «هذا آخر إنذار لكم». وقال: إن العراق سيغزو الكويت في نهاية ذلك اليوم، وهذا ما حصل. ولكن هذا التحذير أيضاً لم تنتج عنه سرعة في العمل(٢٨). أخيراً أرسل دبلوماسي كويتي مقر عمله في العراق، قبل الغزو، تقارير عديدة إلى حكومته ينذر فيها بغزو عراقي، فقوبلت هذه التقارير أيضاً بالتجاهل. إنه في آخر تقرير له حدد بدقة تاريخ الغزو (٢ آب) حسب توقيت الكويت. بعد الحرب، عندما عقد الدبلوماسي مؤتمراً صحفياً في الكويت للحديث عن تجاهل حكومته لتحذيراته، قام أحد الوزراء والعديد من ضباط الجيش بفض المؤتمر الصحفي(٢٩).

في شهر تموز، عندما كانت هذه الإنذارات جميعاً تقابَل ظاهرياً بالتجاهل، كان البنتاغون منهمكاً في تشغيل بريد القيادة بواسطة الكومبيوتر، الذي استُحدث في أواخر عام ١٩٨٩، تحديداً لاستكشاف الردود الممكنة على «تهديد عراقي» - هذا التهديد الذي حل في خطة الحرب الجديدة ٩٠-١٠٠٢، محل «التهديد السوفييتي» - إذ كان التمرين يعالج غزواً عراقياً للكويت أو المملكة العربية السعودية أو كليهما[٣٠]. في تمرين على أساليب الحرب جرى في الكلية الحربية التابعة للأسطول في مدينة (نيوبورت Newport) بولاية (رود آيلاند) كان مطلوباً من المشاركين في التمرين أن يقرروا ما هو الرد الأمريكي الأكثر فعالية على غزو عراقي مفترض للكويت،[٣١]. حين كان تمرين حربي آخر في قاعدة (شو Shaw) لسلاح الجو في ولاية كارولاينا الجنوبية، معنياً بتحديد أهداف القصف في العراق[٣٢].

وخلال شهري أيار وحزيران قدم مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في جامعة جورجتاون إيجازاً إلى البنتاغون، والكونغرس ومتعهدي الأعمال الدفاعية، إيجازاً مفصلاً لدراسة عن مستقبل الحرب التقليدية، أفادت أن الحرب الأكثر احتمالاً أن تنشب وتتطلب رداً عسكرياً أمريكياً هي حرب بين العراق والكويت أو المملكة العربية السعودية.

ثمة شخص آخر يبدو أنه كان يعرف شيئاً ما سلفاً هو جورج شولتز، وزير الخارجية في زمن ريغان، والذي عاد بعد ذلك إلى شركة (بكتل Bechtel) وهي شركة إنشاءات عملاقة. ففي ربيع العام ١٩٩٠، أقنع شولتز الشركة بالانسحاب من مشروع لبناء مصنع للبتروكيميائيات في العراق. «قلت إن شيئاً ما سيزداد سوءاً في العراق وينفجر، فإذا كانت شركة بكتل في العراق فإنها ستنفجر أيضاً، ولذلك طلبت من الشركة الانسحاب»[٣٤].

أخيراً، كشفت جريدة «واشنطن بوست» الأمر التالي:

«منذ الغزو، قررت تقييمات استخبارية أمريكية عالية السرية أن صدام حسين اعتبر التصريحات الأمريكية عن الحياد.. بمثابة ضوء أخضر من إدارة بوش للغزو.

لقد أبلغ مسؤول عسكري عراقي رفيع المستوى وكالة المخابرات المركزية أن صدام حسين فوجئ بصدق برد الفعل الحربي اللاحق[٣٥].

من جهة أخرى لدينا تصريح وزير خارجية العراق طارق عزيز الذي كان حاضراً في لقاء غلاسبي - صدام حسين:

«إنها لم تعطِ ضوءاً أخضر ولم تذكر ضوءاً أحمر، لأن مسألة وجودنا في الكويت لم تكن مثارة.. ونحن لم نعتبر أنه ضوء أخضر.. أي إذا تدخلنا في الكويت عسكرياً فلن يكون هناك رد فعل أمريكي. هذا لم يكن صحيحاً. لقد كنا نتوقع هجوماً أمريكياً صباح اليوم الثاني من آب»[٣٦].

ولكن لابد للمرء من أن يشكك في مثل هذا الموقف العرضي من هجوم أمريكي. وهذا الكلام، الذي ينفي في الواقع أن العراق أدى دور المخدوع، يجب دراسته في ضوء رفض الحكومة العراقية العنيد لبعض الوقت أن تعترف بالأذى الذي أصاب البلد من جراء القصف الأمريكي، وإصرارها على التهوين من عدد الإصابات العراقية.

كان موقف إدارة بوش هو أن البلدان العربية المجاورة للعراق، ولاسيما مصر، والمملكة العربية السعودية والأردن، كانت قد حثت الولايات المتحدة طوال الوقت على عدم قول أو فعل أي شيء من شأنه أن يستفز صدام حسين. علاوة على ذلك، وكما أكدت السفيرة غلاسبي، لم يكن أحد يتوقع أن يستولي صدام حسين على «كل» الكويت، وإنما في الأغلب على الأجزاء التي كان يطالب بها: الجزر وحقل النفط.

ولكن العراق، بطبيعة الحال، كان يطالب بالكويت «كلها: منذ قرن من الزمان».

الغزو:

عندما وقع الغزو العراقي، كان زمن الإشارات المختلطة قد انتهى. وأياً كانت الخطة الملتوية، التي قد يكون بوش نفذها، هذا إذا كانت هناك خطة من هذا

القبيل، فإنه قد استفاد استفادة كاملة من هذه الفرصة. ففي غضون ساعات، إن لم تكن دقائق، من اجتياز الحدود، بدأت الولايات المتحدة تعبئة القوات، ودان البيت الأبيض عمل العراق باعتباره «استخداماً صارخاً للعدوان العسكري» وطالب «بانسحاب جميع القوات العراقية فوراً وبدون شروط»، وأعلن أنه «يدرس كل الخيارات» في حين كان جورج بوش يعلن أن الغزو «يؤكد الحاجة إلى السير قدماً في إعادة تكوين قوات الدفاع الأمريكية»(٣٧).

قبل انقضاء ٢٤ ساعة، كانت قوة من الأسطول الأمريكي محملة بطائرات مقاتلة وقاذفة للقنابل في طريقها إلى الخليج العربي، وكان بوش يسعى إلى مشاركة قادة العالم في عمل جماعي ضد العراق، وحظر كل العلاقات التجارية مع العراق، وجمّد كل الممتلكات العراقية والكويتية في الولايات المتحدة. كما أن مجلس الشيوخ الأمريكي خذل محاولات وضع حد أو تجميد إنتاج طائرة الشبح القاذفة من طراز (ب٢- B2) بعد أن استغل أنصار الاقتراح غزو الكويت لتعزيز دعوتهم لصنع أسلحة تتفادى مراقبة الرادار وقالوا: «إن الهجوم العراقي «يثبت استمرار خطر الحرب والحاجة إلى أسلحة من نوع متقدم».. وقال السناتور رول: «إذا كنا بحاجة إلى أن يدعونا صدام حسين إلى اليقظة فإننا نستطيع على أقل تقدير أن نشكره على ذلك»(٣٨).

«بعد يوم واحد من استغلال غزو الكويت في سبيل إنقاذ القاذفة (ب-٢) عالية التقنية، استفاد أعضاء مجلس الشيوخ مرة أخرى من الأزمة يوم الجمعة لدرء تجميد بارجتين ممتازتين من أسطول الحرب العالمية الثانية»(٣٩).

خلال أيام، كان آلاف الجنود الأمريكيين ولواء مدرع يتمركزون في المملكة العربية السعودية أطلق على العملية اسم فخم هو «عملية درع الصحراء» وصارت زيادة الاهتمام بحاجات أمريكا العسكرية أمر اليوم السائد..

«بعد أقل من مرور عام على التبدلات السياسية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي التي جعلت الصناعة الدفاعية تتراجع أمام التهديد بتخفيضات

دراماتيكية، قال المديرون والمحللون: «إن الأزمة في الخليج العربي وفرت للشركات العسكرية ومضة أمل صغيرة».

«إذا لم ينسحب العراق، واختلطت الأمور، سيكون ذلك لخير الصناعة. ستستمع من واشنطن كلاماً بلاغياً أقل عن مردود السلام»[٤٠]. هذا الكلام قاله (مايكل لوير Michael Lauer) في تحليل مع (كيدر بيبدي وشركاهما Kidder Peabody co.) في نيويورك.

أضافت جريدة «واشنطن بوست» إن الذين يحتمل انتفاعهم من الأزمة يشملون طيفاً من الشركات العاملة في الصناعة الدفاعية».

مع حلول شهر أيلول، شعر (جيمس وب James Webb) مساعد وزير الدفاع سابقاً ووزير الأسطول في إدارة ريغان، بدافع للكلام:

«يجب أن يكون الرئيس متنبهاً إلى أنه بينما يبذل معظم الأمريكيين أقصى الجهود لتأييده، يوجد مزاج من الصفاقة تحت ما يظهرون له من احترام. كثيرون يدّعون أن عملية تضخيم القوات هي أكثر قليلاً من «تمرين على ميزانية البنتاغون» هدفه تفادي تخفيضات لجيش يبحث عن مهمة، بينما بدأت القواعد في حلف شمال الأطلسي في الاختفاء»[٤١].

ما يلفت النظر، أن مساعداً آخر سابقاً لوزير الدفاع هو (لورنس كورب) كتب أن نشر القوات في المملكة العربية السعودية «يبدو أن دافعه هو المعارك المقبلة في الكونغرس حول الميزانية أكثر مما هو المعركة المحتمل خوضها ضد صدام حسين»[٤٢].

ولكن هل يمكن أن يكون هناك أشد صفاقة من عضو في الكونغرس يسعى متشامخاً لإعادة انتخابه؟ مع حلول شهر تشرين الأول كان بإمكاننا أن نقرأ ما يلي:

إن الخلفية السياسية للانتشار العسكري الأمريكي في المملكة العربية السعودية لعبت دوراً هاماً في الحد من تخفيضات ميزانية الدفاع في اتفاق يوم الأحد حول

الميزانية، الأمر الذي أوقف سقوط «حرية» الإنفاق العسكري الذي كان بعض المحللين قد تنبؤوا به قبل شهرين، حسب قول الذين ساعدوا في إعداد الميزانية. إن المخططين الاستراتيجيين في الكونغرس قالوا إن عملية درع الصحراء أحدثت تبدلاً كبيراً في المناخ السياسي للمفاوضات، وتغلبت على المشرّعين الذين كانوا يدافعون عن تخفيضات كبيرة في ميزانية الدفاع.

إن الحل الوسط لميزانية الدفاع لن يحافظ فقط على تمويل عملية درع الصحراء كاملاً، بل إنه سيحول دون تخفيض التمويل الذي كان ينفق كل عام استعداداً لمواجهة هجوم سوفييتي كبير على أوروبا الغربية[٤٣].

في أثناء ذلك، انتعش معدل شعبية جورج بوش. إن أول استطلاع للرأي أجري في آب بعد انشغال الولايات المتحدة في الخليج أظهر قفزة من ٦٠ بالمئة في أواخر شهر تموز إلى ٧٤ بالمئة. غير أنه يبدو أن الرأي العام الأمريكي بحاجة إلى الإسراع في إرسال محبي الوطن لكي يحافظ على حماسته للرجل الذي يشغل البيت الأبيض، ذلك لأنه بسبب ارتباك بوش الشديد في منتصف شهر تشرين الأول حول سبب وجود الولايات المتحدة في الخليج انخفض معدل تأييد الرأي العام له إلى ٥٦٪ – وذلك للمرة الأولى منذ انتخابه رئيساً، ولم يسبق أن كان أدنى من هذا المعدل، وبقي المعدل قريباً من هذا المستوى حتى شهر كانون الثاني كما سنرى[٤٤].

توطئة للحرب

بينما كان العراق ماضياً في نهب الكويت وتحويله إلى المحافظة العراقية رقم ١٩، كانت الولايات المتحدة تعزز حضورها العسكري في المملكة العربية السعودية وفي المياه المحيطة بها و – تستخدم شيئاً قليلاً من الإكراه وأكبر الرشا في التاريخ – لخلق «ائتلاف» يدعم قرارات الأمم المتحدة التي تقدمها الولايات المتحدة كما تدعم الجهد الحربي المقبل بطرق عديدة: ورقة تين تمثل احترام «تعدد الجنسيات» وعلى غرار ما فعلت واشنطن في كوريا، وغرينادا، وأفغانستان من أجل ما كان في الأساس

مهمة أمريكية، أي حرباً أمريكية. جرت مسامحة مصر بديون قيمتها عدة بلايين من الدولارات، بينما تلقت سورية، والصين، وتركيا، والاتحاد السوفييتي، وبلدان أخرى مساعدات عسكرية واقتصادية وقروضاً من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وألغيت عقوبات أو جرى تحسين شروطها، ليس فقط من جانب الولايات المتحدة، بل بضغط من واشنطن، من جانب ألمانيا واليابان والمملكة العربية السعودية. وفي لمسة إضافية توقفت إدارة بوش عن انتقاد سجل حقوق الإنسان لدى أي عضو من أعضاء الإئتلاف[٤٥].

ولكن واشنطن ووسائل إعلامها لم يكونوا راضين عن ألمانيا لأنها لم تبادر بحماسة إلى الانضمام إلى عربة الحرب. إن الألمان الذين كانوا حتى الأمس مدانين بوصفهم فاشيين احتذوا الجزمات وغزوا بولندة وصاروا يوصفون الآن بأنهم «جبناء» لأنهم ساروا في مظاهرات كبيرة تدعو للسلام.

تقدمت واشنطن باثني عشر قراراً إلى مجلس الأمن تدين العراق وتفرض عقوبات اقتصادية قاسية وتحصل بموجبها على «تفويض» لشن الحرب. كانت كوبا واليمن البلدين الوحيدين اللذين صوتا ضد أي من هذه القرارات. وعندما قوبل مندوب اليمن بالتصفيق على تصويته السلبي على القرار الأساسي الذي يسمح باستخدام القوة بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني، كان وزير الخارجية الأمريكي (بيكر Baker) يرأس الجلسة وقد قال لوفده: «آمل أن يكون قد استمتع بهذا التصفيق لأنه سيتبين أن هذا هو اقتراعه الأغلى ثمناً في حياته». لقد نقلت الرسالة إلى اليمنيين وفي غضون أيام عانت هذه الدولة الشرق أوسطية الصغيرة من تقليص حاد في المساعدات الأمريكية[٤٦].

اعترف الأمين العام للأمم المتحدة خافيير بيريز دوكويار «بأن هذه لم تكن حرباً تخوضها الأمم المتحدة. والجنرال (شوارتسكوبف Schwarzkop) قائد قوات الائتلاف لم يعتمر خوذة زرقاء»[٤٧]. إن السيطرة الأمريكية على الأمم المتحدة حفزت المعلق السياسي البريطاني (ادوارد بيرس) لأن يكتب أن الأمم المتحدة «تعمل

مثلما كان يعمل البرلمان الإنكليزي في القرون الوسطى: أي أنه كان يُستشار ويظهر أدب السلوك الاحتفالي، ولكنه كان متنبهاً للسلطات الإلهية أي كان يتمتم ويوافق»[٤٨].

إن المسألة الأهم في الولايات المتحدة سرعان ما أصبحت: كم من الوقت يجب أن ننتظر لكي تفعل العقوبات مفعولها قبل اللجوء إلى القوة العسكرية المباشرة؟ أصرت الإدارة الأمريكية ومناصروها على القول: إنهم يمنحون صدام حسين كل الفرص لإيجاد طريق سلمي منقذ لماء الوجه للخروج من الحفرة التي أوقع نفسه فيها. ولكن ظلت الحقيقة أنه كلما قدم الرئيس بوش أي نوع من العروض للزعيم العراقي، كان العرض مقروناً بإهانة عميقة، ولم يقدم صدام حسين قط أدنى إقرار بإمكانية وجود شرعية لأية من شكاوى العراق المعلنة [٤٩]. في حقيقة الأمر كان بوش قد وصف الغزو العراقي بأنه «غزو لم يسبقه استفزاز»[٥٠].

إن كلام الرئيس الأمريكي البلاغي ازداد حدة ومبالغة وصار على المستوى الشخصي، مصوراً صدام بأنه شيطان، على نحو ما كان يفعل مع نورييغا، وعلى نحو ما كان يفعل ريغان مع القذافي، وكأن هؤلاء الأجانب ليست لهم كرامة أو منطق كما لدى أمريكا. فيما يلي ما كتبته جريدة لوس أنجلس تايمز عارضة فيها وجهة نظرها في الموضوع:

«بعد الغزو العراقي بوقت قصير، حرص بوش على مقارنة العدوان العراقي بالعدوان الألماني على بولندة الذي فجر الحرب العالمية الثانية، ولكنه لم يصل إلى حد مقارنة الرئيس العراقي صدام حسين بادولف هتلر. هذه الحيطة خرطت من النافذة في الشهر الماضي، عندما لم يتوقف بوش عند حد مقارنة صدام حسين بهتلر، بل هدد أيضاً بمحاكمات لجرائم الحرب على غرار محاكمة (نورمبرغ). ثم إنه ذهب في الأسبوع الماضي إلى أبعد من ذلك، إذ أكد أن الزعيم العراقي أسوأ من هتلر لأن الألمان لم يستخدموا قط مواطنين أمريكيين «دروعاً بشرية» في المواقع العسكرية».

بعد هذا التقليل من شأن المحرقة، مضى بوش في كلامه إلى حد الإنذار بأن أي قبول لعدوان غير مسيطر عليه «يمكن أن يؤدي غداً إلى حرب عالمية». قال أحد المسؤولين في إدارة بوش «وصل إلى حيث يجب إخضاع كلامه البلاغي للسيطرة»[٥١].

لم يلبث صدام حسين أن أدرك أنه باستيلائه على كامل الكويت - إضافة إلى أعمال السرقة والنهب فيها - يكون قد قضم لقمة أكبر كثيراً مما يستطيع مضغه. في مطلع شهر آب ومرة أخرى في شهر تشرين الأول، أرسل إشارات لاستعداده لسحب قواته من ذلك البلد لقاء سيطرته وحده على حقل الرميلة، وضمان منفذ إلى الخليج الفارسي، وإلغاء العقوبات، وحل مشكلة أسعار النفط وإنتاجه[٥٢]. وشرع أيضاً بإخلاء سبيل بعض الأجانب الكثر الذين شاء لهم حظهم العاثر أن يكونوا في العراق أو الكويت في الزمن الخطأ، وقد استعاد آخرهم حريته في منتصف شهر كانون الأول. وفي وقت سابق من ذلك الشهر بدأ العراق برسم حدود جديدة مع الكويت، الأمر الذي كان يمكن أن يعني التخلي عن مطالبته بالكويت كجزء من العراق، مع أن معنى هذا العمل لم يكن واضحاً[٥٣]. وفي مطلع شهر كانون الثاني، كما سنرى، ظهرت أقوى إشارة منه للرغبة في السلام.

اختارت إدارة بوش عدم الرد بطريقة إيجابية على أية بادرة من هذا القبيل. فبعد العرض الذي قدمه صدام حسين في شهر آب، أنكرت وزارة الخارجية الأمريكية حتى مجرد وجود هذا العرض، بعد ذلك أكد البيت الأبيض وجوده[٥٤]. لقد جاء ما يلي في تقرير موجز صادر عن الكونغرس حول المسألة:

«يبدو أن العراقيين بغزوهم الكويت يعتقدون أنهم سيحظون بانتباه الجميع، وسيجري تفاوض على تحسينات في وضعهم الاقتصادي، ثم الانسحاب.. إن حلاً دبلوماسياً يرضي مصالح الولايات المتحدة كان بالإمكان التوصل إليه منذ الأيام الأولى للغزو».

لقد أرادت إدارة بوش، كما جاء في ورقة الكونغرس، تجنب الظهور بأي شكل بمظهر من يكافئ الغزو. ولكن ضابطاً في الجيش متقاعداً، كان يعمل وسيطاً في محادثات شهر آب، استنتج فيما بعد أن عرض السلام «كان يتحرك ضد السياسة»(٥٥).

بعد بلوغ الحشد العسكري الأمريكي نقطة معينة، هل كان بإمكان الولايات المتحدة أن تعطي السلام فرصة حتى إذا كانت راغبة في ذلك؟ لقد لاحظ مساعد وزير الدفاع السابق (لورانس كورب)، في أواخر تشرين الثاني أن كل مكونات المؤسسة الدفاعية كانت تدفع باتجاه القيام بعمل، وتقديم برهان على قيمتهم، وإثبات أنه ما تزال هناك حاجة إليهم، وضمان استمرار تمويلهم..

«مع حلول منتصف كانون الثاني.. سيكون للولايات المتحدة أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ جندي في الخليج (تبين أن الرقم كان أكثر من ٥٠٠,٠٠٠) من جميع فروع القوات المسلحة الخمسة (أجل، حتى حرس السواحل كانوا من ضمنهم). هذا يعني نحو ١٠٠,٠٠٠ من الجنود زيادة عما كان لنا في أوروبا في أي وقت خلال الحرب الباردة. وسيكون للجيش، بالتالي، ثماني فرق على أرض المملكة العربية السعودية، أي ضعفي ما كان للجيش في أوروبا - سيكون هناك ثلثا كامل القوة المقاتلة من الجنود المارينز.. وسينشر الأسطول ستاً من مجموعات المعركة الحاملة للطائرات، وبارجتين من بوارجه الأربع، وواحدة من مجموعتيه البرمائيتين.. أما سلاح الجو فله هناك منذ الآن طائرات مقاتلة من تسعة أجنحة من مجموع أجنحته التكتيكية العاملة.. وكذلك طائرات قاذفة قنابل.. حتى احتياطي المقاتلين تقرر إرسالهم.. إن لوبي الاحتياطي رأى أن مستقبل تحويلهم قد يتعرض للخطر إذا لم تشارك وحداتهم.. ومثلما يريد كل فرع من القوات المسلحة أن يكون مشاركاً في الانتشار، ألا يريد كل منها جزءاً من العمل الفعلي؟.

تساءل ثورب، هل ستتمكن القيادة العليا العسكرية أن تقاوم ضغوط كل فرع؟ الأسطول، الذي أرسل بعض حاملات طائراته إلى مياه الخليج الضيقة والخطرة

لمجرد أن يكون أقرب إلى مكان العمل؟ والمارينز، الذين قد يودون أن يظهروا بالعمل استمرار حيوية الحرب البرمائية بواسطة شن هجوم على الساحل؟ وهل يستطيع الجيش أن يتخلف بينما القوات الجوية ناشطة طوال اليوم؟[٥٦]. (لم يكن بإمكانهم، وهذا ما أطال مدة الحرب).

إن العسكريين الأمريكيين والرئيس بوش يريدون استعراض قوتهم الهائلة، وأساليب الحرب الحقيقية ذات التقنية العالية، ولن يسمحوا لأية إشارات صادرة عن العراق أو لأي داعية سلام أن يفسد عليهم هذا الاستعراض: إن مجلة (فورتشن)، في ثناء بارع على جلد بوش وصموده، أجملت لاحقاً الفترة التي سبقت بدء الحرب على النحو التالي:

«عمل الرئيس ومساعدوه ساعات إضافية، لقمع صانعي السلام المستقلين في العالم العربي، وفرنسا والاتحاد السوفييتي الذي هدد بأن يوفر لصدام حسين طريقة تحفظ ماء الوجه للخروج من القفص الذي كان يهيئه بوش. وفوق ذلك كرر بوش القول المشهور: «لا مفاوضات، لا صفقات، ولا حفظ لماء الوجه، لا مكافآت، وتحديداً لا ربط مع مؤتمر السلام الفلسطيني (هذه نقطة كان أثارها العراق في عدة مناسبات)»[٥٧].

في ٢٩ تشرين الثاني أصدر مجلس الأمن الدولي تفويضاً باستخدام «كل الوسائل الضرورية» لإرغام العراق على الخروج من الكويت إذا لم يكن قد فعل ذلك حتى يوم الخامس عشر من كانون الثاني. خلال عيد الميلاد، كما علمنا، انكبّ بوش على قراءة كل صفحة من الصفحات الاثنتين والثمانين التي نشرتها منظمة العفو الدولية في تقرير يبعث على الألم عن أعمال الاعتقالات والاغتصاب والتعذيب في الكويت. بعد عطلة عيد الميلاد قال بوش لمعاونيه: إن ضميره مرتاح: «الأمر أسود وأبيض طيب مقابل شرير. يجب إيقاف الرجل عند حده»[٥٨].

لم يرد في الأخبار ما إذا كان بوش قد قرأ أياً من تقارير منظمة العفو الدولية، وهي كثيرة، عن تلك المدة، حول انتهاكات بشعة لحقوق الإنسان، والروح الإنسانية

التي ارتكبها حلفاء واشنطن في غواتيمالا، والسلفادور، وأفغانستان، وأنغولا ونيكاراغوا. إذا كان فعلاً قد قرأها، فإن هذه الأوراق كما يبدو كانت قليلة التأثير عليه، لأنه استمر في تأييد هذه القوى. كانت منظمة العفو الدولية قد تحدثت أيضاً عن وحشية العراق الفائقة على مدى أكثر من عقد من السنين، وقبل الغزو الذي وقع في آب ببضعة شهور فقط أدت المنظمة شهادتها حول هذه الانتهاكات أمام مجلس الشيوخ الأمريكي، ولكن ما من شيء من هذا كله ملأ جورج بوش بالاشمئزاز الصادق.

مع اقتراب الموعد النهائي أي الخامس عشر من كانون الثاني حبس العالم أنفاسه. هل كان ممكناً عدم إيجاد طريقة خلال خمسة شهور ونصف الشهر لتفادي شن حرب أخرى مرعبة على كوكب الأرض الحزين؟ في اليوم الحادي عشر قال دبلوماسيون عرب في الأمم المتحدة: إنهم تلقوا تقارير من الجزائر، والأردن واليمن، وجميعها على علاقات وثيقة مع العراق، تفيد بأن صدام حسين عازم على أن يعرض بسرعة مبادرة بعد الخامس عشر من الشهر يعبر فيها عن استعداده «من حيث المبدأ» بالانسحاب من الكويت لقاء ضمانات دولية بعدم الهجوم على العراق وعقد مؤتمر دولي لمعالجة المظالم الفلسطينية، والقيام بمفاوضات لحل الخلافات بين العراق والكويت. قال الدبلوماسيون: إن الزعيم العراقي يريد أن ينتظر يوماً أو يومين بعد الموعد النهائي ليظهر أنه لم يفعل ذلك بدافع الخوف.

بالنسبة للولايات المتحدة، التي انتشر نصف مليون جندي من قواتها في المملكة العربية السعودية على أهبة الاستعداد للمعركة لم يكن هذا الأمر مقبولاً. قال وزير الخارجية الأميركي بيكر: إن صدام حسين «سيجتاز الحافة عند منتصف ليل ١٥ كانون الثاني»، ولا يمكنه أن يتوقع إنقاذ نفسه بعرضه الانسحاب من الكويت بعد ذلك الوقت[٥٩].

تفسيرات جورج بوش المتعددة

«إن مهماتنا، وطريقة حياتنا، وحريتنا، وحرية البلدان الصديقة في سائر العالم سوف تتضرر إذا وقعت السيطرة على احتياطيات النفط الكبيرة في العالم في يدي

ذلك الرجل المدعو صدام حسين»[٦٠]. هكذا خاطب جورج هربرت ووكر بوش شعب أمريكا. وقد قال (ثيودور دريبر): «هذه الأسباب هي للاستهلاك وغير مقنعة».

إن حديث بوش عن «المهمات» في بداية كلامه يوحي بأنه على غرار ما يحدث في حملة سياسية داخلية، يسعى في المقام الأول لتوجيه نداء للحصول على تبرعات الغاضبين، غير أن ذلك كان سبباً كثير الغرابة للذهاب إلى الحرب، إذا وصلت الأمور إلى هذا الحد، في مكان يقع على الجانب الآخر من العالم»[٦١].

خلال كامل عملية الحشد الطويلة والاستعداد للحرب، وخلال الحرب ذاتها، وبعد الحرب، لا أحد كان متأكداً أنه يفهم ما سبب تدخل بوش في الخليج العربي، وما تبع ذلك من زج الولايات المتحدة في الحرب. إن أعضاء الكونغرس والصحفيين، ورؤساء التحرير، والمواطنين العاديين ظلوا يطلبون، بل كادوا أحياناً يتوسلون الرئيس أن يبين بوضوح وبدون لبس دوافعه، وبدون أن يناقض ما سبق أن قاله في الأسبوع السابق. (إن علماء الاقتصاد والمفكرين رأوا من الناحية المهنية أنه من المربك لهم أن يعترفوا بحيرتهم، وهذا ما أدى إلى كتابة العديد من المقالات المملوءة بكلام طنان هو من لغو الكلام).

الحيرة السائدة حفزت جريدة (وول ستريت جورنال) على تجميع عدد من «الناخبين» لبحث الأمور. قالت الجريدة عن المشاركين في الاجتماع «إنهم حائرون في معرفة ما حدث وهم يطالبون بأعلى الصوت بمزيد من المعلومات. كما أنهم غير مرتاحين إلى القول: إن السيد بوش يبدو وكأنه يبدل منطقه من يوم إلى يوم». وقال أحد المشاركين: «حتى الآن كان الأمر على غرار الأسباب العشرة الرئيسية التي قدمها (ديفيد بيترمان) لوجوده هناك. ثمة قصة مختلفة كل أسبوع أو نحوه»[٦٢].

حدوث ذلك في الخليج الفارسي، كما هو واقع الحال، قاد، بطبيعة الحال، إلى الاعتقاد بأن الذهب السائل له دور كبير، إن لم يكن كل الدور، في النزاع. غير أن هذه مقولة لا يمكن أن تسندها الظروف الراهنة. فالإمدادات ليست مشكلة – إن

وزارة الطاقة الأمريكية أقرت بأنه لا يوجد نقص في إمدادات النفط، كما أن المملكة العربية السعودية وبلداناً أخرى زادت إنتاجها بما يزيد عن التعويض عن نفط العراق والكويت المفقود، وعلماً أن نفط البلدين معاً يمثل نحو خمسة بالمئة فقط من الاستهلاك الأمريكي. كان هناك عالم بكامله مستعد لتقديم المزيد من النفط، اعتباراً من المكسيك إلى روسيا، إضافة إلى المصادر الأمريكية الكبيرة التي لم تستثمر. هذا يؤشر إلى الصعوبات التي يواجهها أي منتج فرد - سواء أكان صدام حسين أو أي منتج آخر - إذا حاول أن يتحكم بالسوق أو يسيطر عليها، وهذا بالتالي يطرح السؤال: ما الذي يمكن أن يفعله بلد كهذا بكل النفط، هل يشربه؟ مع حلول شهر كانون الأول قالت الأنباء: «إن منظمة أوبك تضخ نفطاً على أعلى المستويات منذ أوائل فصل الصيف، وما لم تنشب حرب في الشرق الأوسط تعطل إمدادات النفط، ستحدث مرة أخرى تخمة في النفط وتهبط الأسعار هبوطاً حاداً»[٦٣].

بالنسبة لأسعار النفط: ما الذي يريده رجال النفط أمثال جورج بوش وجيمس بيكر والولايات الأمريكية المفتقرة إلى النفط: ارتفاع الأسعار أم هبوطها؟ كلتا الفرضيتين يمكن الدفاع عنهما. (في شهر كانون الثاني ١٩٩٠ كانت الولايات المتحدة قد حثت صدام حسين سراً على محاولة رفع أسعار النفط من قبل أوبيك إلى ٢٥ دولاراً للبرميل)[٦٤]. ثم بأية سهولة تستطيع واشنطن أن تتحكم بالسعر صعوداً أو هبوطاً في وضع فوضوي؟ إن أسعار النفط، كما هو واقع الحال تتقلب على أساس منتظم، وفي الغالب بصورة حادة - بين عام ١٩٨٤ وعام ١٩٨٦ - على سبيل المثال - هبط سعر برميل النفط من نحو ٣٠ دولاراً إلى أقل من عشرة دولارات، بالرغم من استمرار الحرب بين العراق وإيران التي سببت انخفاضاً في إنتاج كلا البلدين.

بيد أن هذا التحليل للظروف المباشرة لا يأخذ بعين الاعتبار التأثير الرهيب والمستمر «للغز النفط» عن تفكير صانعي السياسة الأمريكيين. فإذا كان بوش يسعى إلى «أزمة» ليؤثر على تفكير أعضاء الكونغرس وليقنعهم بالخطر المديد للعالم الذي

نعيش فيه، عندئذ سيولد بالتأكيد تورطه في نزاع بين بلدين رئيسيين منتجين للنفط الأثر المرغوب فيه بصورة أكثر كثيراً مما إذا استغل هجوم بوليفيا على باراغواي أو احتلال غانا لساحل العاج.

إن كلام الرئيس الأمريكي عن طريقة الحياة الأمريكية والحرية للجميع إنما يعكس الجدية التي يعزوها هو وغيره من صانعي السياسة بصورة علنية إلى النفط، وهي جدية حياة أو موت. (إن ما يعتقده حقيقة هؤلاء الرجال ويشعرون به في كل حالة من الحالات هو شيء لا نستطيع نحن الاطلاع عليه). في وقت سابق من ذلك العام كان وليم وبستر مدير وكالة المخابرات المركزية قد أبلغ الكونغرس أن النفط «سيستمر في تأثيره الكبير على مصالح الولايات المتحدة» لأن «اعتماد الغرب على نفط الخليج العربي سيزداد بصورة دراماتيكية في العقد القادم من السنين». في حين أن الجنرال شوارزكويف، الذي كانت له روابط على مدى العمر مع الشرق الأوسط، قال في شهادة له: «إن نفط الشرق الأوسط هو دم الحياة بالنسبة للغرب. إنه يوفر لنا الوقود اليوم، ولأنه يمثل ٧٧ بالمئة من احتياطي النفط الثابت في العالم الحر، فإنه سيوفر لنا الوقود عندما تجف موارد بقية العالم.. ويُقدر أن الولايات المتحدة سوف تستنزف احتياطي النفط المتوفر لها خلال عشرين إلى أربعين عاماً، بينما يظل أمام منطقة الخليج العربي ما لا يقل عن مئة عام من احتياطي النفط الثابت»[٦٥]. لقد كان في الواقع ٦٩ في المئة في ذلك الحين، ومنذ انضمام الاتحاد السوفييتي إلى «العالم الحر» أصبح أقل من ذلك[٦٦]. ولابد من ملاحظة أن تنبؤ الجنرال الطيب بالنسبة للولايات هو على الأكثر من باب التخمين وأن عبارة «المتوفر اقتصادياً» هي إشارة إلى حقيقة أن احتياطي النفط الداخلي في الولايات المتحدة يكلف استثماره أكثر مما يكلف استثمار النفط في الخليج. ولكن هذا من شأنه فقط أن يجعل من ذلك مشكلة ربح وليس مشكلة توفير النفط. علاوة على ذلك فإن الإمكانات الواسعة الكامنة في موارد بديلة للطاقة يجب أن تدخل في هذه المعادلة.

في هذا الوقت كانت الولايات المتحدة - التي كانت كما يبدو فزعة من الخطر الذي يواجه إمدادات النفط من الخليج - تتلقى نحو ١١ بالمئة من نفطها من تلك المنطقة في حين أن اليابان التي تتلقى من المنطقة ذاتها ٦٢ في المئة من نفطها، وأوروبا التي تتلقى من المنطقة أيضاً ٢٧ في المئة من نفطها، كانا منزعجين كل الانزعاج باستثناء مارغريت تاتشر التي كان يخرج الزبد من فمها عندما تتحدث عن صدام والمستعمرة السابقة أي العراق[٦٧]. أما الرقم بالنسبة لألمانيا فهو ٣٥ بالمئة تقريباً، ومع ذلك فإن كلاً من بون وطوكيو كان مقدراً لهما أن تلوي واشنطن ذراعي كل منهما لمساندة المجهود الحربي. والواقع أن البلدين كانا كارهين لمساعدة الولايات المتحدة على امتلاك نفوذ أكبر والسيطرة على نفط المنطقة.

إن معالجة واشنطن الرسمية للغز النفط قد أدت إلى نشوء سياسة طويلة الأجل عبر عنها المحلل السياسي ناعوم شومسكي على النحو التالي:

«لقد كانت إحدى العقائد الموجهة للسياسة الخارجية الأمريكية منذ الأربعينيات من القرن العشرين، أن موارد الطاقة الهائلة في منطقة الخليج والتي لا توازيها موارد أخرى ستقع فعلياً تحت سيطرة الولايات المتحدة وعملائها، ولن يُسمح بصورة حاسمة لأية قوة مستقلة من أهل البلاد أن يكون لها تأثير هام على إدارة إنتاج النفط وأسعاره»[٦٨].

هذا لم يكن يعني دائماً استخدام القوة. ففي عام ١٩٧٣، عندما استخدمت أوبيك بزعامة المملكة العربية السعودية الزيادات الكبيرة في الأسعار والمقاطعة النفطية في محاولة لإرغام واشنطن على إقناع إسرائيل بالانسحاب من الأراضي التي احتلتها مؤخراً، لم تشن الولايات غزواً، ولم تهدد بالغزو. لقد حُلت المسألة عن طريق دبلوماسية طويلة الأجل وبدون إطلاق طلقة واحدة. إن ما أنقذ دول أوبك من مصير عنيف هو اقتران أمرين أحدهما حرب فيتنام التي كانت ترخي بثقلها على واشنطن، وكون إدارة نكسون على حافة السقوط بسبب ووترغيت.

إضافة إلى إصدار العديد من الإنذارات المرعبة في وقت مبكر من حيث العواقب الاقتصادية القاسية التي يسببها الغزو للولايات المتحدة، والتي لم تتحقق أبداً، أنذر بوش العراق بمصير أسوأ إذا احتل المملكة العربية السعودية، لم يكن هناك سبب يفسر وجود خطر على المملكة العربية السعودية. فلم تكن للعراق أية أهداف في السعودية، وهذا ما توضحه نظرة بسيطة إلى الخارطة. فالعراق له حدود طويلة مع المملكة العربية السعودية، ولم يكن مضطراً لعبور الكويت لغزو السعودية، وحتى إذا فعل، فإنه كان يمكن أن يقتحم السعودية بدون مقاومة خلال الأسابيع الثلاثة التي تلي استيلاءه على الكويت، وهذا ما اعترف به لاحقاً الجنرال كولن باول(٦٩). إن المسؤولين في إدارة بوش أقروا في الواقع بأن وكالة المخابرات المركزية ووكالة المخابرات التابعة لوزارة الدفاع لم تكونا تعتقدان باحتمال أن يقدم العراق على غزو المملكة العربية السعودية(٧٠). والسعوديون أنفسهم لم يخامرهم هذا الظن، إلى أن توجه وزير الدفاع الأمريكي تشيني بالطائرة إلى الرياض في الخامس من آب وأبلغ الملك فهد شخصياً أن بلده يواجه خطراً محتملاً كبيراً ويحتاج حاجة ماسة إلى حشد عدد كبير جداً من القوات العسكرية الأمريكية للدفاع عنه(٧١).

تراجع بوش عن مقولة النفط عندما اتهمه منتقدوه بأنه يحاول فقط حماية صناعة النفط. في شهر تشرين الأول قاطعه بعض الأشخاص خلال إلقائه خطاباً قائلين له: «السيد الرئيس، أعد قواتنا إلى الوطن من المملكة العربية السعودية! لا نريد سفك الدماء من أجل النفط!». وكان رد جورج بوش على ذلك - بينما كان الحرس يخرجون المقاطعين من القاعة - «تعلمون أن بعض الناس لا يفهمون الحقيقة أبداً. القتال ليس من أجل النفط. القتال هو بسبب عدوان صارخ نحن لن نسكت عنه». بعد ذلك بشهر، إذا لم يكن قبل ذلك بدأ الرئيس مرة أخرى يلعب ورقة النفط، رابطاً أمن أمريكا الاقتصادي بأمن المملكة العربية السعودية الاقتصادي. بعد ذلك بوقت قصير عاد إلى نغمة «الضرر المدمر الذي يحدث كل يوم» لاقتصاد الولايات المتحدة والاقتصاد الدولي عن طريق تعطيل أسواق النفط(٧٢).

فيما يتعلق بعدوان العراق الصارخ - وهي عبارة تتطلب مهارات ذاكرة انتقائية من النوع الرفيع صادرة عن حكومة تحتفظ بجميع السجلات الحديثة للاعتداءات على النطاق الدولي، سواء أكانت فاضحة أم غير ذلك، وصادرة عن رجل كان قبل أقل من شهر، قد غزا بصورة فاضحة بنما - كما أن كلاً من سورية وإسرائيل سبق أن غزتا لبنان ولا تزالان تحتلان أجزاء كبيرة من ذلك البلد، وخلال غزوها لبنان قصفت إسرائيل مدينة بيروت بلا رحمة، وبدون أن يصدر عن واشنطن أي تهديد بالحرب. إن صدام حسين، ولعله كان يستغرب تغيير الأميركيين لقواعد اللعبة، قال للولايات المتحدة: «أنتم تتحدثون عن عراق عدواني.. فإذا كان العراق معتدياً خلال الحرب مع إيران، ما الذي دفعكم إلى التحدث معنا آنذاك؟»[٧٣].

خلال ملحمة نضال العراق ضد آية الله الخميني، فعلت الولايات المتحدة ما هو أكثر من التحدث مع بغداد. لقد كانت واشنطن - التي رأت في العراق أنه الأقل شراً من التطرف الشيعي - مسؤولة عن كميات هائلة من الأسلحة، والتدريب العسكري، والتكنولوجيا المتطورة، والصور الفضائية الاستخباراتية، وبلايين الدولارات المتدفقة على صدام حسين المفتقر لها، والذي كان مدعوماً بسخاء من قبل الكويت والمملكة العربية السعودية، اللتين كانتا قلقتين من احتمال أن تمتد مشاعر العداء للأنظمة الملكية في إيران، إلى بلديهما. يوجد في الحقيقة دليل إلى أن واشنطن شجعت العراق على مهاجمة إيران وإشعال نار الحرب في المقام الأول[٧٤]. وخلال مساندة أمريكا لصدام حسين في تلك الفترة، كان هو بالتأكيد نفس الوغد المتوحش القمعي والكريه مثلما كان لاحقاً عندما واجه نار الكلام البلاغي الأمريكي عن الأخلاقيات. على غرار ذلك، وفي غياب التحريض الأميركي، لم تصدر عن الأمم المتحدة إدانة للغزو العراقي ولم تفرض الأمم المتحدة أية عقوبات ولم تقدم أية طلبات.

وحتى عندما حظرت الولايات المتحدة من الناحية الرسمية بيع أسلحة إلى كلا الطرفين المتقاتلين، كانت تقدم لهما سراً الأسلحة. إن الوحش الأسود الآخر في المنطقة، آية الله، تلقى أسلحة أمريكية ومعلومات استخبارية عسكرية عن العراق

خلال الحرب، من أجل تعزيز قدرة البلدين على إلحاق أكبر قدر من الدمار ببعضهما بعضاً وللحد من نموهما كدولتين قويتين في الشرق الأوسط.

على عكس العراق، العدو كان هنالك الآن «الحليفان» الأشد تورطاً أي المملكة العربية السعودية والكويت. ومع أن واشنطن لم تبالغ في الحديث عن «فضيلة» أي من هذين البلدين، كانت السياسة الرسمية دائماً أن للولايات المتحدة التزاماً مبدئياً بالدفاع عن المملكة العربية السعودية وتحرير الكويت. هذان البلدان لم يكونا زوجين جميلين. فالمملكة العربية السعودية أظهرت بصورة دائمة تطرفاً في عدم التسامح الديني، واعتقال الناس بدون إذن قضائي، والتعذيب والجلد(٧٥). كما أنها مارست التفرقة بين الذكور والإناث وقمع النساء بصورة دائمة، واستعباد العمال الأجانب عندها، ورجم الزاني بالحجارة وبتر أيدي اللصوص. وكان مطلوباً من رجال الدين الأميركيين الموجوين في البلد أن ينزعوا الصلبان ونجمة داوود عن ملابسهم وأن يسموا أنفسهم «دعاة أخلاقيين»(٧٦).

ومن الغرابة بمكان أن الكويت كانت حاقدة على أمريكا في سياستها الخارجية(٧٧). ومع أن الكويت كانت من الناحية الاجتماعية أكثر استنارة من المملكة العربية السعودية (ولكن أقل من العراق) فقد كانت تحكمها مع ذلك إحدى الأسر التي تمارس حكم الأقلية (pligarchy)، والتي أقفلت البرلمان في عام ١٩٨٦، ولم يكن في الكويت وجود لأحزاب سياسية ومنعت السلطات أي نقد للأمير الحاكم، ولم يكن عدد السكان الذين يتمتعون بأية حقوق سياسية يزيد عن ٢٠٪ من مجموع السكان. وبعد إعادة البلد إلى دكتاتورية أصحاب الحق سلكت بطريقة بالغة الوحشية تجاه سكانها كثيري العدد من العمال الأجانب، فكانت تسجنهم عدة شهور بدون اتهام أو محاكمة كما أن فرق الموت أعدمت عشرات من الناس. لقد قالت منظمة العفو الدولية: «إن تعذيب السجناء السياسيين كان أمراً روتينياً وواسع الانتشار». واختفى ما لا يقل عن ثمانين شخصاً وهم قيد الاعتقال. إن الذين

استهدفتهم الحملة التي نفذت بوجود آلاف الجنود الأمريكيين كانوا بالدرجة الأولى المتهمين بالتعاون مع العراقيين، مع أن هذا التعاون كان بالنسبة لمعظمهم أمراً لا خيار لهم فيه، إضافة إلى أن المتورطين في التعاون كانوا أعضاء في حركة وليدة تنادي بالديمقراطية. علاوة على ذلك أرغم حوالي أربعمئة عراقي على العودة إلى العراق بالرغم من مخاوف أن يطالهم هناك الأذى أو يواجهوا الإعدام[٧٨].

إن النخبة في المنطقة لم تظهر الكثير من الامتنان لكل ما قال جورج بوش أن أميريكا تفعله من أجلهم. لقد قال أحد المسؤولين في منطقة الخليج: «تظنون أنني أريد إرسال ابني الذي في العقد الثاني من عمره لكي يموت من أجل الكويت؟» هذا المسؤول ضحك وأضاف: «لدينا رقيقنا الأبيض من أمريكا وهو الذي سيموت من أجل الكويت». معلم مدرسة سعودي رأى الأمر بالطريقة التالية: «الجنود الأميركيون هم نوع جديد من العمال الأجانب عندنا. لدينا باكستانيون سائقو سيارات تاكسي والآن صار لدينا أميركيون يدافعون عنا». قال أحد الدبلوماسيين اليمنيين مفسراً غياب الامتنان الصريح من قبل زعماء الخليج: «إن العديد من حكام الخليج ببساطة لا يشعرون أن من واجبهم أن يشكروا الناس الذين استأجروهم للقتال بدلاً منهم»[٧٩]. إذا وضعنا كل شيء آخر جانباً، فإن الناس في العالم العربي كانوا شديدي الحساسية تجاه قتل المسلمين والعرب على يد الأجانب، وتجاه الوجود العسكري الأجنبي على الأرض العربية، الذي يذكرهم بقرن من الاستعمار الغربي الأبيض.

لقد حذر بوش أيضاً من أن العراق يشكل تهديداً نووياً. هذا صحيح ولكن بالمقابل هذا ما فعلته الولايات المتحدة وفرنسا وإسرائيل، وكل بلد آخر يمتلك أسلحة نووية. أما العراق من الناحية الأخرى ووفقاً لأقوال خبراء أميركيين وبريطانيين وإسرائيليين، كانت تفصله مدة تتراوح بين خمسة أعوام وعشرة أعوام عن امتلاك القدرة على صنع واستخدام أسلحة نووية[٨٠]. ومن غير المحتمل أن الرئيس نفسه كان يعتقد بوجود خطر كهذا. إن تحذيره جاء فقط بعد استطلاع للرأي أظهر أن العديد من الأميركيين يشعرون بأن منع العراق من امتلاك أسلحة نووية هو الحجة الأكثر إقناعاً للذهاب إلى الحرب[٨١].

ثمة عامل لم يذكره بوش كسبب للتدخل ولكنه في الواقع عامل ربما لعب دوراً هاماً، وهو رغبة البنتاغون بعقد أو تعزيز اتفاقيات مع بلدان منطقة الخليج بشأن استمرار الوجود العسكري الأمريكي، ويبدو أنه تم إحراز تقدم كبير على هذه الأسس[٨٢] سبق للجنرال شوارزكوبف أن أبلغ الكونغرس أن «الوجود الأمريكي» في الخليج هو أحد ثلاثة من أعمدة الاستراتيجية العسكرية الشاملة، إضافة إلى المساعدات الأمنية والتمارين العسكرية المشتركة وكل هذه تؤدي إلى «حق الوصول» البالغ الأهمية الذي يمكن للمرء أن يعتبره التعبير المجازي عن النفوذ والسيطرة[٨٣]. بعد الحرب كشف النقاب عن وجود شبكة من «القواعد الكبرى» لأنظمة الاتصالات العسكرية في المملكة العربية السعودية. أمضت الولايات المتحدة عشر سنوات في بناء هذه القواعد، وتم ذلك بمنتهى السرية وبلغت كلفتها نحو ٢٠٠ بليون دولار دفعتها المملكة العربية السعودية فكان استعمالها خلال حرب الخليج استعمالاً لا يستغنى عنه. وهذا قد يفسر سبب تحرك بوش بسرعة فائقة للدفاع عن المملكة العربية السعودية ضد تهديد غير قائم[٨٤].

«أوقفوني قبل أن أقتل ثانية»!

درس جوزيف ستالين استعداداً ليكون كاهناً.. وكان هتلر لا يأكل اللحوم ومعادياً للتدخين.. وبينما كان سلاح الجو الألماني (Luftwaffe) بقيادة (هيرمان غويرنغ) يمطر موتاً على أوروبا، احتفظ غويرنغ بلوحة في مكتبه حملت الكلمات التالية: «من يعذب الحيوانات يؤذي مشاعر الشعب الألماني».. هناك حقيقة اعتبرها (إيلي فايزل) أكبر اكتشاف من اكتشافات الحرب: أن (إدولف ايخمان) كان مثقفاً يستوعب ما يقرأ وعازفاً على الكمان.. وأن (تشارلز مانسون) كان متحمساً في معارضة تقطيع الحيوانات لأغراض التجارب الطبية (vivisectionist).

فيما يتعلق ببنما، وكما رأينا، قال جورج بوش بعد أن أصدر أمره بقصفها: «إن قلبه يتفطر من أجل العائلات التي ماتت في بنما» وعندما سئل «هل كان الأمر يستحق إرسال الناس كي يموتوا من أجل ذلك؟ أي للقبض على نورييغا؟» أجاب:

«حياة كل إنسان غالية ومع ذلك يجب علي أن أجيب بكلمة نعم، فقد كان الأمر يستحق ذلك».

فيما يتعلق بالعراق قال بوش: «يقول لي الناس: كم عدد الأرواح؟ كم عدد الأرواح التي تستطيع أن تستغني عنها؟ أقول لهم: «إن كل روح غالية»[٨٥].

قبل أن يصدر أمره مباشرة ببدء الحرب على العراق في كانون الثاني، صلى بوش وانحدرت دموع على وجنتيه. وقد قال فيما بعد: «أظن أنني على غرار آخرين في مواقع المسؤولية من حيث إرسال أبناء الآخرين إلى الحرب، ندرك أن المهم في الصلاة هو كيف يمكن أن تبدو أمام الله»[٨٦].

يستخلص المرء أن الله ربما كان قد سأل جورج بوش عن الأولاد في العراق وعن الأشخاص البالغين. وأن يكون قد صرخ بطريقة لا تشبه أسلوب الله «إذن أوقف خسارة كل الأرواح الغالية منذ الآن!».

كانت الدبابات تجرّ محاريث بمحاذاة الخنادق، وتطلق النار على الجنود العراقيين في خنادقهم، بينما كانت المحاريث التي تجرها الدبابات تغطيهم بكميات كبيرة من الرمل. آلاف منهم دفنوا تحت الرمل أمواتاً أو جرحى أو أحياء[٨٧].

لقد أطلقت القوات الأمريكية النار على الجنود العراقيين بعد أن رفع العراقيون الرايات البيض علامة الاستسلام. وقائد سلاح البحرية الذي أصدر الأمر بإطلاق النار لم يعاقب[٨٨].

دمر القصف مفاعلين نووين يتم تشغيلهما في العراق. وكانت هذه أول مرة تقصف فيها مفاعلات قيد التشغيل. وقد يكون هذا القصف سابقة خطرة. ولم يكن قد مر أكثر من شهر منذ أن أصدرت الأمم المتحدة التي يفترض أن الولايات المتحدة تعمل بتفويض منها، قراراً يعيد تأكيد «حظرها الهجمات العسكرية على منشآت نووية» في الشرق الأوسط[٨٩]. لقد كانت معامل متعددة للأسلحة الكيماوية ومعامل مزعومة لإنتاج أسلحة للحرب البيولوجية، هي بدورها أهدافاً للقنابل الأمريكية.

آنذاك أعلن الجنرال شوارزكوبف أن قواته كانت حريصة على انتقاء وسائل تدمير هذه المنشآت والمنشآت النووية أيضاً وأنها «فعلت ذلك بعد الحصول على كثير من مشورة عدد كبير من علماء بارزين جداً جداً». وأن قواته «كانت متأكدة بنسبة ٩٩,٩٪» أنه لا يوجد «أي تلوث»(٩٠). بيد أن العلماء الأوروبيين وعلماء البيئة اكتشفوا آثار أسلحة كيماوية انتشرت نتيجة للقصف كما اكتشفوا عوامل كيماوية وبخاراً ساماً أطلقت نتيجة الغارات الجوية التي أودت بأرواح عشرات المدنيين(٩١).

كانت الحكومة الأمريكية ووسائل الإعلام الأمريكية تتسلى كثيراً بقطعة كان واضحاً أنها دعاية عراقية، أي الإدعاء بأن منشأة الأسلحة البيولوجية التي قصفت كانت في الواقع معملاً لمواد غذائية للأطفال. ولكن تبين أن حكومة نيوزيلاندا وكثيرين من رجال الأعمال النيوزيلانديين الذين كانوا على صلة وثيقة بالمعمل أكدوا بصورة قاطعة أنه فعلاً معمل لإنتاج مواد غذائية للأطفال(٩٢).

لقد استخدمت الولايات المتحدة على نطاق واسع قنابل اليورانيوم المنضب والصواريخ، مخلفة أطناناً من الركام المشع والسام في الكويت والعراق. وقد حذرت سلطة الطاقة الذرية في المملكة المتحدة، في تقرير سري صدر في شهر نيسان ١٩٩١، من أنه «إذا اختلط اليورانيوم المنضب في المواد الغذائية أو المياه فإنه سيخلق مشاكل صحية محتملة». إن اليورانيوم ٢٣٨ الذي يستخدم في صناعة الأسلحة، يمكن أن يسبب السرطان والعاهات في البشر إذا استنشق. واليورانيوم هو أيضاً سام من الناحية الكيميائية، شأنه شأن الرصاص. استنشاقه يسبب تسمماً معدنياً شديداً أو أضراراً للكلية أو الرئتين. ومن المؤكد تقريباً أن الجنود العراقيين الذين كانوا يقبعون في خنادقهم خلال الهجمات قد تسمموا بسحب الغبار المشع(٩٣).

عانى السكان المدنيون معاناة قصوى من جراء القصف الذي لم يتوقف. إن هيئة المراقبة في الشرق الأوسط، وهي منظمة تعنى بحقوق الإنسان قد جمعت وثائق عن حالات كثيرة من قصف المساكن، والأسواق المزدحمة بالناس والجسور

الملأى بالمشاة والسيارات الحديثة، وقصف محطة مركزية لسيارات الباص تعج بالناس. وكان ذلك يحدث عادة في ضوء النهار دون أن يكون في نطاق النظر أمام الطيارين مبنى حكومي أو هدف عسكري من أي نوع، ولا حتى مدفع مضاد للطائرات(٩٤).

في الثاني عشر من شباط أعلن البنتاغون أن «كل ما ومن هو عسكري قد دمر أو أبطل مفعوله»(٩٥). مع ذلك حدث في اليوم التالي قصف متعمد لملجأ من الغارات الجوية يضم مدنيين وأسفر القصف عن قتل ما لا يقل عن ١٥٠٠ مدني، عدد كبير منهم نساء وأطفال. وتبع ذلك قصف شديد لأجزاء مختلفة من العراق بمعدل يومين طوال الأسبوعين المتبقيين من الحرب، بما في ذلك ما قالت جريدة «الغارديان» اللندنية في الثامن عشر من الشهر: «أنه «هجوم من أشرس الهجمات التي شنتها قوات الإئتلاف على وسط بغداد»(٩٦).

ماذا كانت الغاية من حملة القصف بعد الثاني عشر من الشهر ذاته؟ قالت الولايات المتحدة: «إنها ظنت أن الملجأ كان لكبار الشخصيات، وهو كان كذلك في وقت ما، وادعت أنه كان يستخدم مركزاً للاتصالات العسكرية، لكن سكان المنطقة المجاورة للملجأ أصروا على القول: إن أعمال الاستطلاع الجوية المستمرة كان لابد أن تلاحظ تدفق الرجال والنساء يومياً إلى داخل الملجأ(٩٧). وقال مراسلون صحفيون غربيون أنهم لم يتمكنوا من رؤية أية إشارات تدل على استخدام عسكري(٩٨).

كتب صحفي أمريكي يعمل في الأردن بعد أن شاهد شريط فيديو عن الدمار، وهو شريط لم يطلع عليه الرأي العام الأمريكي إطلاقاً:

«أظهر الشريط مشاهد مذبحة لا تصدق. إن جميع الجثث تقريباً تفحمت، وفي بعض الحالات كانت درجة الحرارة مرتفعة إلى حد أن أطراف بشر بكاملها احترقت.. ورجال الإنقاذ انهاروا حزناً وأسقطوا الجثامين، وبعض رجال الإنقاذ تقيؤوا من جراء رائحة الأجسام التي مازالت تحترق»(٩٩).

قال (مارلن فتزووتر Marlin Fitzwater) المتحدث باسم البيت الأبيض عقب قصف الملجأ: «إنه كان «هدفاً عسكرياً».. ولا ندري لماذا كان مدنيون في هذا الموقع، ولكننا كنا نعلم أن صدام حسين لا يشاطرنا إيماننا بقيمة قدسية الحياة»(١٠٠) وعندما واجه جورج بوش نقداً بسبب حملة القصف قال: «أنا مهتم بمعاناة الأبرياء»(١٠١).

إن التعطيل الكامل لشبكة الكهرباء ضاعفت بطريقة هندسية فظاعة حياة الناس في العراق. فالعراق باعتباره بلداً عصرياً كان يعتمد على الطاقة الكهربائية للخدمات الأساسية مثل تنقية المياه وتوزيعها ومعالجة الصرف الصحي، وتشغيل المستشفيات والمختبرات الطبية، والإنتاج الزراعي. ولذلك فإن الأضرار التي سببها القصف، والتي فاقمها النقص في إنتاج الكهرباء الذي يعزى إلى الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة/ الولايات المتحدة، قد خفض ناتج الكهرباء إلى ثلاثة أو أربعة بالمئة من المستوى الذي كانت عليه قبل الحرب، وموارد المياه انخفضت إلى خمسة بالمئة، وإنتاج النفط لم يعد يؤبه به، وأصاب الدمار نظام توزيع المواد الغذائية، وانهارت شبكة الصرف الصحي، فغمرت المياه القذرة، وسادت البلد حالات أمراض الجهاز الهضمي وسوء التغذية(١٠٢).

زار فريق من المعنيين بالصحة العامة من جامعة هارفارد منشآت صحية في مدن عراقية عديدة بعد انقضاء شهرين على انتهاء الحرب. واستناداً إلى الأبحاث التي أجراها هذا الفريق، قال، بشيء من التحفظ، إن «ما لا يقل عن ١٧٠,٠٠٠ طفل تحت سن الخامسة سيموتون في السنة المقبلة من جراء الآثار المتخلفة» عن تدمير الطاقة الكهربائية، والوقود ووسائل النقل، وإن «زيادة كبيرة في عدد الوفيات بين بقية السكان هي أيضاً أمر محتمل. السبب المباشر لحدوث الموت في معظم الحالات سيكون انتقال المرض بالعدوى عن طريق الماء مقترناً بسوء التغذية في أشد حالاته»(١٠٣) أحد أعضاء فريق جامعة هارفارد وفريق أبحاث زار لاحقاً العراق شهد أمام الكونغرس بأن «الأولاد يلعبون في مياه الصرف الصحي التي تتجمع في

الشوارع».. وقال اثنان من أشهر علماء العالم في سيكولوجيا الأطفال: إن الأولاد في العراق هم «الأكثر تأذياً بسبب الحرب» [١٠٤].

وعلى الرغم من تكرار تصريحات السلطات الأمريكية عن إبداء أشد الحرص على قصف الأهداف العسكرية فقط، واستخدام «القنابل الذكية» ومن ثم القنابل الموجهة و«الضربات الجراحية»، فإننا نعلم الآن أن هذا الكلام لا يعدو كونه ممارسة للدعاية Propoganda، مثلما كان الحديث عن هذه المعاناة على أنها «ضرر مصاحب». اعترف البنتاغون بعد الحرب بأن المنشآت غير العسكرية استهدفت على نطاق واسع لأسباب سياسية[١٠٥]. إن الدراسات الشاملة التي أجرتها الحكومات بعد الحرب العالمية الثانية توصلت إلى استنتاج أن «رهبة المرض والمشقات التي يفرضها فقدان المنشآت الصحية لابد أن يكون لها تأثير محبط للمعنويات على السكان المدنيين» وأن هناك «علاقة أكيدة وملفتة للانتباه بين تعطيل وسائط الخدمات العامة واستعداد الشعب الألماني لقبول الاستسلام بدون شروط[١٠٦].

في حالة العراق ثمة دافع آخر شجع المواطنين اليائسين على الانتفاض للإطاحة بصدام حسين. قال أحد المخططين في سلاح الجو الأمريكي:

«صورة كبيرة، أردنا أن يعرفها الناس «تخلصوا من هذا الشخص وسنكون أكثر من سعداء بمساعدتكم في إعادة البناء. لن نتحمل صدام حسين أو نظام حكمه. تولَّوا أنتم هذا الأمر، ونتولى نحن قضية الكهرباء عندكم»[١٠٧].

الذين حاولوا النجاة من فظائع القصف في العراق عن طريق الهرب إلى الأردن تعرضوا لغارات جوية على الطريق الرئيسية بين بغداد والحدود الأردنية – لقد هوجمت مراراً سيارات باص، وسيارات تكسي، وسيارات خاصة، فعلاً بلا رحمة، بالصواريخ والقنابل العنقودية والمدافع الرشاشة، كان يجري ذلك في وضح النهار، وكانت أهداف القصف مدنية بكل وضوح وكانت الأمتعة ظاهرة أكواماً على سقوف السيارات، دون أن تكون هناك في مدى الرؤية أية سيارات أو مبان عسكرية في أي

مكان، بل كانت المناطق المقصوفة محاطة بالصحراء، وكانت الطائرات المهاجمة تحلق على انخفاض كبير.. فكانت سيارات باص ملأى بالركاب تحترق، وعندما كان الناس يغادرون السيارات هاربين لإنقاذ حياتهم، كانت الطائرات في أغلب الأحيان تنقض عليهم وهي تطلق النار.. صرخ سائق تكسي أردني في وجه مراسل صحفي أمريكي «أنتم تقتلوننا، تطلقون النار على كل ما يتحرك! حينما تشاهد الطائرات سيارة أو شاحنة تنقض من السماء وتطاردها. إنهم لا يهتمون بمن نحن أو ما نحن. ما يهمهم فقط إطلاق النار». صرخته هذه رددها مئات غيره.. يبدو أن العسكريين الأمريكيين كانوا يشعرون أن أية مركبة، بما في ذلك المركبات المليئة بالعائلات، قد تكون تغطية لنقل وقود عسكري أو مادة حربية أخرى ربما أشياء تتعلق بصواريخ سكود، حتى نقل الوقود للمدنيين كان يعتبر انتهاكاً للحظر المفروض على العراق(١٠٨).

عندما انتهت الحرب كلياً وعندما كان الجائعون، والجرحى، والمرضى، والمرهقون، والتائهون، والذين فقدوا معنوياتهم، المتدثرون بالأسمال، وأحياناً رجال الجيش العراقي الحُفاة، هذا الجيش الذي بالكاد أبدى أي رغبة بالقتال وكان أفراده يغادرون الكويت متجهين إلى البصرة في جنوب العراق، حاول صدام حسين أن ينقذ شيئاً من الكرامة المهانة بإعلانه أن جيشه كان ينسحب بسبب «ظروف خاصة». ولكن حتى هذا الكلام كان أكثر مما يقبله جورج بوش. فقد قال الرئيس الأمريكي بلهجة قوية: «آخر خطاب ألقاه صدام حسين مثير للغضب: إنه لا ينسحب بل إن قواته المهزومة تتراجع. إنه يحاول ادعاء النصر في خضم الهزيمة».

هذا لم يكن بالإمكان السماح به. وهكذا كانت القوة الجوية الأمريكية بكل عظمتها تكتسح الطريق إلى البصرة وتقصف كل شيء يتحرك بالقنابل والصواريخ والمدافع الرشاشة في رتل العسكريين العراقيين الطويل والمركبات المدنية والجنود واللاجئين. هؤلاء الجنود الأمريكيون الطيبون الذين يخافون الله سيتم الترحيب بهم عما قريب في وطنهم وسيجري استقبالهم كأبطال، ويقام لهم احتفال.. «شربنا النخب».. هذا الصباح كانت السيارات متلاصقة. «كسبنا الرهان».. «أكلنا ديكاً

رومياً».. «هذا الصباح كنا في الطريق إلى (خليج دايتونا Daytona Beach) عند بداية فصل الربيع.. وبداية فصل الربيع قد انتهت».

مرة بعد أخرى، وفيما كانت مكبرات الصوت المحمولة على سيارة (رينجر) تبث معزوفة روسيني (افتتاحية وليم تل) كانت قوة ضاربة بعد أخرى تقلع بما تحمله من الصواريخ والقذائف المضادة للدبابات والقنابل العنقودية التي كانت تمطر المناطق بقذائف مضادة للدروع، وشاركت طائرات قاذفة من طراز (ب -٥٢) بقصف العراق بقنابل من وزن ألف باوند.. «لن يتطلب الأمر عدداً كبيراً من الأيام الأخرى حتى لا يبقى شيء منهم».. «صيد سمك في برميل».. «أساساً هم مجرد طيور بط ساكنة».. «الحقيقة لا شيء يشبه ذلك. إنه أكبر احتفال بيوم الرابع من تموز رأيناه بحياتنا، ورؤية تلك الدبابات وهي تسير وتطلق المزيد من قذائفها.. إنها فقط تصبح بيضاء من شدة الحرارة. هذا شيء رائع».

مع أن جريدة (اندبندنت Indipendent) البريطانية اليومية كانت مؤيدة للحرب، إلا أنها استنكرت ابتهاج الأمريكيين بإطلاق النيران قائلة، إن هذا أمر يبعث على الإقياء وإنه لأمر يصيب الإنسان بالغثيان عندما يشاهد جيشاً مهزوماً تطلق النار عليه من الخلف»[١٠٩].

أوجز مراسل لهيئة الإذاعة البريطانية الهجوم بالسؤال التالي: «أي تهديد يمكن أن يشكله هؤلاء المساكين من بقايا جيش صدام حسين المهزوم؟ ألم يكن واضحاً أن هؤلاء الأشخاص الذين تنقلهم السيارات كانوا مستعدين للاستسلام بدون استعمال هذه الأسلحة الرهيبة؟»[١١٠].

كل ذلك كان يجري ضد خصم مابرح منذ خمسة أيام يطالب بوقف لإطلاق النار.

ولكن لا سمح الله فالأمريكيون لن يغضبوا أحداً من شعوب منطقة الخليج. وهكذا فقد جرى تعليم الجنود الأمريكيين أشياء من قبيل عدم استخدام اليد اليسرى عندما يقدمون طعاماً أو شراباً، لأن هذه اليد مخصصة تقليدياً للمهمات

الصحية، والطريقة الصحيحة لكي تومىء إلى عربي هي باستخدام يد واحدة وأصابعها حتى لا يختلط الأمر مع مناداة كلب(١١١).

لقد اطلعنا أيضاً على قصة الطيار الأمريكي الذي وضع ضمن وثائق التعريف بنفسه، خلال عملية القصف السابقة، ورقة نقود من فئة عشرين دولاراً، وورقة تحمل كلمات باللغة العربية والفارسية والتركية والانكليزية. تقول هذه الكلمات: «أنا أمريكي لا أعرف لغتكم. لا أحمل أي ضغينة نحو شعبكم». بعد ذلك أقلع مخترقاً الأجواء نحو العراق بالقنابل التي تحملها طائرته(١١٢).

تُرى هل يحمل الجنود الأمريكيون ضغينة نحو زميلاتهم المجندات؟ لقد أظهرت دراسة أجريت بعد الحرب أن أكثر من نصف النساء اللواتي شاركن في حرب الخليج يشعرن أنه جرى التحرش بهن جنسياً بصورة لفظية، في حين أن ثمانية بالمئة منهن (نحو ٣٠٠٠) تعرضن لمحاولة اعتداء جنسي أو اعتداء جنسي فعلي(١١٣).

مباشرة بعد أن أصدر جورج بوش أمره ببدء القصف قفز معدل شعبيته إلى ٨٢٪ في استطلاعات الرأي، وكان هذا أعلى معدل حصل عليه خلال السنتين اللتين أمضاهما في منصبه، بل إنه أعلى من المعدل الذي ناله بعد غزو بنما(١١٤).

لقد كتب أحد الصحفيين في وقت لاحق مايلي:

«إن دقيقة واحدة من الصدق الليلي عن هذه الحرب (الشعبية) كان من شأنها أن تغيّر الرأي العام الأمريكي.. فإذا كانت ستون ثانية هي مدة نشرة أخبار السادسة يوم الاثنين أظهرت خمسة آلاف جندي عراقي مصابين بحروق فوسفورية غيرت التشريح البشري الذي تبع مجزرة الملجأ من الغارات الجوية في بغداد ليلة الثلاثاء.. ماذا لو أن الأمريكيين شاهدوا يوم الأربعاء عشرة آلاف جندي عراقي يحترقون بأسلحة أمريكية عالية التقنية؟»(١١٥).

منذ غزو العراق للكويت في شهر آب، وبالرغم من التصريحات اللاذعة والكلام البلاغي الصادر عن البيت الأبيض، ثمة شيء واحد بدا واضحاً تمام الوضوح: لو

كان العراق وافق على الانسحاب من الكويت لما كانت قد حدثت الهجمات العسكرية ضده أو لكانت توقفت بغض النظر عن العقوبات الأخرى التي كان يمكن استمرارها. وهكذا بدا كشعاع من الأمل - مهما كان متأخراً- نجاح الاتحاد السوفييتي بتاريخ ٢١ - ٢٢ شباط ١٩٩١ بإقناع العراق بالموافقة على الانسحاب كلياً في اليوم الذي يلي بدء تنفيذ وقف إطلاق النار في جميع العمليات العسكرية. إن هذه الموافقة اقترنت بجداول زمنية محددة وبعملية رصد(١١٦).

لكن جورج بوش رفض أن يعرض وقفاً لإطلاق النار. بل إنه لم يستطع أن يتقبل ذكر هذه الكلمة في أجوبته. إن كل ما كان يقوله هو أن القوات العراقية المتقهقرة لن تهاجم (وتبين أن ذلك لم يكن صحيحاً) وأن قوات الائتلاف «ستمارس ضبط النفس». كان بإمكان صدام حسين أن يعتبر ذلك وقفاً لإطلاق النار، ولكنه لم يكن يقلّ عن جورج بوش كبرياء وعناداً.

إن النقطة التي أكثر جورج بوش التأكيد عليها خلال هذين اليومين الحاسمين، كما فعل في السابق، هي أن العراق يجب أن ينفذ كل قرارات الأمم المتحدة الاثني عشر. عند تقييم مطالب بوش من الناحية القانونية يجب أن نأخذ في الاعتبار أن سياسة وممارسة الحرب الأمريكية كانت تكراراً تنتهك نص وروح ميثاق الأمم المتحدة، ومواثيق لاهاي، ومواثيق جنيف، ومحكمة نورمبرغ، وبروتوكولات اللجنة الدولية للصليب الأحمر، والدستور الأمريكي، بين وثائق أخرى(١١٧).

في نهاية الأمر أعطى بوش صدام حسين أربعاً وعشرين ساعة للبدء بالانسحاب من الكويت. وعندما حان الوقت وانقضى، شنت الولايات المتحدة حرباً برية كانت متوقعة منذ زمن طويل، بينما استمرت الغارات الجوية، بما فيها القصف العنيف للطريق المؤدية إلى البصرة، حتى نهاية الشهر. لقد قال (فيتالي اغناتنكو) وهو أحد المتحدثين باسم الرئيس السوفييتي ميخائيل غورباتشوف: «يبدو أن الرئيس غورباتشوف أكثر اهتماماً من الرئيس بوش بإنقاذ أرواح الجنود الأمريكيين»(١١٨).

أعلن فريق تفتيش تابع للأمم المتحدة، في عملية مسح أجراها بعد الحرب أن القصف الذي نفذته قوات الحلفاء كان له «تأثير يقرب من الآخرة» على العراق، وحوّل هذا البلد إلى «دولة من قبل عصر الصناعة» بعد «أن كان العراق حتى شهر كانون الثاني يشكل مجتمعاً عالي التمدن ويستخدم الآلات»(١١٩).

لن نعرف أبداً عدد مئات الآلاف من العراقيين الذين ماتوا من جراء آثار الحرب المباشرة وغير المباشرة، فالرقم إلى ازدياد كل يوم. ومع رفض الأمم المتحدة إنهاء الحظر المفروض على العراق، استمر كل شيء: سوء التغذية، الجوع، فقدان الأدوية والمصول، تلوث مياه الشرب، تراكم غائط الإنسان، التيفوئيد، وما يقرب من وباء الحصبة، وعدة أمراض أخرى.. لقد كان توفير المواد الغذائية للعراق يعتمد بنسبة ٧٠٪ على الاستيراد، أما الآن فإن بلايين الدولارات قد جُمدت في حسابات وراء البحار، مع قيود تمنع بيع نفطه.. والعجز عن إعادة البناء لأن أجزاء حيوية لا يمكن استيرادها، كما أن الصناعة أغلقت أبوابها، وانتشرت البطالة انتشاراً واسعاً، وانهارت أنظمة النقل والاتصالات(١٢٠) مع حلول شهر أيلول ١٩٩٤، ورفض الحكومة الأمريكية المستمر تخفيف قبضة الموت على الحظر، إذ كانت لا تزال تأمل أن تصل المعاناة إلى جماهير مؤثرة وأن يعمد الشعب العراقي إلى الإطاحة بصدام حسين بينما أعلنت الحكومة العراقية أنه منذ بدء تطبيق العقوبات في شهر آب ١٩٩٠ توفي حوالي ٤٠٠,٠٠٠ طفل بسبب سوء التغذية والأمراض(١٢١).

بعد الحرب وبينما كانت الحكومة العراقية تقمع ثورة كردية - شجعت عليها الولايات المتحدة ولكنها امتنعت بعد ذلك عن دعمها - قال بوش: «أشعر بالإحباط في أي وقت يُقتل فيه مدنيون أبرياء»(١٢٢).

كانت هذه المرة الثانية التي قادت فيها الولايات المتحدة الحملات الكردية إلى الذبح بواسطة التزام لم تفِ به (راجع فصل العراق ١٩٧٢ - ٧٥).

كانت واشنطن قد شجعت المسلمين الشيعة في العراق على التمرد ثم امتنعت عن دعمهم. ولم تكن الولايات المتحدة تنظر إلى مساندة حكومية عراقية تزعج

تركيا، ولا إلى حكومة شيعية قد تصبح حليفة لإيران أو تُلهم السلفيين المسلمين في كل مكان من الشرق الأوسط.

إن مستشفيات الأمراض العقلية الأمريكية والسجون الأمريكية هي منزل لأشخاص كثيرين يدَّعون أنهم سمعوا صوتاً يناديهم ويطلب منهم قتل أشخاص معينين، أشخاص لم يسبق لهم أن التقوا بهم، أشخاص لم يفعلوا أي شيء يسبب لهم الأذى أو هددوا بأي أذى.

لقد ذهب الجنود الأمريكيون إلى الخليج العربي ليقتلوا نفس هذا النوع من الناس بعد سماعهم صوتاً يأمرهم بذلك: صوت جورج هربرت ووكر بوش.

أفغانستان ١٩٧٩ - ١٩٩٢

جهاد أمريكا

«استأثر أتباعه بالانتباه عن طريق رشق وجوه النساء اللواتي يرفضن وضع الحجاب بمادة الأسيد. إن مسؤولي وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية الأميركية الذين تحدثت إليهم يصفونهم بأنهم «مرعبون»، «أشرار»، «فاشيست»، «مادة للدكتاتورية المؤكدة»[١].

هذا الكلام لم يمنع الولايات المتحدة من زخ كميات هائلة من العون على الرجل لكي يقاتل حكومة أفغانستان المدعومة من السوفييت. اسم هذا الرجل قلب الدين حكمتيار. لقد كان رئيس الحزب الإسلامي وكان يكره الولايات المتحدة بقدر كرهه للروس، وكان أتباعه يهتفون «الموت لأميركا» إلى جانب هتافهم «الموت للاتحاد السوفييتي»، والروس وحدهم لم يكونوا يمدونه بكميات كبيرة من العون[٢].

شرعت الولايات المتحدة بدعم الأصوليين الإسلاميين الأفغان في عام ١٩٧٩ على الرغم من أن بعض هؤلاء كانوا في شهر شباط من ذلك العام قد خطفوا السفير الأميركي في العاصمة كابول وأدى خطفه إلى موته في أثناء محاولة إنقاذه. وقد استمر الدعم حتى بعد أن استولى إخوانهم الأصوليون الإسلاميون في إيران المجاورة على السفارة الأمريكية في طهران في شهر تشرين الثاني، وجعلوا من خمسة وخمسين أميركياً رهائن لمدة أكثر من عام. على أية حال، كان حكمتيار وزملاؤه يخوضون المعركة ضد إمبراطورية الشر السوفييتية، وبذلك كان عضواً هاماً في تلك القوى التي كان يسميها رونالد ريغان «المحاربين من أجل الحرية».

بتاريخ ٢٧ نيسان (أبريل) ١٩٧٨ نظم حزب الشعب الديموقراطي انقلاباً أطاح بحكومة محمد داوود، وكان هذا قد أطاح قبل ذلك بخمس سنوات بالنظام الملكي

وأنشأ جمهورية، مع أنه هو نفسه كان عضواً في الأسرة المالكة. لقد لقي تأييد اليسار في هذا العمل، ولكن تبين فيما بعد أن دم داوود الملكي كان أكثر كثافة من مياهه التقدمية. وعندما أقدم نظام الحكم برئاسة داوود على قتل زعيم الحزب الديموقراطي الشعبي واعتقل بقية أعضاء الحزب وطهَّر المناصب الحكومية من مئات الأشخاص المشتبه بأنهم يتعاطفون مع الحزب، ثار حزب الشعب الديموقراطي بمساعدة مؤيديه في الجيش واستولى على السلطة.

كانت أفغانستان دولة متخلفة: معدل عمر الإنسان حوالي ٤٠ سنة، ووفاة الأطفال لا تقل عن ٢٥٪، والتمديدات الصحية بدائية بالمطلق، وسوء التغذية منتشر، ونسبة الأمية تزيد على ٩٠٪، والطرق الرئيسية قليلة جداً، ولا يوجد ميل واحد من السكك الحديدية ومعظم السكان يعيشون في قبائل رُحَّل أو أنهم مزارعون فقراء في قرى مبنية من الطين ينتسبون إلى جماعات اثنية أكثر من انتسابهم إلى مفهوم سياسي أوسع، وحياتهم تكاد لا تختلف عما كانت عليه قبل قرون عديدة.

كان الإصلاح باتجاه اشتراكي هو طموح الحكومة الجديدة: الإصلاح الزراعي (مع بقاء الملكية الخاصة) والرقابة على الأسعار والأرباح، وتعزيز القطاع العام، وكذلك الفصل بين الكنيسة والدولة، والقضاء على الأمية، وإعطاء شرعية لنقابات العمال، وتوفير الخلاص للنساء في بلد جميع سكانه تقريباً مسلمون.

حدود أفغانستان مع الاتحاد السوفييتي التي تمتد على طول ١٠٠٠ ميل كانت تنتج دائماً علاقة خاصة، وحتى عندما كان في البلد نظام ملكي، كانت أفغانستان تحت تأثير قوي من جار شمالي بالغ القوة، كان على مدى زمن طويل شريكها التجاري الأكبر، الذي يقدم لها المساعدة، ويزوّدها بالأجهزة العسكرية. ولكن لم يسبق لهذا البلد أن ابتلعه السوفييت، وهذه حقيقة ربما تعطي مصداقية للإدعاء السوفييتي المتكرر بأن هيمنة السوفييت على أوروبا الشرقية كانت فقط لخلق حاجز بينهم وبين الغرب الذي لا ينفك يغزو بلادهم.

مع ذلك حاولت واشنطن وشاه إيران خلال عقود من السنين أن يضغطا على أفغانستان وأن يرشوها لكي تطرد النفوذ الروسي من أراضيها. وخلال نظام الحكم برئاسة داوود، سعت إيران، بتشجيع من الولايات المتحدة لكي تحل محل الاتحاد السوفييتي كأكبر مصدر للمساعدة، مع إتفاقية مساعدة إقتصادية بقيمة مليوني دولار، كما أنها حثت أفغانستان على الإنضمام إلى منظمة التعاون الإقليمي من أجل التنمية التي كانت تتألف من إيران وباكستان وتركيا. (لقد هاجم الاتحاد السوفييتي هذه المنظمة وأصدقاءها في أفغانستان معتبراً إياهم «فرعاً من حلف السنتو» الذي كان في الخمسينيات من القرن العشرين حلفاً للأمن الإقليمي وكان جزءاً من السياسة الأميركية الرامية إلى «احتواء» الاتحاد السوفييتي. في الوقت ذاته كانت الشرطة السرية الإيرانية السيئة السمعة، أي (السافاك Savak) منهمكة في مقاتلة الذين يشتبه بتعاطفهم مع الشيوعيين في الحكومة الأفغانية وفي القوات العسكرية الأفغانية. في شهر أيلول عام ١٩٧٥، قام داوود، بتحريض من إيران التي ربطت مساعدتها بشرط اتباع هذه السياسات، بطرد أربعين ضابطاً عسكرياً تلقوا تدريباتهم لدى السوفييت ثم انتقل إلى تخفيض اعتماد أفغانستان في المستقبل على الاتحاد السوفييتي في تدريب الضباط وذلك عن طريق الشروع في ترتيبات للتدريب اتُّفق عليها مع الهند ومصر. أهم الأمور، في نظر السوفييت، هو أن داوود أنهى بصورة تدريجية تحالفه مع حزب الشعب الديموقراطي معلناً أنه سيؤسس حزبه الخاص ويحظر كل نشاط سياسي آخر، بموجب دستور جديد كان يعتزم صياغته[٣].

إن (سليغ هاريسون Selig Harrison)، الكاتب في جريدة «واشنطن بوست» المختص بشؤون جنوب آسيا كتب في عام ١٩٧٩ مقالاً عنوانه «الشاه، وليس الكرملين، هو الذي فجر الانقلاب الأفغاني»،وختمه قائلاً:

«إن استيلاء الشيوعيين على الحكم في كابول (نيسان ١٩٧٨) حدث في الزمن الذي حدث فيه وبالطريقة التي حدث بها، لأن الشاه زعزع التوازن الواهي الذي كان قائماً في أفغانستان بين الاتحاد السوفييتي والغرب خلال ثلاثة عقود تقريباً. إن

هجوم طهران كان في نظر الإيرانيين والأميركيين موجهاً فقط لجعل كابول أكثر صدقاً في عدم الانحياز ولكنه هجوم مضى إلى أبعد من ذلك. فإذا أخذنا في الاعتبار الحدود الطويلة بصورة غير اعتيادية مع أفغانستان لرأينا أن الاتحاد السوفييتي سيعمد بكل وضوح إلى بذل جهود كبيرة لمنع كابول من الانتقال مرة أخرى نحو موقف موالٍ للغرب»[٤].

عندما أُطيح بالشاه في كانون الثاني ١٩٧٩ خسرت الولايات المتحدة حليفها الأكبر وموقعاً لها في منطقة الحدود مع الاتحاد السوفييتي، كما خسرت منشآتها العسكرية ومحطاتها للرصد الالكتروني الموجهة ضد الاتحاد السوفييتي. إن أنصار الحرب الباردة في واشنطن كانوا الآن أشد شهوة للسيطرة على أفغانستان مما كانوا سابقاً.

عقب ثورة نيسان، أعلنت الحكومة الجديدة برئاسة الرئيس نور محمد طراقي التزامها بالإسلام ضمن دولة علمانية، وبعدم الانحياز في الشؤون الخارجية. وأكدت أن الانقلاب لم يكن مستوحى من جهة أجنبية، ولم يكن «استيلاء شيوعياً على البلد» وأن الحكومة الجديدة لم تكن «شيوعية» بل حكومة وطنيين وثوريين. (لم يسبق أبداً أن كان في أفغانستان حزب شيوعي رسمي أو تقليدي)[٥]، ولكن بسبب برنامج الحكومة للإصلاح الراديكالي وكلامها عن الصراع الطبقي وعن معاداة الإمبريالية، وتأييدها من جانب جميع الجهات التي يُشتبه بها عادة (كوبا، كوريا الشمالية، الخ) فإن توقيعها على معاهدة الصداقة واتفاقيات تعاون أخرى مع الاتحاد السوفييتي وازدياد وجود المدنيين والمستشارين العسكريين السوفييت في البلد (ربما كان هذا الوجود أقل من الوجود الأمريكي في إيران آنذاك)، أدى إلى وصمها «بالشيوعية» من قبل وسائط الإعلام في العالم ومعارضيها في الداخل.

وسواء أكان أم لم يكن من المناسب وصف الحكومة الجديدة في أفغانستان بأنها شيوعية، وسواء أكان أم لم يكن الوصف الذي يطلق عليها يعني أي فرق، فقد رُسمت خطوط الآن لمعركة سياسية وعسكرية ودعائية: الجهاد (الحرب المقدسة)

بين المسلمين الأصوليين و«الشيوعيين الملحدين الذين لا يؤمنون بالله»، القومية الأفغانية ضد حكومة «يديرها السوفييت»، كبار مالكي الأرض، وزعماء القبائل، ورجال الأعمال، والأسرة الملكية على امتدادها، وآخرون، ضد حكومة الإصلاحات الاقتصادية. لقد قال رئيس الوزراء الجديد عن هذه النخبة التي تدعو الحاجة إليها من أجل استمرار إدارة البلاد «يجب بذل كل جهد لجذبهم. ولكننا نريد إعادة تثقيفهم بطريقة تجعلهم يفكرون بالشعب، وليس، كما كانت الحال سابقاً، بأنفسهم فقط، أي بامتلاكهم منزلاً جيداً وسيارة جميلة بينما بقية الناس يموتون جوعاً»(٦).

كانت الحكومة الأفغانية تحاول إدخال البلد في القرن العشرين. لاحظ العالم السياسي البريطاني (فرد هاليدي Fred Halliday) في شهر أيار ١٩٧٩ أنه «ربما كان التغيير الذي حدث في المناطق الريفية خلال العام المنصرم يفوق ما حدث خلال قرنين منذ تأسيس الدولة». لقد ألغيت ديون الفلاحين لأصحاب الأملاك، وألغي نظام الرب (الذي كان يجعل الفلاحين المضطرين إلى اقتراض المال لقاء محاصيلهم في المستقبل، مدينين دائماً للمرابين)، وأنشئت مئات المدارس والعيادات الطبية في الريف. وقال (هاليدي) أيضاً إنه كان يجري تنفيذ برنامج هام لإعادة توزيع الأرض، وإن العديد من ٢٠٠,٠٠٠ عائلة ريفية كان مقرراً أن تحصل على أرض بموجب البرنامج، لقد حصلت عليها فعلاً. لكن هذا الإدعاء الأخير تجب مقاربته بحذر. ذلك أن الإصلاح الثوري في مجال الأرض هو دائماً مشروع بالغ التعقيد ومحفوف بالمخاطر حتى في أحسن الأحوال، علماً أن أفغانستان شديدة التخلف والمتمسكة بالتقاليد في خضم حرب أهلية وليدة كان من العسير أن توفر أحسن الأحوال لتجارب اجتماعية.

وقد اقتحمت الإصلاحات المجال الحساس الإسلامي، مجال استعباد النساء، بتحريم زواج صغار السن، وتقديم المرأة زوجة لقاء المال أو السلع، وتعليم المرأة القراءة في حين كان بعض الشيع الإسلامية يدعو علناً إلى تعزيز نظام (البوردا Purda) - أي حجب النساء عن أعين العامة من الناس.

نوّه هاليدي بأن حزب الشعب الديموقراطي كان يرى في الاتحاد السوفييتي المصدر الواقعي الوحيد لدعم التحديث الذي تأخر زمناً طويلاً[٧] إن أبناء عمومة الفلاحين الأفغان الأميين الموجودين عبر الحدود في الاتحاد السوفييتي، هم في أغلب الأحيان خريجو جامعات وأصحاب مهن.

إن حجة المتمردين من المجاهدين بأن الحكومة «الشيوعية» ستحد من حريتهم الدينية لم تصمد من الناحية العملية. لقد قالت مجلة «الاكونومست» البريطانية المحافظة بعد مرور عام على تغيير الحكومة: «إنه لم تفرض أية قيود على الممارسة الدينية»[٨] وقبل ذلك، قالت جريدة «نيويورك تايمز»: إن المسألة الدينية يجري استخدامها من بعض الأفغان الذين ينصبّ اعتراضهم أكثر ما ينصب على خطط الرئيس طراقي للإصلاح في الأرض والتغييرات الأخرى في هذا المجتمع الإقطاعي»[٩]. والحقيقة أن كثيرين من رجال الدين المسلمين كانوا من مالكي الأرض الأثرياء[١٠]. واستنتج مراسل لهيئة الإذاعة البريطانية كان قد أمضى معهم أربعة شهور أن المتمردين «يقاتلون من أجل المحافظة على نظامهم الإقطاعي وإيقاف إصلاحات حكومة كابول اليسارية التي تعتبر معادية للإسلام»[١١].

الدولتان الأخريان اللتان تشتركان بحدود طويلة مع أفغانستان واللتان كانتا حليفتين وثيقتي الصلة مع الولايات المتحدة، أعربتا عن مخاوفهما من الحكومة الجديدة. من جهة الغرب كانت إيران، التي كانت لا تزال تحت حكم الشاه، تشعر بالقلق على «التهديدات التي تتعرض لها طرق نقل النفط في الخليج الفارسي». ومن جهة الجنوب كانت باكستان، التي كانت تتحدث عن «تهديدات من أفغانستان معادية وتوسعية»[١٢]. أحد السفراء الأمريكيين السابقين في أفغانستان رأى أنها جزء من «حركة كماشة تطبق فكيها تدريجياً على إيران ومناطق النفط في الشرق الأوسط»[١٣]. لقد تبين أن هذه المخاوف المزعومة ليس بينها ما له أساس أو دليل يشهد بصحته، ولكن هذا يثبت فقط في أذهان المعادين للشيوعية أن الروس وصنائعهم الأفغان قد أوقفوا عند حدودهم في الوقت المناسب.

بعد مرور شهرين على انقلاب نيسان ١٩٨٧، كان تحالف مؤلف من عدد من الفئات الإسلامية المحافظة يشن حرب عصابات على الحكومة[١٤]. ومع حلول فصل الربيع عام ١٩٧٩ كان القتال يدور على جبهات عديدة، وكانت وزارة الخارجية الأمريكية تحذر الاتحاد السوفييتي ومستشاريه في أفغانستان من التدخل عسكرياً في النزاع الأهلي. أحد هذه التحذيرات الذي ورد في فصل الصيف على لسان المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية (هودنغ كارتر Hodding Carter) كان واحداً من النصب التذكارية (للتشوتزباه : Chutzpah) «نحن نتوقع احترام جميع الأطراف في المنطقة لمبدأ عدم التدخل، بما في ذلك الاتحاد السوفييتي»[١٥]. حدث ذلك بينما كان السوفييت يتهمون وكالة المخابرات المركزية بتسليح الأفغان الذين يعيشون في المنفى في باكستان، بينما كانت الحكومة الأفغانية تتهم هي أيضاً إيران وباكستان بمساعدة رجال العصابات بل وباجتياز الحدود للمشاركة في القتال. كانت باكستان مؤخراً قد انحرفت انحرافاً حاداً نحو التشدد في العقيدة الإسلامية، الأمر الذي أبدت الحكومة الأفغانية أسفها له باعتباره «تعصباً»[١٦]. بينما أقامت إيران في شهر كانون الثاني دولة إسلامية بعد الإطاحة بالشاه. (كان الوصف الذي يطلق في الغرب باستمرار على الأصوليين الإسلاميين الإيرانيين هو وصف الإرهابيين المحافظين المعادين للديموقراطية بعكس وصف الأصوليين الأفغان بأنهم مناضلون من أجل الحرية).

أحد «التكتيكات» التي كان يحبذها المناضلون الأفغان من أجل الحرية هو «تعذيب الضحايا (أكثرهم من الروس) أولاً بجدع أنوفهم، وقطع آذانهم وأعضائهم التناسلية وسلخ قطعة بعد الأخرى من جلودهم» مع ما يسببه ذلك من «موت مؤلم بطيء»[١٧]. وقتل المجاهدون أيضاً سائحاً كندياً وستة ألمان غربيين، بينهم طفلان، وقاموا بسحب ملحق عسكري أمريكي من سيارته وضربوه، كل ذلك لأن هؤلاء المتمردين كما يبدو لم يستطيعوا التمييز بين الروس وغيرهم من الأوروبيين[١٨].

في شهر آذار ١٩٧٩ ذهب طراقي إلى موسكو للضغط على السوفييت من أجل إرسال قوات برية لمساعدة الجيش الأفغاني على وضع حد للمجاهدين. تلقى وعداً بتقديم مساعدة عسكرية، لكن لم يكن بالإمكان الالتزام بإرسال قوات برية. لقد قال كوسيغين رئيس الوزراء السوفييتي للزعيم الأفغاني:

«إن دخول جنودنا إلى أفغانستان سيثير غضب الأسرة الدولية ويفجر سلسلة من التداعيات السلبية للغاية في مناطق مختلفة عديدة. إن أعداءَنا المشتركين ينتظرون لحظة ظهور الجنود السوفييت في أفغانستان. وذلك سيوفر لهم العذر الذي يحتاجونه لإرسال عصابات مسلحة إلى البلد»[١٩].

صارت المسألة في شهر أيلول أكاديمية تماماً بالنسبة لنور محمد طراقي لأنه عزل من منصبه (وسرعان ما أعلنت وفاته) في صراع بين الأحزاب وحل محله نائب رئيس مجلس وزرائه، حفيظ الله أمين. ومع أن طراقي كان في بعض الأحيان متشدداً في تنفيذ البرنامج الإصلاحي، وخلق معارضة حتى من صفوف المقصود بهم أن ينتفعوا من البرنامج، تبين أنه معتدل مقارنة مع أمين الذي حاول إيجاد تغيير اجتماعي بواسطة تغليب القوة على التقاليد والحكم الذاتي القبلي والاثني.

لم يكن الكرملين مرتاحاً إلى أمين. حقيقة أنه كان له ضلع في الإطاحة بطراقي المحبوب كثيراً وبموته كانت حقيقة سيئة بما فيه الكفاية. ولكن السوفييت اعتبروه إلى جانب ذلك غير مناسب إطلاقاً للمهمة التي كانت بالنسبة لموسكو شرطاً لابد منه: الحيلولة دون قيام دولة إسلامية معادية للشيوعية في أفغانستان. لقد أعطى أمين الإصلاح اسماً سيئاً للغاية. ذكرت محطة المخابرات السوفييتية في كابول من خلال إلحاحها على عزل أمين، أن اغتصابه السلطة سيؤدي إلى أعمال قمع قاسية، وكرد فعل، إلى تنشيط وتوطيد المعارضة[٢٠]. علاوة على ذلك، كما سنرى، كانت لدى السوفييت شكوك كثيرة في قناعات أمين الأيديولوجية.

وهكذا كان الأمر، أي أن ما لم يكن يخطر بالبال في شهر آذار، أصبح حقيقة في شهر كانون الأول. وقد بدأت القوات السوفييتية تصل إلى أفغانستان حوالي

اليـوم الثـامن من الشـهـر - أمـا إلى أي مـدى حـدث ذلك بناء على طلب أمين أو بموافقته، وبالتالي ما إذا كان وصول هذه القوات يسمى «غزواً» أم لا، فذلك موضوع الكثير من البحث والجدل.

في اليوم الثالث والعشرين من الشهر قالت جريدة «واشنطن بوست» في تعليق لها: «يوجد اتهام (من قبل وزارة الخارجية الأمريكية) أن السوفييت غزوا أفغانستان إذ أن الجنود كما يبدو جاؤوا بناء على دعوة»[٢١].

على أي حال، فإن وزير خارجية أمين كان قد انتقد صراحة تدخل الاتحاد السوفييتي في الشؤون الأفغانية خلال اجتماع مع سفراء دول الكتلة السوفييتية عُقد في تشرين الأول. كما أن أمين نفسه أصر على تبديل موسكو سفيرها لدى أفغانستان[٢٢]. مع ذلك، في اليوم السادس والعشرين من كانون الأول، بينما كان العدد الرئيسي من الجنود السوفييت يصل إلى أفغانستان، أعطى أمين «مقابلة صحفية تحدث فيها بلهجة مخففة» إلى أحد الصحافيين العرب. وقد قال فيها: «إن السوفييت يزودون بلدي بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية، وهم في الوقت ذاته يحترمون استقلالنا وسيادتنا، وهم لا يتدخلون في شؤوننا الداخلية». وتحدث أيضاً عن استعداد الاتحاد السوفييتي لقبول اعتراضه على إقامة قواعد عسكرية[٢٣].

في اليوم التالي تماماً اقتحمت قوة عسكرية سوفييتية القصر الرئاسي وأطلقت النار على أمين فتوفي[٢٤].

حل محله بابراك كارمال الذي كان نائباً للرئيس ونائباً لرئيس الوزراء في حكومة عام ١٩٧٨ الثورية.

أنكرت موسكو أي دور لها في وفاة أمين، مع أنها لم تظهر الأسى لموته، وهذا ما أوضحه بريجينيف بقوله:

«إن أعمال المعتدين على أفغانستان قد سهلها أمين الذي شرع عند استيلائه على السلطة بقمع أجزاء واسعة من المجتمع الأفغاني بقسوة شديدة، وشمل هذا

القمع الكوادر الحزبية والعسكرية، وأفراداً من المثقفين ورجال الدين الإسلامي، أي تلك الأجزاء من المجتمع التي اعتمدت عليها ثورة شهر نيسان. وقد انتفض الشعب بقيادة الحزب الشعبي الديموقراطي، وبرئاسة بابراك كارمال، ضد طغيان أمين واضعاً حداً لهذا الطغيان. أما الآن، هنالك من يظهرون حزنهم على أمين في واشنطن وبعض العواصم الأخرى. هذا يكشف نفاقهم بكل وضوح. فأين كان هؤلاء المحزونون عندما كان أمين يقوم بعملية قمع واسعة، عندما عزل بالقوة وبصورة غير قانونية طراقي مؤسس الدولة الأفغانية الجديدة وقتله»[٢٥].

بعد عزل أمين وقتله تجمعت الناس في الشوارع على نحو «ما يفعل الناس أيام العيد». قال دبلوماسي غربي: «إذا كان كارمال قد تمكن من الإطاحة بأمين بدون مساعدة الروس فقد كان من شأنه أن يعتبره الشعب بطلاً»[٢٦].

لقد دأبت الحكومة السوفييتية والصحافة السوفييتية على الإشارة إلى أمين على أنه «عميل لوكالة المخابرات المركزية» وهي تهمة قوبلت في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان بكثير من الشك[٢٧]. غير أن هناك دليلاً ثابتاً يؤيد التهمة بحيث أنه لا يجوز استبعادها كلياً بدون نقاش.

خلال أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين كان أمين يدرس في كلية المعلمين في جامعة كولومبيا وفي جامعة ويسكونسين[٢٨] كانت تلك المدة تمثل الأوج بالنسبة لوكالة المخابرات المركزية - التي كانت تستخدم الرشا والتهديدات المؤثرة - لمحاولة تجنيد الطلاب الأجانب الموجودين في الولايات المتحدة لكي يتعاونوا معها كعملاء لدى عودتهم إلى أوطانهم. وخلال هذه المدة كان رئيس واحد على الأقل من رؤساء جمعية الطلاب الأفغان المدعو ضياء نورزاي، يعمل مع وكالة المخابرات المركزية في الولايات المتحدة ومن ثم أصبح رئيساً لخزينة الدولة في أفغانستان. إن أحد الطلاب الأفغان الذي حاول عبثاً كل من نورزاي ووكالة المخابرات المركزية تجنيدهم، المدعو عبد اللطيف عُتقي، قد أعلن في عام ١٩٦٧ أن

عدداً لابأس به من كبار المسؤولين في الحكومة الأفغانية الذين درسوا في الولايات المتحدة «إما تدربوا لدى وكالة المخابرات المركزية أو بث فيهم أفكارها، بعضهم على مستوى مجلس الوزراء»[٢٩] لقد قيل ان أمين: أصبح في عام ١٩٦٣ رئيساً لجمعية الطلاب الأفغان، ولكن ذلك لم يتم توثيقه[٣٠]. بيد أنه من المعروف أن جمعية الطلاب الأفغان تلقت جانباً من تمويلها من (مؤسسة آسيا Asia Foundation) وهي الجبهة الرئيسية لوكالة المخابرات المركزية في آسيا منذ سنوات عديدة، وان أمين كان ذات مرة مرتبطاً بهذه المنظمة[٣١].

في شهر أيلول ١٩٧٩، أي الشهر الذي تولى فيه أمين السلطة، شرع القائم بالأعمال الأميركي في كابول (بروس أمستوتز Bruce Amstutz) بعقد اجتماعات ودية معه لطمأنته إلى أنه يجب أن لا يقلق من جراء حلفائه السوفييت التعساء مادامت الولايات المتحدة تحتفظ بحضور قوي في أفغانستان. لعل هذه الاستراتيجية كان يمكن أن تنجح. إذ إن أمين، في وقت لاحق من الشهر نفسه وجه نداء إلى أمستوتز بشأن تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة. بعد ذلك بيومين، عبَّر وزير الخارجية الأفغاني بهدوء في مدينة نيويورك عن نفس المشاعر أمام مسؤولي وزارة الخارجية الأميركية. وفي نهاية شهر تشرين الأول ذكرت السفارة الأميركية في كابول أن أمين «كان مدركاً بألم وجود قيادة في المنفى يحتفظ بها السوفييت وهي موضوعة على الرف». (كان ذلك في إشارة إلى كارمال الذي كان مقيماً في تشيكوسلوفاكيا)[٣٢]. إن اجتماعات أمين مع الأميركيين كان يمكن اعتبارها في الظروف العادية اتصالاً دبلوماسياً روتينياً بريئاً، غير أن الظروف آنذاك يصعب اعتبارها عادية، فقد كانت الحكومة الأفغانية عالقة في حرب أهلية، وكانت الولايات المتحدة تساند الجانب الآخر.

علاوة على ذلك، يمكن القول: إن أمين، بقسوته الشديدة، كان يفعل تماماً ما هو منتظر من عميل أمريكي أن يفعله: أي أن يشوّه سمعة حزب الشعب الديموقراطي، وإصلاحات الحزب، وفكرة الاشتراكية أو الشيوعية، والاتحاد

السوفييتي، جميعهم في رزمة واحدة. كما أن أمين أجرى عمليات تطهير في أوساط ضباط الجيش قوّضت بصورة خطرة قدرة الجيش القتالية.

ولكن ما الذي يجعل أمين، إذا كان فعلاً يتآمر مع الأميركيين، أن يطلب قوات عسكرية سوفييتية في مناسبات عدة؟ يبدو أن السبب الرئيسي لذلك هو أنه كان يتعرض للضغط لكي يفعل ذلك من جانب مستويات رفيعة في حزب الشعب الديمقراطي وكان لابد من استجابته لهم إنقاذاً للمظاهر. غير أن بابراك كارمال طرح سيناريوات أخرى أكثر ميكافيلية(٣٣).

قفزت إدارة كارتر إلى موضوع «الغزو» السوفييتي وسرعان ما شنت حملة من الغضب الصادق، فارضة ما سماها الرئيس كارتر «عقوبات» - اعتباراً من إيقاف تسليم القمح إلى الاتحاد السوفييتي وحتى منع الفريق الأولمبي الأمريكي من المشاركة في الألعاب الأولمبية التي جرت في موسكو عام ١٩٨٠.

لقد رد الروس على ذلك بقولهم: «أن الولايات المتحدة كانت حانقة من جراء التدخل لأن واشنطن كانت تتآمر بتحويل البلد إلى قاعدة أمريكية تعويضاً عن خسارة إيران(٣٤).

لم يكن أمراً مفاجئاً أن الرأي العام الأمريكي والإعلام الأمريكي انحازا بسهولة إلى موقف الرئيس في هذه المسألة التي تبدو بوضوح معاداة للشيوعية. لقد دعت جريدة وول ستريت جورنال إلى رد فعل «عسكري»، وإقامة قواعد عسكرية أمريكية في الشرق الأوسط، و«إعادة العمل بتسجيل المجندين» وتطوير صاروخ جديد وإعطاء وكالة المخابرات المركزية هامشاً أوسع، مضيفة إلى ذلك قولها: «من الواضح أنه ينبغي لنا أن نبقي الفرصة مفتوحة لتقديم المساعدات سراً إلى الثوار الأفغان»(٣٥). تقديم المساعدات سراً إلى الثوار الأفغان، سواء أكانت الجريدة تعرف ذلك أم لا، ماكان يحدث منذ بعض الوقت. فقد كانت وكالة المخابرات المركزية توجه برامج دعائية إذاعية إلى أفغانستان خلال مدة سابقة للغزو السوفييتي، وتقيم تحالفات مع

قادة حرب العصابات الأفغان المقيمين في المنفى، عن طريق تزويدهم بالأدوية وأجهزة الاتصالات[٣٦]. وكان موظفو الخارجية الأمريكية يجتمعون بقادة المجاهدين لمعرفة حاجاتهم على الأقل منذ شهر نيسان ١٩٧٩[٣٧]. ثم إن الرئيس كارتر وقع في شهر تموز على «نتائج تحقيق» تقضي بتقديم مساعدات سرية إلى الثوار، الأمر الذي أدى إلى تزويدهم من قبل الولايات المتحدة بالمال نقداً، والأسلحة، والمعدات والمؤن والقيام بأعمال دعاية وعمليات سيكولوجية أخرى لمصلحتهم في أفغانستان[٣٨].

إن تدخل الولايات المتحدة، وإيران، وباكستان، والصين وآخرين، في الحرب الأهلية الأفغانية، جعل الروس يشعرون بقلق شديد لمعرفة من سيمسك بزمام السلطة إلى جوارهم. كان الروس يستشهدون دائماً «بالقوات الإمبريالية العدوانية» لكي يسوّغوا تدخلهم في أفغانستان، الذي كان أول مشاركة من جانب قوات برية سوفيتية في عمل عسكري في أي مكان من العالم خارج حدود السوفييت الأوروبية الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية. إن إمكانية إقامة دولة إسلامية معادية للشيوعية على حدود جمهوريات الاتحاد السوفييتي في آسيا الوسطى السوفييتية التي كانت موطن أربعين مليون مسلم لم يكن بالإمكان أن ينظر إليها الكرملين بارتياح أكثر مما كان بإمكان واشنطن أن تنظر بهدوء إلى استيلاء الشيوعيين على الحكم في المكسيك.

لم تقصر الولايات المتحدة، كما رأينا مراراً، محيطها الدفاعي على جيرانها المباشرين، أو حتى على أوروبا الغربية، بل وسعته ليشمل الكرة الأرضية بكاملها. لقد أعلن الرئيس كارتر أن الخليج الفارسي «يتعرض الآن للتهديد من القوات السوفييتية في أفغانستان»، وأن هذه المنطقة مرادفة للمصالح الأمريكية، وأن الولايات المتحدة «ستدافع» عنها ضد أي تهديد بكل الوسائل اللازمة. وهو وصف العمل السوفييتي بأنه «أكبر تهديد للسلام منذ الحرب العالمية الثانية»، وهذا كان كلاماً اقتضى التغاضي عن جانب كبير من تاريخ ما بعد الحرب. ولكن عام ١٩٨٠ كان عام انتخابات.

من ناحية أخرى أعلن بريجينيف أن «المصالح القومية أو أمن الولايات المتحدة الأمريكية أو أي أية دولة أخرى لا تتأثر بأي شكل من الأشكال بالأحداث الجارية في أفغانستان، وكل المحاولات الرامية لتصوير الأمور بغير ذلك هي محض هراء»(٣٩).

كانت إدارة كارتر بالمثل رافضة لدواعي القلق السوفييتية، فقد قال مستشار الأمن القومي (زبغنيو بريجنسكي Zbignew Breginski) في وقت لاحق «إن المسألة ليست ما هي دوافع بريجينيف الاعتبارية للدخول إلى أفغانستان، بل التداعيات الموضوعية لوجود عسكري سوفييتي على هذا القرب من الخليج الفارسي»(٤٠).

كان المسرح الآن مهيأً لاثني عشر عاماً طويلاً من أفظع أنواع الحرب، فظائع يومية تتعرض لها الأكثرية الكبرى من الشعب الأفغاني الذي لم يطلب هذه الحرب ولا أرادها.

ولكن الاتحاد السوفييتي كان مصمماً على ألا تكون حدوده مصدر تهديد. كانت الحكومة الأفغانية ملتزمة هدفها المتمثل بأفغانستان علمانية مشمولة بالإصلاح. أما الولايات المتحدة فكانت عازمة على جعل أفغانستان «فيتنام السوفييتية» ينزف فيها السوفييت ببطء على نحو ما نزف الأمريكيون في فيتنام. في الوقت ذاته، لم يكن ليغيب عن فهم صانعي السياسة الأمريكيين - مع أنهم لا يجدون الجرأة للاعتراف بذلك علناً وبصراحة - أن تأييد المجاهدين (كثيرون منهم يحملون معهم صور آية الله الخميني) يمكن أن يؤدي إلى قيام دولة إسلامية أصولية في أفغانستان لا تقل قمعاً عن إيران المجاورة لها، والتي كانت في الثمانينيات من القرن العشرين العدو رقم واحد لأمريكا. لذلك لم يكن بإمكان المسؤولين في واشنطن أن يلفظوا كلمة «إرهابي» عندما يتحدثون عن حلفائهم/ عملائهم الجدد، رغم أن هؤلاء الناس بالذات أسقطوا طائرات مدنية وزرعوا قنابل في المطار. في عام ١٩٨٦ استقبلت رئيسة وزراء بريطانيا، مارغريت ثاتشر، التي لم يكن أحد يجاريها في مشاعر الذمّ «بالإرهابيين، عبد الحق، أحد قادة الثوار الأفغان، الذي اعترف بأنه هو الذي زرع

قنبلة في مطار كابول في عام ١٩٨٤، أودت بأرواح ما لا يقل عن ٢٨ شخصاً[٤١]. هكذا إذاً كانت وساوس الحرب الباردة تجاه الشيوعيين في أواخر القرن العشرين. وكما كان أناستاسيو سوموزا «ابن الكلب» في نظرنا فإن المجاهدين هم الآن «إرهابيونا المتعصبون».

في أول الأمر كان هناك بعض التفكير في أخلاقية السياسة. قال مسؤول كبير في إدارة كارتر: «السؤال هنا هو هل كان من المقبول أخلاقياً، من أجل إبقاء السوفييت فاقدين توازنهم، علماً أن هذا هو سبب العملية، أن نستخدم أرواح آخرين من أجل مصالحنا الجيوبوليتيكية»[٤٢].

ولكن مشاعر من هذا النوع لا يمكنها أن تبقى حية. لقد كانت أفغانستان حلم دعاة الحرب الباردة: فقد وضعت وكالة المخابرات المركزية والبنتاغون، في نهاية الأمر، أحد الجيوش التي تحارب نيابة عنهم، في مجابهة مباشرة مع قوات إمبراطورية الشر. لا يوجد ثمن كبير إلى حد أنه لا يمكن دفعه من أجل لعبة (Super Nintendo)، لا أرواح مئات الآلاف من الأفغان، ولا تدمير المجتمع الأفغاني، ولا ثلاثة ملايين من الدولارات من أموال دافعي الضرائب الأميركيين، التي تنصب في حفرة لا قرار لها، معظمها يستخدم فقط لجعل قلة من الأفغان والباكستانيين أثرياء. والكونغرس بدوره لم يكن متحمساً حتى بدون الحيرة الأخلاقية التي جعلت من أعضاء الكونغرس أشخاصاً حذرين في موضوع تسليح جماعة الكونترا في نيكاراغوا – وأصبح (قرن الخيرات horn of plenty) الفعلي بالتوافق بين الحزبين لتخصيص المزيد والمزيد من المال لهذا المجهود كل عام. إن عضو مجلس النواب الأمريكي (تشارلز ويلسون Charles Wilson) من ولاية تكساس عبّر عن شعور لا يخرج عن المألوف لدى واشنطن الرسمية عندما قال:

«كان في فيتنام ٥٨ ألف رجل ميت، ونحن مدينون للروس بواحد.. عندي هاجس بسيط في هذا الأمر، وذلك بسبب فيتنام. أظن أنه كان يجب أن ينال

السوفييت جرعة من ذلك.. لقد كان رأيي أنه من الأفضل لو أُنفق هذا المال لإلحاق الأذى بخصومنا أكثر من إنفاق المال في وجوه أخرى من ميزانية وزارة الدفاع..»[٤٣].

تحولت وكالة المخابرات المركزية إلى منسق كبير، صارت تشتري أو تُشرف على صنع أسلحة من الطراز السوفييتي من مصر، والصين، وبولندا، وإسرائيل وبلدان أخرى أو تقدم أسلحة من عندها، وتتولى ترتيب التدريب العسكري من قبل الأميركيين والمصريين والصينيين والإيرانيين وتحث بلدان الشرق الأوسط على تقديم تبرعات، وبصورة خاصة المملكة العربية السعودية التي كانت تقدم عدة مئات من ملايين الدولارات بشكل مساعدة كل عام، حتى بلغ مجموع ما قدمته أكثر من بليون دولار، وكانت تضغط على باكستان وترشوها - مع العلم أن العلاقات الأمريكية مع باكستان كانت في الآونة الأخيرة هزيلة جداً - لكي تؤجر بلدها كمنطقة للانطلاق العسكري وكملاذ، واضعة المدير الباكستاني للعمليات العسكرية، البريغادير «ميان محمد أفضال» على قائمة الذين يحصلون على رواتب من وكالة المخابرات المركزية ضماناً لتعاون باكستان[٤٤]، وجرى إبلاغ باكستان من جانب الولايات المتحدة أن المساعدات العسكرية والاقتصادية التي قطعت عنها ستعاد إذا انضمت باكستان إلى الحملة الكبيرة. وكان الغوغاء المعادون لأمريكا قد أحرقوا السفارة الأمريكية في إسلام آباد والمراكز الثقافية الأمريكية في مدينتين باكستانيتين أخريين ونهبوها قبل التدخل السوفييتي بشهر واحد[٤٥].

ورد تقرير من السفير الأمريكي في ليبيا يفيد أن معمر القذافي أيضاً كان يرسل إلى الثوار ٢٥٠,٠٠٠ دولار، ولكن يفترض أن هذا المبلغ لم يكن بناء على طلب من وكالة المخابرات المركزية[٤٦].

تركت واشنطن لباكستان الخيار في أن تقرر أياً من جماعات حرب العصابات الأفغانية المختلفة يجب أن تنتفع من جانب كبير من هذه الهبة السخية. ووفقاً لتعبير أحد المراقبين الذي قال «تبعاً للحكمة التقليدية في ذلك الحين، كان على الولايات المتحدة أن تتفادى تكرار غلطة فيتنام - أي إدارة هزيلة لحرب في محيط ثقافي لا تفهمه»[٤٧].

لم يتم شراء الجميع في باكستان. إن جريدة «المسلم» اليومية المستقلة التي تصدر في إسلام آباد اتهمت الولايات المتحدة أكثر من مرة بأنها مستعدة للقتال «إلى آخر أفغاني».. «لا يمكن أن تتملقنا واشنطن بوصفنا إحدى دول الجبهة. لا يبدو أن مزاج واشنطن يميل إلى السعي لإيجاد تسوية مبكرة لحرب تحصد هي فوائدها دون أن تخسر رجالاً أمريكيين»[٤٨].

ليس واضحاً بالفعل هل كانت هناك خسائر بأرواح الأمريكيين في الحرب. فقد أعلنت حكومة كابول في مناسبات عديدة في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين عن مقتل أمريكيين في القتال[٤٩]. وفي عام ١٩٨٥ قالت إحدى صحف لندن أن حوالي أربعة وعشرين مسلماً من الأمريكيين السود كانوا في أفغانستان يقاتلون جنباً إلى جنب مع المجاهدين في جهاد يقول التأويل الأصولي للقرآن: إنه فرض في الإسلام على كل المؤمنين على الأقل مرة في حياة المرء[٥٠]. كثيرون من المسلمين السود عادوا إلى الولايات المتحدة بعد إصابتهم بجروح.

العدوان السوفييتي.. الغزو السوفييتي.. ابتلاع السوفييت دولة أخرى بريئة كجزء من خطتهم للسيطرة على العالم، أو على الأقل الشرق الأوسط.. هذا هو الدرس الدائم الذي كانت تلقنه تصريحات واشنطن الرسمية والغالبية من وسائط الإعلام الأمريكية عن الحرب، والذي كان مجمل ما يعرفه الأمريكي العادي، مع أن أفغانستان حافظت على استقلالها خلال ستين عاماً من العيش بسلام في جوار الاتحاد السوفييتي، ومع أن زبغنيو بريجنسكي كان معادياً بلا هوادة للسوفييت، فقد تحدث مراراً في مذكراته عن «حياد» أفغانستان[٥١]. لقد كان هذا البلد محايداً حتى خلال الحرب العالمية الثانية.

ينبغي للمرء أن يدقق طويلاً وبدقة في المعلومات والكلام البلاغي الذي كان يقال للرأي العام الأمريكي عقب التدخل السوفييتي ليجد ولو تلميحاً أن الحرب الأهلية كانت أساساً صراعاً حول إصلاح اجتماعي عميق الجذور، في حين أنه لم

يكن هناك في الواقع أي بحث حقيقي للمسألة. كان باستطاعة المرء، قبل التدخل، أن يحصل على مذاق من ذلك، كالكلام التالي منقولاً عن جريدة «نيويورك تايمز»:

«محاولات الإصلاح في ملكية الأرض قوضت مكانة زعماء القرى. صور لينين هددت زعماء الدين في القرى، ولكن منح حكومة كابول الثورية النساء حقوقاً جديدة هو الذي دفع الرجال المسلمين مستقيمي الرأي في قرى الباشتون الواقعة في شرق أفغانستان إلى حمل البنادق.. الحكومة أمرت بأن تحضر نساؤنا الاجتماعات وأن يذهب أولادنا إلى المدارس. إن في هذا تهديداً لديننا. يجب أن نقاتل.. الحكومة فرضت أوامر متعددة تبيح للنساء حرية الزواج بمن يخترنه بدون موافقة الوالدين[٥٢].

طوال الثمانينيات من القرن العشرين تابع نظام الحكم برئاسة كارمال، ثم برئاسة نجيب الله، وبالرغم من متطلبات الحرب، برنامج التحديث وتوسيع قاعدته، بإيصال الكهرباء إلى القرى، إضافة إلى العيادات الصحية، وتطبيق قدر من إصلاح توزيع الأراضي، ومكافحة الأمية، والإفراج عن العديد من السجناء الذين سجنهم أمين بصورة مغايرة للقانون، وإشراك الملالي وآخرين من غير المنتمين إلى أحزاب في الحكومة، في محاولة لتنفيذ كل ذلك باعتدال وبحساسية بدلاً من مجابهة مباشرة مع البنى التقليدية، مع تكرار الالتزام بالإسلام، وبناء المساجد وترميمها، وإعفاء الأراضي التي تملكها شخصيات دينية أو المؤسسات التابعة لهم من إصلاح توزيع الأراضي، وباختصار حاول نظام الحكم تجنب الأخطاء الكبيرة التي ارتكبتها حكومة أمين في تسرعها لفرض التغييرات على رقاب الناس[٥٣].

كتب (سيلغ هاريسون Selg Harrison) في عام ١٩٨٨ ما يلي:

«يعتبر الشيوعيون الأفغان أنفسهم وطنيين ومنفذين للتحديث.. وتعليلهم العقلي لتعاونهم مع الروس هو أنه الطريقة الوحيدة المتاحة لتوطيد ثورتهم في مواجهة «التدخل» الخارجي.. إن التزام الشيوعيين بسرعة التحديث يمكّنهم من كسب التسامح المقترن بالشكوى من العديد من أعضاء الطبقة الوسطى منفتحي الذهن،

الذين كانوا محشورين بين نارين: الروس من جهة والمسلمين المتعصبين معارضي الإصلاحات الاجتماعية(٥٤).

لقد شجع برنامج حكومة كابول مع مرور الوقت متطوعين كثيرين لحمل السلاح تحت رايتها. ولكن القتال كان بالتأكيد كصعود التل، لأنه كان من السهل نسبياً على أعداء الإصلاح من أهل البلد ومعاضديهم الأجانب إقناع أعداد كبيرة من الفلاحين العاديين بأن الحكومة تضمر نيات سيئة عن طريق تعمية الفرق بين الحكومة الحالية وسابقتها المكروهة والملتزمة بالعقائد، خاصة أن الحكومة كانت مغرمة بالتشديد على استمرارية ثورة نيسان ١٩٧٨(٥٥). ثمة شيء وحيد لم يطلع عليه الفلاحون والمعادون للإصلاح هو، بلا شك، علاقة الولايات المتحدة مع السلف الكريه ذاته، حفيظ الله أمين.

كانت هنالك مشكلة أخرى واجهتها حكومة كابول في سعيها لكسب قلوب وعقول الناس، هي بطبيعة الحال الوجود السوفييتي المسلح والمستمر، ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن المعارضة الإسلامية للحكومة اليسارية بدأت قبل وقت غير قصير من وصول القوات السوفييتية. والحقيقة أن حكمتيار، الأشد ميلاً إلى القتال من بين زعماء المجاهدين، كان قد تزعم انتفاضة ضد الحكومة السابقة (ليست يسارية أيضاً في عام ١٩٧٥ معلناً أن «نظاماً للحكم كافراً وخاضعاً للسيطرة الشيوعية» يحكم في كابول(٥٦).

طالما بقيت القوات السوفييتية كان يمكن عرض النزاع في أفغانستان على الذهنية الأمريكية بأنه لا يعدو كونه معركة بين الغزاة الروس والمقاومين الأفغان المناضلين من أجل الحرية، وكأن الجيش الأفغاني والحكومة الأفغانية غير موجودين، أو بالتأكيد ليس لهما عدد كبير من الأنصار من أبناء الشعب الذين يحبذون الإصلاحات ولا يريدون العيش في ظل حكومة إسلامية أصولية، ولعل هؤلاء يمثلون أكثرية الشعب.

قال محمد حكيم، عمدة كابول، وهو جنرال في الجيش الأفغاني سبق له أن تدرب في السبعينيات من القرن العشرين في قواعد عسكرية في الولايات المتحدة

وكان يرى أن أمريكا هي «أفضل البلدان»: «لعل الناس في الحقيقة لا يحبوننا أيضاً ولكنهم يحبوننا أكثر مما يحبون المتطرفين، وهذا ما غاب عن فهم البلدان الغربية. إننا نأمل فقط أن ينظر السيد بوش وشعب الولايات المتحدة إلينا نظرة جيدة. إنهم يظنون أننا شيوعيون متعصبون، ولسنا كائنات بشرية. لكننا لسنا متعصبين ولا حتى شيوعيين»(٥٧).

كانت أخبارهم في وسائط الإعلام الأمريكية. وما من مسؤول في الحكومة الأفغانية بل الحكومة بكاملها، إلا وكان يُوصف في الإعلام الأمريكي بصورة دائمة أنه «شيوعي» أو «ماركسي» أو «موال للشيوعيين» أو «محبذ للماركسية»،الخ، بدون شرح أو تعريف. إن نجيب الله الذي تسلم الحكم بعد سقوط كارمال في عام ١٩٨٦ جرى تثبيته في منصبه في عام ١٩٨٧ بموجب دستور إسلامي جديد خلا من كل العبارات البلاغية الاشتراكية وكان محشواً بإشارات إلى الإسلام والقرآن الكريم. وفي خطابه الذي ألقاه عند قبوله التكليف قال: «هذا ليس بلداً اشتراكياً ثورياً. نحن لا نريد بناء مجتمع شيوعي»(٥٨).

ترى هل تمكنت الولايات المتحدة من أن ترى إلى أبعد من أيديولوجية الحرب الباردة وأن تدرس احتياجات الشعب الأفغاني؟ في شهر آب ١٩٧٩، أي قبل التدخل السوفييتي بثلاثة شهور جاء في تقرير ختم بالسرية صادر عن وزارة الخارجية الأمريكية مايلي:

«إن ما يخدم مصالح الولايات المتحدة الكبرى هو موت نظام طراقي - أمين، بالرغم من أية نكسات قد يعنيها هذا لمستقبل الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية في أفغانستان.. إن سقوط جمهورية أفغانستان الديموقراطية سيظهر لبقية العالم، وبالأخص للعالم الثالث، أن وجهة نظر السوفييت القائلة: إن المنهج الاشتراكي في التاريخ هو أمر محتوم، ليست وجهة نظر دقيقة»(٥٩).

لقد جادل الاتحاد السوفييتي مراراً في الثمانينيات من القرن العشرين، وقبل ذلك، أنه لا يمكن إيجاد حل للنزاع إلا بتوقف الولايات المتحدة ودول أخرى عن

تقديم الدعم إلى المجاهدين. أما الولايات المتحدة فقد أصرت بدورها على وجوب سحب السوفييت أولاً قواتهم من أفغانستان.

أخيراً وبعد سنوات عديدة من المفاوضات المدعومة من الأمم المتحدة، جرى في جنيف توقيع اتفاق بتاريخ ١٤ نيسان ١٩٨٨ التزم الكرملين بموجبه أن يشرع بسحب قواته التي يقدر عددها بمئة وخمسة عشر ألف جندي في ١٥ أيار وأن يتم الانسحاب بحلول ١٥ شباط من العام التالي. لقد قال الرئيس السوفييتي ميخائيل غورباتشوف: إن أفغانستان أصبحت «جرحاً نازفاً».

في شهر شباط، وبعد مغادرة آخر القوات السوفييتية أفغانستان، حث غورباتشوف الولايات المتحدة على تأييد فرض حظر على شحنات الأسلحة إلى أفغانستان ووقف إطلاق النار بين الجانبين المتحاربين. لقد رفضت إدارة بوش الجديدة كلا الاقتراحين مدعية أن الحكومة الأفغانية بقي عندها مخزون هائل من المعدات العسكرية. ليس واضحاً سبب شعور واشنطن أن المتمردين الذين قاتلوا الحكومة حتى النهاية بالرغم من الحضور القوي للقوات السوفييتية المسلحة مع كل معداتها، سيكونون الآن في وضع خطر مع رحيل الروس. إن مفتاح الرد الأمريكي قد يكون كامناً في بيان لوزارة الخارجية الأمريكية صدر في الأسبوع السابق مفاده أن الولايات المتحدة تعتقد بأن حكومة كابول إذا تركت وشأنها لن تستمر أكثر من ستة شهور[٦٠].

بإثارة مسألة ثغرة الأسلحة (سواء أكانت صحيحة أم لا)، كانت واشنطن تؤكد استمرار سباق التسلح في أفغانستان، أي صورة مصغرة للحرب الباردة. وفي الوقت ذاته دعت إدارة بوش السوفييت إلى دعم «أفغانستان مستقلة وغير منحازة» مع أن هذا كان بالضبط ما عملت الولايات المتحدة على عرقلته خلال عقود من السنين.

بعد ذلك بيومين انتقد الرئيس نجيب الله الرفض الأمريكي لاقتراح غورباتشوف، عارضاً أن يعيد الأسلحة السوفييتية إذا وافق المتمردون على التخلي عن أسلحتهم والتفاوض. لم يرد أي جواب على هذا العرض من الولايات المتحدة أو من المتمردين الذين سبق لهم في الماضي أن رفضوا مثل هذه العروض.

يبدو أن واشنطن كانت تفكر بما هو أبعد من وقوفات لإطلاق النار وإجراء مفاوضات. ففي اليوم ذاته، الذي تقدم فيه نجيب الله بعرضه، أعلنت الولايات المتحدة أنها سلمت أفغانستان ٥٠٠,٠٠٠ كتاب مدرسي «من صنع أمريكا» لاستخدامها في التدريس من الصف الأول حتى نهاية الصف الرابع. إن هذه الكتب التي «قال النقاد إنها تقترب من النصوص الدعائية» تتحدث عن قتال الثوار ضد الاتحاد السوفييتي وتحتوي على رسوم تصور رجال العصابات وهم يقتلون الجنود الروس[٦١]. كان المجاهدون، منذ بداية الحرب، قد حافظوا على أسوأ معاملة للروس. وتمتلك واشنطن تقارير ثابتة تفيد أن الثوار حقنوا بالمخدرات وعذبوا ما بين ٥٠ و٢٠٠ أسير سوفييتي كانوا مسجونين كالحيوانات في أقفاص «ويعيشون حياة من الرعب لا توصف»[٦٢]. ثمة رواية أخرى مصدرها مراسل لمجلة (فار ايسترن ايكونوميك ريفيو Far Eastern Economic Review) تقول:

«إن إحدى المجموعات السوفييتية قُتلت وسلخت جلودها وعلقت في دكان جزار. لقد وجد أحد الأسرى نفسه موضع جذب في لعبة (بوزكاشي Buzkashi) هذا الشكل العنيف من أشكال البولو الأفغانية التي يكون فيها عادة ماعز مقطوع الرأس هو الكرة التي يتقاذفها اللاعبون. هذا الأسير استخدم بدلاً من الماعز وهو حي وبدون مبالغة انتهى إلى تمزيقه إرباً إرباً»[٦٣].

في تلك الأثناء لم تظهر أية إشارة تدل على انهيار حكومة كابول، وهذا ما كان مفاجأة للولايات المتحدة ولكل جهة أخرى. النبأ الجيد بالنسبة لواشنطن هو أن «معدل الفائدة من الكلفة» قد تحسن منذ ذهاب القوات السوفييتية (مع أن بعض المستشارين العسكريين ظلوا في أفغانستان)[٦٤]. والكلفة تقاس كلياً بعدد الموتى والذين يعانون من غير الأمريكيين. إذ أن المتمردين استمروا في تفجير السيارات المفخخة وإطلاق الصواريخ على المناطق السكنية في كابول ودمروا المدارس والعيادات التي بنتها الحكومة وقتلوا المعلمين الذين كانوا يكافحون الأمية. (على غرار ما كانت تفعله جماعات الكونترا المدعومة من الولايات المتحدة في نيكاراغوا

على الجانب الآخر من العالم، ولنفس السبب: تلك كانت رموز النية الطيبة الحكومية).

إن الموت والدمار اللذين سببهما السوفييت وحلفاؤهم الأفغان كانا بدورهما واسعين، من مثل قصف العديد من القرى. ولكن القصص عن الفظائع الفردية يجب مقاربتها بحذر لأن ميل وقدرة وكالة المخابرات المركزية، كما سبق أن رأينا مراراً، على بث المعلومات الكاذبة ضد الشيوعيين - وفي الأغلب هي من النوع المغرق في الغرابة - كانا في الواقع غير محدودين. وبما أن الاتحاد السوفييتي هو الخصم المباشر فإن مصباح الإبداع لابد أن يظل مضاءً طوال الليل في (لانغلي Langley).

ذكرت (في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين) منظمة العفو الدولية، مع ما تتصف به من عناية في أساليب جمع المعلومات، أن السلطات في كابول أكثرت من استخدام التعذيب والاعتقال التعسفي[٦٥]. ولكن ماذا نقول - على سبيل المثال- عن الخبر الذي قدمه الصحفي جاك أندرسون دون أن ينسبه إلى مصدر، مع العلم أن أندرسون - كانت له ارتباطات باللوبي الأفغاني لدى الأمريكيين - ويقول الخبر: إن الجنود السوفييت غالباً ما كانوا يقتحمون القرى غير الصديقة في أفغانستان «ويقتلون كل رجل وامرأة وولد؟»[٦٦]. أو ما روته جريدة «نيويورك تايمز» نقلاً عن مواطن أفغاني عن كيفية التسبب بالعمى عمداً من قبل الجنود الأفغان لخمسة أطفال بواسطة قطع من المعدن ثم خنق هؤلاء الأطفال، بينما كان أحد مؤيدي الحكومة يضحك ساخراً. من حسنات الصحيفة أنها أضافت «إن هذه القصة لم يكن من سبيل لتأكيدها. من المحتمل أن الرجل الذي رواها كان يحاول تشويه سمعة النظام هنا. غير أن عينيه كانتا تشيان بأنه رأى مشاهد رعب»[٦٧]، أو ماذا نفعل باتهام أحد أعضاء الكونغرس الأمريكي في عام ١٩٦٥ للسوفييت باستخدام لعب للأطفال مفخخة لبتر أطراف الأطفال الأفغان[٦٨]. وهذه قصة معروفة رويت من قبل عن اليساريين في أماكن أخرى من العالم خلال الحرب الباردة وتكررت روايتها في عام ١٩٨٧ من قبل محطة تلفزيون (سي. بي. اس) مع الصور. في وقت لاحق

لها نشرت نيويورك بوست إدعاء أحد المنتجين في الإذاعة البريطانية (C.B.B) أن اللعبة المفخخة قد صنعت لكي يستخدمها مصور محطة (سي. بي. اس)[٦٩].

ثم كان هناك ما يسمى صندوق الرحمة الأفغاني، وهو في الظاهر وكالة للإغاثة ولكنه بالدرجة الأولى يعمل في مجال الدعاية، وهو ذكر أن السوفييت أحرقوا طفلاً وهو حي، وأنهم كانوا يصنعون ألغاماً بشكل قطع السكاكر ويتركون ألغاماً أخرى بشكل فراشات لجذب الأطفال. وتبين فيما بعد أن ألغام الفراشات هي نسخ عن لغم صممته الولايات المتحدة واستعملته في حرب فيتنام[٧٠].

كان هنالك أيضاً إسقاط طائرة باكستانية مقاتلة فوق أفغانستان في أيار ١٩٨٧، وقد أعلنت الخبر كل من باكستان وواشنطن - مع علمهما الأكيد أن إدعاءهما لم يكن صحيحاً - وادعى الخبر أن إسقاط الطائرة كان بصاروخ من صنع سوفيتي. وقد تبين أن الطائرة أسقطت خطأ من قبل طائرة باكستانية أخرى[٧١].

طوال مطلع ومنتصف الثمانينيات من القرن العشرين، كانت إدارة ريغان تعلن أن الروس كانوا يمطرون لاوس وكمبوديا وأفغانستان بمواد كيميائية سامة - أي ما يسمى «المطر الأصفر» - وتسبب ذلك في وفاة أكثر من عشرة آلاف شخص في عام ١٩٨٢ وحده (بما في ذلك ٣٠٤٢ وفاة في أفغانستان عزيت إلى ٤٧ حادثاً منفصلاً بين صيف ١٩٧٩ وصيف عام ١٩٨١. وكانت هذه المعلومة دقيقة). إن وزير الخارجية الأمريكي (الكسندر هيغ Alexander Haig) كان هو الموزع الرئيسي لهذه القصص، وإن الرئيس ريغان ذاته شجب الاتحاد السوفييتي على هذا النحو أكثر من ١٥ مرة في وثائق وخطب[٧٢]. وتبين فيما بعد أن «المطر الأصفر» لم يكن سوى زرق طيور محمل بغبار الطلع أسقطته أسراب هائلة من النحل كانت تطير في سماء البلد. ثم كشف النقاب في عام ١٩٨٧ عن أن إدارة ريغان أصدرت اتهاماتها بالرغم من أن العلماء الحكوميين في ذلك الحين لم يتمكنوا من إثبات أية تهمة من هذه التهم، واعتبروا الأدلة المقدمة بأنها هزيلة ومضللة[٧٣]. والأكثر مدعاة للشك: أن الدراسات العلمية الرئيسية التي دققت لاحقاً في ادعاءات واشنطن تحدثت فقط عن لاوس

وكمبوديا وتايلاند، ولم يكن فيها أي ذكر إطلاقاً لأفغانستان. وبدا وكأن الإدارة - ربما أخطأت في أول الأمر بدون نية سيئة حول الهند الصينية - قد أضافت أفغانستان إلى القائمة مع علمها التام بكذب ادعائها.

إن حملات المعلومات المضللة من هذا القبيل يقصد بها في الغالب تلبية حاجة سياسية داخلية. دعنا نتأمل مشاركة السيناتور (روبرت دول Robert Dole) في البحث عندما يتحدث في عام ١٩٨٠ في قاعة الكونغرس عن «دليل مقنع» قُدم له «يقول: إن السوفييت طوروا قدرة كيميائية تفوق إلى حد بعيد أكبر مخاوفنا.. (إنه غاز) لا يتأثر بكمامات الغاز الأمريكية ويجعل العسكريين بدون قدرة عل الدفاع عن أنفسهم». ثم أضاف «حتى الدعوة إلى تقليص نفقات الدفاع عن دولتنا في هذا الزمن الحرج من تاريخنا من قبل إدارة كارتر هو ما يمكن سبر غوره»[٧٤]. وفي شهر آذار عام ١٩٨٢ عندما أطلقت إدارة ريغان إدعاءها عن وفاة ٣,٠٤٢ أفغاني، ذكرت جريدة «نيويورك تايمز» أن «الرئيس ريغان قرر للتو أن الولايات المتحدة ستستأنف إنتاج أسلحة كيميائية وطلب رصد زيادة كبيرة في الميزانية العسكرية لإنتاج هذه الأسلحة»[٧٥].

إن المال اللازم لتوسيع حملة الدعاية الأمريكية على الصعيد الدولي تدفق من قرن خيرات الكونغرس بسهولة وفق رغبات العسكريين - ٥٠٠,٠٠٠ دولار دفعة واحدة لتدريب الصحفيين الأفغان على استخدام التلفزيون، والإذاعة والصحف لتعزيز قضيتهم»[٧٦].

لابد لنا من أ ن نلاحظ أن الحكومة الأفغانية كانت في حزيران ١٩٨٠، قبل توجيه أية تهمة من تهم «المطر الأصفر» إلى الاتحاد السوفييتي، قد اتهمت هي المتمردين ومناصريهم الأجانب باستخدام الغاز السام، مستشهدة بحادث تسمم خلاله ٥٠٠ تلميذ وأستاذ في العديد من المدارس الثانوية بغازات مؤذية، دون أن ينشر خبر عن وفاة أحد منهم[٧٧].

العبيكان للاستثمار
Obeikan Investment Group

إحدى شركات

العبيكان للنشر
Publishing

من إصدارات موهبة العلمية

[redacted]

[redacted]

لخدمات البيع والتوصيل
سوق
amazon احدى شركات
نون noon

كتبنا الإلكترونية
Google Play
amazonkindle

كتبنا الصوتية
دار ضاد للنشر الإلكتروني
Dhad Audio Publishing
WWW.DHAD.SA
Kitab Sawti
www.kitabsawti.com

Follow Us
obeikanstores
obeikn reader
obeikanpub

أحد الأسباب لاستمرار مراوغة النصر للمجاهدين هو أنهم كانوا منقسمين على أنفسهم من جراء خلافات اثنية وقبلية عمرها قرون من الزمن، ونشوء الأصولية الإسلامية في وقت متأخر نسبياً في تناقض مع الإسلام التقليدي الذي استمر محافظاً على العقيدة. كانت الخلافات تؤدي في أكثر الأحيان إلى العنف. في أحد الحوادث، في عام ١٩٨٩، قتل سبعة من كبار قادة المجاهدين وأكثر من عشرين آخرين من الثوار، على أيدي جماعة منافسة من رجال حرب العصابات. هذا لم يكن الأول ولا الأخير من مثل هذه الحوادث[٧٨]. مع حلول شهر نيسان عام ١٩٩٠، أي بعد مرور ١٤ شهراً على الانسحاب السوفييتي وصفت جريدة «لوس انجلس تايمز» حالة الثوار على النحو التالي:

«لقد قتلوا من رجالهم في الأسابيع الأخيرة أكثر ممن قتلوا من رجال العدو.. إن قادة المقاومة المتنافسين كانوا يقتلون بأسلوب العصابات على حدود مدينة بيشاور (باكستان) التي هي منطلق الحرب. تداعت أخبار القتل لأسباب سياسية على نطاق واسع في مخيمات اللاجئين.. أحد الإدعاءات الأخيرة كان على علاقة بالمخدرات بقدر ما كانت له علاقة بالسياسة.. إن قادة آخرين، في أفغانستان وفي المخيمات الحدودية، يرفضون القتال، وهم يقولون في الأحاديث الخاصة: إنهم يفضلون الرئيس الأفغاني نجيب الله على المجاهدين الأصوليين بقيادة قلب الدين حكمتيار[٧٩].

وأصاب الفساد أيضاً قضية الثوار بسبب تدفق كميات كبيرة من الأسلحة. لقد ذكر الصحفي المحقق (تيم وينر Tim Weiner) مايلي:

«حدث تسرب في خط أنابيب وكالة المخابرات المركزية. حدث التسرب بشكل سيئ. سالت كميات كبيرة من الأسلحة متدفقة على كل جزء من أجزاء مناطق العالم الأكثر فوضى. في أول الأمر أخذت القوات المسلحة الباكستانية ما أرادت أخذه من شحنات الأسلحة، وسرق قادة رجال العصابات الأفغان الفاسدون وباعوا ما قيمته

مـئـات الملايين من الدولارات من المدافع المضـادة للطائـرات ومن الصـواريخ ومن قـذائف (الآر. بي. جي) (Rocket-propelled grenades)، وبنادق أوتومـاتيكيـة من طراز (AK-٤٧) وذخـائر وألغـام مـن ترسـانـة وكـالة المخـابرات المركـزية، وقـد وقـع بعض الأسلحـة في أيدي عـصـابات إجـرامـيـة ومـهـربي الهـيـروبين وفي أيدي الفـئـة الأكـثـر راديكاليـة من العسكريين الإيرانيين.. بينما قواتهم كانت تحصد الأرواح في جبال وصحارى أفغانستان، وحصل القادة السياسيون لحرب العصابات على فيلات رائعة في بيشاور وعلى أساطيل من المركبات وضعوها بتصرفهم. التزمت وكالة المخابرات المركزية الصمت عندما كان السياسيون الأفغان يحولون أسلحة الوكالة إلى أموال بالنقد»[٨٠].

بين الأسلحـة التي باعهـا المجـاهـدون إلى الإيرانيين صـواريخ (سـتـنغـر Stinger) العـاليـة التقنيـة المضـادة للطـائرات والتي تلاحق الحـرارة، وبواسطتهـا كـان الثـوار قـد أسقطوا عدة مئات من الطائرات العسكرية السوفييتية، وعلى الأقل ثمـاني طـائرات ركـاب. في الثـامن من تشـرين الأول ١٩٨٧ أطلق الحـرس الثـوري الذي كـان يسـتـقل قارباً عسكرياً إيرانياً أحد صـواريخ ستـنغر على طائرات هيلوكوبتر أميركيـة كـانت تقوم بأعمال دورية ي الخليج الفارسي، ولكنهم أخطأوا الهدف[٨١].

في مطلع نفس العـام أبلغت وكـالة المخـابرات المركـزية الكونغـرس أن مـا لا يقل عن ٢٠٪ من مساعداتها العسكرية للمجاهدين قد سُرِقت من قبل الثوار والمسؤولين البـاكـسـتـانـيـين، وذكـر الكاتب الصـحـفي جـاك أنـدرسـون في الوقت ذاته أن تقـديراته المتحفظة تفيد أن تحويل هذه الكميات من الأسلحة كان بنسبة تقترب من ٦٠٪، في حين أن أ حد قادة الثوار أبلغ مساعد أندرسون عندما زار منطقة الحدود أنه يشك في أن نسبـة ٢٥٪ من الأسلحـة قد اجتـازت الحدود. في روايات أخـرى أن نسبـة أقل هـي ٢٠٪ كانت تصل إلى أيدي الجهات المقصـود وصولها إليها، فإذا كان هنـاك عجـز في الأسلحـة المتاحـة للمجاهدين مقارنة بتلك المتوفـرة للقـوات الحكوميـة، كمـا أوحـى بذلك جورج بوش بصـورة ضـمنيـة، فـقـد كـان من الواضـح أن ذلك هو أحـد الأسـبـاب الرئيـسيـة. ومع ذلك كـان مـسؤولو وكـالة المخـابرات المركـزية وغـيـرهم من مـسـؤولي

الإدارة الأمريكية ينظرون ببساطة إلى الأمر وكأنه جزء من عمل تجاري في ذلك الجزء من العالم[٨٢].

إن الثوار، شأنهم شأن كثيرين من عملاء وكالة المخابرات المركزية الآخرين كانوا يحصلون على تمويلهم أيضاً بواسطة تهريب المخدرات، والظاهر أن الوكالة لم تكن تهتم بذلك إلا اهتماماً قليلاً مادام هذا الأمر يجعل العملاء سعداء. إن قا دة المجاهدين داخل أفغانستان كانوا شخصياً يسيطرون على حقول كبيرة من خشخاش الأفيون، وهو المادة الخام التي يستخلص منها الهيروين. وكانت الشاحنات التي تقدمها وكالة المخابرات المركزية والبغال التي تنقل الأسلحة إلى أفغانستان، تُستخدم في نقل بعض الأفيون إلى معامل عديدة على امتداد الحدود الأفغانية - الباكستانية ومن هناك كانت أطنان الهيروين تُعالج بالتعاون مع العسكريين الباكستانيين. كان مردود ذلك يوفر نحو ثلث إلى نصف كمية الهيروين التي تُستعمل سنوياً في الولايات المتحدة وثلاثة أرباع الكمية التي تُستعمل في أوروبا الغربية. وقد اعترف مسؤولون أميركيون بأنهم أخفقوا في عام ١٩٩٠ في إجراء تحقيق أو القيام بعمل ضد عملية تهريب المخدرات بسبب رغبتهم في عدم إغضاب حلفائهم الباكستانيين والأفغان[٨٣]. وفي عام ١٩٩٣ وصف مسؤول في إدارة مكافحة المخدرات الأمريكية أفغانستان بأنها كولومبيا الجديدة في عالم المخدرات[٨٤].

استمرت الحرب بكل ما تعنيه من عذاب حتى ربيع عام ١٩٩٢ أي بعد مغادرة الجنود السوفييت بثلاث سنوات. وقد وُضعت الآن موضع التنفيذ اتفاقية حول إنهاء توريد الأسلحة كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي قد توصلا إليها. آنذاك كانت القوتان العظميان قد تخليتا عن الحرب. والاتحاد السوفييتي لم يعد موجوداً. والشعب الأفغاني كان قد فقد أكثر من مليون قتيل، وثلاثة ملايين مُقعد وخمسة ملايين تحولوا إلى لاجئين، وهؤلاء جميعاً يمثلون نحو نصف عدد سكان أفغانستان.

في الوقت ذاته كان يُفترض في هدنة أشرفت الأمم المتحدة على تنظيمها أن تتيح نقل السلطة إلى حكومة ائتلافية انتقالية ريثما تجري الانتخابات. ولكن هذا لم

يحدث. فحكومة كابول انهارت في خضم اضطرابات من أجل المواد الغذائية وتمردات من الجيش، الذي تفكك واقعياً، واقتحم رجال العصابات العاصمة وأسسوا أول نظام حكم إسلامي في أفغانستان منذ أن أصبحت بلداً منفصلاً ومستقلاً في منتصف القرن الثامن عشر.

أحد الأحداث الرئيسية التي أدت إلى سقوط الحكومة هو انضمام الجنرال عبد الرشيد دستم في الساعة قبل الأخيرة إلى رجال العصابات. وبعد أن كانت وسائل الإعلام الأمريكية تُطلق على دستم في السابق صفة «الجنرال الشيوعي»، خففت من هذه الصفة الآن فصارت تسميه «الجنرال الشيوعي سابقاً».

كان المجاهدون هم الرابحين. أما الآن فقد أخذوا يتقاتلون بكل ما يملأ نفوسهم من حقد. إن صواريخ وقذائف المدفعية مسحت بالأرض أحياء كاملة في كابول، ومع حلول شهر آب كان ما لا يقل عن ١٥٠٠ إنسان قد قتلوا أو جرحوا، معظمهم من المدنيين. (مع حلول عام ١٩٩٤، ارتفع إحصاء القتلى والجرحى في هذه الحرب الأهلية الثانية إلى ١٠,٠٠٠). ومن بين جميع قادة الثوار لم يكن أحد أقل تساهلاً وأكثر إصراراً على حل عسكري من قلب الدين حكمتيار.

لاحظ في ذلك الحين (روبرت نيومان Robert Neumman) وهو سفير أميركي سابق في أفغانستان ما يلي:

«حكمتيار أحمق ومتطرف وعنيف جداً. رباه الباكستانيون. ولسوء الحظ أن حكومتنا سايرت الباكستانيين. كنا نقدم المال والأسلحة ولكنهم (أي المسؤولين الباكستانيين) كانوا يرسمون السياسة».

كانت واشنطن الآن قلقة جداً خشية أن يستولي حكمتيار على السلطة، ومن دواعي السخرية أنهم كانوا يخشون أنه إذا استولى عليها سينتشر نوع متطرف ومزعزع للاستقرار في الجمهوريات السوفييتية السابقة ذات الأعداد الكبيرة من السكان المسلمين، وهو الخوف ذاته الذي كان أحد دوافع تدخل السوفييت في الحرب الأهلية في المقام الأول(٨٥).

في آخر الأمر، انضم «الجنرال الشيوعي» دستم إلى قوات حكمتيار.

إن سليمان لايق، وهو شاعر يساري، والمنظّر العقائدي للنظام الذي سقط، كان يرقب من نافذته المجاهدين وهم ينتشرون في المدينة مطالبين ببناء بعد بناء «بدون استثناء» وقد قال عنهم: «إنهم يتبعون أهداف الأصوليين وأهداف الإسلام. إنه ليس إسلاماً. إنه نوع من نظرية ضد التمدن - ضد التمدن العصري -»[٨٦].

كان المجاهدون حتى قبل استيلائهم على السلطة قد فرضوا حظراً على جميع الفئات غير المسلمة، وأصبح الآن القانون الجديد بالكثير من أحكامه يطبق: فالمشروبات الكحولية كلها محظورة في الجمهورية الإسلامية، والنساء لا يمكنهن المجازفة بالخروج إلى الشوارع بدون وضع الحجاب، أما المخالفات فعقوبتها الجلد، وبتر الأطراف والإعدام علناً. وهذا ما فعله الإسلاميون «الأكثر اعتدالاً»، وليس حكمتيار. مع حلول شهر أيلول نُفذت أول أعمال شنق في الساحات العامة. لقد شُنق ثلاثة رجال أمام جمع مؤلف من ١٠,٠٠٠ إنسان كانوا يهتفون تأييداً. هؤلاء الرجال الثالثة حُوكموا وراء أبواب مغلقة ولم يقل أحد ما هي الجرائم التي ارتكبوها[٨٧].

في شهر شباط ١٩٩٣ فجرت مجموعة من الشرق أوسطيين مركز التجارة العالمية في مدينة نيويورك معظمهم كانوا مقاتلين قدماء في صفوف المجاهدين. وكان مقاتلون قدماء آخرون يرتكبون أعمال اغتيالات في القاهرة، وتفجير قنابل في بومبي، ويقومون بانتفاضات دموية في جبال كشمير، وبحرب عصابات في الفيلبين.

هذه إذاً كانت قوة وأمجاد «المناضلين من أجل الحرية» الذين تبناهم الرئيس ريغان، والذين أصبحوا أكثر عداء لأمريكا في السنوات الأخيرة، وكان كثيرون منهم يدعمهم الرئيس العراقي صدام حسين في نزاع الخليج الفارسي في المدة ١٩٩٠ - ١٩٩١. ومن المؤكد أن حتى رونالد ريغان وجورج بوش كان من شأنهما أن يفضلا صحبة المصلحين «الشيوعيين» مثل الرئيس نور محمد طراقي، أو عمدة كابول محمد حكيم أو الشاعر سليمان لايق.

ولكن الاتحاد السوفييتي كان قد نزف. لقد نزف بغزارة، أما الولايات المتحدة فقد كانت هي أيضاً تخوض حرباً مقدسة.

الإمبراطورية الأميركية
من عام ١٩٩٢ حتى الزمن الراهن

نؤكد أن ما من أمة تستطيع أن تتحمل طويلاً نصف جمهورية ونصف إمبراطورية، ونحذر الشعب الأمريكي من أن الإمبريالية في الخارج ستقود بسرعة وحتماً إلى الاستبداد في الداخل.

البرنامج الوطني للحزب الديمقراطي الأمريكي عام ١٩٠٠ .

عقب قصف العراق في عام ١٩٩١ انتهى الأمر بالولايات المتحدة إلى إقامة قواعد عسكرية في المملكة العربية السعودية، والكويت، والبحرين، وقطر ودولة الإمارات العربية المتحدة.

وعقب قصفها يوغوسلافيا في عام ١٩٩٩ انتهى الأمر بالولايات المتحدة إلى إقامة قواعد عسكرية في كوسوفو، وألبانيا، وبلغاريا، ومقدونيا، وهنغاريا والبوسنة وكرواتيا.

عقب قصفها أفغانستان في المدة ٢٠٠١ - ٢٠٠٢ انتهى الأمر بإقامة الولايات المتحدة قواعد عسكرية في أفغانستان، وباكستان، وكازاخستان، وأوزبكستان، وطاجيكستان، وكيرغستان، وجورجيا، واليمن وجيبوتي. أما بعد قصف العراق وغزوه في عام ٢٠٠٣ انتهى الأمر بالولايات المتحدة إلى احتلال العراق.

هذه ليست سياسة خارجية محكمة التدبير، وبالتأكيد ليست سياسة سرية. والرجال الذين يحكمون الإمبراطورية الأميركية لا يشعرون بالإحراج بسهولة.

بهذه الطريقة تنمو الإمبراطورية قاعدة في كل مكان، جاهزة لاستخدامها في القضاء على أي تهديد يستهدف الحكم الإمبريالي، سواء أكان حقيقياً أو متخيلاً.

بعد مرور ثمانية وخمسين عاماً على انتهاء الحرب العالمية الثانية، مازالت هناك للولايات المتحدة قواعد كبيرة في ألمانيا واليابان وبعد مرور خمسين عاماً على انتهاء الحرب الكورية مازال عشرات الآلاف من القوات المسلحة الأمريكية يرابطون في كوريا الجنوبية.

لقد أعلن وزير الخارجية الأمريكي كولن باول في شهر شباط ٢٠٠٢ «أن أمريكا ستظل لها مصلحة مستمرة ووجود مستمر في آسيا الوسطى من نوع لم نكن نحلم به سابقاً»(١) في وقت لاحق من ذلك العام أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية «أن العسكريين الأمريكيين ينتشرون حالياً في مواقع تفوق ما انتشرت فيه عبر التاريخ»(٢).

ولا يقل عن ذلك صراحة الإعلانات الصادرة بدءاً من أوائل التسعينيات من القرن العشرين - والتي صادف صدورها الموت المحوري للاتحاد السوفييتي - والمستمرة حتى الوقت الراهن، مهللة برغبة واشنطن ووسائلها ونيتها بالسيطرة على العالم، في حين أنها تؤكد للعالم المقاصد النبيلة وراء هذه الحملة. إن هذه الإعلانات كانت تصدر بانتظام في أوراق سياسية منبثقة من البيت الأبيض والبنتاغون، ومن لجان عينتها الحكومة، ومن مجالس الفكر المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمؤسسة الأمنية القومية.

ها هنا صوت الإمبراطورية في عام ١٩٩٢:

«هدفنا الأول هو أن نمنع عودة ظهور منافس جديد سواء على أرض الاتحاد السوفييتي السابق أو في مكان آخر، يشكل تهديداً للنظام كالذي شكله سابقاً الاتحاد السوفييتي.. ينبغي لنا أن نحسب حساباً كافياً لمصالح الدول الصناعية المتقدمة لزجرها عن تحدي قيادتنا أو السعي لقلب النظام السياسي والاجتماعي الذي أقمناه.. يجب أن نحافظ على الآليات لردع المنافسين الذين يُحتمل قيامهم لمنعهم من الطموح إلى دور أكبر إقليمياً أو عالمياً»(٣).

-١٩٩٦: «سننخرط يوماً ما في أهداف أرضية - سفن، طائرات، أهداف في الأرض»، من الفضاء.. سنحارب في الفضاء. سنحارب من الفضاء وسنحارب إلى الفضاء[٤].

-١٩٩٧: «فيما يتعلق بالسيطرة على الفضاء، نحن نمتلكها، نحن نحبها، وسنحتفظ بها»[٥].

-٢٠٠٠: «الجاهزية العسكرية الجديدة المتبعة تعني المحافظة على التفوق العسكري على جميع المنافسين المحتملين والاستعداد الآن لمنافسات عسكرية في المستقبل حتى وإن لم يكن بالإمكان حتى الآن تعريفها، كما أن تحديد موعد وصولها هو مسألة تكهن.. إن الاحتياجات العسكرية أصبحت منفصلة عن التقديرات النهائية للتهديدات الأمنية الفعلية. الحروب العامة والإمكانيات العامة تعتبر أساساً للتخطيط.. أما الجوانب المحددة لسيناريوهات التهديد الحقيقي فقد أصبحت ثانوية بالنسبة إلى الحاجة العامة لإظهار القدرة العسكرية الأمريكية عبر الكرة الأرضية»[٦].

-٢٠٠١: «إن وجود القوات الأمريكية في المناطق الحرجة حول العالم هو التعبير المنظور عن مدى مكانة أمريكا كقوة عظمى وكضمانة للحرية والسلام والاستقرار»[٧].

-٢٠٠١: «إذا اكتفينا بمجرد رؤيتنا للعالم أن تنطلق، واحتضناها كلياً، ولم نحاول أن نظهر مهارتنا وربط الحلول الدبلوماسية الحاذقة بهذا الشيء، بل اكتفينا بشن حرب شاملة ضد الطغاة، أظن أن وضعنا سيكون جيداً جداً، وأن أولادنا سيصدحون بأغنيات عظيمة عنّا بعد سنوات من الوقت الحاضر»[٨].

-٢٠٠١: «إن التدقيق في الوضع النووي» لإدارة بوش وتوجيه الجهات العسكرية لإعداد خطط طوارئ من أجل استخدام الأسلحة النووية ضد سبعة بلدان على الأقل - الصين، روسيا، العراق، إيران، كوريا الشمالية، ليبيا وسورية - وإعداد أسلحة نووية أصغر لاستعمالها في مواقف معينة على ساحة المعركة[٩].

-٢٠٠٢: أصدر البيت الأبيض في شهر أيلول «استراتيجيته للأمن القومي» التي أعلنت: «إن قواتنا ستكون قوية بما فيه الكفاية لثني خصومنا المحتملين عن متابعة بناء قوة عسكرية على أمل التفوق على قوة الولايات المتحدة أو التعادل معها.. ستعمل أمريكا ضد أية تهديدات ناشئة من هذا القبيل قبل أن يكتمل وجودها.. يجب أن نردع أي تهديد وندافع عن أنفسنا ضده قبل انطلاقه.. لا يمكننا السماح لأعدائنا بتوجيه الضربة الأولى لإحباط أو منع مثل هذه الأعمال العدائية من جانب خصومنا ستقوم الولايات المتحدة إذا اقتضت الضرورة بتوجيه الضربة الاستباقية.

إن الضربة الاستباقية هي في جوهرها الأساس العقلاني الذي استخدمته اليابان الإمبريالية بدون أن تكون شاعرة بالخوف كمسوّغ لهجومها على بيرل هاربور في عام ١٩٤١، كما أن ألمانيا النازية، في ذريعة كاذبة، استخدمتها لتسويغ غزوها بولندا في عام ١٩٣٩.

كان معنى «استراتيجية الأمن القومي» في نظر أحد المراقبين كالتالي:

«إنها تصدم طموحات الذين كانوا يتأملون أن يسير العالم نحو نظام من القانون الدولي يتيح التوصل إلى حلول سلمية للنزاعات القائمة، عبر المواثيق والمحاكم. عوضاً عن ذلك، أعلنت قوة وحيدة تزدري بالمواثيق والمحاكم أنها تنوي السيطرة على العالم عسكرياً وأن تتدخل بضربات استباقية عندما يقتضي الأمر لإحباط التهديدات.. إن الذين يرغبون في عالم خال من تفوق قوة واحدة، عالم تستخدم فيه المواثيق والقوانين لتسوية النزاعات سيشرعون في نقاش جديد، حول كيفية التعامل مع أمريكا الامبريالية»(١٠).

لقد تسممت دولة الأمن القومي الأمريكي بفكرة السيطرة إلى حد أنها، عندما أعلنت في تشرين الثاني ٢٠٠٢ عن تشكيل مجموعة للاهتمام بالشؤون العامة ستسافر إلى ساحات المعارك «للتفاعل مع الصحفيين، ولمساعدة القادة العسكريين، ولإرسال الأخبار والصور إلى مقر القيادة العليا لتوزيعها ونشرها» وصفت هذه العملية بأنها محاولة «للسيطرة الإعلامية»(١١).

انتهت الحرب الباردة. عاشت الحرب الباردة

إنه في الحقيقة لأمر ملفت للانتباه أن حكومة الولايات المتحدة مازالت في القرن الواحد والعشرين ماضية في إلقاء كميات هائلة من المتفجرات البالغة القوة على رؤوس أناس أبرياء وعُزّل. لم يكن المفروض أن تسير الأمور على هذا النحو.

في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين شكلت إصلاحات ميخائيل غورباتشوف بداية النهاية للدولة البوليسية السوفييتية. وفي عام ١٩٨٩ سقط جدار برلين، والشعوب في كل أنحاء أوروبا الشرقية احتفلت فرحة «بيوم جديد». عندئذ انضمت الولايات المتحدة إلى هذا الاحتفال بغزو بنما وقصفها، بعد مرور أسابيع فقط على سقوط جدار برلين. في الوقت ذاته كانت الولايات المتحدة تتدخل بدون خجل في الانتخابات التي جرت في نيكاراغوا لإلحاق هزيمة بحكومة يسارية.

عقب ذلك وبسرعة أفرجت جنوب أفريقيا عن نلسون مانديلا وبدأ نظام الأبارتيد (الفصل العنصري) يتهاوى، وقبل انتهاء عام ١٩٩٠ أجرت جمهورية هاييتي أول انتخابات حرة في تاريخها، واختارت رجلاً صادقاً في تقدميته رئيساً لها. بدا آنذاك أن أي شيء صار ممكناً، وانتشر التفاؤل كانتشار التشاؤم في وقتنا.

غير أنه عندما تحررت بلغاريا وألبانيا «من القبضة الشيوعية» على حد تعبير الإعلام الأمريكي تجرأتا على انتخاب حكومتين غير مقبولتين لدى واشنطن، فسارعت واشنطن للتدخل لإسقاط هاتين الحكومتين.

في المدة ذاتها، كانت الولايات المتحدة تقصف العراق وشعبه، على مدى أربعين نهاراً وليلة بدون رحمة، وبدون سبب وجيه أو صادق، حدث ذلك تحقيقاً لأملنا في إيجاد عالم مختلف وأفضل.

ولكن القادة الأمريكيين لم يكتفوا. ففي عام ١٩٩٣ انطلقوا لمهاجمة الصومال، في محاولة لإعادة ترتيب الخارطة السياسية لذلك البلد بواسطة مزيد من القصف والقتل.

لقد تدخلوا لإسقاط حركات انشقاقية في البيرو، والمكسيك، وكولومبيا، والاكوادور، وكأنها الحرب الباردة في خمسينيات القرن العشرين في أمريكا اللاتينية، والستينيات، والسبعينيات، والثمانينيات، مازالت تفعل فعلها في التسعينيات وهي مستمرة في القرن الجديد.

حدث في الجزء الأخير من تسعينيات القرن العشرين أن انخرطت واشنطن في تدخل خطير في انتخابات البلدان التي كانت ذات يوم جزءاً من المحيط السوفييتي: روسيا، ومنغوليا، والبوسنة.

في عام ١٩٩٩ قصفت الولايات المتحدة شعب الصرب وكوسوفو على مدى ٧٨ يوماً بدت أنها بدون نهاية، كخاتمة لخطة واشنطن العامة لتفتيت جمهورية يوغسلافيا الاتحادية الاشتراكية التي كان يطلق عليها وصف «الأخيرة من الشيوعيين»[١٢].

مرة أخرى في خريف عام ٢٠٠١ تدخلت تدخلاً واسعاً وعلنياً بانتخابات جرت في نيكاراغوا للحيلولة دون فوز اليسار.

في الوقت ذاته كانت تقصف أفغانستان، والاحتمال الأكبر هو أن هذا القصف أدى إلى قتل أعداد من المدنيين الأبرياء يفوق عدد الذين قتلوا في الولايات المتحدة بتاريخ ١١ أيلول ٢٠٠١[١٣]، كما أدى القصف إلى إزهاق أرواح عدد لا يحصى من «المتقاتلين» (أي كل شخص كان يدافع عن الأرض التي يعيش عليها ضد الغزو). إن معظم الذين وصفوا بأنهم «إرهابيون» من جنسيات أجنبية وكانوا مقيمين في ذلك الحين في أفغانستان، من ضمنهم أولئك الذين تدربوا في معسكرات القاعدة، وكانوا قد قدموا إلى هناك لمحاربة القوات السوفييتية ومساعدة حكومة طالبان في حربها الأهلية الأخرى. بالنسبة لهم كانت هذه بعثات دينية لا علاقة لها بالإرهاب ولا بالولايات المتحدة. ومن بين آلاف ضحايا الغزو الأمريكي، لم يكن واحد تم تعريفه بأنه على علاقة بأحداث ذلك اليوم المأساوي. إن إرهابيي ١١ أيلول قد اختاروا أبنية

رمـزية لمهـاجمـة الولايات المتـحـدة، وبالتـالـي اخـتـارت الولايات المتـحـدة بلداً رمـزياً للانتقام[١٤].

وفي حين أن واشنطن استمرت في وصف أفغانستان بالتوحش في عام ٢٠٠٢، فإنها وجدت الوقت الكافي لتقديم دعم لا غنى عنه لمؤامرة ترمي إلى إسقاط (هوغو شافيز Hugo Shavez) وحكومته الشعبية في فنزويلا بعد أن كان شافيز قد أوضح وضوحاً كاملاً أن فنزويلا ليست مستعدة أن تكون قاعدة أجنبية للإمبراطورية[١٥].

خلال كل هذه الأعوام استمرت الولايات المتحدة في إحكام قبضتها لخنق كوبا. وظلت بعد قرن من الاحتلال الإمبريالي ترفض إخلاء قاعدة غوانتانامو في كوبا، بل حولتها في عام ٢٠٠٢ إلى جزيرة شيطان عصرية وسجن غير شرعي وكريه للرجال والعديد من الأطفال الذين خطفوا من أماكن مختلفة في العالم خلال ما سُمي الحرب على الإرهاب.

لم يكن هناك شيء من «مردود السلام» الذي وعدت به الولايات المتحدة بانتهاء الحرب الباردة، لا للأمريكيين ولا لبقية العالم.

ماذا لدينا هنا؟ كان الشعب الأمريكي خلال ما يقرب من نصف قرن يجري تلقينه أن الحرب الباردة، بما في ذلك الحرب الكورية وحرب الفيتنام، والميزانيات العسكرية الضخمة، والغزوات الأمريكية وإسقاط الحكومات - هذه الأعمال التي اطلع عليها الأمريكيون - كانت كلها من أجل مكافحة الشر ذاته: مؤامرة الشيوعية الدولية ومقرها الرئيسي في موسكو.

ولكن الاتحاد السوفييتي ما لبث أن انحل وانحل أيضاً حلف وارسو، وأصبحت الدول التابعة في أوروبا الشرقية دولاً مستقلة، بل إن الشيوعيين السابقين أصبحوا رأسماليين.

مع ذلك لم يتبدل شيء في السياسة الخارجية الأمريكية. بقي حلف الأطلسي الذي كان تشكيله - كما قيل لنا - من أجل حماية أوروبا الغربية من غزو سوفيتي،

حتى هذا الحلف بقي بل ازداد حجماً وقوة عسكرية، وتحول إلى معاهدة ترتكز إلى دواليب يمكن دحرجتها في أي اتجاه ملائم لسياسة واشنطن الراهنة - أي بدأ يقوم بدور التابع للولايات المتحدة الذي يحكم البلقان باعتبارها محمية، ويستغل ميثاقه لتبرير انضمام الدول الأعضاء فيه إلى الولايات المتحدة في غزوها لأفغانستان.

وبينما أغلقت روسيا قواعدها التي أقيمت في أوروبا الشرقية وفيتنام وكوبا خلال الحرب الباردة، كانت الولايات المتحدة تقيم قواعد عسكرية في الأراضي التي كانت تشكل الاتحاد السوفييتي السابق، وفي مناطق أخرى من العالم. وبينما أغلقت روسيا محطة إذاعتها التجسسية في (لورد Laurdes) بكوبا، كانت الولايات المتحدة تبني محطة قوية للتنصت على الاتصالات في لاتفيا، على الحدود الروسية، كجزء من نظام واشنطن لاستراق السمع على صعيد العالم كله.

الأمر كله كان لعبة. فالاتحاد السوفييتي وشيء كان يسمى الشيوعية، لم يكن بحد ذاته هدف الهجمات الأمريكية على الصعيد العالمي. إذ لم تكن هناك قط مؤامرة شيوعية دولية. العدو كان، ويبقى، أية حكومة أو حركة أو حتى فرداً يعترض طريق توسع الإمبراطورية الأمريكية، تحت أي اسم تعطيه الولايات المتحدة للعدو - شيوعي، أو دولة مارقة، أو مهرب مخدرات أو إرهابي..

هل الولايات المتحدة ضد الإرهاب؟

هل علينا الآن أن نعتقد بأن الإمبراطورية الأمريكية ضد الإرهاب؟ كيف يصف المرء رجلاً يفجر طائرة ويقتل فيها ٧٣ مدنياً لأسباب سياسية، ويحاول اغتيال العديد من الدبلوماسيين، ويطلق قذائف المدافع على سفن راسية في مرافىء أمريكية، ويضع قنابل في العديد من المباني التجارية والدبلوماسية في الولايات المتحدة وخارجها؟ لقد وقع عشرات من هذه الأعمال. اسم الرجل (اورلاندو بوش Orlando Bosch) وهو كوبي يعيش في مدينة ميامي، ولم يتعرض لمضايقات من السلطات. ذات يوم أطلقت ميامي اسمه على أحد الأيام تكريماً له - اسم (يوم

الدكتور اورلاندو بوش)[١٦]، أُفرج عنه من السجن في فنزويلا عام ١٩٨٨، بعد أن سجن لتفجيره طائرة، والسبب جزئياً الضغط الذي تعرض له من السفير الأمريكي في ذلك الحين (اوتو ريش Otto Reich) الذي كان الرئيس بوش عيّنه في منصب رفيع في وزارة الخارجية الأمريكية.

بعد عودة بوش Bosch إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٨٨، أدانته وزارة العدل باعتباره إرهابياً شديد العنف، وكانت كل الإجراءات مهيأة لترحيله، ولكن الرئيس بوش الأب أوقف ترحيله بمساعدة ابنه جيب بوش في فلوريدا[١٧]. وهكذا، هل الرئيس بوش الثاني وعائلته ضد الإرهاب؟ أجل، إنهم ضد الإرهابيين الذين ليسوا حلفاء الامبراطورية.

الطائرة التي فجرها (بوش Bosch) في عام ١٩٧٦ كانت طائرة كوبية. وهو مطلوب في كوبا بسبب ذلك وبسبب جرائم أخرى خطيرة، وقد طلب الكوبيون تسليمه لهم. كان هو بالنسبة إلى كوبا مثل بن لادن بالنسبة للولايات المتحدة. ولكن الولايات المتحدة رفضت تسليمه. ولنتصور ماذا كان رد فعل الولايات المتحدة لو أن بن لادن ظهر في كوبا ورفض الكوبيون تسليمه. ولنتصور رد فعل الولايات المتحدة لو أن هافانا أعلنت إطلاق اسم بن لادن على يوم من الأيام؟.

يمكننا أن نشكك أكثر بالتزام واشنطن مكافحة الإرهاب في ضوء دعمها للألبان الاثنيين في كوسوفو الذين يشكلون جيش تحرير كوسوفو. لقد ارتكب جيش تحرير كوسوفو العديد من الهجمات الإرهابية على مدى سنوات في أنحاء مختلفة من البلقان من أجل تنفيذ برنامجه السياسي - الاثني، ولكنه كان حليفاً للولايات المتحدة لأنه يهاجم الأشخاص الذين لا ترضى عنهم واشنطن. وهذا رغم أن جيش تحرير كوسوفو له علاقات أيديولوجية وشخصية مع بن لادن والقاعدة، ورغم أن وزارة الخارجية الأمريكية صنفته كمنظمة إرهابية[١٨].

علاوة على ذلك، فإن الفيتاميين، والكمبوديين واللاووسيين المقيمين في الولايات المتحدة موّلوا وحرضوا مواطنيهم المقيمين في الخارج على إلقاء القنابل ومهاجمة حكوماتهم ومواطنيهم، على أمل زعزعة استقرار تلك الحكومات، وكانوا

في بعض الأحيان يسافرون من الولايات المتحدة إلى تلك البلدان لكي ينفذوا هم بالذات الهجمات. كانت تلك الأعمال - وتعريفها أنها أعمال إرهابية - ترتكب بموافقة ضمنية من الحكومة الأمريكية، التي كانت تغض البصر عن قانون الحياد الذي يحظر على المواطنين الأمريكيين أو المقيمين في الولايات المتحدة استخدام القوة لإسقاط حكومة أجنبية(١٩).

لقد تحدث جورج دبليو بوش أيضاً بحماسة ضد إيواء الإرهابيين «إن الذين يوفرون مأوى للإرهابيين إنما يهددون الأمن القومي للولايات المتحدة»(٢٠). هل كان فعلاً يعني ما يقول؟.

لابد لنا من طرح السؤال: أي بلد في العالم يأوي إرهابيين أكثر من الولايات المتحدة؟ إن اورلاندو بوش ليس إلا واحداً من كوبيين عديدين مناهضين لكاسترو يقيمون في ميامي وارتكبوا مئات الأعمال الإرهابية في الولايات المتحدة، وفي كوبا وفي أماكن أخرى، كل أنواع إشعال الحرائق، ومحاولات الاغتيال وإلقاء القنابل. لقد آوتهم الولايات المتحدة ووفرت لهم السلامة خلال عقود من السنين. كذلك وجد عدد كبير من الإرهابيين الآخرين الأصدقاء ومرتكبي أعمال التعذيب ومنتهكي حقوق الإنسان من أبناء غواتيمالا والسلفادور وهاييتي وأندونيسيا وأماكن أخرى، وهي بلدان كلها حليفة للإمبراطورية(٢١).

لقد كانت وكالة المخابرات المركزية منهمكة في البحث عن الإرهابيين في كهوف جبال أفغانستان بينما كانت في الوقت ذاته تجلس في مقاهي مدينة ميامي لتناول المشروبات مع الإرهابيين.

المافيا الإمبريالية:

ماذا نستنتج من كل ذلك؟ وكيف يمكننا أن نفهم السياسة الخارجية للولايات المتحدة؟ إذا أراد أحدنا أن يؤلف كتاباً عنوانه «الإمبراطورية الأمريكية من أجل المغفلين» فإن الصفحة الأولى من الكتاب يجب أن تقول: لا تبحث قط عن العامل

الأخلاقي، فليس للسياسة الخارجية الأميركية عامل أخلاقي مزروع في حمضها النووي (DNA). يجب أن ينظّف الإنسان ذهنه من ذلك المتاع الذي يعترض طريق الرؤية إلى ما وراء الشعارات (Cliches) وعبارات الاسترضاء.

يصعب على معظم الأمريكيين والذين يحبون الأمريكيين في سائر أنحاء العالم أن يتقبلوا فكرة كهذه، فهم يرون القادة الأميركيين على شاشات التلفزيون مبتسمين وضاحكين، ويروون النكت، ويرونهم مع عائلاتهم، ويسمعونهم وهم يتحدثون عن الله والحب، عن السلام والقانون، عن الديموقراطية والحرية، عن حقوق الإنسان والعدالة، وحتى عن لعبة البيسبول. هؤلاء القادة يعرفون كيف يدينون الفظائع التي ترتكب في العالم بعبارات ملتبسة، مع بعض الكلمات الصحيحة التي يودّ الناس المحترمون سماعها، فقط باللفظة المناسبة التي تُظهر مدى تأثرهم، فكيف يمكن لمثل هؤلاء الناس أن يكونوا وحوشاً، وكيف يمكن وصفهم بعدم الأخلاق؟.

لهم أسماء مثل اسم جورج، وديك، ودونالد، ولكن لا يوجد اسم واحد من قبيل محمد أو عبد الله. جميعهم يتكلمون الإنكليزية، والذين يحملون اسم محمد أو اسم عبد الله يقطعون أيدي الناس عقوبة على السرقة. ويعلم الأميركيون أن ذلك شيء مرعب. فالأميركيون مؤمنون ولا يقبلون ذلك، ولكن الأشخاص الذين يحملون اسم جورج وديك ودونالد يلقون القنابل العنقودية على المدن والقرى، والكثير من هذه القنابل التي لم تنفجر تتحول إلى ألغام أرضية، ولا يمضي وقت طويل جداً قبل أن يلتقط أحد الأولاد واحدة منها أو يدوسها بقدمه وبالتالي يفقد ذراعه أو ساقه أو كليهما، وأحياناً يفقد بصره، في حين أن القنابل العنقودية التي تنفجر فعلاً تخلق نوعاً خاصاً بها من السرعة العالية وتسبب الرعب الشديد.

ولكن هؤلاء الرجال ربما لا يكونون غير أخلاقيين إلى هذا الحد لأنهم شبه أخلاقيين. فالمسألة أنهم لا يشعرون بالسرور عندما يتسببون بالكثير من الموت والمعاناة. المسألة هي مجرد أنهم لا يهتمون.. والشيء ذاته يمكن أن يُقال عن شخص

اجتماعي. فمادام الموت والمعاناة يخدمان مشروع الإمبراطورية، ومادام الأشخاص المعنيون والشركات المعنية تجمع الثروات والسلطة والامتيازات والمكانة الاجتماعية، ومادام الموت والمعاناة لا يصيبانهم ولا يصيبان الأشخاص المقربين منهم.. إذاً فإنهم فقط لا يهتمون بما يحدث لأناس آخرين، من ضمنهم الجنود الأميركيون الذين يعرفون أنهم زُج بهم في الحروب، والذين يعودون منهم إلى الوطن - أي الذين يتاح لهم العودة أحياء - مصابين بمرض العامل البرتقالي أو وباء حرب الخليج الذي يفتك بأجسادهم. إن القادة الأميركيين ما كانوا ليحتلوا المناصب التي هم فيها لو كانوا يعبؤون بأمور كهذه.

عندما كنت أؤلف كتابي «الدولة المارقة» خلال العامين ١٩٩٩ و٢٠٠٠ استعملت عبارة «الإمبراطورية الأمريكية» بشيء من الحذر لأنها لم تكن مألوفة في الاستعمال ولم أكن متأكداً من أن الرأي العام الأميركي كان مستعداً تمام الاستعداد لتقبّل الفكرة. ولكن ما كان ينبغي لي أن أكون حذراً إلى هذا الحد. إن فكرة هيمنة الولايات المتحدة على العالم صارت موضوع بحث ليس فقط بصورة علنية بل بفخر أيضاً من قِبَل مؤيدي الإمبراطورية المفكرون الأميركيون البارزون أمثال (دنيش دسوزا Denish Dsouza) من مؤسسة (هوفر Hoover) الذي كتب مقالة عنوانها «مديحاً للإمبراطورية الأميركية» وفيها حاجج بأن «أميركا هي القوة الإمبريالية الأكثر شهامة في التاريخ»[٢٢].

لقد تحدث الكاتب الصحفي (تشارلز كروتهامر Charles Krauthammer) عن «توجه أميركا الإمبريالي الرؤوف»[٢٣].

إن (مايكل هيرش Michael Hirsch) رئيس تحرير مجلة «نيوزويك» أضاف مايلي إلى كورس أغاني حب الذات: «يجب على حلفاء الولايات المتحدة أن يتقبلوا أن بعض أحادية الولايات المتحدة هو أمر لا مفر منه، بل هو مرغوب فيه. إن ذلك يشمل بصورة رئيسية قبول واقع جبروت أميركا، وهم يشكرون حظهم لكونهم تاريخياً محميين من قوة رؤوفة نسبياً إلى هذا الحد»[٢٤].

سبق أن كتب (روبرت كاغان Robert Kagan)، وهو من كبار المستتيرين في مؤسسة السياسة الخارجية الأميركية مايلي: «والحقيقة هي أن الهيمنة المطبوعة على حب الخير التي تمارسها الولايات المتحدة هي لخير جزء واسع من سكان العالم. ومن المؤكد أنها ترتيب دولي أفضل من جميع البدائل الواقعية»(٢٥).

بهذه الطريقة يتمكن الناس الملتصقون بالسياسة الخارجية الأميركية أن يتعايشوا معها، فهم يستنتجون، ويُعلنون، وربما يعتقدون، أن سياسات من هذا القبيل تنتج قوة ذات طابع إنساني وإمبراطورية مستنيرة وتجلب النظام والازدهار والسلوك المتمدن في كل مكان، وإذا أُرغمت الولايات المتحدة على خوض حرب فإنها تخوضها بطريقة ذات طابع إنساني.

لابد أن يكون القارىء قد لاحظ أن هذا الكتاب يوثق بأدق التفاصيل المقابل الدقيق، مظهراً العنف والقسوة البالغين وقمع التغيير الاجتماعي، والتداعيات الكثيرة الأخرى الكريهة لتدخلات الولايات المتحدة في شؤون أناس في سائر أنحاء الكرة الأرضية على مدى نصف قرن.

يبدو كتّاب الإمبراطورية فاقدين لحس المسؤولية الأخلاقية كالمسؤولين في البيت الأبيض وفي البنتاغون. وفي نهاية الأمر إن جزيئات اليورانيوم المنضَّب لا تستقر داخل رئاتهم لتطلق إشعاعها خلال بقية حياتهم. إن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ليسا مفلسين في اقتصادهما ولا تنخفض خدماتهما الأساسية، وأُسر العاملين فيهما لا يجوبون الصحراء كلاجئين.

إن قادة الإمبراطورية، المافيا الإمبريالية - جورج دبليو بوش، دونالد رامسفيلد، ريتشارد تشيني، كولن باول، كوندوليزا رايس، بول وولفوفيتز، ريتشارد بيرل وغيرهم وكتّابهم أيضاً هم أشخاص لا يقلّون تعصباً وأصولية عن أسامة بن لادن. الله أكبر! الله أكبر!.. الولايات المتحدة الأميركية! الولايات المتحدة الأميركية! الولايات المتحدة الأميركية!.

إن كاغان وهو مفكر يهندس النزعة التدخلية التي تسعى إلى فرض برنامج المحافظين الجدد على العالم، بأية طريقة ضرورية، قد أعلن أن الولايات المتحدة يجب

أن ترفض الالتزام بمواثيق دولية معينة مثل محكمة الجنايات الدولية واتفاق كيوتو بشأن الانحباس الحراري العالمي. وهو يقول: إن الولايات المتحدة «يجب أن تؤيد الإشراف على التسلح، ولكن ليس دائماً بما يخصها. لابد لها من ازدواجية المعايير»[٢٦].

هنالك أيضاً (روبرت كوبر Robert Cooper) وهو دبلوماسي بريطاني رفيع المستوى، ومستشار لرئيس وزراء بريطانيا توني بلير. وهو كتب ما يلي:

«التحدي الذي يواجه عالم ما بعد العصرنة هو أن يعتاد على فكرة ازدواجية المعايير. عند التعامل مع المزيد من أنواع الدول قديمة الطراز الواقعة خارج القارة الأوروبية التي تعيش مرحلة ما بعد العصرنة، نكون بحاجة إلى العودة إلى الأساليب الأكثر خشونة في زمن غابر: القوة، الهجوم الاستباقي، الخداع، كل ما هو ضروري للتعامل مع الذين لا يزالون يعيشون في عالم القرن التاسع عشر حيث كل دولة تهتم بنفسها»[٢٧].

تعبير «كل دولة تهتم بنفسها» الذي استخدمه يمكن فهمه بصورة أفضل أنه يعني أية دولة غير مستعدة للموافقة على برنامج الإمبراطورية الأمريكية وأفضل أصدقاء زميل المدرسة المتجبر في لندن.

هذا هو الوضع ازدواجية المعايير موجودة. القاعدة الذهبية: افعل للآخرين ما تريد أن يفعله لك الآخرون قد زالت.

تواجه المافيا الإمبريالية ومفكرو بلاطها من أمثال كاغان وكوبر وقتاً صعباً في تسويق أو الدفاع عن رؤيتهم للعالم على أساس من المعايير الشرعية والأخلاقية أو المعايير المنصفة. ولهذا يقررون أنهم غير ملزمين بمثل هذه المعايير.

الذهب السائل، مرة أخرى

الاحتلال الأميركي لأفغانستان كان خدمة لهدف إقامة حكومة جديدة تكون منسجمة انسجاماً كافياً مع أهداف واشنطن الدولية، بما في ذلك إقامة قواعد عسكرية ومحطات تنصت وإدارة خطوط أنابيب نفط وغاز آمنة من بحر قزوين عبر أفغانستان بعد تهدئة الأحوال في هذا البلد.

كان بارونات النفط الأميركيون منذ سنوات قد وجهوا أبصارهم إلى احتياطيات النفط والغاز الكبيرة حول بحر قزوين، مرتئين إنشاء خط عبر أفغانستان وباكستان إلى المحيط الهندي. كان رجال النفط صريحين تماماً في هذا الموضوع، وأدلوا بشهادة صريحة أمام الكونغرس حول الأمر نفسه[٢٨].

بعد أفغانستان، وجهوا شهوتهم إلى احتياطيات النفط الأكبر في العراق. مرة أخرى، كان لابد من تهيئة الرأي العام الأميركي. إن (جون لوكاريه John Le Carre) كاتب روايات الجاسوسية المشهور لاحظ: «كيف أن بوش وجماعته أفلحوا في تحويل غضب أميركا من بن لادن إلى صدام حسين في واحدة من أكبر خدع التلاعب بالعلاقات العامة في التاريخ»[٢٩].

عندما كان هذا الكتاب يُكتَب في شهر نيسان ٢٠٠٣، كانت الولايات المتحدة قد أتمت لتوّها قصف المجتمع العراقي المحاصَر وغزوه والاستيلاء عليه، متسببة بدمار كبير، وقتل الآلاف من الناس الأبرياء - مدنيين وعسكريين - في هذه العملية ومسببة لأعداد أخرى لا تحصى من الناس تقطيع الأطراف والأذى بشكل آخر. لقد قال وزير الحرب الأميركي دونالد رامسفيلد، في دفاعه عن «دقة القصف» الأميركي: «يبدو الأمر وكأنه قصف لمدينة ولكنه ليس كذلك»[٣٠].

نظرت واشنطن إلى نتائج أعمالها العسكرية التي وصفها الآخرون بأنها مرعبة، فأطلقت عليها صفة «التحرير»،لأن نظام صدام حسين قد أطيح به.

قبل ذلك كانت المافيا الإمبريالية قد شرعت بعملية (بروبا غاندا) استمرت سنة لإقناع الأميركيين والعالم أن القوة العظمى الوحيدة في العالم لم يكن أمامها خيار سوى مهاجمة بلد ذي سيادة ومعطّل لم يسبق له أن هاجم الولايات المتحدة، ولم يسبق له أن هدد بمهاجمة الولايات المتحدة، وكان يعرف أن مهاجمة الولايات المتحدة تعني عملية انتحار كاملة وفورية. غرابة مقولة المافيا الإمبريالية لا تكمن فقط في أن العراق يشكل تهديداً - وهذا ما أظهره الانتصار العسكري السهل في الحرب -

وإنما بأن المافيا الإمبريالية كانت تعرف أن العراق لا يشكل تهديداً إطلاقاً. لقد كانت المافيا تروي للعالم قصة بعد أخرى عن كون العراق يشكل تهديداً، بل وتهديداً وشيكاً، تهديداً يزداد خطره مع مرور كل يوم، تهديداً نووياً، تهديداً كيميائياً، تهديداً بيولوجياً، وأن العراق دولة إرهابية، وأن العراق على علاقة بالقاعدة.. إنما لم تكن أية قصة من هذه القصص تساوي شيئاً. لقد أصرت المافيا الإمبريالية مراراً على وجوب أن يوافق العراق على عودة مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة إلى الأراضي العراقية، وعندما وافق العراق على ذلك أعلنت المافيا الإمبريالية أن ذلك لم يكن بالأمر الجيد كفاية ومضت في عملها بإحباط الجهد.

ذلك أن الحرب هي ما كان البيت الأبيض يرنو إليه، والحرب هي ما حصل عليه بينما أصمَّ أذنيه عن أكبر احتجاجات شهدها العالم ضد الحرب والمعارضة الكاسحة للحرب من قِبل الأمم المتحدة ومفاهيم القانون الدولي والتعاون من أجل كرة أرضية يسودها السلام، هذه المفاهيم التي كسبتها البشرية بشق النفس. يبقى أن نرى ما إذا كانت الهيئة العالمية ستستمر بينما يُساء إليها بكلام مذلٍّ بعيد عن الموضوع حول أهم مسألة يمكن أن تواجهها، أي كون الأمم المتحدة مؤسسة أعلنت في أول جملة من ميثاقها التصميم «على إنقاذ الأجيال القادمة من ويلات الحرب التي جلبت للبشرية مرتين خلال جيل واحد أحزاناً يعجز عنها الوصف».

هل هناك في سياسة واشنطن ما له أي معنى؟ هذه السرعة المفاجئة في خوض حرب دون أن يكون هناك قتال؟ يكون هناك معنى لو فَهِم المرء أن الغزو لم يكن سببه أن صدام حسين شرير أو انه يملك أسلحة الدمار الشامل المزعومة. عندما أخفقت أسابيع من الاحتلال العسكري الأميركي للعراق عن اكتشاف أسلحة من هذا النوع، أعلن البيت الأبيض أن أسلحة الدمار الشامل، على أية حال، لم تكن هي السبب الحقيقي للغزو وأكد للعالم أن ما كانت تفعله أميركا في الحقيقة هو توجيه ضربات مختلفة إلى الإرهاب. قال أحد المسؤولين: «نحن لم نكذب. المسألة كانت فقط مسألة تأكيد على موضوع»[٣١].

بين الأسباب الأخرى للحرب تبديل صدام حسين من قِبَل الولايات المتحدة وإقامة حكومة عميلة، على نحو ما فعلت في أفغانستان. في هذه الحالة حكومة احتلال أميركي تمكّن شركات النفط الأميركية بالتحرك إلى داخل العراق والاستمتاع بوليمة، وفي الوقت ذاته فتح العراق أمام كل أنواع الشركات الكبرى متعددة الجنسيات بينما العراق يأخذ مكانه في نظام عالمي جديد هو نظام الاقتصادات المعولمة، وتضيف الإمبراطورية الأميركية بلداً آخر وبضع قواعد أخرى تنطلق منه لمزيد من السيطرة على الشرق الأوسط ولإعادة تكوينه بأسلوب المافيا الإمبريالية المحبب إلى نفسها الذي لا يلتزم المسؤولية الأخلاقية، والذي من أجله يفترض أن يُنشد أطفال المنطقة أناشيد عظيمة في مقبل الأعوام[٣٢].

إن موافقة الولايات المتحدة على السماح لمفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة بالعودة إلى العراق في كانون الأول عام ٢٠٠٢ لم يكن إلا خدعة للتغلب على معارضة عالمية قوية وغير متوقعة للغزو الأميركي الذي كانت تخطط له واشنطن. إن التفتيش عن الأسلحة خلال ثلاثة شهور قبل بدء الغزو لم يسفر عن شيء من حيث العثور على أسلحة محظورة بطريقة لا لبس فيها. وخلال نحو سبع سنوات في التسعينيات من القرن العشرين كان مفتشو الأمم المتحدة قد وجدوا ودمروا كميات هائلة من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية في العراق.

لقد ذكر (سكوت ريتر Scott Ritter)، كبير مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة في العراق، في عام ٢٠٠٢:

«إن العراق منذ عام ١٩٩٨ قد نُزِع سلاحه بشكل كبير، ذلك أن ما بين ٩٠ إلى ٩٥٪ من أسلحة الدمار الشامل في العراق قد ثبت أنها أُبيدت. هذا يشمل كل المعامل المستخدمة لإنتاج أسلحة كيميائية وبيولوجية ونووية، وصواريخ بالستية بعيدة المدى، والمعدات ذات العلاقة بهذه المعامل، والغالبية الكبرى من المنتجات التي تخرج من هذه المعامل»[٣٣].

في الفترة ذاتها ذكر محمد البرادعي المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية أن وكالته:

«فككت منشآت واسعة النطاق ذات علاقة بالأسلحة النووية. لقد حيّدنا برنامج العراق النووي، وصادرنا مواده القابلة للاستخدام في صنع الأسلحة. لقد دمرنا وأزلنا جميع منشآته ومعداته ذات العلاقة بإنتاج الأسلحة النووية أو حولناها إلى منشآت لا تسبب أذىً»(٣٤).

هكذا إذاً هو خطر العراق المرعب الذي كان لابد من إبادته. لقد كان العراق مجتمعاً أصابه ضعف شديد من جراء اثني عشر عاماً من العقوبات، التي وصفها مستشار الأمن القومي الأميركي (صاموئيل بيرغر Samuel Burger) بأنها «أشد عقوبات فُرضت على دولة خلال تاريخ البشرية»(٣٥).

السياسة الخارجية الأميركية:
مختبر لتوليد فيروس الإرهاب المعادي لأميركا
«سويناها بالأرض، لم يبق إنسان حي، لم يبق إلا الأوساخ والتراب»

الميجر جنرال (فرانكلين هاجنبك Franklin Hagenbeck)، الضابط في الجيش الأميركي متحدثاً عن تدمير ثلاث قرى في وادي شاهيكوت في أفغانستان[٣٦].

القصف الأميركي لأفغانستان، الذي بدأ بتاريخ ٧ تشرين الأول ٢٠٠١ وتبعه احتلال عسكري لجزء كبير من البلد، أدى إلى حدوث عشرات الأعمال الإرهابية ضد أفراد أميركيين ومؤسسات أميركية، وضد أهداف مسيحية وأهداف غربية أخرى في جنوب آسيا وفي الشرق الأوسط وأمكنة أخرى، وقد وقع اثنا عشر هجوماً أو حوالي هذا العدد في باكستان وحدها (بما في ذلك خطف وقتل مراسل جريدة «وول ستريت جورنال» (دانيال بيرل Daniel Pearl)[٣٧]. والعمل الإرهابي الذي سبب الدمار الأكبر في جزيرة «بالي» الأندونيسية بتاريخ ١٢ تشرين الأول وقُتل فيه أكثر من ١٨٠ شخصاً جميعهم تقريباً أستراليون أو أميركيون أو بريطانيون. الشخصان الرئيسيان المشتبه بهما اللذان اعتُقلا في هذه القضية قال كل منهما: إنه ارتكب العمل انتقاماً من هجوم الولايات المتحدة على أفغانستان والمسلمين[٣٨].

إن الهجوم اللاحق على العراق - وهو حرب لم يكن يريدها أحد سوى المافيا الامبريالية - قد تكون جندت آلافاً آخرين من سائر أنحاء العالم الإسلامي كجيل قادم من الإرهابيين لكي يجاهدوا ضد الشيطان الأكبر.

هل تعلمت النخبة في السلطة الأميركية أي شيء من كونها هدفاً متكرراً للإرهاب عبر السنين الماضية؟ هاهنا (جيمس وولسي James Woolsey) المدير

السابق لوكالة المخابرات المركزية وعضو مجلس تخطيط السياسة في وزارة الدفاع الأميركية متحدثاً بعد انقضاء شهرين على بدء القصف الأميركي لأفغانستان، داعياً إلى غزو العراق وغير معني برد العالم العربي: إن صمت عامة العرب في أعقاب الانتصارات الأميركية في أفغانستان يُثبت، على حد قول وولسي: «إن الخوف وحده يعيد تأكيد الاحترام للولايات المتحدة»[٣٩].

على غرار ذلك هناك عبارة تُعزى إلى مختلف قادة الإمبراطورية الرومانية وقد استخدمها المسؤولون في إدارة بوش نصها باللاتينية (oderint dum metuant) ومعناه «دعهم يكرهون ماداموا يخافون»[٤٠].

لعل وزارة الخارجية الأميركية تعلمت شيئاً ما. فعند حلول الذكرى الأولى لهجوم ١١ أيلول ٢٠٠١ الإرهابي وفي أوقات لاحقة أيضاً، عقدت الوزارة مؤتمرات حول كيفية تحسين صورة أميركا في الخارج بغية تخفيض مستوى الكراهية، ولكنها مجرد صورة هي ما كانت الوزارة تعمل على نشرها، وليس تغييراً في السياسات. وسجل السياسات ينص على ما يلي: من عام ١٩٤٥ حتى عام ٢٠٠٣ حاولت الولايات المتحدة الإطاحة بأكثر من أربعين حكومة أجنبية، وأن تسحق أكثر من ثلاثين حركة شعبية وطنية مناضلة ضد أنظمة حكم لا تُطاق. خلال ذلك قصفت الولايات المتحدة حوالي ٢٥ بلداً وتسببت في وفاة عدة ملايين من الناس، وحكمت على عدة ملايين أخرى من الناس أن يحيوا حياة عذاب ويأس.

قال مسؤول كبير في وزارة الدفاع الأميركية لجريدة «نيويورك تايمز» عام ٢٠٠٣: «الفكرة هي خلق بيئة عالمية معادية للإرهاب، بحيث يصبح الإرهاب خلال ما بين ٢٠ و٣٠ عاماً شبيهاً بتجارة الرقيق، أي ذميماً كلياً»[٤١].

لا يملك العالم إلا أن يطرح التساؤل التالي: متى ستكون الحروب العدوانية الأميركية، وقصف قلب مدينة بالصواريخ، واستخدام اليورانيوم المنضّب والقنابل العنقودية ضد السكان، أموراً ذميمة كلياً؟.

لقد أصبحت هكذا منذ الآن ولكن الولايات المتحدة التي تشن حرباً من عيار الحروب التي تخوضها دول أخرى لمجرد البقاء على قيد الحياة، غير مدركة بعد أنها أصبحت كذلك. إنها بدلاً من ذلك تمارس الحروب الدائمة وليس السلام الدائم.

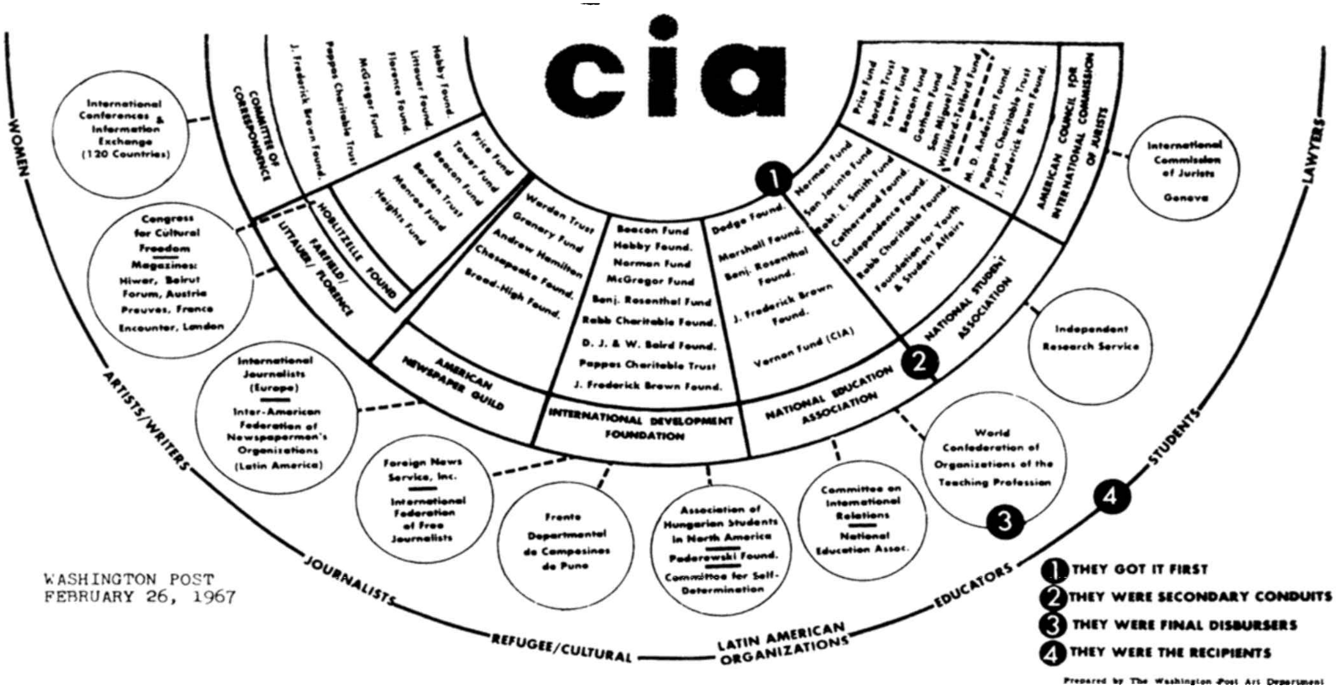

WASHINGTON POST
FEBRUARY 26, 1967

To provide secret Government funds to private persons and organizations, the CIA gave its money directly to a number of foundations. They are the names in the first band of the chart. Some were largely occupied with other work, some were mainly CIA conduits. These foundations, in turn, gave the money to other private organizations. They are the names in the shaded band. One step away from the source of the money, they could rarely be identified as part of the CIA pipeline. They passed the secret funds along to specific CIA-approved groups, organizations, study projects. Those are named in the last set of circles. Their job was to parcel out the money to individuals.

Appendix I

الملحق رقم ١

هكذا يكون دوران المال

This is How the Money Goes Round

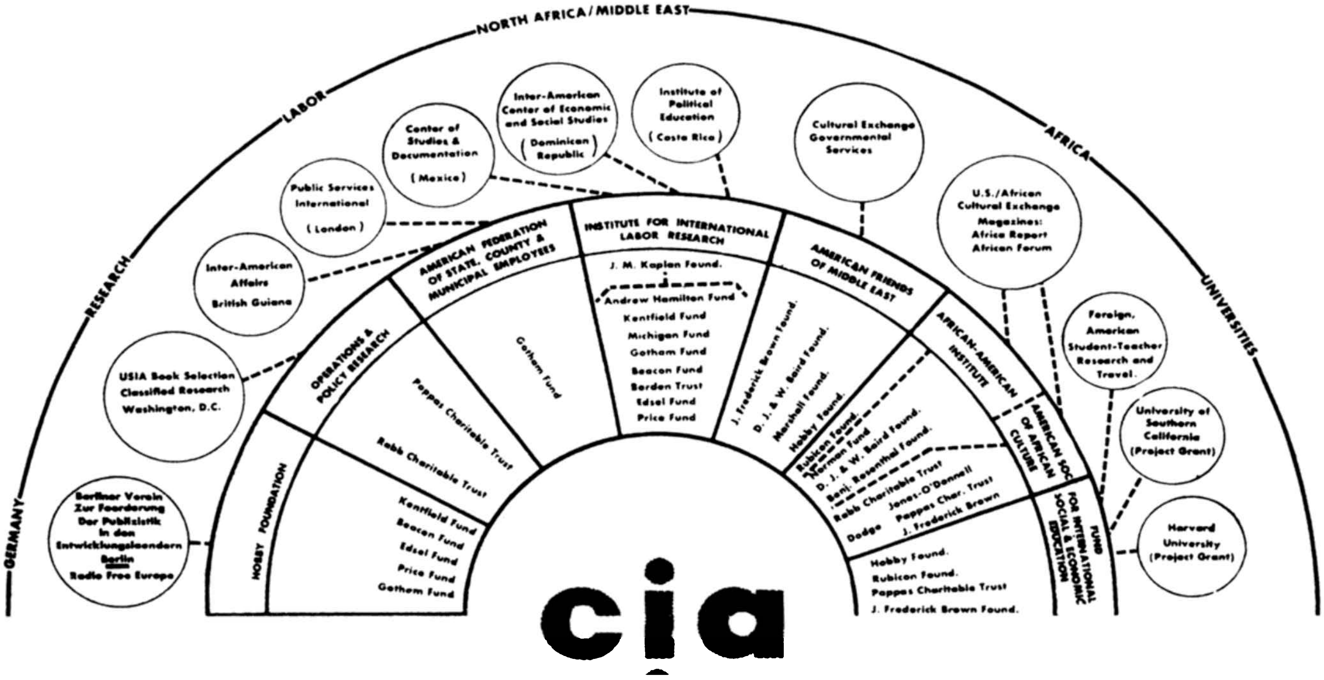

الملحق رقم ٢

حالات استخدام القوات المسلحة الأمريكية في الخارج

١٧٩٨ - ١٩٤٥

(من إعداد قسم العلاقات الخارجية، خدمة أبحاث الكونغرس، مكتبة الكونغرس، مكتب الطباعة التابع للحكومة الأمريكية، واشنطن العاصمة، ١٩٧٥، مراجعة طبعة ١٩٦٩.

- ١٧٩٨ - ١٨٠٠ - حرب بحرية غير معلنة مع فرنسا. النزاع اشتمل على أعمال برية كالتي حدثت في جمهورية الدومينيكان مدينة بويرتو بلاتا، حيث أسر جنود المارينز جندياً فرنسياً تحت مدافع القلاع.
- ١٨٠١ - ١٨٠٥ - طرابلس: الحرب الأولى مع البربر بما في ذلك شؤون جورج واشنطن وفيلادلفيا وحملة إيتون، التي نزل خلالها بضعة من جنود المارينز مع العميل الأميركي وليم إيتون لتشكيل قوة ضد طرابلس في مسعى لتحرير بحارة السفينة فيلادلفيا. طرابلس هي التي أعلنت الحرب وليس الولايات المتحدة.
- ١٨٠٦ - المكسيك (منطقة إسبانية): الكابتن ز. بايك مع مفرزة من الجنود غزوا الأرض الإسبانية في منابع ريوغراندي عمداً وبناء على أوامر من الجنرال جيمس ولكنسون، الذي أسر بدون مقاومة في قلعة كان يبنيها فيما يشكل اليوم كولورادو، ونقل إلى المكسيك ثم أفرج عنه بعد الاستيلاء على أوراقه. كانت هناك غاية سياسية مازالت غامضة.
- ١٨٠٦ - ١٨١٠ - خليج المكسيك: عملت القوارب الحربية الأمريكية من نيو أورليانير ضد جنود إسبان وفرنسيين مثل لافيت عند دلتا الميسيسيبي وبصورة رئيسية بقيادة الكابتن جون شو القائد الرئيسي ديفيد بورتر.

- ١٨١٠ - فلوريدا الغربية (أرض إسبانية): الحاكم كليبورن حاكم لويزيانا، بناءً على أمر من الرئيس، احتل مع جنود المنطقة في نزاع شرقي الميسيسيبي وحتى بيرل المنطقة التي صارت لاحقاً الحد الشرقي لولاية لويزيانا. كان مخوّلاً أن يستولي على أبعد ما يمكن شرقاً حتى الوصول إلى نهر برديدو. لم يقع اشتباك مسلح.
- ١٨١٢ - جزيرة إميليا وأجزاء أخرى من فلوريدا كانت آنذاك تحت الحكم الإسباني: الاستيلاء المؤقت كان بتفويض من الرئيس ميديسون ومن الكونغرس لمنع احتلالها من قبل أية قوة أخرى، ولكن الاستيلاء حصل من قبل الجنرال جورج ماتيوس بطريقة غير نظامية إلى حد أن إجراءاته رفضها الرئيس.
- ١٨١٢ - ١٨١٥ - بريطانيا العظمى: حرب عام ١٨١٢. أعلنت رسمياً ١٨١٣ - غرب فلوريدا (أرض إسبانية): بناء على تفويض من الكونغرس استولى الجنرال ولكنسون على خليج موبايل في شهر نيسان بمساعدة ٦٠٠ جندي. استسلمت حامية إسبانية صغيرة. وهكذا تقدمت الولايات المتحدة نحو الأرض المتنازع عليها حتى نهر برديدو كما هو مرسوم في عام ١٨١٩. بدون قتال.
- ١٨١٣ - ١٨١٤ - جزر مركيزاز: بنيت قلعة على جزيرة نوكاهيفا لحماية ثلاث سفن تم الاستيلاء عليها من البريطانيين.
- ١٨١٤ - فلوريدا الإسبانية: الجنرال أندرو جاكسون استولى على بنساكولا وطرد البريطانيين منها إذ كانت الولايات المتحدة في حرب مع بريطانيا.
- ١٨١٤ - ١٨٢٥ - منطقة الكاريبي: اشتباكات بين القراصنة وسفن أمريكية أو وحدات عسكرية حدثت مراراً وخاصة على الشاطىء وعند الشاطىء حول كوبا وبورتوريكو وسانتو دومنغو ويوكاتان. ووردت أنباء عن ثلاثة آلاف هجمة من قبل القراصنة على سفن تجارية بين عامي ١٨١٥ - ١٨٢٣. في عام ١٨٢٢ القائد البحري جيمس بيدل استخدم مجموعة مؤلفة من فرقاتين وأربعة زوارق حربية إضافة إلى ست قطع بحرية أخرى وقاربين حربيين في جزر الهند الغربية.

- ١٨١٥ – الجزائر: حرب البربر الثانية أعلنت من قبل الخصوم وليس من قبل الولايات المتحدة، سمح الكونغرس بحملة. هاجم أسطول كبير بقيادة ديكاتور الجزائر وحصل على تعويضات.
- ١٨١٥ – طرابلس: بعد الحصول على اتفاق من الجزائر قام ديكاتور باستعراض مع مجموعته البحرية في تونس وطرابلس حيث حصل على تعويضات مقابل الهجمات التي وقعت في حرب عام ١٨١٢.
- ١٨١٦ – فلوريدا الإسبانية: دمرت قوات الولايات المتحدة قلعة نيكولز التي تسمى أيضاً نيغرو فورت التي قدمت المأوى للمغيرين على أرض الولايات المتحدة.
- ١٨١٦ – ١٨١٨: فلوريدا الإسبانية – حرب سيمينول الأولى: هنود السيمينول التي كانت منطقتهم ملاذاً للعبيد الهاربين ولأشقياء الحدود هاجمها جنود بقيادة الجنرال جاكسون والجنرال غيمز الذين تقدما نحو شمال فلوريدا. المواقع الإسبانية هوجمت واحتلت. جرى إعدام مواطنين بريطانيين. لم يكن هناك إعلان أو تفويض من الكونغرس ولكن السلطة التنفيذية كانت مساندة.
- ١٨١٧ – جزيرة إميليا (أرض إسبانية قرب فلوريدا): بناءً على أوامر من الرئيس مونرو نزلت قوات من الولايات المتحدة على أرض الجزيرة واعترضت مجموعة من المهربين والمغامرين وقطاع الطرق.
- ١٨١٨ – أوريغون: السفينة الحربية إنتاليو الأمريكية أرسلت من واشنطن ورست في نهر كولومبيا وفي شهر آب استولت على المنطقة. كانت بريطانيا قد تنازلت عن السيادة ولكن روسيا وإسبانيا أكدتا مطالبتهما بالمنطقة.
- ١٨٢٠ – ١٨٢٣ – أفريقيا: وحدات بحرية شنت غارة على تجار الرقيق بموجب القانون الصادر عن الكونغرس في عام ١٨١٩
- ١٨٢٢ – كوبا: قوات بحرية أمريكية لقمع القرصنة نزلت على ساحل كوبا الشمالي – الغربي وأحرقت محطة للقراصنة.

- ١٨٢٣ - كوبا: أعمال إنزال قصيرة على بر الجزيرة لمطاردة القراصنة حدثت بتاريخ ٨ نيسان بالقرب من اسكونديدو، وبتاريخ ١٦ نيسان بالقرب من كايو بلانكو، وبتاريخ ١١ تموز في خليج سكوابا، وفي ٢١ تموز في كيب كروز، وفي ٢٣ تشرين الأول في كامريوكا.
- ١٨٢٤ - كوبا: في تشرين الأول أنزلت السفينة الحربية الأمريكية بوربويز جنود بحرية قرب ماتانزاس لمطاردة القراصنة. كان ذلك خلال الحملة التي جرى تفويض بها في عام ١٨٢٢
- ١٨٢٤ - بورتوريكو (أرض إسبانية): هاجم القائد البحري ديفيد بورتر مع فريق إنزال مدينة فاخاردو التي كانت مأوى للقراصنة وأهانت ضباط البحرية الأمريكية. نزل على البر مع مئتي رجل وفرض الاعتذار.
- ١٨٢٥ - كوبا: في آذار وبالتعاون بين الأمريكيين والبريطانيين نزلت قوات في ساغوا لاغراندي للقبض على القراصنة.

١٨٢٧ - اليونان: في شهري تشرين الأول وتشرين الثاني لاحقت وحدات إنزال القراصنة في جزر أرجنتير وميكوني واندروس.

- ١٨٣١ - ١٨٣٢- جزر فولكلاند: للتحقق في أسر ثلاث سفن أمريكية وحماية المصالح الأمريكية.
- ١٨٣٢ - سومطرة: ٦ إلى ٩ شباط: لمعاقبة أهالي بلدة قوالا بانو على أعمال نهب السفن الأمريكية.
- ١٨٣٣ - الأردنتين: من ٣١ تشرين الأول حتى ١٣ تشرين الثاني: نزلت قوة على شاطئ بونس ايرس لحماية مصالح الولايات المتحدة وبلدان أخرى خلال التمرد.
- ١٨٣٥ - ١٨٣٦ - البيرو: ١٠ كانون الأول ١٨٣٥ حتى ٢٤ كانون الثاني ١٨٣٦ ومن ٣١ آب حتى ٧ كانون الأول ١٨٣٦، تولى جنود المارينز حماية المصالح الأمريكية في كالاو وليما خلال محاولة للثورة.

- ١٨٣٦ – المكسيك: احتل الجنرال غينز منطقة ناكوغدوش (تكساس) وهي منطقة مُتنازَع عليها، من تموز حتى كانون الأول خلال حرب الاستقلال في تكساس، بموجب أوامر لعبور «خط الحدود المتخيَّل» إذا حدث تهديد هندي.
- ١٨٣٨ – ١٨٣٩ – سومطرة: من ٢٤ كانون الأول ١٨٣٨ حتى ٤ كانون الثاني ١٨٣٩، لمعاقبة أهالي بلدة كوالا باتو وموكي على نهب السفن الأمريكية.
- ١٨٤٠ – جزر فيجي – تموز: لمعاقبة السكان المحليين على مهاجمة فرق استكشاف ومسح أمريكية.
- ١٨٤١ – جزيرة درونوند – مجموعة كتعميل: للانتقام من قتلة بحار أمريكي في جزيرة يوبولو.
- ١٨٤١ – ساموا – ٢٤ شباط: للانتقام من قتلة بحار أمريكي في جزيرة يوبولو.
- ١٨٤٢ – المكسيك: القائد البحري ت. جونز، الذي كان قائد فيصل يجوب البحر قرب كاليفورنيا، احتل مونتيري، في كاليفورنيا في ١٩ تشرين الأول لاعتقاده أن الحرب قد نشبت. اكتشف أن هناك سلام فانسحب، وأدى التحية. وقع حادث مماثل بعد أسبوع في سان دييغو.
- ١٨٤٣ – الصين: بحارة وجنود من المارينز من سانت لويس نزلوا على البر بعد اشتباك بين الأمريكيين والصينيين في المركز التجاري في كانتون.
- ١٨٤٣ – إفريقيا – من ٢٩ تشرين الثاني حتى ١٦ كانون الأول: قامت أربع سفن أمريكية بتظاهرة وأنزلت على البر مجموعات مختلفة (إحداها مؤلفة من ٢٠٠ من المارينز والبحارة) لمنع القرصنة وتجارة الرقيق على شواطىء ساحل العاج الخ ولمعاقبة السكان المحليين الذين هاجموا البحارة الأمريكيين والملاحة الأمريكية.
- ١٨٤٤ – المكسيك: نشر الرئيس تايلر قوات أمريكية لحماية تكساس من المكسيك، ريثما يوافق مجلس الشيوخ على اتفاقية الضم (رفضت الاتفاقية لاحقاً). وقد دافع عن عمله هذا ضد قرار تحقيق أصدره مجلس الشيوخ.

- ١٨٤٦ - ١٨٤٨ - المكسيك - الحرب المكسيكية: احتلال المنطقة المتنازع عليها بأمر من الرئيس بولك فجر الحرب.. أعلنت الحرب رسمياً.
- ١٨٤٩ - أزمير: في شهر تموز حررت قوة من الأسطول أمريكياً قبض عليه مسؤولون نمساويون.
- ١٨٥١ - تركيا: عقب مجزرة تعرض لها أجانب (بينهم أمريكيون) في يافا في شهر كانون الثاني، صدر أمر إلى مجموعة البحر الأبيض المتوسط بالتظاهر عند ساحل تركيا (المشرق). يبدو أنه لم يحدث إطلاق نار.
- ١٨٥١ - جزيرة جوهانا (شرق أفريقيا) شهر آب: لانتزاع تصحيح لسجن كابتن سفينة أمريكية لصيد الحيتان، الذي سجن بصورة غير شرعية.
- ١٨٥٢ - ١٨٥٣- الأرجنتين: من ٣ إلى ١٢ شباط ١٨٥٢ ومن ١٧ أيلول ١٨٥٢ إلى نيسان ١٨٥٣: نزل جنود من المارينز على البر وظلوا في بونس إيرس لحماية المصالح الأمريكية خلال حدوث ثورة.
- ١٨٥٣ - نيكاراغوا - ١١ إلى ١٣ آذار: لحماية أرواح الأمريكيين والمصالح الأمريكية خلال اضطرابات سياسية.
- ١٨٥٣ - ١٨٥٤- اليابان: «فتح اليابان» وحملة بيري.
- ١٨٥٣ - ١٨٥٤ - جزر ريوكو وبونين: الكومودو ميري في ثلاث زيارات قبل الذهاب إلى اليابان وخلال انتظاره جواباً من اليابان قام باستعراض سفن الأسطول، بما في ذلك إنزال جنود مارينز على البر مرتين، وتأمين الحصول على امتياز لاستخراج الفحم من حاكم ناها وأوكيناوا. كما استعرض قواته في جزر بوتين. كل ذلك لتأمين الحصول على تسهيلات تجارية.
- ١٨٥٥ - الصين - من ٤ إلى ١٥ أو ١٧ نيسان: لحماية المصالح الأمريكية في شنغهاي. من ٣ إلى ٥ آب لمحاربة القراصنة بالقرب من هونغ كونغ.

- ١٨٥٥ - جزر فيجي - من ١٢ أيلول إلى ٤ تشرين الثاني: للمطالبة بتعويضات عن اعتداءات على أمريكيين.
- ١٨٥٥ - الأوروغواي - من ٢٥ إلى ٢٩ أو ٣٠ تشرين الثاني: نزول قوات أمريكية وأوروبية بحرية إلى البر لحماية المصالح الأمريكية خلال محاولة للثورة في موتيفيديو.
- ١٨٥٦ - بنما، جمهورية غرينادا الجديدة - من ١٩ إلى ٢٢ أيلول: لحماية المصالح الأمريكية خلال تمرد.
- ١٨٥٦ - الصين - من ٢٢ تشرين الأول إلى ٦ كانون الأول: لحماية المصالح الأمريكية في كانتون خلال أعمال قتالية بين البريطانيين والصينيين، وللانتقام من هجوم لم يسبقه استفزاز على قارب غير مسلح يرفع علم الولايات المتحدة.
- ١٨٥٧ - نيكاراغوا - من نيسان إلى أيار ومن تشرين الثاني إلى كانون الأول: لمعارضة محاولة وليم ووكر السيطرة على البلد. في أيار تسلم ك. ديفيس الضابط في الأسطول الأمريكي، مع بعض جنود المارينز، استسلام ووكر ووفر الحماية لرجاله من ثأر الحلفاء المحليين الذين كانوا يقاتلون ووكر. في شهري تشرين الثاني وكانون الأول من العام ذاته قاومت السفن الحربية الأمريكية «ساراتوغا» و«وباش» و«نولتون» محاولة أخرى من قبل وليم ووكر للسيطرة على نيكاراغوا. إن إقدام الكومودور هيرام بودينغ على إنزال جنود المارينز على البر وإبعاد ووكر إلى الولايات المتحدة رفضه وزير الخارجية الأمريكي لويس كاس بصورة ضمنية وأرغم بودينغ على الاستقالة.
- ١٨٥٨ - الأورغواي - من ٢ إلى ٢٧ كانون الثاني: نزلت قوات من سفينتين حربيتين أمريكيتين على البر لحماية ممتلكات أمريكية خلال حدوث ثورة في مونتفيدو.
- ١٨٥٨ - جزر فيجي - من ٦ إلى ١٦ تشرين الأول: لمعاقبة السكان المحليين بسبب قتلهم مواطنين أمريكيين.

• ١٨٥٨ – ١٨٥٩- تركيا: استعراض قوة من الأسطول على امتداد ساحل المشرق بناءً على طلب وزير الخارجية الأمريكي بعد مجزرة حلت بالأمريكيين في يافا وسوء معاملتهم في أماكن أخرى «على سبيل تذكير السلطات في تركيا بقوة الولايات المتحدة».

• ١٨٥٩ – باراغواي: وافق الكونغرس على السماح بمفرزة من البحرية للحصول على تعويض عن مهاجمة إحدى سفن الأسطول في نهر بارانا خلال عام ١٨٥٥. قدمت اعتذارات بعد استعراض كبير للقوة.

• ١٨٥٩ – المكسيك: عبَّر مئتا جندي أمريكي ريوغراندي في عملية ملاحقة لعصابة كورتينا المكسيكية.

• ١٨٥٩ – الصين – ٣١ تموز إلى ٢ آب: لحماية المصالح الأمريكية في شنغهاي.

• ١٨٦٠ – أنغولا، غرب أفريقيا البرتغالي – ١ آذار: لحماية الأرواح والممتلكات الأمريكية في كيسنبو عندما أصبح السكان المحليون مشاغبين.

• ١٨٦٠ – كولومبيا: خليج بنما – من ٢٧ أيلول إلى ٨ تشرين الأول: لحماية المصالح الأمريكية خلال حدوث ثورة.

• ١٨٦٣ – اليابان – ١٦ تموز: للحصول على تعويض عن إهانة العلم الأمريكي – جرى إطلاق نار على إحدى السفن الأمريكية في شيمونوسيكي.

• ١٨٦٤ – اليابان – من ١٤ تموز إلى ٣ آب على وجه التقريب: لحماية الوزير الأمريكي المفوض في اليابان عندما زار بيدو للتفاوض بشأن بعض المطالب الأمريكية من اليابان، ولجعل المفاوضات أسهل بواسطة إقناع اليابانيين بالقوة الأمريكية.

• ١٨٦٤ – اليابان – من ٤ إلى ١٤ أيلول – مضائق شيمونوسيكي: لإرغام اليابان وأمير ناغاتو بصورة خاصة على السماح باستخدام المضائق من السفن الأجنبية بموجب المعاهدات التي سبق أن وُقِّعت.

- ١٨٦٥ – باناما – من ٩ إلى ١٠ آذار: لحماية أرواح وممتلكات الأمريكيين القاطنين في بنما خلال حدوث ثورة.
- ١٨٦٦ – المكسيك: من أجل حماية السكان الأمريكيين تمكن الجنرال سيدجوك ومئة رجل في شهر تشرين الثاني من فرض الاستسلام على ماتاموراس. بعد ثلاثة أيام صدر إليَّ أمر من الحكومة الأمريكية بالانسحاب. ألغى الرئيس الأمريكي العمل الذي قام به.
- ١٨٦٦ – الصين – من ٢٠ حزيران إلى ٧ تموز: لفرض عقوبة على اعتداء على القنصل الأمريكي في إحدى المدن. ١٤ تموز للتشاور مع السلطات على الساحل. ٩ آب، في شنغهاي للمساعدة في إخماد حريق كبير في المدينة.
- ١٨٦٧ – نيكاراغوا: احتل جنود المارينز مدينتي ماناغوا وليون.
- ١٨٦٧ – جزيرة هرموزا – ١٣ حزيران: لمعاقبة جماعة من المتوحشين كان يفترض أنهم قتلوا بحارة سفينة أمريكية غارقة.
- ١٨٦٨ – اليابان (هوساكا، هيوغو، ناغازاكي، يوكوهاما، نيغاتا) – بصورة رئيسية من ٤ إلى ٨ شباط، ومن ٤ نيسان إلى ١٢ أيار، وفي ١٢ و١٣ حزيران: لحماية المصالح الأمريكية خلال حرب أهلية في اليابان سببها إلغاء الشوغونيت وإعادة الميكاد إلى العرش.
- ١٨٦٨ – الأورغواي – من ٧ إلى ٨ شباط ومن ١٩ إلى ٢٦ لحماية السكان الأجانب ومقر الجمارك خلال تمرد في مدينة مونتفيديو.
- ١٨٦٨ – كولومبيا – ٧ نيسان – في أسبينوول: لحماية السكان وكنز كان في مجال العبور خلال غياب الشرطة أو الجنود بمناسبة وفاة رئيس جمهورية كولومبيا.
- ١٨٧٠ – المكسيك، من ١٧ إلى ١٨ حزيران: لتدمير سفينة فوورد وهي سفينة قراصنة كانت قد جنحت على بعد ٤٠ ميلاً في أعلى ريوتيكابان.

- ١٨٧٠ – جزر الهاواي – ٢١ أيلول: لتنكيس العلم الأمريكي بمناسبة وفاة الملكة كالاما عندما لم يمارس القنصل الأمريكي في هونولولو مسؤوليته في هذا الشأن.
- ١٨٧١ – كوريا – من ١٠ إلى ١٢ حزيران: لمعاقبة السكان المحليين بسبب التعدي على أمريكيين وخاصة بسبب قتلهم بحارة السفينة (جنرال شيرمان) وإحراقهم إحدى السفن ثم لإطلاقهم النار على قوارب أمريكية أخرى صغيرة في أعلى نهر سايس.
- ١٨٧٣ -كولومبيا (خليج بنما) – من ٧ إلى ٢٢ أيار ومن ٢٣ أيلول إلى ٩ تشرين الأول: لحماية المصالح الأمريكية خلال أعمال حربية بشأن استيلاء الحكومة على دولة بنما.
- ١٨٧٣ – المكسيك: عبرت قوات أمريكية الحدود المكسيكية عدة مرات لمطاردة اللصوص. كانت هناك مطاردات متبادلة من قبل القوات المكسيكية في المنطقة الحدودية. هذه الوقائع كانت غزوات من الناحية التقنية مع أن المكسيك احتجت باستمرار. الوقائع الهامة كانت في ريمولينا في أيار ١٨٧٣ وفي لاس كويفاس في عام ١٨٧٥. أوامر واشنطن كانت في الغالب تدعم هذه الغزوات. إن الاتفاقيات التي عقدت بين المكسيك والولايات المتحدة، الأولى كانت في عام ١٨٨٢ شرعنت في النهاية هذه الغارات. استمرت الغارات بصورة متقطعة، مع خلافات صغيرة، حتى عام ١٨٩٦
- ١٨٧٤ – جزر الهاواي – من ١٢ إلى ٢٠ شباط: للمحافظة على النظام وحماية أرواح الأمريكيين ومصالحهم خلال تتويج ملك جديد.
- ١٨٧٦ – المكسيك – ١٨ أيار: لحفظ النظام في بلدة ماتاموراس مؤقتاً عندما كانت تفتقر إلى حكومة أخرى.
- ١٨٨٢ – مصر – من ١٤ إلى ١٨ تموز: لحماية المصالح الأمريكية خلال حرب بين البريطانيين والمصريين ونهب مدينة الاسكندرية من قبل العرب.

- ١٨٨٥ - بنما (كولون) - من ١٨ إلى ١٩ كانون الثاني: لحراسة بضائع ذات قيمة خلال عبورها على سكك حديد بنما ولحراسة الصناديق الحديدية والمخازن التابعة للشركة خلال نشاط ثوري. في آذار ونيسان وأيار في مدينتي كولون وبنما لتأمين حرية العبور خلال نشاط ثوري.
- ١٨٨٨ - كوريا - حزيران: لحماية السكان الأمريكيين في مدينة سيؤول خلال أوضاع سياسية غير مستقرة، وكان متوقعاً آنذاك أن يتمرد السكان.
- ١٨٨٨ - هايتي - ٢١ كانون الأول: لإقناع حكومة هايتي بتسليم سفينة أمريكية كانت استولت عليها بتهمت خرق الحصار.
- ١٨٨٨ - ١٨٨٩ - ساموا - من ١٤ تشرين الثاني ١٨٨٨ حتى ٢٠ آذار ١٨٨٩: لحماية المواطنين الأمريكيين والقنصلية الأمريكية خلال حرب أهلية.
- ١٨٨٩ - جزر الهاواي - ٣٠ و٣١ تموز: لحماية المصالح الأمريكية في هونولولو خلال حدوث ثورة.
- ١٨٩٠ - الأرجنتين: نزلت مجموعة من الأسطول الأمريكي على البر لحماية القنصلية والمفوضية الأمريكيتين في بونس آيرس.
- ١٨٩١ - هايتي: لحماية أرواح وممتلكات الأمريكيين في جزيرة ناباسا.
- ١٨٩١ - بحر بيرنغ - من ٢ تموز إلى ٥ تشرين الأول لوقف قتل سباع البحر.
- ١٨٩١ - تشيلي - من ٢٨ إلى ٣٠ آب: لحماية القنصلية الأميركية والنساء والأطفال الأميركيين الذين لجؤوا إليها خلال ثورة في مدينة فالبارايزو.
- ١٨٩٣ - الهاواي - من ١٦ كانون الثاني إلى أول نيسان: في الظاهر كانت العملية لحماية الأرواح والممتلكات الأميركية، واقعياً كانت لتعزيز حكومة انتقالية برئاسة سانفورد دول. هذا العمل تنكرت له الولايات المتحدة.

- ١٨٩٤ – البرازيل – كانون الثاني: لحماية التجارة والملاحة الأمريكيتين في ريوديجانيرو خلال حرب أهلية برازيلية. لم يحدث إنزال قوات على البر ولكن كان هناك عرض لقوة الأسطول.
- ١٨٩٤ – نيكاراغوا – من ٦ تموز حتى ٧ آب: لحماية المصالح الأمريكية في ساحات المعارك عقب حدوث ثورة.
- ١٨٩٤ – ١٨٩٥ – الصين: رابطت قوات من جنود المارينز في تيانسنغ وتوغلت حتى بكين لفرض الحماية خلال الحرب الصينية اليابانية.
- ١٨٩٤ – ١٨٩٥ – الصين: إحدى سفن الأسطول رابطت على الشاطىء واستخدمت كقلعة لحماية مواطنين أمريكيين.
- ١٨٩٤ – ١٨٩٦ – كوريا – من ٢٤ تموز ١٨٩٤ حتى ٣ نيسان ١٨٩٦: لحماية الأرواح والمصالح الأميركية في سيؤول خلال وبعد الحرب الصينية اليابانية. بقي حرس من رجال المارينز في المفوضية الأمريكية معظم الوقت حتى نيسان ,١٨٩٦
- ١٨٩٥ – كولومبيا – من ٨ آذار حتى التاسع منه: لحماية المصالح الأمريكية خلال هجوم على بلدة بوكاس دل تورو من قبل أحد زعماء العصابات.
- ١٨٩٦ – نيكاراغوا – ٢ إلى ٤ أيار: لحماية المصالح الأمريكية في كورنتو خلال اضطرابات سياسية.
- ١٨٩٨ – نيكاراغوا – ٧ و ٨ شباط: لحماية أرواح الأمريكيين وممتلكاتهم في سان خوان دل سور.
- ١٨٩٨ – إسبانيا: الحرب الإسبانية الأمريكية. أُعلنت بالكامل.
- ١٨٩٨ – ١٨٩٩- الصين – من ٥ تشرين الثاني ١٨٩٨ إلى ١٤ آذار ١٨٩٩: لتوفير حراسة للمفوضية الأمريكية في بكين والقنصلية الأمريكية في تيانسين خلال صراع بين الامبراطورة الأرملة وابنها.

- ١٨٩٩ – نيكاراغوا: لحماية المصالح الأمريكية في سان خوان دل نورت. من ٢٢ شباط إلى ٥ آذار في بلو نيلدز بعد بضعة أسابيع بشأن تمرد من قبل الجنرال خوان رايس.
- ١٨٩٩ – ساموا – من ١٣ آذار حتى ١٥ أيار: لحماية المصالح الأمريكية والمشاركة في صراع دموي على الخلافة إلى العرش.
- ١٨٩٩ – ١٩٠١ – جزر الفيلبين: لحماية المصالح الأمريكية عقب الحرب مع إسبانيا والسيطرة على الجزر بواسطة إلحاق هزيمة بالفيليبينيين في حربهم من أجل الإستقلال.
- ١٩٠٠ – الصين – من ٢٤ أيار إلى ٢٨ أيلول: لحماية أرواح الأجانب خلال انتفاضة البوكسر، ولاسيما في بكين. على مدى سنوات عديدة بعد هزيمة التجربة وُضع حرس دائم في المفوضية الأمريكية في بكين وجرى تعزيزه مرات عندما كانت تبرز مشاكل. كان لا يزال هناك في عام ,١٩٣٤
- ١٩٠١ – كولومبيا– (دولة بنما) من ٢٠ تشرين الثاني حتى ٤ كانون الأول: لحماية الممتلكات الأمريكية في البرزخ ولإبقاء خطوط العبور مفتوحة خلال اضطرابات ثورية خطيرة.
- ١٩٠٢ – كولومبيا – (دولة بنما) – من ١٧ أيلول حتى ١٨ تشرين الثاني: لوضع حراس مسلحين في جميع القطارات التي تعبر البرزخ ولإبقاء السكة الحديدية مفتوحة.
- ١٩٠٣ – هندوراس – من ٢٣ آذار حتى ٣٠ أو ٣١ آذار: لحماية القنصلية الأمريكية ورصيف البواخر في بويرتو كوريتز خلال فترة النشاط الثوري.
- ١٩٠٣ – سوريّا – من ٧ إلى ١٢ أيلول: لحماية القنصلية الأمريكية في بيروت عندما كان يُخشى قيام إنتفاضة من قبل السكان المسلمين المحليين.
- ١٩٠٣ – ١٩٠٤ – الحبشة: أُرسل خمسة وعشرون جندياً من المارينز إلى الحبشة لحماية القنصل العام الأمريكي خلال تفاوضه حول توقيع معاهدة.

- ١٩٠٣ - ١٩١٤ - بينما: لحماية المصالح الأمريكية وأرواح الأمريكيين خلال وعقب الثورة من أجل استقلال من كولومبيا وبشأن بناء قنال في البرزخ. وُضع جنود المارينز على البرزخ من ٤ تشرين الثاني ١٩٠٣ حتى ٢١ كانون الثاني ١٩١٤ لحراسة المصالح الأمريكية.
- ١٩٠٤ - جمهورية الدومينيكان من ٢ كانون الثاني حتى ١١ شباط: لحماية المصالح الأمريكية في بويرتو بلاتا وفي سوسوا ومدينة سانتو دومينغو خلال قتال ثوري.
- ١٩٠٤ - طنجا - المغرب «نريد إما برديكاريس حياً أو رايسولا ميتاً» مظاهرة قام بها فصيل لتحرير جندي مارينز أمريكي مخطوف ولحماية القنصل الأمريكي العام.
- ١٩٠٤ - بنما من ١٧ تشرين الثاني حتى ٢٤ منه: لحماية أرواح الأمريكيين وممتلكاتهم في أنكون عندما كان هناك خطر تمرد.
- ١٩٠٤ - ١٩٠٥ - كوريا من ٥ كانون الثاني ١٩٠٤ حتى ١١ تشرين الثاني ١٩٠٥ لحماية المفوضية الأمريكية في سيؤول.
- ١٩٠٤ - ١٩٠٥ - كوريا: تم إرسال حرس من المارينز إلى سيؤول لتوفير الحماية خلال الحرب الروسية اليابانية.
- ١٩٠٦ - ١٩٠٩ - كوبا - من أيلول ١٩٠٦ حتى ٢٣ كانون الثاني ١٩٠٩ تدخل لإعادة النظام، وحماية الأجانب، وإقامة حكومة مستقرة عقب نشاط ثوري خطير.
- ١٩٠٧ - هندوراس - من ٨ آذار حتى ٨ حزيران: لحماية المصالح الأمريكية خلال حرب بين هندوراس ونيكاراغوا، وقد رابط الجنود لمدة بضعة أيام أو أسابيع في تروخيلّو، سايبا، بويرتوكورتز، سان بيدرو، لاغونا وشولوما.
- ١٩١٠ - نيكاراغوا - ٢٢ شباط: خلال حرب أهلية للحصول على معلومات عن الأوضاع في كورنتو، ومن ١٩ أيار إلى ٤ أيلول لحماية المصالح الأمريكية في بلوفيلدس.

- ١٩١١ - هندوراس - ٢٦ كانون الثاني ولبضعة أسابيع بعد ذلك: لحماية أرواح الأمريكيين ومصالحهم خلال حرب أهلية في هندوراس.
- ١٩١١ - الصين - الاقتراب من مسارح الثورة الوطنية. قائد وعشرة رجال حاولوا في تشرين الأول دخول ووتشنغ لإنقاذ أعضاء إرساليات ولكنهم انسحبوا بعد توجيه إنذار إليهم بالابتعاد. قامت قوة إنزال صغيرة بحراسة ممتلكات أميركية خاصة والقنصلية الأمريكية في هانكاو في شهر تشرين الأول. وُضع حرس من رجال المارينز خلال شهر تشرين الثاني على محطات اللاسلكي في شنغهاي. أُرسلت قوات إنزال للحماية في نانكين، وشينكيانغ، وتاكو وأماكن أخرى.
- ١٩١٢ - هندوراس - نزلت إلى البر قوة صغيرة للحيلولة دون استيلاء الحكومة على خط سكة حديد يملكه أميركيون في كوبرتو كورتيز. سُحبت القوات بعد أن ألغت الولايات المتحدة الموافقة على العمل.
- ١٩١٢ - بنما- أشرفت قوات على انتخابات جرت خارج منطقة القنال بناء على طلب كلا الحزبين السياسيين.
- ١٩١٢ - كوبا - من ٥ حزيران إلى ٥ آب لحماية المصالح الأمريكية في مقاطعة أوريانتي وفي هافانا.
- ١٩١٢ - الصين - من ٢٤ إلى ٢٦ آب على جزيرة كينتوكي ومن ٢٦ إلى ٣٠ آب في كامب نيكولسون: لحماية الأمريكيين والمصالح الأمريكية خلال نشاط ثوري.
- ١٩١٢ - تركيا - من ١٨ تشرين الثاني حتى ٣ كانون الأول: لحراسة المفوضية الأمريكية في القسطنطينية خلال حرب البلقان.
- ١٩١٢ - ١٩٢٥ نيكاراغوا - من آب إلى تشرين الثاني ١٩١٢ لحماية المصالح الأمريكية خلال محاولة للثورة. بقيت قوة صغيرة تقوم بحراسة المفوضية وتعمل كراهية للسلام والاستقرار الحكومي حتى ٥ آب , ١٩٢٥

- ١٩١٢ - ١٩٤١- الصين: الاضطرابات التي بدأت بتمرد الكومنتانغ في عام ١٩١٢، والذي تغيرت وجهته بواسطة غزو اليابان للصين، انتهت كلياً بواسطة الحرب بين اليابان والولايات المتحدة في عام ١٩٤١، أدت إلى تظاهرات وفرق إنزال على البر لحماية المصالح الأمريكية في الصين بصورة مستمرة وفي نقاط عديدة من عام ١٩١٢ حتى عام ١٩٤١. استمر الحرس في بكين وعلى طول الطريق إلى البحر حتى عام ١٩٤١. كان للولايات المتحدة في عام ١٩٢٧ (٦٧٠٠٥) جندياً على ساحل الصين و٤٤ سفينة من سفن الأسطول في المياه الصينية.. في عام ١٩٣٣ كان للولايات المتحدة ٢٧,٣ رجلاً مسلحاً على شواطىء الصين. أعمال الحماية هذه كلها كانت بموجب أحكام عامة تستند إلى معاهدات مع الصين تراوحت من عام ١٨٥٨ حتى عام ١٩٠١.
- ١٩١٣ - المكسيك - من ٥ إلى ٧ أيلول نزل إلى البر بضعة جنود من المارينز في كلاديس استيرو للمساعدة في إجلاء مواطنين أمريكيين وغيرهم من وادي ياكوي الذي صار خطراً بالنسبة للأجانب بسبب نزاع أهلي.
- ١٩١٤ - هايتي - من ٢٩ كانون الثاني حتى ٩ شباط، ومن ٢٠ إلى ٢١ شباط وفي ١٩ تشرين الأول: لحماية مواطنين أمريكيين في زمن اضطرابات خطر.
- ١٩١٤ - جمهورية الدومينيكان - شهر حزيران وشهر تموز: خلال حركة ثورية، أوقفت قوات الأسطول الأمريكي بقوة نيرانها القصف الذي تعرضت له بويرتو بلاتا، وحافظت بواسطة التهديد باستخدام القوة، على مدينة سانتو دومنغو كمنطقة محايدة.
- ١٩١٤ - ١٩١٧ - المكسيك: الأعمال الحربية غير المعلنة بين المكسيك وأمريكا التي أعقبت قضية دولفين والقارات على فيلا شملت الاستيلاء على فيرا كروز ثم تبعت ذلك حملة برشينغ على شمال المكسيك.
- ١٩١٥ - ١٩٣٤ - هايتي - من ٢٨ تموز ١٩١٣ حتى ١٥ آب ١٩٣٤، للمحافظة على النظام خلال مدة من التمرد المزمن والتهديد به.

- ١٩١٦ – الصين: نزلت قوات أمريكية على البر لإخماد أعمال شغب حدثت في ممتلكات أمريكية في نانكين.
- ١٩١٦ – ١٩٢٤- جمهورية الدومينيكان – من أيار ١٩١٦ حتى أيلول ١٩٢٤: للحفاظ على النظام خلال مدة من التمرد المزمن والتهديد به.
- ١٩١٧ – الصين: نزلت على البر قوات أمريكية في نشونغكين لحماية أرواح الأمريكيين خلال أزمة سياسية.
- ١٩١٧ – ١٩١٨: الحرب العالمية الأولى. أعلنت بالكامل.
- ١٩١٧ – ١٩٢٢ – كوبا: لحماية المصالح الأمريكية خلال تمرد أعقبته أوضاح غير مستقرة. معظم القوات المسلحة الأمريكية غادرت كوبا بحلول شهر آب ١٩١٩، ولكن بقيت مفرزتان في كاماغوي حتى شهر شباط ,١٩٢٢
- ١٩١٨ – ١٩١٩ – المكسيك: بعد انسحاب حملة برشينغ دخلت قواتنا المكسيك لملاحقة رجال عصابات ثلاث مرات على الأقل في عام ١٩١٨ وست مرات في عام ١٩١٩. في شهر آب ١٩١٨ تقاتلت قوات أمريكية ومكسيكية في نوغاليس.
- ١٩١٨ – ١٩٢٠ – بنما: للقيام بمهام الشرطة بموجب أحكام معاهدة، في شيريكوي، خلال اضطرابات صاحبت انتخابات وقلاقل لاحقة.
- ١٩١٨ – ١٩٢٠- روسيا السوفييتية: نزلت قوات مارينز على البر في مدينة فلاديفوستوك وبالقرب منها في شهري حزيران وتموز لحماية القنصلية الأمريكية ونقاط أخرى في القتال الدائر بين الجنود البلشفيك والجيش التشيكي الذي دخل سيبيريا من الجبهة الغربية. جرى إعلان مشترك بحكومة طوارىء وحياد من قبل القادة العسكريين الأمريكي والبريطاني، والياباني، والفرنسي والتشيكي في شهر تموز، وبقي جنودنا حتى أواخر شهر آب.

توسع المشروع في شهر آب. آنذاك جرى إنزال ٧,٠٠٠ رجل إلى البر في فلادفوستوك وظلوا هناك حتى شهر كانون الثاني ١٩٢٠ كجزء من قوات احتلال حليفة.

في شهر أيلول ١٩١٨، انضم ٥,٠٠٠ جندي أمريكي إلى قوة التدخل الحليفة في اركانجيل، ووقعت في صفوفهم ٥٠٠ إصابة، وظلوا هناك حتى حزيران ١٩١٩

شارك عدد قليل من جنود المارينز قبل ذلك في عملية إنزال بريطانية على ساحل مورمان (قرب النروج) ولكن بصورة عابرة.

جميع هذه العمليات أثرت سلبياً على الثورة البلشفية في روسيا وساندتها جزئياً عناصر من قوات القيصر وكيرنسكي. لم تعلن حرب. شاركت معنا عناصر بلشفية مع ذلك ظلت روسيا السوفييتية تطالب بتعويض عن الأضرار.

- ١٩١٩ - دلاسيا: نزلت قوات أمريكيا على البر في تراو بناء على طلب السلطات الإيطالية للإشراف على حفظ النظام بين الإيطاليين والصرب.
- ١٩١٩ - تركيا: قوة مارينز من السفينة الحربية الأمريكية اريزونا نزلت إلى البر لحراسة القنصلية الأمريكية خلال احتلال اليونان لمدينة القسطنطينية.
- ١٩١٩ - هندوراس - من ٨ إلى ١٢ أيلول: نزلت قوة على الشاطىء للمحافظة على النظام في منطقة محايدة خلال محاولة للثورة.
- ١٩٢٠ - الصين - ١٤ آذار - قوة إنزال أرسلت إلى الشاطىء بضع ساعات لحماية الأرواح خلال اضطرابات في كنكيانغ.
- ١٩٢٠ - غواتيمالا - من ٩ إلى ٢٧ نيسان: لحماية المفوضية الأمريكية ومصالح أمريكية أخرى كمحطة البرقيات، خلال فترة من القتال بين الوحدويين وحكومة غوتيمالا.
- ١٩٢٠ - روسيا (سيبيريا) - من ١٦ شباط ١٩٢٠ حتى ١٩ تشرين الثاني ١٩٢٢: حرس من المارينز لحماية محطة الإذاعة الأمريكية وممتلكات أمريكية على جزيرة روسية، خليج فلادفيوستوك.
- ١٩٢١ - بنما كوستاريكا: مفرزة من الأسطول الأمريكي تظاهرت في نيسان على كلا جانبي البرزخ لمنع الحرب بين البلدين بسبب خلاف على الحدود.

- ١٩٢٢ - تركيا - أيلول وتشرين الأول: أرسلت قوة إنزال على الشاطىء بموافقة السلطات اليونانية والتركية، لحماية أرواح وممتلكات الأمريكيين عندما دخل الوطنيون الأتراك أزمير.
- ١٩٢٢ - ١٩٢٣ - الصين: بين نيسان ١٩٢٢ وتشرين الثاني ١٩٢٣ نزل جنود المارينز على البر خمس مرات لحماية الأمريكيين خلال فترات عدم استقرار.
- ١٩٢٤ - هندوراس - من ٢٨ شباط حتى ٣١ آذار، ومن ١٠ إلى ١٥ أيلول لحماية أرواح ومصالح الأمريكيين خلال أعمال قتالية بسبب انتخابات.
- ١٩٢٤ - الصين: نزل جنود من المارينز على البر لحماية أمريكيين وأجانب آخرين في شنغهاي خلال أعمال قتالية بين فئات صينية.
- ١٩٢٥ - الصين - من ١٥ كانون الثاني حتى ٢٩ آب: مقاتلة الفئات الصينية مصحوبة بأعمال شغب ومظاهرات في شنغهاي استلزمت إنزال قوات أمريكية لحماية الأرواح والممتلكات في المستوطنة الدولية.
- ١٩٢٥ - هندوراس - من ١٩ إلى ٢١ نيسان: لحماية الأجانب في لاسيبا خلال انتفاضة سياسية.
- ١٩٢٥ - بنما - من ١٢ إلى ٢٣ تشرين الأول: إضرابات وأعمال شغب بسبب الإيجارات أدت إلى إنزال نحو ٦٠٠ جندي أمريكي على البر لحفظ النظام وحماية المصالح الأمريكية.
- ١٩٢٦ - الصين - آب وأيلول: الهجوم الوطني على هانكاو استلزم نزول قوات من الأسطول الأمريكي على البر لحماية المواطنين الأمريكيين. وضعت قوة حراسة صغيرة في القنصلية العامة الأمريكية وبقيت حتى ما بعد ١٦ أيلول، عندما سحبت بقية القوات. وعلى غرار ذلك، عندما استولت القوات الوطنية على كتكيانغ، أرسلت قوات من البحرية إلى البر لحماية الأجانب من ٤ إلى ٦ تشرين الثاني.

- ١٩٢٦ - ١٩٣٣ - نيكاراغوا - من ٧ أيار إلى ٥ حزيران ١٩٢٦، ومن ٢٧ آب ١٩٢٦ إلى ٣ كانون الثاني ١٩٣٣: الانقلاب الذي قاده الجنرال شامورو أثار أنشطة فورية أدت إلى إنزال جنود من المارينز على البر لحماية مصالح الولايات المتحدة. جاءت القوات الأمريكية وغادرت ولكن بدا أنها لم تغادر البلد نهائياً حتى ٣ كانون الثاني ١٩٣٣. عمل هذه القوات شمل نشاطاً ضد الزعيم ساندينو الخارج على القانون في عام ١٩٢٨.
- ١٩٢٧ - الصين - شباط: تسبب القتال في شنغهاي بزيادة عدد قوات الأسطول الأمريكي والمارينز هناك، في شهر آذار رابطت قوة حراسة من الأسطول في القنصلية الأمريكية في نانكين بعد استيلاء القوات الوطنية على المدينة. بعد ذلك استخدمت مدمرتان أمريكية وبريطانية نيران المدافع لحماية الأمريكيين وغيرهم من الأجانب. «عقب هذا الحادث صدرت أوامر إلى قوات إضافية من المارينز وسفن الأسطول بالتوجه إلى الصين ورابطت في جوار شنغهاي وتيانستين».
- ١٩٣٢ - الصين - نزلت قوات أمريكية إلى البر لحماية المصالح الأمريكية خلال احتلال اليابان لمدينة شنغهاي.
- ١٩٣٣ - كوبا - خلال ثورة ضد الرئيس جيراردو ماشادو تظاهرت قوات بحرية ولكن لم يحدث إنزال على البر.
- ١٩٣٤ - الصين - نزلت قوات من المارينز في فوتشاو لحماية القنصلية الأمريكية.
- ١٩٤٠ - نيوفاندلاند، برمودا، سانت لوسيا، الباهاما، جمايكا، انتيغوا وترينيداد غويانا البريطانية: أرسلت قوات لحراسة القواعد الجوية والبحرية التي تم الحصول عليها من خلال مفاوضات مع بريطانيا العظمى. هذه القواعد كانت تسمى أحياناً قوات مستأجرة.
- ١٩٤١ - غرينلاند- وضعت تحت حماية الولايات المتحدة في نيسان.
- ١٩٤١ - هولندة (غيانا الهولندية): أمر الرئيس الأمريكي في شهر تشرين الثاني قوات أمريكية باحتلال غيانا الهولندية، ولكن بموجب اتفاقية مع الحكومة

الهولندية في المنفى، تعاونت البرازيل في حماية خام الألمنيوم الوارد من مناجم البوكسايت في سورينام.

- ١٩٤١ - ايسلندة - وضعت تحت حماية الولايات المتحدة بموافقة حكومتها، لأسباب استراتيجية.
- ١٩٤١ - ألمانيا - في وقت ما من فصل الربيع أمر الرئيس الأمريكي الأسطول القيام بأعمال الدورية في طرق الملاحة البحرية إلى أوروبا. مع حلول شهر تموز كانت السفن الحربية الأمريكية تقوم بالمرافقة ومع حلول شهر أيلول كانت تهاجم الغواصات الألمانية. لم يكن لهذه الأعمال تفويض من الكونغرس ولم يكن هناك إعلان حرب. في شهر تشرين الثاني جرى إلغاء جزئي لقانون الحياد لحماية المساعدة المقدمة إلى بريطانيا وروسيا الخ.
- ١٩٤١ - ١٩٤٥: ألمانيا، وإيطاليا واليابان الخ. الحرب العالمية الثانية أعلنت نهائياً.

الملحق رقم ٣:

مؤامرات دبرتها الحكومة الأمريكية لأعمال اغتيال

- بتاريخ ٢٦ حزيران، ١٩٩٣ شنت الولايات المتحدة هجوماً بالطائرات على العراق انتقاماً من مؤامرة عراقية مزعومة لاغتيال الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش. قال الرئيس كلينتون «أن الهجوم كان أساسياً لتوجيه رسالة إلى الذين ينخرطون في إرهاب الدولة.. ولتأكيد توقع سلوك حضاري بين الأمم».

فيما يلي قائمة بأسماء أفراد أجانب تورطت الولايات المتحدة في اغتيالهم (أو خططت لاغتيالهم) منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. هذه القائمة لا تشمل أعمال اغتيال عديدة في أنحاء مختلفة من العالم نفذها كوبيون معادون لكاسترو كانت تستخدمهم وكالة المخابرات المركزية ومقرهم الرئيسي في الولايات المتحدة.

- ١٩٤٩ - كيم كو، زعيم المعارضة الكوري.
- في الخمسينيات أعدت وكالة المخابرات المركزية والنازيون الجدد قائمة تتضمن أسماء أكثر من مئتي شخصية سياسية في ألمانيا الغربية «لإزاحتهم من الطريق» في حالة حدوث غزو سوفيتي.
- في الخمسينيات جرت عدة محاولات لاغتيال تشو انلاي، رئيس وزراء الصين.
- ١٩٥٠ - ١٩٦٢- سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا.
- ١٩٥١ - كيم ايل سونغ رئيس وزراء كوريا الشمالية.
- ١٩٥٣ - محمد مصدق، رئيس وزراء إيران.
- ١٩٥٥ - كلارو ركتو زعيم المعارضة في الفلبين.

- ١٩٥٥ - جواهر لال نهرو، رئيس وزراء الهند.
- ١٩٥٧ - جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر.
- ١٩٥٩/ ٦٩/٦٣ - نورودم سيهانوك، زعيم كمبوديا.
- ١٩٦٠ - اللواء عبد الكريم قاسم الزعيم العراقي.
- الخمسينيات والسبعينيات من القرن العشرين - خوسيه فيغرس، رئيس جمهورية كوستاريكا، جرت محاولتان لاغتياله.
- ١٩٦١ - فرانسوا «باباروك» دوفاليه، زعيم هايتي.
- ١٩٦١ - باتيرس لوموبا رئيس وزراء الكونغو.
- ١٩٦١ - الجنرال رافائيل تروخيلو، زعيم جمهورية الدومنيكان.
- ١٩٦٣ - نغو دينه ديم، رئيس جمهورية فيتنام الجنوبية.
- من الستينيات إلى التسعينيات من القرن العشرين - فيدل كاسترو، رئيس جمهورية كوبا، عدة محاولات ومؤامرات لاغتياله.
- الستينيات من القرن العشرين - راؤول كاسترو، مسؤول عالي المستوى في حكومة كوبا.
- ١٩٦٥ - فرانسيسكو كامانهو، زعيم المعارضة في جمهورية الدومينيكان.
- ٦٦/١٩٦٥ - شارل ديغول رئيس جمهورية فرنسا.
- ١٩٦٧ - تشي جيفارا.
- ١٩٧٠ - الجنرال رينيه شنايدر القائد الأعلى للجيش في تشيلي.
- ١٩٧٠ - سيلفادور الليندي رئيس جمهورية تشيلي.
- السبعينيات من القرن العشرين، ١٩٨١ - الجنرال عمر توريخوس زعيم بنما.
- ١٩٧٢ - الجنرال مانويل نموريغا، رئيس المخابرات في بنما.

- ١٩٧٥ – موبوتو سيسي سيكو رئيس جمهورية زائير.
- ١٩٧٦ – مايكل مانلي، رئيس وزراء جمايكا.
- ١٩٨٠/١٩٨٦ – معمر القذافي الزعيم الليبي، عدة محاولات ومؤامرات لاغتياله.
- ١٩٨٢ – آية الله خميني، الزعيم الإيراني.
- ١٩٨٣ – الجنرال أحمد دليمي قائد الجيش المغربي.
- ١٩٨٣ – ميغيل ديسكوتو، وزير خارجية نيكاراغوا.
- ١٩٨٤ – القيادات التسعة للمديرية الوطنية في نيكاراغوا.
- ١٩٨٥ – الشيخ محمد حسين فضل الله، الزعيم الشيعي اللبناني.
- ١٩٩١ – صدام حسين، الزعيم العراقي.
- ١٩٩٨، ٢٠٠١، ٢٠٠٢ – أسامة بن لادن الزعيم الإسلامي.
- ١٩٩٩ – سلوبودان ميلوسيفيتش، رئيس جمهورية يوغوسلافيا.
- ٢٠٠٢ – قلب الدين حكمتيار، الزعيم الإسلامي الأفغاني وحليف الولايات المتحدة السابق.
- ٢٠٠٣ – صدام حسين وأفراد عائلته.

، الكتاب الأكثر مبيعاً (الدولة المارقة) يعطينا الآن حديثاً مستفيضاً ...

أ ... م من الصين عام ١٩٤٠م حتى غزو العراق عام ٢٠٠٣م. هل تسعى الـ ...
فعلاً لدفع قوة الديمقراطية في العالم؟ نجد في هذا الكتاب حديثًا مستفيضاً عن هذا الموضوع، حتى الآن هذا أفضل كتاب يتناول هذا الموضوع.

نعوم تشومسكي

يعد هذا الكتاب مرجعاً هاماً لمن يريد الاطلاع على سلوك الولايات المتحدة وسياستها الخارجية.

جويس - جمعية المكتبات الأمريكية

وجدت متعة عارمة في الاطلاع على هذا الكتاب.

غور فيدال

أكثر كتاب جامع ومفيد عن تاريخ المخابرات المركزية.

جون استوكويل - ضابط سابق في المخابرات المركزية ومؤلف

كلما أقرأ فصلاً في هذا الكتاب أزداد غضباً على غضب.

هيلين كالديكوت

كتاب هام و مفيد جداً في مجاله لكنه مروع ومخيف.

توماس بورس - مؤلف - وصحفي حائز على جائزة بوليتزار

كتاب قيم جداً. يمتاز بقوة مؤثرة جداً في التنظيم والبحث.

أ.ج. لانقوس، مؤلف ومدير مؤسسة نيويورك تايمز سابقاً

لقد تأثرت فعلاً، إنه إضافة قيمة للمكتبة.

رمزي كلارك - النائب العام للولايات المتحدة سابقاً

قدم السيد بلوم خدمة جليلة، حيث إنه جمع كل هذه المعلومات في سفر واحد، أما توثيقه للمعلومات فهو يستحق الإعجاب والتقدير.

تريزا بلتون- نائبة مدير التحرير - الأمن الدولي، جامعة هارفارد

لا شك أنه جهد مضنٍ أن يقوم مؤلف بجمع كل هذه الأشتات المتناثرة من عدة مصادر.

فيليب أقي - ضابط سابق في المخابرات المركزية ومؤلف

لقد اشتريت عدة نسخ من هذا الكتاب لكي أوزعها على أصدقائي لكي أضيف لمعلوماتهم ومفاهيمهم السياسية أضواء جديدة.

أوليفر أستون - مخرج أفلام

ISBN:2-780-40-9660

6281125010172

موضوع الكتاب: الولايات المتحدة - العلاقات الخارجية
موقعنا على الانترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com